هنينغ مانكل

الكلاب في ريغا

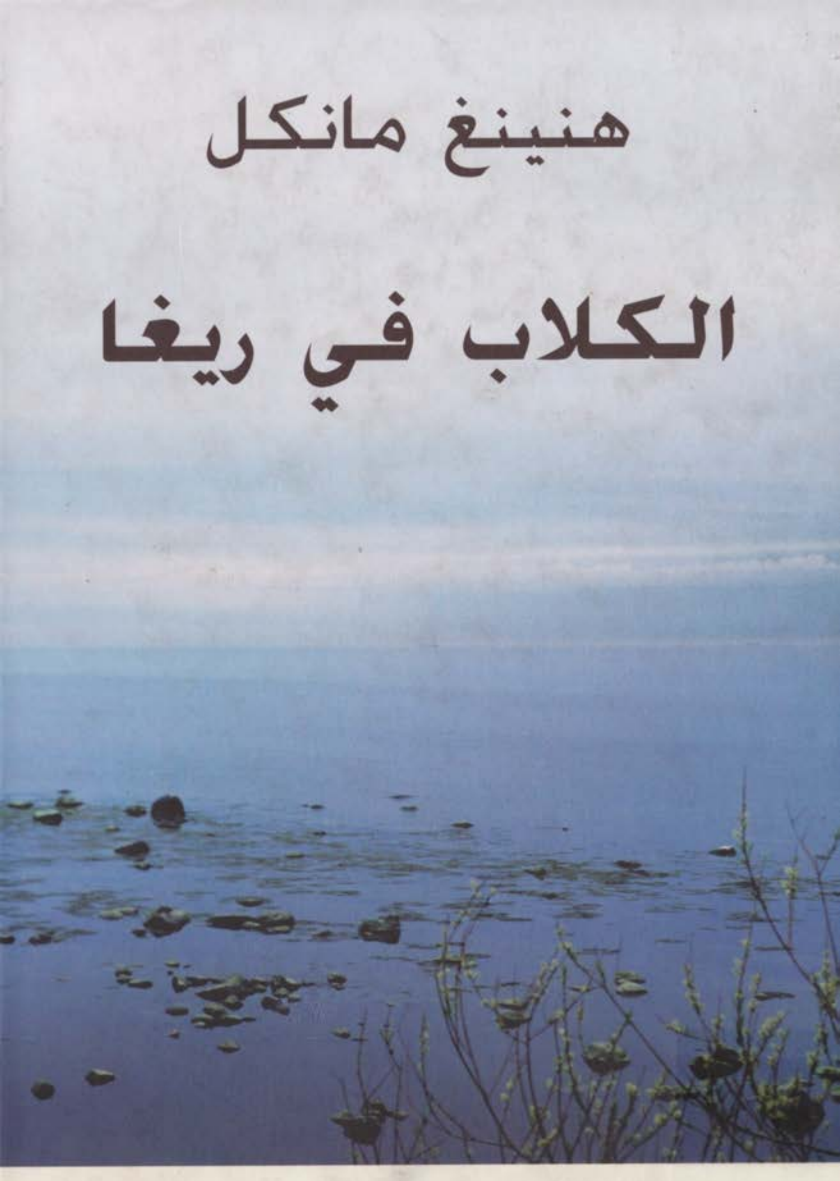

دار المنى

مكتبة ٣٢٥

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

هنينغ مانكل

الكلاب في ريغا

النص العربي: مهدي صالح المالكي

مكتبة 325

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

دار المنى

مكتبة

التعريف بالكاتب:

هنينغ مانكل كاتب وروائي سويدي ولد في ستوكهولم عام ١٩٤٨، اشتُهر برواياته البوليسية المتنوعة التي تعتمد في أغلبها على شخصية (المفتش كورت فالاندر)، كما أنه كتب العديد من الدراما الممتعة، والمؤلف معروف عالمياً مخرجاً سينمائياً أيضاً. وهو يقضي حياته متنقلاً بين السويد وموزمبيق في أفريقيا.

أغلب رواياته البوليسية نالت جوائز متعددة في السويد وألمانيا، كما حُوّل الكثير منها إلى أفلام سينمائية. وقد ترجمت معظم كتب مانكل إلى حوالي ٢٦ لغة عالمية.

مكتبة | 325

مكتبة ٢٠١٨١٢٩

ISBN 978 91 85365 68 5

Arabic edition © Dar Al-Muna Stockholm 2009
Copyright © Henning Mankell 1992
Original title in Swedish:Hundarna i Riga
Published by agreement with Leopard förlag, Stockholm
and Leonhardt & Höier Literary Agency A/S, Copenhagen

Cover: Niklas Lindblad, Mystical Garden Design

Arabic text: Mehdi Al Maliki
Arabic text © Dar Al-Muna

www.daralmuna.com

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم غير مسؤولة عن آراء وأفكار المؤلف،
وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة
أن تعبر عن آراء المؤسسة.

مكتبة

مکتبه

١

بعد الساعة العاشرة صباحاً بقليل بدأ هطول الثلج.

راح الرحل في مقصورة قيادة قارب صيد السمك َيلعَن بعد سماعه النشرة الجوية السويدية، لقد تمنى لو أنهم أعلنوها قبل أن تضرب العاصفة. ولولا تأخره ليلة أمس في مدينة هيدنسة لأمكنه الآن رؤية مدينة إيستاد عن بُعد، وبالتالي لأدار وجهة سيره بضع درجات نحو الشرق. لكنه الآن ما يزال أمامه مسافة سبع دقائق بحرية، وإذا أخذت الثلوج تهطل بغزارة،حينها سيكون مُضطراً لخفض سرعته والانتظار حتى تتحسن الرؤية.

راح يلعن مرة أخرى، وفكر «ليس مجدياً أن تكون بخيلاً.. كان يجدر بي أن أفعلَ ما فكرتُ فيه مُسبقاً الخريفَ الماضي، بأن أشتري جهاز رادار جديداً، فجهاز (الديكا) القديم الذي لدي لم يعد يصلح، كان عليّ أن أقتني واحداً من تلك النوعيات الأميركية الجديدة... لكنني بخَلتُ جداً. إنني كذلك لم أثق بالألمان الشرقيين, لقد خشيت أن يغشوني».

لقد وجد صعوبة في استيعاب أنه لم يعد هناك بلد اسمه ألمانيا الشرقية، وأن دولة قومية كاملة لم يعد لها وجود. فبين عشية وضحاها نظّفَ التاريخ حدودها القديمة، الآن لم يعد هناك سوى ألمانيا، ولا أحد عرف في الواقع ماذا كان سيحصل عندما حاول الشعبان الألمانيان السابقان العمل معاً. في البداية عندما انهار جدار برلين لم يشعر بالارتياح. هل هذه التغيرات الهائلة تعني أن البساط سيُسحب من تحت قدميه؟ لكن شركاءه من الألمان الشرقيين طمأنوه بعدم حصول أي تغيير في المستقبل المنظور، بل في الواقع ربما سيخلق هذا التحول فرصاً جديدة.

مكسه

راح الثلجِ يهطل بشكل أكثف وبدأت الريح تهب باتجاه الجنوب الغربي. أشعل الرجل سيجارته، وصب لنفسه قهوة في الكوب الموضوع في الحمالة الخاصة بجانب البوصلة. الحرارة المرتفعة في غرفة القيادة جعلته يتعرّق ورائحة وقود الديزل كانت تصعد إلى أنفه. ألقى نظرة على غرفة المحرك فأمكنه رؤية إحدى قدمي ياكوبسون على السرير الضيق في الأسفل هناك، وقد برزت الأصبع الكبيرة لقدمه من خلال ثقب في جوربه. وفكر في أن يتركه نائماً مدة أطول، فذلك سيسمح له هو أيضاً أن يستريح بضع ساعات، حينما يأتي دور ياكوبسون في قيادة القارب. أخذ رشفة من قهوته التي أصبحت فاترة، وفكر فيما قد حصل الليلة السابقة.

لقد أُجبر على الانتظار ما يزيد على خمس ساعات في ذلك الميناء الصغير المتهالك الواقع غرب مدينة هيدنسة قبل أن تظهر الشاحنة مقرقعة في الظلام لتحمل البضاعة، فيبر أصر أن عطل الشاحنة هو سبب التأخير. وبصورة أو بأخرى بدا هذا الادعاء صحيحاً، لأنها كانت عبارة عن مركبة عسكرية سوفيتية قديمة مرمّمة أذهله أنها كانت ما تزال تعمل.

ها هو مرة أخرى لا يثق بفيبر، على الرغم من أنه لم يسبق مطلقاً أن خدعه من قبل. فهو كان قد اتخذ قرارا مرة وإلى الأبد أنه ليس أهلاً للثقة, لقد كان هذا منه إجراء احترازياً. على كل حال, هذه البضائع التي كان يحملها إلى الألمان الشرقيين تحقق له أرباحاً مجدية. في كل مرة يحمل إليهم ما بين عشرين إلى ثلاثين جهاز حاسوب، وحوالي مائة جهاز هاتف محمول، بالإضافة إلى العديد من مسجلات السيارات وهي بضائع تبلغ قيمتها مليون كرون سويدي، إذا قبض عليه فإنه لن يكون قادراً على تجنب حكم طويل بالسجن، ولا على التعويل قيد أنملة على أي مساعدة من فيبر، كان يعي تماماً أنه يعيش في عالم يفكر فيه الناس في أنفسهم فقط.

مكتبة

غيَّر الرجل اتجاه السير ضابطاً البوصلة على درجتين باتجاه الشمال، أما مؤشر السرعة فكان يشير إلى ثماني عقد. ما يزال أمامه مسافة ست دقائق بحرية ونصف حتى تلوح له الشواطئ السويدية، فيتمكن من رؤيتها، حينها سيوجه الدفة نحو ميناء برانتفيك. أما الآن فهو لا يرى سوى أمواج البحر الرمادية المزرقة، والثلج الهاطل بكثافة.

فكر الرجل مع نفسه « أمامي خمس رحلات وسأتوقف بعدها، فحينئذ أكون قد وفّرتُ المبلغ اللازم للانطلاق». ثم أشعَل سيجارة جديدة، وابتسم كعادته عندما يعتقد أنه يقترب من هدفه.. سوف يترك كل شيء خلفه ويسافر إلى مدينة بورتو سانتوس ليفتتح باراً هناك، حينها سيتخلص من الوقوف في البرد داخل مقصورة القيادة ومن شخير ياكوبسون النائم على السرير الخشبي الضيق في غرفة المحركات القذرة. إنه لا يستطيع معرفة ماذا ستحمل له حياته القادمة من معانٍ، لكنه مع ذلك متلهف للتمتع بها.

وبشكل مفاجئ توقف هطول الثلج بالسرعة نفسها التي بدأ بها. في البداية لم يُصدق، لكنه أدرك أن تحول نزول الثلج إلى ندف خفيف يعني أن العاصفة الثلجية ربما زحفت نحو الدانمارك. صب لنفسه قهوة إضافية وبدأ يَصفُر فرِحاً. نظر إلى حقيبة النقود المعلقة على الجدار، وخاطب نفسه: «ثلاثون ألف كرون فقط ستقربني من بورتو سانتوس تلك الجزيرة الصغيرة الواقعة خارج ماداريا. إنها جنتي المنتظرة!».

كان على وشك أن يرتشف قهوته عندما رأى طوافة إنقاذ مطاطية تتمايل أمامه بين الأمواج وعلى مسافة خمسين متراً فقط. مَسَح بكُمّ قميصه الضباب المُتجمع على زجاج المقصورة. وخمّن أن هذه الطوافة سقطت من إحدى البواخر. أدار مِقوَد القارب وخفّض السرعة. استيقظ ياكوبسون على التغيير المفاجئ في صوت المحرك. ورفع وجهه من داخل غرفة المحركات وصاحَ متسائلاً:

مكتبة

«هل وصلنا؟»

«توجد طوافة إنقاذ متروكة في عرض البحر،» أجابه هولمكرين الواقف خلف مقود القارب. «قد نستطيع أخذها. فقيمتها تعادل ألف كرون أو ألفين. تعال وقِف مكاني... سأرمي الحبل والخطاف لسحبها.»

أسرع ياكوبسون إلى عجلة القيادة بينما خرج هولمكرين من المقصورة بعد أن ارتدى قبعته وغطى أذنيه، الرياح لسعت وجهه فتشبث بحافة القارب. أخذت الطوافة تقترب ببطء. بدأ يفك خطاف القارب الذي كان ملتصقاً بأحد جوانب مقصورة القيادة. تجمدت أصابعه وهو يصارع محاولاً الإمساك به, وفي نهاية المطاف تمكن من تحريره وإعادته إلى الماء. الطوافة كانت فقط على بعد بضعة أمتار من القارب، أدرك غلطته.. كان فيها شخصان..شخصان ميتان!

صاح ياكوبسون بشيء غير مفهوم من مقصورة القيادة؛ هو أيضاً شاهد ما كان موجوداً في الطوافة.

هذه لم تكن المرة الأولى التي يرى فيها هولمكرين جثث أموات.

ففي إحدى المناورات أثناء خدمته العسكرية عندما كان شاباً سقطت قذيفة على موقعهم فقطعت أوصال أربعة من زملائه، لاحقاً خلال عمله لسنوات طويلة كصياد أسماك محترف شاهد العديد من جثث الموتى تتقاذفها الأمواج إلى الساحل أو طافية على سطح الماء.

فكر هولمكرين في الحال: «الرجلان يرتديان ملابس غريبة، فهي ليست ملابس بحارة، ولا ملابس صيادي أسماك! انهما يرتديان ملابس مدنية... بدلات أنيقة، ربطات عنق، أحذية غالية، وكانا مُلقيين فوق بعضهما بعضاً وكأن أحدهما حاول حِماية الآخر من خطر مُحتّم. فَمَن يا ترى يكون هذان الرجلان؟»

جاء ياكوبسون من مقصورة القيادة ووقف بجانب هولمكرين وقال:

مكسه

«اللعنة... ماذا سنفعل؟»

فكر هولمكرين قليلاً.

«لا شيء» قال، «إذا أخذناهما معنا على متن القارب فسوف نُعرِّض نفسَينا إلى مساءلة السلطات، لذا فالأمر ببساطة هو أننا لم نَرَ شيئاً، لأن الثلج كان يهطل بغزارة.

«إذن سنتركهما على حالهما، يسوقهما الموج؟» تساءل ياكوبسون:

«نعم.» قال هولمكرين. «ثم إنهما ميتان، وليس باستطاعتنا عمل أي شيء لمساعدتهما. كما أني لا أريد أن أُدلي بأي معلومة من شأنها أن تكشف الطريق الذي يسلكه قاربنا. أليس كذلك؟!»

هز ياكوبسون رأسه موافقاً، ثم تأمل كل من هولمكرين وياكوبسون الجثتين. فخَمّنَ هولمكرين أنهما تجاوزا الثلاثين بقليل. ارتجف هولمكرين من مشهد الجثتين بوجهيهما البيضويين!

«غريب لا يوجد اسم على الطوافة»، قال ياكوبسون. «ولا أحد يعرف من أيّ باخرة سقطت.»

أخذ هولمكرين خطاف القارب وراح يتفحص الطوافة من جهاتها الأربع مُدركاً أن ياكوبسون كان محقاً في ملاحظته؛ فالطوافة خالية من أي اسم.

«اللعنة.. من يكونان؟» تمتم في نفسه متسائلاً. «وكم مضى عليهما في هذه الطوافة؟»

« كم المسافة إلى مدينة إيستاد؟» سأل ياكوبسون.

«قرابة ست دقائق بحرية.» أجاب هولمكرين.

«حسناً، بإمكاننا سحب الطوافة الى مكن أقرب من الشاطئ،» قال ياكبسون. «كي نُسَهّل اندفاعها إلى مكان ما على الساحل، وهناك سيُعثَر عليهما.»

مكسه

فكر هولمكرين في الأمر مرة ثانية. وقال في نفسه: «إن تركهما في البحر أمر مُقرف سيبقيني تحت مِطرقة تأنيب الضمير، ولكن في الوقت نفسه هناك مخاطر في سحب الطوافة».

ثم قرر بسرعة فأرخى الحبل الغليظ وتقدم نحو مقدمة القارب وألقى بالحبل على الطوافة. حوّل ياكوبسون اتجاه السير نحو مدينة إيستاد بينما شدّ هولمكرين الحبل فأخذت الطوافة تسير خلف القارب بعدة أمتار. وعندما تبيّن لهما الساحل السويدي عند خط الأفق، قطع هولمكرين الحبل الذي يربط الطوافة بالقارب، ثم غير ياكوبسون الاتجاه نحو الشرق باتجاه إيستاد. وبعد عدة ساعات دخل قارب الصيد ميناء برانتفك. وهناك تسلم ياكوبسون أجرته، مبلغ خمسة آلاف كرون وقاد سيارته الفولفو باتجاه بيته في منطقة سفارتا. أما هولمكرين فقد أقفل غرفة القيادة وغطى فتحة التحميل بالقماش المُشَمّع. كان الميناء مقفراً، لذا أدّى هولمكرين عمله بشكل بطيء ونظامي. بعدها حمل حقيبة النقود وتوجه إلى سيارته الفورد القديمة.

عادة بعد كل رحلة يطلق هولمكرين العنان لنفسه ليحلم ببورتو سانتوس، لكن في هذا اليوم ظلت طوافة الإنقاذ الحمراء فقط تتراءى أمام عينيه.

فتساءل في نفسه: «في أي مكان سترسو في نهاية المطاف..التيارات في تلك المنطقة كانت غير منتظمة, والرياح عصفت وغيرت اتجاهها باستمرار؟ الطوافة يمكن أن ترسو في أي مكان على طول الساحل.» مع ذلك فكر أنه سينتهي بها الأمر في مكان غير بعيد عن إيستاد. هذا إذا لم يكن قد اكتشفتها الآن إحدى العبّارات الذاهبة أو القادمة من بولندا.

كان الظلام قد بدأ يحل وهو يقود سيارته في مدينة إيستاد. وفكر أثناء توقفه على الإشارة الحمراء عند تقاطع فندق كونتيننتل أنه كان ثمة شيء غير طبيعي في الطوافة الحمراء! شيء رآه من دون أن يسترعي

مكسه

انتباهه جيداً. بمجرد أن تغيرت الإشارة الضوئية إلى اللون الأخضر أدرك ما هو: «الرجلان لم ينتهَ بهما المطاف في الطوافة نتيجة غرق سفينة».
لم يتمكن من إثبات نظريته, لكنه كان متأكداً أنهما كانا أصلاً ميتين قبل ينتهيا في تلك الطوافة.

وبشكل عفوي انحرف هولمكرين نحو اليمين وأوقف السيارة عند مقصورة الهاتف المقابلة لأحد محلات بيع الكتب وسط الساحة. راجع مع نفسه ما سيقوله بالضبط. ثم ضرب الأرقام ٩٩٩ وطلب الشرطة. وبينما هو ينتظر من يجيبه... أخذ يراقب عبر زجاج المقصورة المتسخ الثلج الذي بدأ بالتساقط من جديد. كان ذلك في يوم ١٢ شباط عام ١٩٩١.

مكسه

٢

جلس كورت فالاندر، المفتش الأول للجرائم بمكتبه في مركز شرطة مدينة إيستاد وراح يتثاءب، وتثاءب بشكل أقوى حتى أن عضلة الحنك تشنجت مسببة له ألماً شديداً، فأخذَ يضرب بيده اليمنى أسفل حنكه ليحل هذا التشنج. في اللحظة نفسها دخل مارتنسون الشرطي الشاب الغرفة، وتوقف مندهشاً لدى رؤية المفتش فالاندر منشغلاً بمعالجة عضلته المتشنجة، التفت مفكراً بالعودة، لكنه سمع فالاندر يقول له:

«ادخل. هل سبق أن تثاءبت حتى تكوّنت عقدة تحت حنكك؟»

هز مارتنسون رأسه بالنفي.

«كلا.» أجاب مارتنسون. «هل لي أن أعرف بماذا أنتَ مشغول الآن؟»

«ماذا تريد؟» أجاب فالاندر.

جلس مارتنسون على الكرسي المقابل. كان بيده دفتر ملاحظات وبدا مُتضايقاً من شيء ما! ثم قال:

«تلقينا قبل دقائق مكالمة غريبة. أعتقد أنه من الضروري مناقشة أمرها معك.»

«كل يوم تأتينا مكالمات غريبة.» أجاب فالاندر متعجباً من استشارته في الأمر.

«لا أدري كيف أوضح لك!» أردف مارتنسون. «المكالمة جاءت من مقصورة هاتف عمومي. ادعى فيها المتحدث أنه ستظهر في مكان ما على الساحل طوافة بداخلها رجلان ميتان. لم يذكر المتحدث اسمه، ولا أية معلومات عن الجثتين. بعدها أغلق السماعة.»

«هل هذا كل شيء؟ سأل فالاندر مستغرباً. «من تلقى المكالمة؟»

مكسه

«أنا،» أجاب مارتنسون. «والمتحدث قال ما سمعتَه مني الآن بالضبط، وبطريقة بدا وكأنه متأكد ومقتنع بما يقول!»

«وكيف كان مقتنعاً؟» سأله فالاندر.

«المرء يبني خبرته مع الزمن،» أجاب مارتنسون بشكل متردد، «فأحياناً نسمع أشياء نُصنّفها في الحال بأنها غير جدية، لكن هذا الرجل كان حاسماً ويعني ما يقول.»

ردّد فالاندر ما سمعه من مارتنسون، كأنه يحدّث نفسه.

«رجلان ميتان في طوافة ستسوقها الأمواج إلى الساحل! إنه شيء غريب.»

هز مارتنسون رأسه.

أدار فالاندر وجهه للخلف بعد أن لف كرسيه الدوار ليُخفي تثاؤبه. ثم سأل مارتنسون:

«هل وصلنا تقرير عن حصول حوادث بحرية؟»

«لم يصل شيء.» أجاب مارتنسون.

«حسناً، اترك الموضوع لدوريات المراقبة الموجودة على طول الساحل. وناقِش الأمر مع قسم النجدة البحرية. فلا يُمكننا بأي حال البحث عن الطوافة بناءً على مكالمة هاتفية من شخص مجهول. علينا أن ننتظر لنرى.»

هزّ مارتنسون رأسه ونهض قائلاً:

– أوافقك. علينا الانتظار.

ثم أشار فالاندر إلى النافذة، وقال محاولاً تغيير الموضوع:

«الليلة.. سيهطل المزيد من الثلج.»

«في كل الأحوال سأذهب إلى البيت.» رد مارتنسون. ثم نظر إلى ساعته وأردف، «سواء نزل الثلج أم لم ينزل.»

خرج مارتنسون تاركاً فالاندر يتمطى على كرسيه شاعراً بالإنهاك

مكسه

لأنه لم يَنَم بشكل طبيعي لليلتين متتاليتين، إذ اضطُر إلى قطع نومه للقيام بمطاردات ومداهمـــات لم يتمكن من تأجليها حتى الصباح.

ففي الليلة الأولى قام بمطاردة شخص مُتهم بعملية اغتصاب، وكان مُختفياً في أحد البيوت الصيفية المهجورة في منطقة ساندسكوكن.

وكانت المعلومات المتوافرة لدى الشرطة حول الرجل تقول إنه مسلح ومُتعاط جرعة قوية من المخدرات، لذلك اضطرت الشرطة لمحاصرته ومراقبته عن بعد طوال الليل إلى أن سَلّمَ نفسه في الساعة الخامسة صباحاً.

أما في الليلة التالية فقد استيقظ من نومه إثر جريمة قتل غير مُتعمّد في مركز المدينة. ففي حفلة عيد ميلاد لأحد الأطفال نشبت مشاجرة أصيب فيها رجل في الأربعين من العمر بطعنات سكين حادة في أحد صدغيه سببت موته.

نهض فالاندر من كرسيه، وارتدى سترته الشتوية وفكر مع نفسه: «يجب أن آخذَ قسطاً من النوم الآن، وليتولّ شخص آخر غيري الأمور خلال هذه العاصفة الثلجية».

ثم نهض من كرسيه وهمّ بالخروج من مركز الشرطة، وبمجرد خروجه إلى الشارع اضطر إلى الانحناء ليخفي وجهه أمام الهواء القارس الذي نَفحه. ثم فتح باب سيارته البيجو وجلس خلف المقود وراح يتطلع إلى الخارج عبر زجاج السيارة فشعر وكأنه يجلس في غرفة دافئة ومريحة وسط الثلج الذي غطى كل شيء. أدار المحرك ووضع شريط موسيقى في المسجل، وأغمض عينيه قليلاً. فتذكّر في الحال صديقه الحميم، الرجل المخلص ريدبري، إذ لم يمضِ شهر واحد على وفاته بمرض السرطان.

قبلَ عام عرف فالاندر بإصابة صديقه، وتحديداً عندما عَملا معاً في التحقيق بالجريمة العنيفة التي تعرض لها زوجان عجوزان في منطقة لينارب، وفي الأشهر الأخيرة من حياة ريدبري ساءت حالته الصحية

مكسه

حتى أن الكل أدرك أن هذه هي نهايته الحتميّة. حينها حاول فالاندر أن يتخيل الوضع في مركز شرطة إيستاد وكيف ستسير الأمور في حالة عدم وجود ريدبري، أو كيف ستسير الأمور معه شخصياً بدون صديقه القديم ريدبري ذي الخبرة الواسعة والمَلَكة القوية في تقييم الأمور والصدق في تقديم الاستشارات. لكنه لم يُحبِذ حينها أن يجد أجوبة لهذه التساؤلات. فهو لم يواجه أي جريمة صعبة خلال إجازة ريدبري المرضية.

في النهاية مات ريدبري مسبباً ألماً لم يمت!

أخيراً شغّلَ فالاندر المسّاحات وضغط على دواسة البترين. بدت المدينة كأنها مهجورة. وكأن الناس هيأوا أنفسهم لمواجهة ظروف الحصار التي فرضتها العاصفة الثلجية.

توقّفَ عند محطة الوقود في منطقة أوسترليدن، واشترى جريدة مسائية، واصل الطريق إلى شقته في شارع ماريا. سوف يستحم ثم يعد لنفسه الطعام قبل أن يتصل كالمعتاد هاتفياً بأبيه الذي يسكن في بيت صغير خارج منطقة لودَروب.

فبعد تلك الحادثة التي وقعت لوالده العام الماضي، عندما خرج في ظروف غامضة أثناء الليل وفي البرد القارس مُرتدياً بيجامة نوم خفيفة، قرر فالاندر أن يتصل هاتفياً بأبيه كل يوم مُعتبراً هذه المكالمة مهمة لإرضاء أبيه المحتاج إلى من يسأل عنه، رغم تخصيص مساعد شخصي يزوره كل يوم في البيت ويخدمه بشكل جيد. كما أن هذه المكالمة تُخفف أيضاً من شعوره بالذنب تجاه والده.

استحم فالاندر وأعد لنفسه طبق (أومليت)، ثم اتصل بأبيه، وقبل أن يُنزل ستائر نافذة غرفة نومه نظر إلى الشارع الفارغ، فشاهد عمود الإنارة وحيداً يتمايل في الريح، والثلج يتساقط حوله بوفرة، ولمح المحرار الخارجي يشير إلى ثلاث درجات مئوية تحت الصفر. وخمن أن العاصفة

مكسه

ربما تكون قد انسحبت باتجاه الجنوب. أنزل ستائر الغرفة، واندس تحت البطانية.

استيقظ في اليوم التالي نشيطاً. قبل الساعة السابعة والربع صباحاً كان في مكتبه بمركز الشرطة. تصفح سجل خفارة ليلة أمس. كانت هادئة و لم يحصل فيها شيء سوى بعض حوادث المرور.

في صالة الطعام وجد رجال شرطة المرور مُتعبين من واجبات ليلة أمس يجلسون حول طاولاتهم يرتشفون القهوة. تقدّم فالاندر وصبّ لنفسه كوباً من القهوة وجلس على أحد الكراسي مُتذكّراً ما خططه عندما استيقظ هذا الصباح، فقد قرّر أن يُنهي ما تحت يده من قضايا معلّقة، مثل المشاجرة العنيفة التي حصلت بين مجموعة من البولونيين، لكن القضية لا يوجد فيها شهود يوثق بهم ولا إفادات متطابقة، ومع ذلك يجب على الأقل كتابة تقرير بها.

في الساعة العاشرة والنصف أكمل فالاندر آخر تقرير، وقام ليجلب كوباً آخر من القهوة. عند عودته رنّ جرس الهاتف في غرفته، فسارع إلى رفع السماعة.

كان المتحدث هو مارتنسون.

«هل تتذكر الطوافة؟» سأله مارتنسون.

بينما أخذ فالاندر يُقلّب ذاكرته، استمر مارتنسون بالحديث:

«الرجل الذي اتصل هاتفياً مساء أمس كان يعرف تماماً عما يتحدث. فالطوافة ساقتها الأمواج إلى ساحل منطقة موسبي، وعلى متنها رجلان ميتان. اكتشفتها امرأة كانت في نزهة مع كلبها، اتصلت بنا في الحال وهي في حالة هستيرية.»

«متى اتصلت المرأة؟» سأل فالاندر.

«قبل نصف دقيقة.» أجابه مارتنسون.

بعد دقيقتين كان فالاندر على الطريق الغربي المُسمّى بالطريق الساحلي

مكسه

المتجه نحو موسبي. وأمام سيارته البيجو انطلقت إحدى سيارات الشرطة مُعلنة صوت النفير العالي وفي داخلها كل من بيترس ونورين. ومن خلفه سيارة إسعاف وسيارة شرطة أخرى يقودها مارتنسون. ارتجف فالاندرعندما شاهد الأمواج الباردة تصطدم بالساحل.

كان ساحل موسبي مهجوراً. الكشك الوحيد مُغلق. المراجيح كانت مهملة أيضاً. نزل فالاندر من السيارة، فصفعه البرد في وجهه. الساحل بهيئة منحدر يُغطيه العشب الأخضر حتى رمل الساحل. هناك وقفت امرأة تلوح بإحدى يديها، وبجانبها كلب يحاول الإفلات من طوقه. خطا فالاندر مسرعاً نحوها، كان متوتراً، فهو لا يحب رؤية منظر الموتى، ولم يتعود عليه مطلقاً. صحيح أن الأموات يشبهون الأحياء لكنهم شيء آخر، فللموت رهبة خاصة.

صرخت المرأة بطريقة هستيرية وهي تُشير بيدها... هناك!

تابع فالاندر إشارة يدها إلى خط الساحل فلمح طوافة إنقاذ محصورة بين عدة صخور تتأرجح بين الأمواج.

«انتظري هنا!» قال فالاندر للمرأة.

نزل راكضاً، فتعثر على المنحدر نحو الساحل. ومن حافة الرصيف شاهد الجثتين مكومتين فوق بعضهما. ركّز نظره عليهما كمن ينظر إلى صورة فوتوغرافية. فمن خلال عمله لسنين طويلة أدرك أن الانطباع الأول لأي قضيّة مهمّ جداً، فأي شخص ميت هو نهاية لسلسلة طويلة من الأحداث يمكن للمرء أحياناً أن يُخمّن بدايتها.

دخل مارتنسون وهو يرتدي حذاء مطاطيّاً طويلاً في الماء، وسحب الطوافة إلى الساحل، بينما جلس فالاندر القرفصاء وراح يتأمل الميتَين، وخلفه وقف سائقو الإسعاف بجوار نقالاتهم يرتجفون متضايقين. رفع فالاندر رأسه، وشاهد بيترس منشغلاً بتهدئة المرأة التي كانت ماتزال في حالة هستيرية، وفكر مع نفسه: «من حسن الحظ لم تصل الطوافة في

telegram @ktabpdf

مكسه

الصيف، وقت اكتظاظ الساحل بالعائلات والأطفال».

كانت الجثتان متفسختين. ويمكن للمرء أن يشم رائحتهما رغم الريح التي كانت تعصف بقوة.

أخرج فالاندر قفازين مطاطيين من سترته وبحث بحذر في جيوب الميتين، لم يعثر علي شيء. رفع معطف أحد الرجلين فاكتشف أن قميصه الأبيض مُلطخ بالدم في منطقة القفص الصدري. التفت نحو مارتنسون وقال:

«هذه ليست حادثة عابرة بل جريمة قتل. فالرجل تم إطلاق النار عليه عن قرب في قلبه.»

نهض فالاندر مبتعداً عدة أمتار ليتيح لبيترس تصوير الطوافة. ثم سأل مارتنسون:

«ماذا تعتقد؟»

«لا أدري.» أجابه مارتنسون هازّاً رأسه بحيرة.

دار فالاندر ببطء حول الطوافة متأملاً الجثتين.

كان كلاهما أشقرَ، عمراهما بحدود الثلاثين، وبدا واضحاً من ملابسهما وأيديهما الناعمة أنهما ليسا من أصحاب الأعمال اليدوية. ولكن مَن يكون هذان الرجلان؟ ولماذا لا يوجد شيء في جيوبهما؟!

استمرّ فالاندر بالدوران حول الطوافة عدّة دورات، ومتبادلاً الحديث مع مارتنسون بين فينة وأخرى.

بعد نصف ساعة من العمل المتواصل أدرك أنه سوف لن يكتشف شيئاً جديداً أو يحصل على معلومة مهمة تتعلق بالطوافة. توقف بيترس عن التصوير، وبدأ الفنيون بإجراء فحوصاتهم واضعين خيمة بلاستيكية على الطوافة. شَعَر الجميع بالبرد وتمنّوا ترك المكان في الحال. فكر فالاندر مع نفسه: «ماذا سيقول ريدبري لو أنه شاهد ما أراه الآن؟ وماذا كان سيرى غير ما أراه أنا؟».

مكسه

ثم ترك المكان عائداً إلى سيارته. أدار المحرك، وشغّل التدفئة. كان البحر رمادياً. وفي رأسه يدور سؤال واحد: «مَن يا تُرى هذان القتيلان؟»

بعد ساعات من العمل قضاها فالاندر في البرد مرتجفاً، أومأ برأسه لرجال الإسعاف المنتظرين، فتقدموا حاملين نقالتين وفرقوا بين الجثتين اللتين كانتا في حالة عناق رابطين كل منهما على نقالة. بعد رفع الجثتين فتّش فالاندر مكانهما في الطوافة المطّاطيّة، فلم يجد شيئاً.

نظر إلى البحر وكأنه يبحث عن الحل في مكان ما عند الأفق. ثم قال لمارتنسون:

«كان عليك أن تتحدث مع المرأة التي اكتشفت الطوافة.»

«لقد فعلتُ ذلك.» أجابه مارتنسون باستغراب.

«في هذه العاصفة يتحدث المرء بشكل سطحي.» قال فالاندر. «عليك أن تستدعيها إلى مركز الشرطة. وعلى نورين أن يتأكد من أن الطوافة وصلت الشاطئ في الحالة نفسها التي تبدو فيها الآن.»

قال ذلك واتجه إلى سيارته مفكراً: «الآن أحتاج إلى خبرة ريدبري، فما هو الشيء الذي يراه ريدبري ولا أراه أنا؟... بماذا سيفكر ريدبري؟».

عندما رجع إلى مركز شرطة إيستاد، ذهب مباشرة إلى بيورك الذي كان رئيساً للشرطة هناك وسَلّمَه بطاقة تضمنت تخطيطاً لما رآه اليوم في ساحل موسبي. استمع بيورك إليه بتململ. كان فالاندر يشعر أن بيورك في بعض الأحيان يحس بأنه مُهاجَم، إذا ما وقعت جريمة في المنطقة التي تحت إمرته، لكن في الوقت نفسه يَكنّ له احتراماً خاصاً كرئيس له، فهو لا يتدخل في أعمال التحريات التي يقوم بها رجال الشرطة، كما يشجع رجاله على حل ألغاز الجرائم بأنفسهم. ومع ذلك فإن بيورك مُتقلب في آرائه ومزاجه، لكن فالاندر اعتاد عليه.

مكسه

«ستقوم أنت بهذه المهمة،» قال بيورك بعد أن استمع الى فالاندر.» وسوف يساعدك فيها كل من مارتنسون وهانسون.. كما أنك تستطيع توظيف مساعدين آخرين في هذه القضية.»

اعترض فالاندر بعد صمت قصير:

«هانسون مشغول الآن بقضية الاغتصاب التي قام بها الرجل الذي ألقينا القبض عليه ليلة أمس. ربما من الأفضل أن يعمل معي سفيدبري.»

«حسنا كما تُريد،» ردّ بيورك.

شعر فالاندر بالجوع عندما ترك مكتب بيورك. فكر في تجاوز وجبة الغذاء كما عوّد نفسه في الأيام الأخيرة بسبب زيادة وزنه وميله إلى السمنة، لكن منظر القتيلين في الطوافة المطاطية جعله قلقاً فزاد من حركته ما فاقم شعوره بالجوع. أوقف سيارته كالمعتاد في شارع ستيك في مركز المدينة، وتجول وحده في شوارع إيستاد الضيقة إلى أن وصل إلى محل مُعجنات (فريدولف). تناول عدة شطائر وكأس حليب. وأثناء تناوله الطعام فكر فيما حصل يوم أمس؛ بالشخص المجهول الذي اتصل هاتفياً بمركز شرطة إيستاد في الساعة السادسة مساء دون أن يُعرّف نفسه، وحَذّرَ مما سيحصل! وبعد اكتشاف الطوافة والجثتين المجهولتين تأكّدت الشرطة أن الرجل كان صادقاً فيما قال.

هذا كل شيء.

أخرج فالاندر من جيبه قلماً، وسحب منديلاً ورقياً من الطاولة.

رسم عدة مخططات من ذهنه. مايزال لديه العديد من الأسئلة. حاور صديقه الحميم ريدبري حواراً سرياً فسأله: «هل أفكر بطريقة صحيحة؟ هل نسيت شيئاً ما؟!».

وحاول تخّيل إجابات ريدبري وردود أفعاله. كان في بعض الأحيان ينجح في تخيلاته، وأحياناً لا يرى أمامه سوى وجه ريدبري الذابل وهو

مكسه

على فراش الموت.

عاد فالاندر إلى مركز الشرطة في الساعة الثالثة والنصف، استدعى كلاً من مارِتنسون وسفيدبري إلى مكتبه. أغلقوا الباب، وراحوا يتبادلون الآراء حولَ هذه القضية.

«إن هذه القضية ليست بالسهلة.» بدأ كورت فالاندر الحديث. «فكما ترون حتى الآن لا نملك أي معلومات، لكن نأمل الحصول على شيء من هذا القبيل عند تشريح الجثتين، وفحصِ الطوافة والملابس، مع ذلك أريد أن أسمع إذا كان لديكما أسئلة.»

كان سفيدبري واقفاً وبيده دفتر ملاحظات، وهو من مواليد مدينة إيستاد، في الأربعين من العمر، أصلع الرأس تقريباً، يُحب مدينة إيستاد كثيراً، قضى فيها كل حياته، ولم يُغادرها إلا نادراً، حتى كان الأصدقاء المقربون يُثيرون غضبه دائماً وهم يمازحونه قائلين: «إن سفيدبري يُصاب بداء الحنين إلى الوطن إذا ما عبر حدود إيستاد»...

أما في العمل فيبدو عليه التباطؤ إلا أنه دقيق جداً وهذا ما يُعجب كورت فالاندر فيه.

أما مارتنسون فهو من مواليد مدينة ترولهيتن وسنّه ثلاثون عاماً. وهو عكس سفيدبري في أكثر من حالة. مُثابر ومُجدّ يطمح أن يتبوأ مركزاً مهماً في عمله. له اهتمامات سياسية، فهو أحد أعضاء حزب الشعب البارزين في المنطقة، ومن المرشحين للعمل في مجلس البلدية في انتخابات الخريف القادم. أما في عمله كمفتش شرطة فإنه مهمل قليلاً ومتسرع، لكنه يعطي أحياناً اقتراحات جيدة، مع امتلاكه قدراً كبيراً من التحمّس والإصرار في متابعة وحلِ أي قضية.

خاطب فالاندر كلاً من سفيدبري ومارتنسون:

«أريد أن أعرف من أين جاءت هذه الطوافة؟ ومنذ متى كان الرجلان الميتان موجودَين فيها؟! يجب علينا تحديد الجهة التي جاءت منها الطوافة.

مكسه

وكم استغرقت من الوقت للوصول إلى هنا؟»

«وهل هذا ممكن؟!» سأله سفيدبري.

هزَّ كورت فالاندر برأسه وقال:

«علينا الاتصال بدائرة الأرصاد الجوية. فهم يعرفون كل شيء يتعلّق بالرياح والطقس. وقد نحصل على شيء ما يعطينا صورة عن الجهة التي جاءت منها الطوافة. بعد ذلك أريد أن أعرف كل شيء يتعلق بالطوافة نفسها. أين صُنعت؟ وأي نوع من البواخر يستخدم مثل هذا الصنف من طوافات الإنقاذ؟»

«هذه مهمّتك!» قال فالاندر مشيراً لمارتنسون.

«ألا ينبغي الدخول إلى الحاسوب لنرى فيما إذا كان أحد هذين الرجلين مطلوباً للعدالة؟ تساءل مارتنسون.

«صحيح يجب أن نبدأ من البداية لنعرف مَن هذان القتيلان!» أجاب فالاندر. «هذا ما ستبدأ به، اتصل برجال الإنقاذ البحري، اذهب إلى جميع المناطق البحرية على الساحل الجنوبي. واسأل بيورك فيما لو كان بإمكاننا الاتصال بـــ(الإنتربول).»

هزّ مارتنسون موافقاً، وراح يكتب ملاحظاته.

أما سفيدبري فكان يَعضّ على قلمه مفكراً، بينما استمر كورت فالاندر بالكلام:

«أنا شخصياً سأقوم بفحص ملابس هذين الرجلين. يجب أن يكون هناك شيء للبدء بالتحري.»

في هذه الأثناء طرق نورين على الباب، ودخل حاملاً بيده خريطة بحرية ملفوفة على بعضها وقال:

«فكرتُ في أنكم قد تحتاجون لهذه الخريطة.»

هزّ كورت فالاندر رأسه.

فتحوا الخريطة الملفوفة وانحنوا عليها وكأنهم يخططون لمعركة بحرية،

مكسه

وتساءل سفيدبري:

«كم في العادة سرعة أي طوافة؟ تساءل سفيدبري. «فأمواج البحر والرياح قد تسَرّع من حركتها، وقد تعمل عكس ذلك أيضاً.»

الجميع تأمل الخريطة بصمت، ثم لفّها كورت فالاندر ووضعها خلف مقعده في الزاوية.

«إذن لنبدأ الآن،» قال فالاندر. «سنلتقي الساعة السادسة عصراً وسنرى!»

بينما ترك كل من نورين وسفيدبري الغرفة، طلب كورت فالاندر من مارتنسون البقاء.

«ماذا قالت المرأة؟» سأله فالاندر

هزّ مارتنسون كتفيه وقال:

«إنها أرملة اسمها السيدة فورسيل، كانت مُدَرّسة متقاعدة في ثانوية أنكلهولم. تعيش في موسبي وحيدة مع كلبها الذي اسمه تيكن. تخرج يومياً مع كلبها للتتره على الساحل. ادّعت أنها لم تشاهد هذه الطوافة في جولتها مساء أمس. غير أنها صُدمت هذا الصباح برؤيتها وما بداخلها فاتصلت بالشرطة في الساعة العاشرة والربع.

«العاشرة والربع؟» ردّ فالاندر متسائلاً. «أليس هذا وقتاً متأخراً لتتريه الكلب صباحاً؟»

هزّ مارتنسون رأسه موافقاً.

«سألتُها السؤال نفسه. فأجابت أنها تخرج عادة في الساعة السابعة صباحاً. ولكنها اليوم في الساعة السابعة ذهبت في الاتجاه المعاكس.»

غيرّ كورت فالاندر الموضوع:

«كيف كان صوت الرجل الذي اتصل البارحة؟»

«كما أخبرتك، في صوته نبرة واثقة.» أجاب مارتنسون.

«بأي لهجة كان يتكلم؟. وكم تقدر سنّه؟»

مكسه

«يتكلم بلهجة (سكونه) صوته خشن يشبه صوت سفيدبري، وأعتقد بأنه مدخن. وسنّه تتراوح بين الأربعين والخمسين. ويتكلم بطريقة واضحة وعفوية.»

استمر كورت فالاندر بطرح الأسئلة.

«هل تعرف ما الذي دفعه للاتصال؟»

«فكرت في هذا الأمر،» أجاب ماتنسون.

«هناك احتمالات كثيرة. من الممكن أن يكون على علم بأن الطوافة ستصل إلى الساحل، لأنه شخصياً متورط في الأمر، قد يكون هو الذي أطلق النار عليهما، أو ربما كان شاهداً أو سمع شيئاً يتعلق بالطوافة.»

«ما هو الشيء المنطقي هنا؟» سأله فالاندر

أجاب مارتنسون بسرعة:

«أظن أنه شاهد أو سمع شيئاً ما! فلا يوجد مُجرم يجلب أنظار الشرطة إليه، فيُبلّغ عما اقترفه.»

«دعنا نذهب بتفكيرنا خطوة أبعد!» قال كورت فالاندر.»شاهد أو سمع شيئاً ما؟ لكنه بَلّغ عن وصول طوافة إنقاذ فيها قتيلان! إذا لم يكن متورطاً فكيف شاهد ما بداخلها؟ أعني لو أنه كان مجرد مُشاهد، فإنه بالتأكيد سيرى الطوافة فقط!»

«هذا صحيح. قال مارتنسون. «يمكن للمرء أن يرى طوافة في عمق البحر أثناء مروره عليها بقارب مثلاً.»

«ليس هذا فقط،» تابع كورت فالاندر. «فإذا لم يكن مُجرماً أو متورطاً فلماذا يَصِرّ على أن يبقى مجهولاً؟»

«كثير من النَاس لا يريد أن يُورّط نفسه قدر الإمكان.» رد مارتنسون، «فأنت تعرف كيف تسير مثل هذه الأمور.»

«ربما!» قال فالاندر. «لكن هناك احتمال آخر. وهو أن هذا الشخص ولسبب آخر مُختلف تماماً لا يريد أن يتعامل مع الشرطة.»

مكسه

«هل هذه مبالغة في البحث؟» تساءل مارتنسون بتردد.

«لا.. لكن فقط أفكر بصوت عال.» قال فالاندر.»علينا أن نعثر على مسار ما يدلـّـنا على هذا الرجل!»

«كيف.. هل سنخرج ونناشده ليتصل بنا مرة ثانية؟» سأل مارتنسون.

«نعم،» ردّ فالاندر. «لكن ليس الآن، علينا أن نعرف أولا مَن هذان القتيلان.»

ذهب فالاندر إلى المستشفى.. بالرغم من كثرة زياراته لهذا المكان، إلا أنه اليوم واجه صعوبة في الوصول إلى قسم التشريح في هذه البناية المعقدة. توقف عند (الكفيتريا) في الطابقِ الأرضي واشترى موزة أكلها قبل أن يتجه نحو قسم التشريح. كان المُشرّح يدعى مورث، وجده لم يبدأ بعد بالفحوصات الأولية. لكنه أجاب عن أسئلة فالاندر حول الكيفية التي قضى بها الرجلان.

«الرجلان قتلا رمياً بالرصاص،» قال مورث. «تم إطلاق النار عليهما عن قرب في القلب مباشرة.»

«بودي الحصول على النتائج بأسرع وقت،» قال فالاندر. «هل بإمكانك أن تُحدّد ولو بشكل تقريبي متى قُتِلا؟!»

«كلا،» أجاب مورث.

«ماذا تعني؟» سأله فالاندر.

«إنهما ميتان منذ مدة طويلة، ولكن من الصعب تحديد الوقت الذي قُتلا فيه.»

«هل يُمكننا القول مثلاً إنهما قُتِلا قبل يومين؟ ثلاثة؟ أو أسبوع؟» عقّب فالاندر.

«لا يمكنني الإجابة،» ردّ مورث وأضاف، «لا أريد أن أُخمّن.»

ثم اختفى مورث في صالة التشريح! بينما خلع فالاندر سترته ولبس

مكتبة

قفازين مطاطيين وبدأ بفحص الملابس ذات المواصفات الجيدة الملقاة بمكان يشبه أحواض غسل الصحون القديمة. كانت إحدى بدلتي القتيلين مصنوعة في إنكلترا والثانية بلجيكية. الأحذية إيطالية، وقدّرها فالاندر من النوع الغالي. القمصان، أربطة العنق والملابس الداخلية كانت من الماركات نفسها، غالية جداً. عندما تفحص فالاندر الملابس مرتين أدرك أن هناك أكثر من مجرى للبحث.

الشيء الوحيد الذي عرفه أن الرجلين الميتين كانا مَيسوري الحال.

ولكن أين ذهبت محافظهم الشخصية؟ خاتما الزواج؟ الساعات؟ الشيء الوحيد والمُحيّر هو أن كلاً منهما لا يوجد في سترته أي ثقب يشير إلى اختراق طلق ناري. أي أنهما قد تم قتلهما ثم أُلبِسا ستريتيهما.

حاول كورت فالاندر أن يتصوّر ما جرى: «رجل واحد يطلق النار على رجلين في الوقت نفسه وبشكل مباشر في قلبيهما بعد أن يُترِعُهما ستريتيهما ثم يرجَع ويُلبسهما إياهما ثم يُلقيهما ميتين في طوافة إنقاذ».

تفحص فالاندر الملابس مرة أخرى.

لم يترك شيئاً بدون فحص، ثم فكر مع نفسه مناشداً صديقه ريدبري ليساعده، ولكن ريدبري كان أخرس.

رجع كورت فالاندر إلى مركز الشرطة بعد أن عرف بأن التشريح سيستغرق عدة أيام. وكنتيجة أولية سوف يحصل على تقرير خطي بعد غد أول النهار. دخل غرفته. وجد على طاولته ورقة من بيورك تقول إنهم سينتظرون لأيام حتى يتصلوا بالشرطة الدولية (الإنتربول). ضايقه ذلك فهو يجد صعوبة في فهم توجيهات بيورك وتدخّلاته غير الضرورية أحياناً.

لقاء الساعة السادسة عصراً كان قصيراً. أكد فيه مارتنسون عدم وجود أي تحريات تتعقب أشخاصاً يُمكن أن يكون من ضمنهم القتيلان، أما سفيدبري فقد أجرى مكالمة مُطوّلة مع متخصص في دائرة

مكسه

الأرصاد الجوية في مدينة نورشوبنغ الذي أبدى استعداده للمساعدة في حالة وصول طلب رسمي من شرطة إيستاد، وتحدث كورت فالاندر مشيراً إلى أن الرجلين ماتا قتلاً كما توقع مسبقاً، وطلب من سفيدبري ومارتنسون أن يفكرا لماذا تم إلباس القتيلين سترتيهما بعد قتلهما. ثم قال:

«سوف نستمر ساعتين إضافيتين، فإذا كان لدى أحدكما عمل آخر فليتركه جانباً أو يسلمه لشخص آخر. فالأمور ستصبح صعبة، وغداً سأطلب زيادة عدد كادر التحريات في هذه القضية.»

عندما أصبح فالاندر وحيداً في غرفته بعد الاجتماع، بسط الخريطة على الطاولة. وتابع بأصابعه خط الساحل في منطقة موسبي. وفكر مع نفسه بأن الطوافة يمكن أن تكون قد سيقت من مسافة بعيدة جداً، أو قريبة. فمثل هذه الطوافة يمكن أن ُتساق للأمام او للخلف.

رن جرس الهاتف. تردد فالاندر في الإجابة لمدة قصيرة، فالوقت أصبح متأخراً وعليه الذهاب إلى بيته ليفكر فيما حصل بهدوء وروّية.

لكنه رفع السماعة. فكان مورث على الهاتف.

«هل انتهت الفحوصات؟» سأله كورت فالاندر بتلهف.

«كلا،» أجاب مورث. «ولكن هناك شيء أعتقده مهماً، ويمكنني أن أُخبرك به الآن.»

حبس فالاندر أنفاسه بينما تابع مورث الحديث:

«القتيلان ليسا سويديين، وهما بكل الأحوال لم يُولدا في السويد؟»

«كيف تمكنت من معرفة ذلك؟» سأله فالاندر

«عندما فحصت فَمَي الجثتين،» تابع مورث كلامه، «لاحظت أن بعض أسنانهما قد تم معالجتها على يد طبيب أسنان ليس سويدياً، وعلى الأرجح طبيب أسنان روسي.»

مكسه

«طبيب أسنان روسي؟» سأله فالاندر مستغرباً.

«نعم طبيب أسنان روسي. أو من أحد دول أوروبا الشرقية، فهذه الدول لها طرق خاصة في معالجة الأسنان تعتمد على تغليف الأسنان بمعدن الذهب، وهذه الطريقة لا تُستخدَم أبداً في السويد.»

«هل أنت متأكد تماماً؟» سأله فالاندر.

«لو لم أكن متأكداً لما اتصلتُ بك،» رد مورث. «كما أن هناك شيئاً آخر هو أن القتيلين تعرضا لتعذيب شديد قبل القتل، فعلى جسديهما حروق، كدمات، كما أن أظفارهما مقلوعة. والظاهر أن قتلهما جاء رحمة. وإذا كنت تؤمن بمبدأ (السيزم) فإنهما كانا سعيدين بنهايتهما هذه.»

«هل مازلت معي يا فالاندر؟» تساءل مورث. بعد أن انقطع فالاندر عنه سارحاً في تفكيره.

«نعم أنا معك. لكنني أفكر فقط فيما قلته.»

«أنا متأكد مما ذكرته.» ردّ مورث.

«لا أشك في ذلك.» أجاب فالاندر.»لكن الذي أسمعه منك ليس بالطبيعي.»

«ما توصلت إليه هي أشياء مهمة، لذلك اتصلت بك.»

«حسناً فعلت،» قال فالاندر.

«غدا سيصلك تقرير شامل،» قال مزرث. «ما عدا نتائج الفحوصات المختبرية إذ ستتأخر طويلاً.»

وضع سماعة الهاتف. خطا نحو صالة الطعام. صب قهوة، وجلس عند إحدى الطاولات واستغرق في التفكير: «روسيان مُعذّبان وقتيلان؟ هذه القضية صعبة وطويلة، حتى لو حقّقَ فيها ريدبري شخصياً!».

انتهى من شرب قهوته في السابعة والنصف. نهض من مكانه حاملاً

مكسه

الكوب الفارغ. وضعه في حوض الغسيل، ثم ذهب إلى البيت. كانت الريح هادئة، والجو أصبح أكثر برودة بشكل مفاجئ.

مكتبة

٣

استيقظ كورت فالاندر بشكل مفاجئ في الساعة الثانية ليلاً بسبب ألم شديد في صدره. تمدّد على سريره في الظلام مُفكراً في أن هذه ستكون نهايته. الحقيقة أن مثل هذه الحالات أشبه بالضريبة التي يدفعها رجال الشرطة مقابل عملهم المرهق. شعر كورت فالاندر باليأس، والخجل من كل ماضيه، لأن حياته في السنين الأخيرة صارت لا تساوي شيئاً. سيطر عليه القلق وشعر بالانقباض ما سبب في زيادة آلامه، دون أن يدري إلى متى سيبقى مُمدداً هكذا وغير قادر على ترتيب وضعه أو إيقاف مخاوفه. لكنه أخيراً وببطء شديد اضطر إلى أن يضغط على نفسه ويتحمّل آلامه، ثم نهضَ من سريره بحذر شديد.

ارتدى ملابسه ونزل من شقته إلى سيارته المتوقفة في الشارع. شعر بآلامه تخف بعض الشيء، ثم تحولت إلى نوبات تأتي تارة وتختفي أخرى، وشيئاً فشيئاً أحس بها تهبط من صدره إلى أطرافه. جلس كورت فالاندر داخل سيارته مُجبِراً نفسه على استنشاق الهواء بهدوء وعمق.

أدار المحرك وقاد سيارته عبر شوارع مدينة إيستاد الفارغة ليلاً متجهاً إلى استعلامات مستشفى الطوارئ. استقبلته هناك ممرضة ذات نظرات حميمة، استمعت إليه وهو يتلوّى من نوبة ألم شديدة انتابته أمامها بشكل مفاجئ جعلته يتصرف بشكل هستيري، فهدأته، وبينما هو مُلقى على سرير الفحص تحت تأثير آلامه سمع من غرفة مجاورة صوت أحد السكارى يصرخ بصوت يشبه الزئير.

وصف فالاندر آلام صدره للطبيب الشاب الذي دخل بشكل مفاجئ إلى الغرفة، ثم دُفِع سريره إلى غرفة العناية المركزة وتم ربطه بجهاز الإنعاش لغرض مراقبة ضغط الدم والنبض. وعندما سأله الطبيب

مكسه

فيما إذا كان يدخن، أو فيما إذا كان أحد من أقاربه لديه أمراض قلبية مُزمنة، هزّ رأسه بالنفي. لكنه أومأ برأسه موافقاً عندما سأله الطبيب فيما إذا كانت هذه الحالة قد اجتاحته بشكل مُفاجئ، وهل تعرضَ لها من قبل. انهمك الطبيب في قراءة أجهزة الفحص، واستدار نحو فالاندر قائلاً:

«كل شيء طبيعي، ولا توجد خطورة، ولكن هل فكرت في أسباب قلقك هذا؟»

«لا أدري!»

واصل الطبيب قراءة المعلومات ثم قال:

«أنت طبعاً ضابط شرطة، إنكم تتعرضون في أكثر الأحيان إلى حالات مُجهدة وضاغطة.

«هذا هو السبب الحاسم تقريباً،» ردّ فالاندر.

«ماذا عن معدل تناولك للكحول؟»

«أظن أنها عادية.»

جلس الطبيب عند حافة الطاولة ووضع أمامه السجل. ولاحظ أن كورت فالاندر كان مُتعباً جداً.

«لا أعتقد بوجود أي أزمة قلبية لديك. ولكن مُحتمل أن يكون هذه إشارة تحذيرية أطلقها جسدك ليُنذرَك بأن الكثير من الأمور عندك لا تسير بشكل طبيعي. وطبعاً أنت الوَحيد القادر على التجاوب مع هذه الإشارة وفهمها.

«هذا عين الصواب،» أجاب فالاندر وأردف، «فحتى اليوم تساءلت مع نفسي عن أشياء كثيرة حصلت في حياتي. وشعرتُ بأني معزول، وحيد في هذه الدنيا، وليس عندي حتى مَن أكلمه.»

«لكن ينبغي أن يكون لديك شخص مؤتمَن وقريب إلى نفسك يُبادلكَ دائماً الحديث.»

مكسه

بدأ جهاز التنبيه في جيب سترة الطبيب يُصدِر إشارات صوتية فنهض من حافة السرير وقال له:

«على أي حال ستبقى الليلة هنا، حاول أن تستريح.»

بقي كورت فالاندر مُمدداً باسترخاء ومتابعاً للصوت المنبعث من زجاجة جهاز التنفس الاصطناعي ومفكراً مع نفسه: «كل الآَلام لها أسبابها الخاصة، ولكن ما السبب يا ترى لما أعانيه الآن؟ وإذا لم يكن الأمر يتعلق بالقلب فبماذا يا تُرى تتعلق آلامي؟»، ثم رد على نفسه بعدة احتمالات كأن يكون «السبب عقدة تأنيب الضمير التي أتصارع معها دائماً بشكل باطن لعدم تكريسي الوقت والجهد الكافي للاهتمام بأبي. أو قد يكون السبب هو قلقي على ابنتي التي تدرس الآن في الجامعة في ستوكهولم، لأن رسالتها الأخيرة كانت خالية من الصدق، فقد ذكرتْ في الرسالة بأنها مرتاحة هناك، وأنها تذهب إلى الجامعة في بعض الأيام، وفي الأيام الأخرى تعمل في وظيفة كانت تبحث عنها منذ زمن. فهل يا ترى ما ذكرَته كان حقيقة أم لا؟ إني فقط أخاف عليها دائماً وبشكل مُفرط. فمَن يدري قد تحاول الانتحار مرة أخرى؟ مثلما فعلتها من قبل عندما كان عمرها ١٥ سنة؟ كما أن آلامي الشديدة الآن قد يكون سببها غيرتي الفائقة التي تُسيطر عليَ دائماً وحتى الآن تجاه زوجتي منى التي هجرتني، على الرغم من مُضي أكثر من سنة على ما حصل».

كان ضوء الغرفة ساطعا جداً. راجعَ كورت فالاندر كل حياته وهو ممدد على السرير. وسيطر عليه شعور بالوحدة والهجران. وتساءل في الوقت نفسه فيما إذا كانت هذه الوحدة هي السبب الرئيسي لكل آلامه الآن؟ لكنه لم يحصل على أي جواب، فاهتزت ثقته بنفسه بعض الشيء. وخاطب نفسه بصوت عال:

– إن حياتي يجب أن تتغير الآن... وحالاً!

نهض فالاندر في الساعة السادسة صباحاً فوجد الطبيب واقفاً جوار

مكسه

سريره. انحنى نحوه وسأله:
«هل لديك آلام الآن؟»

«كل شيء ممتاز،» أجابَ كورت فالاندر. «لكن ماذا كانت الحالة بالضبط؟»

«توتر، وإجهاد. أنت بنفسك تعرف ذلك،» رد الطبيب.

«نعم،» أجاب فلاندر.» هذا ما أعتقده ايضا.»

«سنعمل لك الآن فحصاً طبياً شاملاً،» قال الطبيب. «حتى نتأكد على الأقل من عدم وجود خلل عضوي، بعدها يمكنك بسهولة أن تراجع نفسك لترى بالضبط كل ما تخفي في ثناياها.»

عاد كورت فالاندر إلى بيته. استحم، وشرب قهوته. أشارت قراءة المحرار الخارجي إلى (-٣مْ). فجأة هدأت العاصفة، مكث جالساً في بيته لمدة طويلة مُفكراً فيما حصل ليلة أمس... الآلام... زيارته للمستشفى... وأدرك أن حياته هي مسؤوليته الخاصة فقط..

في الساعة الثامنة والربع وجد نفسه مُجبراً على الذهاب لعمله كرجل شرطة من جديد.

في مركز الشرطة تبادل الحديث بشكل سريع مع رئيسه بيورك حول ضرورة الاتصال حالاً بالقسم الفني العام للجريمة في ستوكهولم ليقوموا بفحوصاتهم في مسرح الجريمة.

«لا يوجد مكان مُحدد للجريمة،» رد فالاندر بغضب. «وإذا أردنا أن نكون أكثر دقة فإن الرجلين لم يُقتلا في طوافة الإنقاذ.»

«الآن وبعد وفاة ريدبري يجب علينا أن نطلب مساعدة خارجية،» تابع بيورك. «لأننا لم نعد نمتلك الكفاءة اللازمة. فأنت مثلاً لم توضِح كل شيء يتعلق بالطوافة والساحل.»

«الساحل ليس مكاناً للجريمة،» رد فالاندر. «فالطوافة جاءت طافية على الماء. فهل بإمكاننا وضع حواجز حول الأمواج؟»

مكسه

لاحظ فالاندر بأنه اشتعَلَ غضباً، فهو يُدرك مدى كفاءة ريدبري الذي لا هو ولا أي شرطي آخر في مركز إيستاد يمتلكها. ولكن هذا لا يعني بأنه غير كفء لدرجة تتطلب استدعاء مُتخصصين من القسم الفني العام في ستوكهولم.

وفجأة رد فالاندر بغضب على بيورك

«الآن إما أن تُطلق يدي في هذه القضية، أو تتبناها أنت شخصياً.»

«أنا لا أشك بإمكانياتك،» قال بيورك. «لكني أشعر بأننا سنرتكب خطأً كبيراً إذا لم نناقش الأمر مع ستوكهولم.»

«لا أظن ذلك،» رد كورت فالاندر.

ثم ساد الصمت

«سأعود اليك بعد وقت قصير،» قال فلاندر مغادراً. «فلديّ معلومات أريد أن أطلعك عليها.»

نظر إليه بيورك بتعجب وسأله:

«هل وصلنا إلى شيء يتعلق بالقضية؟ كنت أظن أن كل شيء مازال متوقفاً.»

«هذا غير صحيح، سأرجع بعد عشر دقائق،» قال فلاندر.

مضى فالاندر إلى غرفته واتصل بالمستشفى ولحسن الحظ حصل على خط مباشر إلى الطبيب المُشرّح مورث وسأله:

«هل هناك من جديد؟»

«أنا حالياً مشغول بالتقرير،» أجاب مورث. «هل يمكن أن تنتظرني لساعتين فقط؟ فسوف يصلك التقرير.»

«أنا حالياً أناقش القضية مع بيورك، وأحتاج مساعدتك فقط في تحديد الوقت الذي مضى على قتل هذين الرجلين.»

«كلا،» أجاب مورث. «يجب علينا انتظار التحليلات المختبرية، تشريح محتويات البطن، النسيج الخلوي وإلا فإن كلامنا يظل مجرد

مكتبة

تخمين.»

«حسنا، أجبني من باب التخمين.» رد فالاندر.

«لا أحب التخمين،» أجاب مورث. «ثم ما الفائدة من ذلك؟»

«حسنٌ، أنت طبعاً ذو خبرة واسعة في عملك، وأنا متأكد أن النتائج ستكون بشكل مُؤكد مُطابقة لتخميناتك، لذلك أريد منك فقط أن تهمس بإذني تخمينك في الموضوع وسيبقى ذلك سراً بيننا.»

انتظر فلاندر.

«أسبوع واحد فقط، ولكن لا تقل ذلك لأحد.»

«اعتبرني نسيت ما سمعته منك،» قال فالاندر. «ولكنك ماتزال متأكداً من أن القتيلين من خارج السويد، وهما بالتحديد من روسيا أو من إحدى دول أوروبا الشرقية.»

«نعم،» أجاب مورث.

«هل اكتشفت شيئاً فاجأك؟»

«نعم!» شيئاً يتعلق بالذخيرة.» قال مورث. «فالطلقات النارية لم أشاهد مثلها قط في حياتي.»

«أي شيء آخر؟»

«أحد الرجلين مرسوم على عضده وشم،» قال مورث وأردف، «والوشم عبارة عن صورة ساطور.»

«إلى ماذا يرمز ذلك؟»

«صورة لنوع من السيوف. ولكنك تعرف بأني كطبيب مُشَرح لا أفهم بالأسلحة القديمة.»

«هل هناك شيء آخر في الوشم؟»

«ماذا تعني؟» سأل مورث.

«كما تعرف فإن الوشم عادة يتضمن عنواناً، اسم نسائياً، أو مكاناً؟

مكتبة

«كلا. لا يوجد شيء.»

«هل لديك أشياء أخرى؟»

«كلا،» أجاب مورث.

«شكراً لك وإلى اللقاء ثانية.»

أعاد كورت فالاندر سماعة الهاتف، وجلب قهوته، ثم ذهب إلى غرفة بيورك. في الطريق لاحظ أن غرفتَي كل من مارتنسون وسفيدبري كانتا مفتوحتين وخاليتين. جلس فالاندر ليشرب قهوته منتظراً أن ينهي بيورك مكالمة هاتفية. ثم حاول أن يُشغِل فراغه بالاستماع إلى بيورك الذي بدأ يتحدث بشكل غاضب لدرجة أنه جَفَلَ عندما أغلق سماعة الهاتف بقوة. وهو يردد:

«هذا أسوأ شيء! ما معنى ما نقوم به في عملنا... كشرطة؟»

«هذا سؤال جيد،» ردّ عليه فالاندر. «مع أنني لا أعرف بالضبط ماذا تقصد.»

كان بيورك ينتفض غضباً، ولم يسبق لفالاندر أن رآه بهذه الحالة سابقاً. حاول أن يُهدئه فسأله:

«ما الخبر؟»

نظر بيورك إليه وقال:

«لا أعرف أن كنت أستطيع التحدث عن ذلك أم لا؟! ولكن يجب أن أقوله،

أحد المُجرمَين اللذين نفذا جريمة لينارب، والمُلقّب بـ»لوسيا» حصل أول من أمس على إذن أو إجازة. ومن الطبيعي أنه سيهرب ولن يرجع إلى سجنه، ومن المحتمل أن يكون قد غادر البلاد، وبالتالي سوف لن نعثر عليه ثانية.»

لم يُصدق فالاندر ما سمع!!

«أي إذن؟ وأي إجازة؟ فلم تمضِ عليه سنة كاملة بعدُ في السجن؟

ثم إنه من أخطر المجرمين في البلد؟ كيف يمكن لمثل هذا المجرم أن يحصل على إذن؟»

«لقد أخذ الإذن كالإجازة ليدفن أمه!» قالها بيورك باستهزاء.

اندهش فالاندر.

«ولكن هذا المجرم ماتت أمه منذ عشر سنين؟ نعم، أتذكر هذا تماماً. فقد ورد ذلك مكتوباً في التقرير الذي بَعَثَته الشرطة التشيكوسلفاكية.»

«إحدى النساء حضرت إلى سجن «هال»،» استمر بيورك بكلامه، «وادّعَت أنها أخت لهذا المجرم وناشدتهم الحصول على إذن له لحضور مراسيم الدفن. لم يفكر أحد في تدقيق أي شيء! تصور أنها أبرزت لهم بطاقة مطبوعة- وبالطبع كانت مُزورة- تُوضح أن الدفن سيكون في إحدى كنائس مدينة إنكلهولم... تصورا في هذا البلد يوجد حتى الآن أناس ساذجون، لا يقتنعون بوجود صنف من البشر قادرين على تزوير (دعوة لدفن ميت)... المهم لقد حصل هذا المجرم أول من أمس على إطلاق سراح مؤقت، على أن يُرافقه أحد رجال الشرطة لحضور مراسيم الدفن فقط، لكن بالطبع لم يكن هناك أي مراسيم دفن، ولم تكن هناك أي أم أو أخت ميتة، والنتيجة أن هذا المجرم وبمساعدة هذه المرأة طبعاً قاما بالهجوم على الشرطي المرافق وتمكنا من تقييده بالحبال ورميه في مكان ما في منطقة الغابات خارج مدينة يونشوبن. واستوليا على السيارة التي تعود ملكيتها إلى دائرة رعاية المُجرمين. قاداها عبر منطقة ليمهامن إلى كاستوروب وهناك أوقفاها واختفيا.

«يا إلهي.. هذا مستحيل،» رد فالاندر. «مَن بحق الجحيم أعطى الإذن لهذا المجرم؟»

«أصبحت السويد بلداً رائعاً. تماما كما في الدعايات.» صاح بيورك. «هذا يجعلني اتقيأ.»

مكسه

«كيف تحصل مثل هذه الأشياء؟ ومن المسؤول عما يحصل؟ أجاب فلاندر.»أرى أن يوضع الشخص الذي أعطى الإذن لهذا المُجرم مكانه في الزنزانة الخاوية.»

«سوف أتحقق من ذلك عن قرب!» قال بيورك. «ولكن ما الفائدة؟ لأن الشخص الآن خارج السجن!»

عندها تذكر فالاندر من جديد تلك الجريمة المزدوجة والعنيفة التي وقعَت في لينارب، فقال لبيورك:

«ما معنى ذلك؟ لماذا نستمر نحن بعملنا ونطارد المجرمين، إذا كانت دائرة رعاية المجرمين تُطلق سراحهم؟»

لم يجب بيورك، فنهض فالاندر غاضباً واتجه إلى النافذة.

«إلى أي حد يمكن للمرء أن يتحمل؟ قال فالاندر.

«يجب علينا أن نتحمل،» أجاب بيورك. «والآن أريد أن أعرف ما عندك من جديد حول الرجلين الميتين في الطوافة.»

قدم له فالاندر تقريراً شفهياً، وشعر بأنه كان مُتعباً ويائساً. كتب بيورك عدة ملاحظات من حديث كورت فالاندر على ورقة كانت أمامه. وعندما سكت فالاندر، تمتم بيورك:

«روسيان، شرقيان... في هذه الحالة علينا اللجوء إلى وزارة الخارجية لأن هذه مُهمتهم، وبإمكانهم الاتصال بالشرطة الروسية أو الشرطة البولونية أو شرطة أي دولة من دول أوروبا الشرقية.

قاطعه فالاندر:

«قد يكونان روسيي الجنسية، لكنهما يعيشان في السويد، أو في ألمانيا أو حتى في الدانمارك.»

«نعم، ولكن الغالبية العظمى من الروس ما تزال في الاتحاد السوفيتي،» أجاب بيورك. «سوف اتصل بوزارة الخارجية حالاً، إنهم قادرون على معرفة مثل هذه الحالات.»

مكتبة

«كان الأفضل لو أننا أرجعنا الطوافة إلى الساحل ورميناها في المياه الدولية، ردّ فالاندر. « عندها نتخلص منها ومن مشاكلها.»

لكن بيورك يبدو أنه لم يسمع.

«يجب جمع معلومات تعريفية عنهما،» قال. «كأن تكون صورهما، بصمات أصابعهما، ملابسهما!»

«أو نعتمد على الوشم المرسوم على أيديهما.»

« الوشم!»

« نعم، الوشم.»

هزّ بيورك رأسه نافياً ومدّ يده ليتناول السماعة.

«انتظر قليلاً!» صاح كورت فالاندر.

ألقى بيورك يديه على الطاولة.

«يتوجب علينا العثور على ذلك الرجل الذي اتصل بنا هاتفياً ليلة وصول الطوافة،» قال فلاندر.« الرجل الذي حسب وصف مارتنسون له كان يتكلم بلهجة سكونه.»

«هل هناك سبيل للوصول إليه؟» سأله بيورك.

«كلا، لهذا السبب أقترح بأن نعتمد على وسائل الإعلام، ونناشده من خلالها أن يتصل بنا مرة أخرى. على أن نُغلّف مناشدتنا هذه بتوجيهها لجميع المواطنين مِمّن شاهد قارباً مطاطياً أحمر اللون طافياً في المياه القريبة من موسبي أن يتصل بشرطة إيستاد.»

هزَّ بيورك رأسه موافقاً، وقال:

«في كل الأحوال يجب عليّ أن أتكلم مع الصحافة. الصحفيون بدؤوا يتصلون هاتفياً منذ مدة، فيوم أمس أذهلتني إحدى المكالمات التي استغرقت نصف ساعة. لم أفهم كيف استطاع هؤلاء أن يعرفوا بما حصلِ عند ذلك الساحل المهجور!»

ذكّره كورت فالاندر بالجريمة المزدوجة التي وقعت في لينارب

مكتبة

وقال:

«أنت تعرف تماماً أننا نُسرّب معلومات.»

«ماذا تقصد بـــ(أننا)؟» سأله بيورك.

«أقصد الشرطة، أيْ شرطة إيستاد.»

«لكن مَن الذي يُسرّب مثل هذه الأخبار؟»

«كيف تُريدني أن أعرف؟» رد فالاندر. «هذه مسؤوليتك، فينبغي عليك أن تذكّر رجال شرطتك، وتوصيهم بكتمان أسرار العمل.»

ضرب بيورك راحة يده بالأخرى بطريقة تمثيلية وكأنه يصفعُ أحداً، ولم يُعلق على ما قاله فالاندر بل واصلَ حديثه:

«سننفّذ هذه المناشدة التي تتحدث عنها، ففي الساعة الثانية عشرة لدينا لقاء مع صحيفة (داكتر إيكو). أرى أن تقوم أنت بهذه المهمة. أما الآن فيجب أن اتصل بستوكهولم للحصول على بعض التعليمات.»

نهض فالاندر من مكانه وقال بعصبية:

«الأفضل لو أننا نترك كل شيء.»

«نترك ماذا؟» سأله بيورك.

«أن نترك البحث عن قاتل الرجلين في الطوافة.»

«سوف اتصل بستوكهولم.» رد بيورك هازّاً رأسه بعصبية.

ترك فالاندر الغرفة، ولاحظ أن غرفتي مارتنسون وسفيدبري مازالتا مفتوحتين. ثم نظر إلى ساعته التي أشارت حينها إلى التاسعة والنصف، ونزل إلى ملحأ مركز الشرطة في الطابق الأسفل حيث الطوافة الحمراء كانت قابعة هناك على مساند خشبية. نظر فالاندر إلى الطوافة من جميع الجهات مُستخدماً مصباحاً يدوياً قوياً، لم يعثر على اسم الشركة البحرية التي تستخدمَها أو البلد المُصنّع لها. الأمر أثار استغرابه، ولم يجد حينها تفسيراً لذلك. جال فالاندر حول الطوافة مرة أخرى. ولفتَ انتباهه بشكل مفاجئ وجود قطعة حبل مربوطة بالطوافة، وعندما ركز

مكتبة

على الحبل وجده مقطوعاً بسكين. ولم يجد أيضاً تفسيراً لذلك! حاول أن يتخيل ماذا عساه ريدبري أن يستنتج من كل هذه المُعطيات؟ لكن عقله كان فارغاً.

رجع فالاندر إلى غرفته في الساعة العاشرة. اتصل هاتفياً بكل من مارتنسون وسفيدبري لكن أياً منهما لم يجب، جلس وحده وسحب دفتر ملاحظات كان أمامه على الطاولة ورسم تخطيطات للأشياء البسيطة التي عرفها حول الرجلين: شخصان من دول أوروبا الشرقية، تم تعذيبهما بشكل فظيع، قبل رميهما بعيارات نارية في الجهة القريبة من القلب، ثم بعدها تم إلباسهما سترتيهما وإلقاؤهما في طوافة الإنقاذ التي هي حتى الآن مجهولة المنشأ.

دفع دفتر الملاحظات جانباً عندما خطرت له فكرة مفاجئة مفادها: إن من يُعذّب أشخاصاً ويقتلهم لا بد أن يُفكر في إخفائهم، كأن يَحفر لهم قبوراً، أو يُغرقهم في قاع البحر بعد أن يربط أثقالاً حول أرجلهم. أما أن يرميهم هكذا في طوافة مطاطية مكشوفة، فالمسألة لا تخلو من المجازفة لأن اكتشافهما سيكون سهلاً.

هل يمكن أن يكون هناك هدف وراء رميهما بهذه الطريقة؟ وهل إن اكتشافهما كان هو الهدف المرجو من وراء ذلك؟ هل طوافة الإنقاذ تشير إلى أن الجريمة ارتكبت على متن أحد البواخر؟

وأخيراً نزع فالاندر الورقة الأولى من دفتر الملاحظات وعصرها بيده بعصبية، ثم رماها في سلة المهملات. ثم فكر مع نفسه: «أنا لا أعرف إلا القليل، كان على ريدبري أن يُوجّهني أو يُعلّمَني كيفَ يكون المرء صبوراً».

وعندما قاربت الساعة الحادية عشرة إلا ربعاً رن جرس الهاتف، فرفع السماعة بسرعة، كان صوت أبيه عبر الهاتف.

أدرك أنه قد نسي تماماً موعده معه في الساعة العاشرة في منطقة لود

مكسه

روب، فقد اتفقا على الذهاب معاً إلى معرض لبيع مستلزمات الرسم والألوان في مدينة مالمو. وبصوت غاضب سأله أبوه:

«لماذا لم تأت؟»

قرر كورت فَالاندر أن يقول لأبيه الحقيقة مثلما هي:

«أنا أعتذر يا أبي. ففي الحقيقة نسيت تماماً.»

سادت مدة طويلة من الصمت قبل أن يرد الأب.

«مع ذلك فأسلوبك مؤدب في الاعتذار، على أي حال هل تعدني أن تأتي؟»

«نعم يا أبي سأكون عندك غداً؟»

«إذن، سأنتظرك،» قال الأب.

كتب فالاندر ورقة صغيرة وألصقها على جهاز الهاتف، حتى لا ينسى موعده غداً، ثم اتصل بسفيدبري، لكنه لم يحصل على أي جواب، يبدو أنه غير موجود. أما مارتنسون فقد دخل غرفته قبل لحظات ورد على الهاتف مباشرة. فخرج فالاندر من غرفته والتقى به في الرواق، ثم ذهبا معاً إلى صالة الطعام، وفي الطريق قال مارتنسون:

«هل تعرف ماذا اكتشفت اليوم؟» ثمّ أردف، «إن كل طوافات الإنقاذ تقريباً لا يمكن تمييزها عن بعضها من ناحية المظهر، فكل المصانع والطرازات تبدو متشابهة. وخبراء الطوافات وحدهم فقط يستطيعون التمييز بينها. لذلك ذهبت إلى مدينة مالمو وأجريت جولة حول مورّدي الطوافات.»

واستمر مارتنسون بالحديث أثناء تناولهما القهوة فسأله فالاندر:

«إذن أنت تعرف الآن كل شيء عن طوافات الإنقاذ؟»

«كلا، بل صارت لدي بعض المعلومات عنها. لكنني لم أعرف من أين جاءت هذه الطوافة.»

«من الغريب جداً عدم وجود أي شيء يُصنّف الطوافة أو يُشير إلى

مكسه

البلد المُصنّع لها، في حين أن كل تجهيزات الإنقاذ في العادة تكون مليئة بإشارات وإرشادات مختلفة!»

«أوافقك في هذا الرأي،» قال مارتنسون، «كما أن أكثر المستوردين للطوافات في مالمو يشاركوننا الرأي نفسه. ولكن حلّ هذه المشكلة يمكن أن نجده عند أحد حُرّاس السواحل، ألا وهو الكابتن أوستردال.»

«ومن يكون هذا؟» سأله فالاندر.

«إنه كابتن مُتقاعد كرس كل حياته تقريباً في سلك الجمارك وحماية البواخر، خمسة عشر عاماً في منطقة اركسوند، عشر سنين في أرخبيل كريتس. ثم انتقل بعدها إلى مدينة سمرسهامن وبقي هناك حتى أُحيلَ إلى التقاعُد وخلال سِني عمله الطويلة تنقل بين عدد كبير جداً من البواخر وصار لديه سجلَ حافل بأنواع القوارب المطاطية وطوافات الإنقاذ.»

«ومَن أخبرك بكل ذلك عنه؟» سأله فالاندر.

«كنت محظوظاً عندما اتصلت اليوم بحرس السواحل، فالذين ردوا على مكالمتي كانوا يعملون على أحد بواخر الجمارك التي كان أوستردال يعمل قبطاناً على متنها.»

«جيد،» قال فالاندر. «ربما يستطيع هذا الرجل أن يساعدنا.»

«لا يوجد أحد غيره يستطيع مساعدتنا،» قال مارتنسون بطريقة فلسفية. «وهو يسكن في الريف أو عند منطقة ساندهامرين. وقد فكرت أن أدعوه ليحضر إلى مركز الشرطة ويفحص الطوافة بنفسه. فهل هناك مانع من ذلك؟»

ثم استمع مارتنسون بتركيز لفالاندر وهو يتحدث عن الأشياء التي حصل عليها من مورث.

وعندما صمت كورت فالاندر قال مارتنسون:

«هذا يعني أننا ربما سنتعاون أو نعمل مع الشرطة الروسية. هل

مكسه

تتحدث اللغة الروسية؟»

«كلا، ولا كلمة،» ردّ فالاندر. «لكن هذا يعني أيضاً أنه يجب علينا مواصلة العمل.»

«هذا صحيح، على المرء أن يتفاءل دائماً.»

وبشكل مفاجئ سَرح مارتنسون مع أفكاره، ثم قال بعد أن صَمَت للحظات:

في الحقيقة أنا أشعر أحياناً بضرورة ترك بعض القضايا دون تحقيق، لأني أحس بأنها مُقرفة. لكونها دموية وغير واقعية. فمثلاً عندما كُنّا تلاميذَ في معهد الشرطة لم نتعلم شيئاً حول كيفية التعامل مع جُثث مُعَذبة مُلقاة في قارب مطاطي. فهذا القضية بالنسبة لي صعبة جداً مثل قصمة ظهر، مع العلم أني لم أزَل في الثلاثين من العمر.

تذكرَ كورت فالاندر أنه في السنين الأخيرة فكرَ في الشيء نفسه الذي يفكر فيه مارتنسون الآن، لأن مهنة الشرطة أصبحت صعبة جداً. فالمرء صار يعيش في عصر تظهر فيه جرائم ليس له فيها أي خبرة من قبل. وكورت فالاندر يعرف شخصياً أنه من الخرافة أن يصدق المرء أن الأسباب الاقتصادية هي التي دفعت الكثير من زملائه في الشرطة إلى تغيير مهنتهم والعمل حُراس أمن في شركات الحماية الخاصة أو في أعمال أخرى مختلفة. فهو يُدرك تماماً أن السبب الحقيقي الذي يكمن وراء ذلك هو أن هؤلاء الشرطة بدأوا يحسون بعدم الأمان.

ثم واصل مارتنسون كلامه:

«ربما كان من الواجب علينا أن نذهب إلى بيورك، ونطلُب منه أن يعمل لنا دورة أو تعليماً إضافياً في كيفية التعامل مع هؤلاء الناس المُعذبين.»

عندما سمع كورت فالاندر كلام مارتنسون لم يشعر بوجود لهجة ساخرة فيه، بل أحس بأن مارتنسون يشعر بحالة من عدم الأمان التي هو

مكسه

أيضاً يشعر بها أحياناً. لذلك رد عليه مواسياً:

«كل جيل من رجال الشرطة، وبدون استثناء يقولون الشيء نفسه.»

«لكنني لم أتذكر أن ريدبري قد شكا يوماً من هذا الأمر،» قال مارتنسون.

«يمكننا أن نستثني ريدبري،» ردّ كورت فالاندر. « ولكن قبل أن تذهب أريد أن أسألك عن ذلك الرجل الذي اتصل بك وبلّغَ عن الطوافة. هل شعرت من خلال لهجته بأنه كان شخصاً أجنبياً؟ أي غير سويدي الأصل؟»

«مطلقاً. لقد كان سويدياً ويتكلم بلهجة سكونه.»

«هل استنتجت من تلك المكالمة شيئاً آخر؟»

«كلا.»

نهض مارتنسون وقال:

«الآن هل يمكنني الذهاب إلى منطقة ساندهامرن لأبحث عن الكابتن أوستردال؟»

«الطوافة موجودة في الملجأ،» رد فالاندر. «أتمنى لكما حظاً موفقاً، ولكن قبل أن تذهب هل تعرف أين ذهب سفيدبري؟»

«لا أعرف بالضبط، لكنني أعتقد أنه منشغل مع دائرة الأرصاد الجوية.»

قاد كورت فالاندر سيارته وذهب إلى مركز المدينة لتناول وجبة الغداء، وفي المطعم تذكر الليلة العجيبة التي مرت عليه في المستشفى، واكتفى بصحن سلطة فقط.

قبل اللقاء الصحفي بقليل، عاد كورت فالاندر إلى مركز الشرطة وكتب عدة ملاحظات على ورقة صغيرة ثم ذهب إلى بيورك.

«أنا أكره اللقاءت الصحفية،» قال بيورك.» لهذا فأنا لا أطمح في

مكتبة

أن أصبح مديراً عاماً للشرطة السويدية. فاللقاءات الصحفية لا يمكننا أن نتجاوزها.»

دخلا إلى الغرفة التي سيلتقون فيها بالصحفيين. وتذكر فالاندر ازدحام الصحافة عليهم عقب وقوع الجريمة المزدوجة التي وقعت في ليناب العام الماضي، وقارنها مع اليوم، حيث لا يوجد سوى ثلاثة أشخاص في الغرفة. تعرف فالاندر في الحال إلى اثنين منهما، أحدهما كان صحفية من صحيفة (إيستاد اليهاندا) التي غالباً ما تكتب بشكل واضح عنه، والثاني كان صحفياً من هيئة تحرير صحيفة العمل الذي سبق أن التقى به مرتين. أما الثالث فكان قصير الشعر، وذا نظارات طبية، لم يسبق لفالاندر أن التقاه.

همس بيورك في أذن فالاندر متسائلاً:

«هل تعرف مَن مِن هؤلاء الثلاثة يمثل جريدة «سيدسفينسكا» ومن يمثل «داك بلادت» ومن يمثل الإذاعة المحلية؟»

«لا أعرف،» أجابه فالاندر. «لنبدأ الآن.»

تقدم بيورك إلى ذلك المجال الضيق في إحدى زوايا الغرفة، وبدأ كلامه بشكل متقطع وغير متناسق، وتمنى فالاندر لو أن بيورك توقف عن الكلام غير الضروري.

ثم جاء دور كورت فالاندر:

«القضية أن رجلين ميتين ساقتهما الأمواج إلى اليابسة عند ساحل منطقة موسبي في طوافة إنقاذ. وحتى الآن لم نستطع التعرف إلى هذين الميتين. في كلِ الأحوال لم تحصل أي حادثة بحرية يمكن ربطها بموضوع الطوافة. و لم نُبلَّغ حتى بفقدان أشخاص في البحر. نحن بحاجة إلى مساعدة شعبية من المواطنين كافة ومنكم أيضاً أيها السادة.»

لم يذكر شيئاً عن الرجل الذي اتصل، بل ذهب بشكل مباشر في

مكتبة

مناشدته لهم:

«نطلب ومن خلالكم طبعاً أن يتصل بنا أي شخص شاهد أو راقب شيئاً له علاقة بالموضوع.»

وقف بيورك مرة ثانية أمام الحاضرين وقال:

«حسناً، هذا كل ما لدينا، والآن هل لديكم أي سؤال؟»

تساءلت السيدة اللطيفة من جريدة إيستاد اليهاندا عن الأساليب الواجب اتخاذها لإيقاف حالة العُنف والجريمة غير الطبيعية التي بدأت تجتاح إقليم سكونه المُسالم.

أنكر بيورك حصول أي ارتفاع في أرقام جرائم العنف، وبدت السيدة الصحفية مُقتنعة بجوابه. أما الصحفي الآخر من هيئة تحرير صحيفة العمل لم يطرح أي سؤال. وبينما كان بيورك على وشك أن يُنهي اللقاء الصحفي، رفع الصحفي الشاب ذو النظارات يده ليسأل:

«لماذا لم تذكروا أن الرجلين في الطوافة كانا مقتولين؟»

نظر فالاندر بشكل سريع إلى بيورك.

«في الوقت الحاضر نحن لم ننته من تحديد سبب موت الرجلين،» رد بيورك.

«هذا غير صحيح، فالكل يعرف أنهما تعرضا لإطلاق نار في القلب.»

«أي سؤال آخر؟» قال بيورك، وقد شاهده فالاندر متعرقاً.

تضايق الصحفي الشاب وسأل من جديد:

«لماذا أسأل إذا كنتما لم تُجيبا بعد عن سؤالي الأول؟»

«لقد أجبتُك حسب ما لدي من معلومات متوافرة حتى الآن،» رد بيورك.

«هذا ليس من الحكمة.» علّق الصحفي وأردف، «سوف أسأل

مكسه

سؤالاً آخر هو: لماذا لم تقولوا إنكُم تشكّون أن القتيلين هما مواطنان روسيان؟ ثم لماذا تدعون إلى لقاء صحفي إذا كنتم لا تريدون الإجابة عن أسئلة الصحفيين، أو لا تقولون الحقيقة كما هي؟»

فكر كورت فالاندر مع نفسه في الحال: «هذه عملية تسريب أخبار ثانية وإلا كيف عرف هذا الشاب كل هذه الأشياء؟» وفي الوقت نفسه لم يفهم الأسباب التي دفعت بيورك إلى عدم ذكر هذه المعلومات التي ذكرها هذا الصحفي الشاب الذي كان مُحِقاً في استغرابه من حجب مثل هذه الحقائق.

ردّ بيورك:

«أشار المفتش كورت فالاندر قبل قليل إلى إنه حتى الآن لم تتضح هوية الرجلين الميتين. ولهذا السبب نحن نناشد المواطنين كافة ممن لديهم معلومات بهذا الخصوص أن يساعدونا بها، كما نتمنى طبعاً من الصحافة أن تنشر وتعمم طلبنا هذا كي يتسنى للناس معرفة ما نبحث عنه.»

دَسَّ الصحفي الشاب بشكل معترض دفتر ملاحظاته في جيبه.

في النهاية خاطب بيورك الحضور:

«شكراً على حضوركم.»

وعندما همّوا بالخروج أوقف كورت فالاندر الصحفية التي تعمل في جريدة إيستاد اليهاندا وسألها:

«من هذا الصحفي؟»

«لا أدري، لم أره مطلقاً من قبل. ولكن هل ما قاله كان صحيحاً؟»

لم يجبها فالاندر عن سؤالها، واستمر بسيره. السيدة كانت مؤدبة جداً إذ لم تلح.

لحق فالاندر ببيورك في الرواق وسأله:

«لماذا لم تقل كل الأشياء مثلما هي؟»

مكتبة

«هذا صحفي مزعج،» راح بيورك يهدر ويتمتم. «كيف استطاع أن يعرف كل هذا؟ ومَن بحقِّ الجحيم سَرَّبَ هذه المعلومات؟»

«ليكن كائناً من يكون،» رد فالاندر. «فالاحتمالات في ذلك مفتوحة، حتى لو كنت أنا!»

توقف بيورك فجأة ونظر إليه، لكنه لم يُعلق على جملته الأخيرة لأنه أراد أن يقول له ما وصله من تعليمات جديدة:

«وزارة الخارجية تريدونا أن نُهدئ من القضية.»

«لماذا؟» سأله فالاندر.

«يمكنك أن تسألهم، أتمنى أن نحصل على تعليمات إضافية قبل الظهر.»

رجع كورت فالاندر إلى مكتبه. شعر بشكل مفاجئ وكأنه يغُص بكل شيء في القضية، جلس على كرسيه وسحب أحد أدراج مكتبه، حيث كان يحتفظ بنسخة مصورة عن إعلان في الجريدة عن وظيفة شاغرة بدرجة رئيس أمن في مصنع الإطارات المطاطية في مدينة ترليبوري. تحت الإعلان وضع فالاندر طلباً للتعيين كان قد كتبه منذ عدة أسابيع. فالآن يجب أن يُفكر بشكل جدي بإرسال هذا الطلب. فهو لا يريد أن يستمر بالعمل مفتشَ شرطة في حال تحول هذا السلك المقدس عنده إلى ما يشبه لعبة كبيرة بالمعلومات. إذ يتسرب كل شيء، ويتعطل بدون أسباب. فبالنسبة له كان سلك الشرطة يُمثل الجدية في كل شيء. وقضية الرجلين القتيلين في طوافة الإنقاذ تطلبت منه تواجداً مستمرا. فهو لم يُفكر مطلقاً أن يعيش أو يعمل في مكان لا يضمن المبادئ الأساسية للأخلاق والعقلانية.

انقطعت سلسلة أفكاره عندما فتح سفيدبري الباب.

طأين كنت؟» سأله فالاندر.

نظر إليه سفيدبري مستغرباً وقال:

مكسه

«تركت ورقة على طاولتك! هل رأيتها؟»
بحث كورت فالاندر عن الورقة فوجدها قد سقطت على الأرض. وعندما قرأها عرف بأن سفيدبري سيلتقي بخبراء الأرصاد الجوية في مطار ستورب، فهزّ رأسه. ونظر إلى سفيدبري الذي واصل كلامه:
«أعتقد أني قد سلكت طريقاً مُختصَرة، فقد التقيت بأحد الشباب العاملين في المطار واسمه يـــان. ومن حُسن الحظ كنت أعرفه مسبقاً، إذ كنا دائماً نلتقي عند حافة (فالستربو) ونراقب الطيور العائدة أو المُهاجرة معاً هناك. وقد ساعدني هذا الشاب في تخمين الجهة التي جاءت منها طوافة الإنقاذ هذه.»
«أليست هذه مهمة الأرصاد الجوية؟» سأله فالاندر.
«فكرت أن طريقتي أسرع.»
ثم أخرج سفيدبري من جيبه عدة أوراق ملفوفة على بعضها بعضاً ونشرها على الطاولة، شاهد فالاندر على بعضها رسومات بيانية وجداول أرقام. وبدأ سفيدبري بالشرح:
«عملنا حسابات خاصة مبنية على افتراض أن الطوافة سيقت إلى هنا خلال خمسة أيام. ولأن الرياح كانت هادئة في الأسابيع الماضية، توصلنا إلى بعض النتائج التي بدت مقنعة.»
-»ما هي تلك النتائج؟» سأله فالاندر.
«الطوافة ربما سيقت إلى هنا من مسافة بعيدة.»
«وماذا يعني هذا؟» سأله فالاندر.
«ممكن أن تكون قد قدمت من بلدان مختلفة مثل آيسلندا، الدانمارك.»
نظر فالاندر بشك إلى سفيدبري، ثم سأله:
«هل هذا احتمال واقعي بنظرك؟»
« نعم، ويمكنك أن تسأل يـــان نفسه.»

مكتبة

«حسنا، اذهب إلى بيورك وقل له هذه الحكاية فإنه سيتصل مباشرة بوزارة الخارجية، ومحتمل نترك كل القضية ومتعلقاها بأيديهم.»

«نترك ماذا؟» سأله سفيدبري.

فحدثه فالاندر عن كل ما حصل بينه وبين بيورك هذا اليوم، ولاحظ أن سفيدبري أصبح يائساً.

«أنا لا أحب أن أترك شيئاً بدأت به، قال سفيدبري. حتى لو ترك بيورك القضية.»

«لا يوجد شيء أكيد بأننا سنترك القضية، أنا فقط أخبرتك بما يجري.» ردّ فالاندر.

ذهب سفيدبري إلى بيورك، بينما استمر فالاندر بدراسة طلبه للتعيين في مصنع الإطارات في تريللبوري. وطوال الوقت كانت الطوافة والقتيلان يتمرجحان في ذهنه.

في الساعة الرابعة تسلم تقرير مورث حول عمليات التشريح، وقبل الانتهاء من الفحوصات المخبرية استطاع مورث أن يقدم تقريراً أولياً. فالرجلان قُتلا قبل أسبوع، وجسداهما تعرضا لماء البحر المالح منذ مدة طويلة. أحدهما كان عمره ٢٨ سنة، والثاني أكبر منه بقليل. وكلاهما كانا يتمتعان بصحة جيدة قبل القتل. كما أنهما تعرضا للتعذيب وأسنانهما تمت معالجتها على يد طبيب أسنان في إحدى دول أوروبا الشرقية.

رمى فالاندر التقرير من يده ونظر عبر النافذة، كان الظلام قد حل. شعر بالجوع. ثم أجرى مكالمة هاتفية سريعة مع بيورك الذي أخبره بأن وزارة الخارجية سترسل إليهم تعليمات جديدة في صباح غد.

«إذن سأذهب إلى البيت،» أجاب فالاندر.

مكسه

«افعل ذلك!» قال بيورك. «حاول أن تسأل عن هذا الصحفي.»

في اليوم التالي عرفوا أن عناوين الصحافة كلها تتحدث عن اكتشاف مثير لجثتين على سواحل سكونه. في الصفحة الأولى قالت صحيفة إن المقتولين هما مواطنان روسيان. وقد تم إشراك وزارة الخارجية في الموضوع. أما الشرطة في إيستاد فقد تسلموا أوامر بالسكوت على الأمر. وطلبت الصحيفة من الشرطة أن يتحروا عن السبب الذي يكمن وراء ذلك.

الساعة قاربت الثالثة في هذا اليوم وقبل أن يقرأ فالاندر عناوين الصحافة حصلت بالإضافة إلى ذلك أشياء كثيرة.

مكتبة

٤

عندما وصلَ كورت فالاندر إلى مكتبه في مركز الشرطة بعد الثامنة في صباح اليوم التالي، حدث كل شيء مرة واحدة. فدرجة حرارة الجو عادت من جديد إلى الدرجة الموجبة، وبدأ المطر يترل بهيئة رذاذ على المدينة. نام كورت فالاندر ليلته جيداً، فهو الآن يشعر بالارتياح، ولم تعاوده آلام الليلة الماضية. الشيء الوحيد الذي كان يضايقه هو تفكيره بأبيه، وكيف سيكون مزاجه أثناء سفرهما معاً إلى مدينة مالمو هذا اليوم.

أقبل إليه مارتنسون، وبمُجرد أن شاهده فالاندر في الرواق، أدرك أنه يحملُ شيئاً مُهماً يودّ البَوح به، فالجميع في شرطة إيستاد يعرفون أن مارتنسون كُلما ازدادت حركته وكثُرَ خروجه ودخوله إلى غرفته، فذلك يعني أن شيئاً ما سيحصَل! وفعلاً بادر مارتنسون وقال بصوت عالٍ:

«لقد حل الكابتن أوستردال لُغز طوافة الإنقاذ. هل لديك وقت للتحدُث في ذلك؟»

«حسناً، أنا دائماً لدي الوقت وجاهز لسماع أخبارك،» أجاب فالاندر. «لنجلس في غرفتي، وحاول أن تنظر بطريقك إلى غرفة سفيدبري لتتأكد فيما إذا كان موجوداً.»

بعد عدة دقائق اجتمعوا. وبدأ مارتنسون بالحديث:

«في الواقع إن أناساً يمتلكونَ خبرات خاصة مثل الكابتن أوستردال يجب أن يتمَ إحصاؤهم، وعلى الشرطة العامة في السويد أن يؤسسوا قسماً أو هيئة مُهمتها الاهتمام فقط بهؤلاء الناس بُغية الاستفادة من خبراهم هذه.»

مكسه

هز فالاندر رأسه موافقاً، لأنه كثيراً ما فكر في الشيء نفسه. ففي هذا البلد يوجد الكثير من الأشخاص المُهتمين بجمع المعلومات الغريبة وفي مُختلف المجالات. فمثلاً قصة الرجل العجوز الذي كان يعمل في إحدى شركات تقطِيع الأشجار في منطقة ياريدال، إذ استطاع هذا العجوز قبل عدة سنين مضت مُعتمداً على خبرته الخاصة أن يُحدد الدولة التي تنتج أحد أصناف قناني البيرة التي عُثِرَ عليها في مسرح إحدى الجرائم التي لم يستطع خبراء الشرطة ولا حتى خبراء شركات استيراد الخمور أن يعرفوا مصدرها، وبذلك تمكن هذا الرجل من أن يُدين مُجرماً كان من المحتمل أن يُترك بدون عقاب.

ثم استمر مارتنسون قائلاً:

«الكابتن أوستردال أفضل من الكثير من الاستشاريين الذين يهيمون هنا وهناك ليتكسبوا بمعلوماتهم، لأنه شخص مُتعاون ويفرح عندما يُقدم خبراته مجاناً.»

«يمكنه أن يُحدِّد أي مبلغ مقابل خدماته،» رد فالاندر.

سحب مارتنسون دفتر ملاحظاته من جيبه وألقاه على الطاولة، كأنه صيادُ يرمي أرنباً بعد جولة صيد. ولاحظَ فالاندر أن مارتنسون أصبح مُتضايقاً، فأحياناً يكون مُرهقاً في مناوراته وأسلوبه ويتصرف كسياسي مُرشّح عن حزب الشعب في مدينة إيستاد.

بعد فترة من الصمت قال فالاندر:

«أنا مشدود ومتلهف لسماع النتائج.»

أردف مارتنسون:

«عندما ذهبتم جميعاً إلى بيوتكم يوم أمس، نزلنا أنا والكابتن أوستردال إلى الملجأ الذي توجد فيه الطوافة، وعملنا معاً لساعتين هناك. أدهشني الرجل وتمنيتُ أن أكون مثله في المستقبل، فهو يعرف متى يتخذِ القرار.»

«استمر!» ناشده فالاندر. فهو يعرف بما فيه الكفاية عن أطباع الرجال الكَبار في السن، فيكفيه أبوه عالقاً في ذاكرته.

صمت قليلاً وتابع:

«زحف الكابتن أوستردال حول الطوافة وكان طوال الوقت يشمها مثل الكلب قبل أن يقول إن الطوافة عمرها حوالي عشرين سنة، ومصنوعة في يوغسلافيا.»

«كيف استطاع أن يعرف ذلك؟» سأله فالاندر.

«ربما من طريقة التصنيع أو من مواد الخلط الداخلة فيها،» أجاب مارتنسون. ثم تابع، «كان الكابتن متأكداً جداً مما قال، وحدد المُصنّع بدون تردد، فسجلتُ في هذا الدفتر كل النقاشات التي دارت بيننا... لو تعلم كم أحبُ هؤلاء الناس الذين يعرفون عن ماذا يتحدثون!

«لماذا لا توجد أي إشارة على أن القارب مُصَنوع في يوغسلافيا؟» سأله فالاندر.

«إنه ليس قارباً. قال مارتنسون. «فأول شيء تعلمته من أوستردال هو أنها طوافة. كما أنه أعطاني تفسيراً واضحاً عن سبب عدم وجود أي إشارة على الطوافة تشير إلى أنها مصنوعة في يوغسلافيا. لأن اليوغسلافيين يبيعون هذه الطوافات إلى شركات التجهيزات البحرية الموجودة في كل من اليونان وإيطاليا التي بدورها تبيعها إلى الزبائن تحت أسماء مُستعارة. وهذا ليس غريباً في لغة السوق، إذ إن الكثير من الساعات تُصَنع في آسيا وبماركات أوروبية.»

«وماذا قال بعد؟» سأله كورت فالاندر بتشوق.

هزّ مارتنسون كتفه واستمر بالكلام:

«قال أوستردال الكثير. لدرجة أظن أنني الآن أحفظ تاريخ طوافات الإنقاذ عن ظهر قلب. إذ إن الطوافات استُخدمت في الماضي البعيد، وإن الجيل الأول من الطوافات كان مصنوعاً من القصب. أما الطوافة

مكتبة

التي عثرنا عليها فتُعتبر من الأنواع المألوفة في أكثر بواخر دول أوروبا الشرقية. أما بواخر الدول الإسكندنافية فلم تستخدم هذا النوع من الطوافات مطلقاً، لأنها غير مطابقة للمواصفات الهندسية في هذه الدول.»

«ولم لا؟» سأله فالاندر.

هزّ مارتنسون كتفيه وأجاب:

«مواصفاتها سيئة. وتتعطل بسهولة، فعملية خلط المطاط فيها دون المستوى.»

«إذا اعتبرنا تحليل الكابتن أوستردال صحيحاً،» عـقّب فالاندر. فهل من الممكن أن تكون طوافة الإنقاذ هذه قد جاءت مباشرة من يوغسلافيا، من دون أن تُجهز بماركات وهمية، كالإيطالية مثلاً؟ أي بعبارة أُخرى هل يمكننا أن نفترض إنها جاءت من باخرة يوغسلافية؟»

أجاب مارتنسون:

«ليس بالضرورة، فقسم من هذه الطوافات يذهب مباشرة من يوغسلافيا إلى روسيا. ضمن التبادلات التجارية الإجبارية التي كانت مستمرة بين موسكو والدول التي كانت تحت إمرَتها. وقد ادعى أوستردال بأنه شخصياً قد شاهد في إحدى المرات مثل هذه الطوافة بالضبط على إحدى بواخر صيد الأسماك الروسية في ميناء هيرادس.»

«يعني يُمكننا أن نُركز على أن الطوافة تعود لإحدى بواخر أوروبا الشرقية. علق فالاندر.

«هذا ما قصده الكابتن أوستردال،» رد مارتنسون.

«هذا جيد، على الأقل عرفنا شيئاً جديداً حول الطوافة،» ردّ فالاندر.

«ولكن للأسف حتى الآن هذه كل معلوماتنا حولها.» عقّبَ سفيدبري مُتدخّلاً في المناقشة.

«لو لم يتصل بنا ذلك الرجل لكانت معلوماتنا أقلّ من ذلك بكثير،» قال فالاندر. «ويبدو أن الطوافة قد سيقت من الجهة الأخرى من بحر البلطيق، وأن من كان على متنها ليسا سويديين.

ثم انقطع النقاش عندما طرق الباب أحد الموظفين الإداريين، وسَلّمَ فالاندر ظرفاً احتوى على بقية نتائج عمليات التشريح. وطلب فالاندر من سفيدبري ومارتنسون أن ينتظراه بينما أخذ هو يتصفح الأوراق. وجَفل في الحال أثناء القراءة وقال:

«حصلنا على شيء آخر، فقد وجد مورث شيئاً مثيراً في دم القتيلين.»

«إيدز؟» تساءل سفيدبري.

«كلا؟» أجاب كورت فالاندر وأردف، «بل مخدرات، جرعة عالية من المنشطات.»

«إذن، كان القتيلان مُدمنين من روسيا؟» عقب مارتنسون متسائلاً: «يا إلهي.. روس يُعذبون مُدمنَين ببدلتيهما المدنيتين ويقتلونهما. ثم يرمونهما في طوافة إنقاذ يوغسلافية الصنع. هذه في الواقع مصيبة تتجاوز حدود المعقول في القضايا التي تعودنا عليها مثل الإمساك بشخص يُصنِع خموراً في منزله، أو الإخبار عن مشاجرة في مكان ممنوع.»

«نحن حتى الآن لم نتأكد بأن القتيلين هما روسيا الجنسية، عقب فالاندر. فما نعرفه ما يزال في القاع، ولا يشكل شيئاً.»

ثم ضرب رقم بيورك على الهاتف وتكلم معه:

«أنا فالاندر، اجتمع الآن مع سفيدبري ومارتنسون في غرفتي، وأردنا أن نسألك فيما إذا وصلتك تعليمات جديدة من وزارة الخارجية.»

«لا شيء حتى الآن، لكنهم سيتصلون قريباً.» رد بيورك.

«حسناً، سأذهب إلى مالمو لعدة ساعات.» قال فالاندر.

«افعل ذلك،» رد بيورك. «وسأتصل بك عندما يتصل بي أحد من

مكسه

وزارة الخارجية. ولكن قل لي هل تعرضتَ لإزعاج بمجموعة أخرى منِ الصحفيين؟ فقد أيقظني أحدهم في الخامسة من صباح هذا اليوم وقال إنه من جريدة إكسبريس، وبعدها توالت المكالمات. لذا يمكنني القول إنني أعاني منهم.»

«أنا لا أهتم لهم. فهم بكل الأحوال يكتبون ما يريدونه فقط.» رد فالاندر.

«وهذا بالتحديد ما أعانيه اليوم،» رد بيورك. «فالتحقيق سيصبح مزعجاً إذا بدأت الصحافة بالمتاجرة به.»

«لكن في أحسن الأحوال ستعمل الصحافة على تشجيع أي شخص عرف أو شاهد شيئاً ما ليتصل بنا.» قال فالاندر.

«أشك في ذلك،» رد بيورك. «كما أني لا أحبُ أن يُوقظَني أحد في الخامسة صباحاً، لأن المرء بصراحة لا يعرف ماذا يقول إذا كان نصف مستيقظ.»

ثم أغلق فالاندر سماعة الهاتف وقال:

«يجب علينا أن نهدأ.»

ثم قال مخاطباً سفيدبري ومارتنسون:

«عليكما أَن تعملا وفقِ ما تَرَونه مطابقاً لآرائكما. أما أنا فلدي مهمة قديمة يجب عليّ إكمالُها في مالمو. يعني يُمكننا القول بأننا سنلتقي مرة أخرى هنا بعد فترة الغداء.»

ذهب كل من سفيدبري ومارتنسون. شعر كورت فالاندر بعدم الارتياح لأنه أعطى عذراً أو حُجة تتعلق بالعمل كي يُبرر ذهابه إلى مالمو، فهو يعرف أن رجال الشرطة مثل الكثير من منتسبي بقية الدوائر لديهم فرص كثيرة لاستخدام جزء من وقت العمل لإنجاز أعمالهم الخاصة. ولكنه مع ذلك لم يتقبّلها. وفكر مع نفسه: «أنا شخص من الطراز القديم، على الرغم من أن سني تزيد على الأربعين

بقليل..».

قاد فالاندر سيارته جنوباً باتجاه منطقة الأوستروديل بعد أن اتصل بالاستعلامات وأخبرهم بأنه سيعود بعد الظهر. استمر بطريقه عبر منطقة ساندسكوكن ثم انحرف باتجاه كوسبريه. حينها بدأت الريح تهب بقوة، وتوقفَ المطر الذي كان ينزل بهيئة رذاذ.

عند منطقة كوسبريه تزوّدَ بالوقود. الوقت كان مبكراً. فكر أن يذهب إلى الميناء. أوقف سيارته هناك، ثم راح يتمشى وسط العاصفة. كان الميناء مهجوراً وحتى الكشك الموجود فيه كان مُغلقاً. فكر حينها مع نفسه: «إننا نعيش في عصر غريب، فأجزاء كثيرة من هذا البلد تفتح أبوابها في أشهر الصيف فقط. أما في الشتاء فكل المحلات تُعلق لافتات تقول إنها مُغلقة الآن».

كان البحر فارغاً. وخالياً من أي باخرة...

تَجولَ فالاندر على صخور الساحل بالرغم من شعوره بالبرد، وفكر من جديد في قتيلي الطوافة: «مَن يكونان يا ترى؟ ما الذي حصل معهما بالضبط؟ لماذا تم تعذيبهما ثم قتلهما؟ ولم ألبسا بعد ذلك بدلتيهما الفاخرتين؟» ثم نظر في ساعته اليدوية، وعاد إلى سيارته. أخذ الطريق المستقيم إلى بيت أبيه الواقع في الأرض المنبسطة جنوب منطقة لودروب. كالعادة كان الأب واقفاً بجانب حمالة قديمة للوحات الرسم ومنشغلاً برسم إحدى لوحاته. دخل كورت فالاندر إلى المكان المشبع برائحة الألوان الزيتية والتربنتين بخطواته الواسعة التي اعتاد عليها منذ أيام الطفولة التي ما زالت محفورة في ذاكرته. واشتم الرائحة المُميزة المحيطة بأبيه أثناء وقوفه بجانب حمالة الرسم، والمنبعثة أيضاً من المناشف التي يمسح بها فرشاته التي لم يُغيرها منذ عدة سنين.

والد فالاندر يرسم دائماً اللوحة نفسها التي هي عبارة عن مشهد ريفي في يوم مُشمِس، وبين حين وآخر وحسب رغبة زبائنه، يضع الأب

مكسه

ديكاً برياً بشكل بارز في الجهة اليسرى من اللوحة، فهو ليس بالفنان المُتميز والماهر، لكنه أدار عمله بشكل نمطي شبه ثابت وبدون تغيير، و لم يُجدد أبداً في المنظر الذي يرسمه. حتى أن فالاندر في بداية شبابه اعتقَدَ أن هَذه الحالة سببُها الكسل وقلة الخبرة، لكنه مع مرور الوقت أدرك أن عدم التغيير أكسَبَ الأب الأمان والاستقرار في حياته الخاصة. ألقى الأب فرشاة الرسم، وَمَسح يديه بالمنشفة الوسخة. كان يرتدي بدلة عمل وحذاءه المطاطي المقصوص الذي يحتفظ به منذ زمن.

«أنا جاهز للسفر،» قال الأب.

«وهل ستُبدل ملابسك؟» اقترح فالاندر على أبيه.

نظر الأب إليه ُمستغرباً وقال:

«لماذا أبدل ملابسي؟ هل أصبحَ ضرورياً أن يُبدل المرء ملابسه قبل الذهاب للتسوق من أحد محلات بيع الأصباغ هذه الأيام؟»

أدرك فالاندر أن أي محاولة للنقاش تعتبر غير مُجدية. فوالده يتمتع بعناد غير محدود، كما أنه يصبح صعباً عندما يغضب، وحينها ستغدو الرحلة إلى مالمو شيئاً لا يُطاق.

«افعِل ما يُعجبُك يا أبي،» قال فالاندر.

«نعم. سأفعل ما يُعجبني!» رد أبوه بعصبية.

ثم ذهبا إلى مالمو. في الطريق كان الأب يتأمل الريف عبر زجاج السيارة

«كل شيء يبدو قبيحاً.» قال الأب بشكل مفاجئ.

«ماذا تعني؟» سأله فالاندر.

«أعني إن منظر سكونه قبيح ومُقفر في الشتاء، فالثلوج تغطي كل شيء فيها وتحول مشهدها إلى ما يشبه الصحارى الجرداء. فيصبح لون التراب رمادياً، الأشجار رمادية، وحتى السماء رمادية والأنكى من هذا

مكسه

كله يصبح الناس كلهم رماديين.

«ربما أنت على حق بذلك.» قال فالاندر.

«بالتأكيد أنا على حق، ولا داعي للمناقشة لأن سكونه فعلاً ذات منظر قبيح في الشتاء.»

كان معرض بيع الأصباغ يقع في مركز مالمو. كان كورت فالاندر محظوظاً عندما حصل على مكان لإيقاف سيارته بالقرب من المعرض. الأب يعرف بالضبط ما يريد: مناشف، ألوان، فراشي رسم، عدد من الشفرات لحك الألوان. عندما وصلا لمكان الدفع أخرج الأب من جيبه حزمة من الأوراق النقدية المُجعدة. بينما كورت فالاندر طوال الوقت مشغول بما يدور في ذهنه، حتى أنه نسيَ مساعدة أبيه في حمل الأشياء التي اشتراها إلى السيارة.

«الآن انتهيت من شراء احتياجاتي ويمكننا أن نعود إلى إيستاد،» قال الأب.

اقترح كورت فالاندر على أبيه التوقف في مكان على الطريق ليتناولا الغداء، واستغرب عندما رحب الأب بالفكرة. توقفا عند أحد فنادق الطريق في منطقة سفيدالا، وفي الصالة قال الأب:

«قُل لكبير النادلين أن يحجز لنا طاولة كاملة!»

«يا أبي هذا المكان معروف بأنه «اخدم نفسك بنفسك» فلا يوجد نادل هنا.»

«إذن لنذهب إلى مكان آخر.» قال الأب. «فإذا أردت تناول غدائك خارج البيت، فيجب تناوله في مكان يُهيئ لك من يخدمك.»

تأمل كورت فالاندر أباه مُشمئزاً من بدلة العمل الوسخة التي كان يرتديها. تذكر مطعم البيتزا الموجود في مدينة سكورب، فهناك سوف

مكسه

لا يهتم أحد لمنظر أبيه بهذه البدلة، ثم ذهبا معاً إلى سكورب. كلاهما طلبا طبق اليوم الذي كان بيتزا السمك. وأثناء تناولهما لوجبتيهما فكر فالاندر مع نفسه في أنه دائماً لا يحس بأبيه ألا في وقت متأخِر. ففي السابق فكر في أنه سوفَ لن يكون شبيهاً لأبيه. لكن في السنينَ الأخيرة تراجع كثيراً عن هذا الادعاء، فحتى زوجته مُنى التي هجرته قبل سنة، كانت في أكثر الأحيان تلومه لعناده وتحذلقه واهتمامه بنفسه فقط، وهذه كلها هي صفات أبيه، ومع ذلك كان يصِر على أنه سوف لن يكون شبيهاً له. ربما كان خائفاً جداً من أن يصبح مثل أبيـــــه حروناً لا يرى إلا ما يُريده هو فقط... ومن دون أن يعلم. لكن في الوقت نفسه فكر فالاندر في أن صفة العناد القوية لديه هي مُلازمة وضرورية لأي رجل شرطة. فالعناد هو الأساس لفهم القضايا الغريبة وغير الطبيعية. لولا عناده لتهدمت أغلَب التحقيقات الجُرمية التي كان مسؤولاً عنها. فلا يمكن أن نعتبر العناد داء في العمل، بل هو مُكمل له.

«لماذا أنت ساكت لا تتكلم؟» سأله أبوه قاطعاً سلسلة أفكاره.

«عفواً! أنا مشغَول بعض الشيء.» قال فالاندر معتذراً.

«لا أريد أن أكمِل رحلتي، ولا حتى تناول الغداء معك إذا بقيت هكذا ساكتاً.»

«ماذا عساي أن أقول؟» قال فالاندر.

«يمكنك أن تتكلم عن أحاسيسك، كيف تشعُر، حدثني عن ابنتك، يمكنك أن تحدثني عن محاولاتك في الحصول على امرأة جديدة.»

«امرأة جديدة؟»

«هل ما زلت مفجوعاً بمُنى؟» سأله الأب.

«أنا لم أُفجَع، ولكن هذا لا يعني أني سأبحثُ عن امرأة جديدة كما تقول.»

«لم لا؟» ردّ الأب.

«هل تعتقد أنه من السهل أن يحصل المرء على امرأة جديدة؟»
«وما الصعوبة في ذلك؟» سأله الأب.
«ماذا تقصد؟» سأل فالاندر.
«هل هناك صعوبة في فهم كلامي؟ أنا الذي أسألك... ماذا ستفعل لكي تعثر على زوجة جديدة؟»
«إذا كنت تقصد الجري وراء النساء والخروج هنا وهناك، أو زيارة أماكن الرقص والملاهي، أنا ليس عندي وقت لذلك.»
«أنا لا أقصد هذا. أنا أتساءل فقط. لماذا أنت تزداد غرابة سنة بعد أخرى؟»
وضع كورت فالاندر الشوكة جانباً وقال مستغرباً:
«أزداد غرابة؟»
«كان يجب عليك أن تفعل ما قلته لك منذ زمن! كان عليك أن لا تكون شرطياً.»
سمع كورت فالاندر أباه حتى النهاية، وفكر مع نفسه: «لقد رجعنا إلى النقطة نفسها التي بدأنا منها... لم يتغير شيء..».
وقفزت إلى ذاكرته؛ رائحة التربنتين التي ملأت كل شيء، في ذلك اليوم البارد من ربيع عام ١٩٦٧... كانوا حينها ما يزالون يسكنون في منطقة سميديان القديمة خارج منطقة ليمهامن في مالمو، ولكن بعد تلك الحادثة انتقلوا فوراً من هناك. ففي تلك الحقبة بالذات كان فالاندر ينتظر وصول رسالة مهمة، فلما شاهد سيارة البريد تقف بجانب صندوق بريد البيت، ركض مُسرعاً وفتح الصندوق وأخذ الرسالة، وبعَجَلة ملهوف مَزق ظرفها. ليعرف أنه مقبول في كلية الشرطة، وسيبدأ دوامه في فصل الخريف القادم. رجع مُسرعاً، وعبر باب البيت فَرِحاً واتجه نحو الغرفة الضيقة التي كان فيها والده واقفاً بجانب إحدى لوحاته، فصاح: لقد تم قبولي في كلية الشرطة يا أبي...

مكسه

لكن الأب لم يُهنِّئه، بل استمر بتلوين لوحته، حتى إنه لم يرفع عينه عن اللوحة أو يضع فرشاته جانباً. حتى الآن ما يزال فالاندر يتذكر اللوحة التي كان أبوه منشغلاً بها، التي كانت عبارة عن منظر غيوم ملونة بشمس الغروب الحمراء. وحينها أدرك أن أباه أصيب بخيبة أمل لقبوله في كلية الشرطة.

جاء النادل وحمل الأطباق الفارغة، ثم عاد يحمل كوبين من القهوة.

«هناك شيءٌ لم أفهمه مطلقاً حتى الآن! لماذا لا تُريدني أن أعمل في سلك الشرطة؟»

«افعل ما تشاء يا بُني.» رد الأب.

«هذا ليس بجواب!»

«لم يخطُر في بالي يوماً أن يأتي ابني إلى البيت ويجلس معي إلى طاولة العشاء، وأكمام قميصه مُثقله بديدان الجثث.»

جَفلَ كورت فالاندر عند سماعه الجواب، وردد مع نفسه مُستغرباً..

«ديدان جُثث تسري من أكمام قميصي؟!» سأل أباه، «ماذا تعني يا أبي بالديدان؟

لم يجب الأب، استمر برشف قهوته على مهل، ثم قال:

«الآن أنا جاهز.» يمكننا مواصلة السفر.

طلب كورت فالاندر قائمة الحساب ودفعها، وفكر مع نفسه: «سوف لن أحصل على أي جواب مطلقاً. ولن أفهم أبداً لماذا لا يُريدني أن أعمل في الشرطة».

عادا إلى منطقة لودروب. كانت الريح قد ازدادت قوتها. نزل الأب حاملاً مناشفه وألوانه إلى ورشته، وقبل أن يدخل البيت سأل فالاندر:

«هل سنلعب الورق قريباً؟»

«سوف آتي لهذا الغرض خلال عدة أيام يا أبي.»

telegram @ktabpdf

مكسه

ودع فالاندر أباه وعاد إلى إيستاد. و لم يستطع حينها أن يُحدّد حالته فيما إذا كان غاضباً أم مُتضايقاً مما سمعه من أبيه، حول مهنة الشرطة، بأن «ديدان الجثث تخرج من أكمام القميص...» وتساءل مع نفسه: «ماذا قصد أبي من ذلك؟».

في الساعة الواحدة إلا ربعاً أوقف سيارته أمام مركز الشرطة وذهب إلى مكتبه، وقرر حينها أن يطلب من أبيه جواباً مُحدداً عن سؤاله في اللقاء القادم. طرد فالاندر أفكاره وأجبَر نفسه على أن يكون رجل شرطة من جديد. وأول شيء كان عليه فعله هو الاتصال ببيورك. لكن قبل أن يذهب، رنَّ جرس الهاتف. رفع فالاندر السماعة، وأجاب في الحال:

«فالاندر.»

الصوت على الطرف الآخر كان مشوشاً. لم يكد يسمع شيئاً، فراح يُكرر اسمه... بعدها سمع فجأة صوتاً رجالياً يسأله:

«هل أنت الشخص المسؤول عن التحقيق بقضية طوافة الإنقاذ؟»

لم يتعرف فالاندر إلى الصوت، فالمتكلم يتحدث بطريقة سريعة، ومُرتبكة

«مَن المتكلم؟» سأله فالاندر.

«هذا لا يهم. فالأمر يتعلق بطوافة الإنقاذ تلك.»

عَدل فالاندر طريقة جلوسه على الكرسي. سحب إليه ورقة وقلماً، وواصل المكالمة:

«هل أنت الذي اتصلت قبل أيام؟»

«اتصلت؟» أجاب الرجل مستغرباً وأكمل:

«لا، لم اتصل!»

«عفواً، إذن لست أنت مَن اتصل ليخبرنا عن وصول طوافة الإنقاذ

مكتبة

للسواحل في مكان ما بالقرب إيستاد؟»

ساد الصمت مدةً طويلة. وجد فالاندر نفسه مضطراً للانتظار إلى أن سمع الرجل يقول:

«لا شيء...»

ثم انقطعت المكالمة.

كتب فالاندر ما جرى في المكالمة السريعة. وأدرك حالاً بأنه ارتكب خطأً جسيماً، فالرجل الذي اتصل أراد أن يتحدث عن القتيلين في طوافة الإنقاذ، لكنه تفاجأ عندما علم أن الشرطة تعرف بأنه قد اتصل بهم من قبل، وربما خافَ. لذلك قرر وبسرعة قطع المكالمة. واستنتجَ أخيراً أن الرجل الذي اتصل به اليوم، ليس الشخص نفسه الذي تحدث مع مارتنسون، بمعنى آخر؛ هناك أكثر من شخص يمتلكون معلومات حول الموضوع. هذه المكالمة، وتلك التي سبقتها ذكرته باستنتاج مارتنسون الذي قال:

«إن هناك أكثر من شخص شاهدوا المنظر بينما كانوا على متن إحدى البواخر. وفي هذه الحالة يجب التحقيق مع طاقم تلك الباخرة، إذ لا يجوز للمسافرين الصعود إلى سطح الباخرة أثناء فصل الشتاء. ولكن أي باخرة تلك؟ هل هي باخرة نقل مسافرين، أم قارب صيد أسماك. أم ربما باخرة نقل بضائع، أم إنها ناقلة نفط عملاقة من الناقلات التي تجوب بحر البلطيق؟»

دفع مارتنسون الباب بخفة وقال لفالاندر:

«هل حان الوقت؟»

قرر فالاندر مع نفسه عدم البوح بالمكالمة التي حصلت معه اليوم. وشعر بعدم الحاجة لتقديم خلاصة أفكاره لزملائه.

«حتى الآن لم أتحدث إلى بيورك.» رد فالاندر على مارتنسون.

«يمكننا أن نلتقي بعد نصف ساعة.»

مكتبة

ذهب مارتنسون، بينما اتصل فالاندر ببيورك في غرفته.

فقال له بيورك في الحال:

«كنت على وشك الاتصال بك، تعال عندي فلدي أخبار جديدة!»

فوجئ فالاندر بما سمعه من بيورك، الذي بدوره استمر بالكلام:

«سيزورنا مندوب من وزارة الخارجية ليساعدنا في التحقيق.»

«موظف من وزارة الخارجية؟ رد فالاندر وأردف متسائلاً، «وماذا يفهم موظفو وزارة الخارجية في التحقيقات والتحريات الجنائية؟»

«ليس لدي أدنى فكرة. لكن اتُّخذ القرار من فوق وإن مُوفدهم سيصل اليوم بعد الظهر. وستقوم أنت باستقباله في مطار ستورب في الساعة الخامسة وعشرين دقيقة.»

«اللعنة...!» قال فالاندر. «هل جاء هذا الموظف للمساعدة أم لمراقبة ما نقوم به؟»

«لا أعرف،» رد بيورك. «هذا بالنسبة للخبر الأول، والآن عليك أن تحزر مَن اتصل بنا أيضاً؟»

«رئيس الشرطة العام.» أجاب فالاندر.

جَفَلَ بيورك للإجابة.

«كيف عرفت ذلك؟»

«إنه مُجرد تخمين. وماذا يريد هذا هو الآخر؟»

«لقد طلب منا اتباع التعليمات بدقة.» رد بيورك. «كما أنه أرسل إلينا شخصين، أحدهما مُتخصّص بجرائم العنف، والآخر بالمخدرات.»

«وهل سأجلب هؤلاء أنا أيضاً من المطار؟» سأله فالاندر.

«كلا، سيتدبران أمرهما.»

فكر فالاندر قليلاً ثم قال:

«أعتقد إن كل شيء صار غريباً. فلماذا يأتي موظف من وزارة

مكتبة

الخارجية؟ وهل لوزارة الخارجية اتصالات بشرطة الاتحاد السوفيتي؟ أو دول أوروبا الشرقية؟»

«يجب أن يَسير كل شيء وفق الأعراف، هذا ما قالوه لي من وزارة الخارجية.» قال بيورك ثم صمت قليلاً قبل أن يعلق:

«ولكن ما معنى ذلك؟ في الحقيقة لا أعرف.»

«كيف يحصل ذلك؟ وأنت لا تملك أي معلومات واضحة.»

ضرب بيورك يديه بعصبية وقال:

«عملت رئيساً للشرطة منذ مدة طويلة كما تعرف، فعدت أعرف كيف تُسير الأمور في هذا البلد، ولكي أكون أكثر وضوحاً معك أنا أحياناً أُوضَع خارج مجرى الأحداث، وأحياناً أخرى أدخلُ في العمق وأرى وزير العدل يتحرك خلف الكواليس. ولكن عموماً وفي أغلب الأحيان استنتج بأنه لا يُسمح للسويديين أن يعرفوا إلا جزءاً بسيطاً مما يحصل.»

أدرك كورت فالاندر جيداً ما قُصده بيورك. ففي السنوات الأخيرة ومن خلال عدة فضائح قضائية كُشِفَ النقاب عن منظومة قنوات سرية مبنية في البنية التحتية الأساسية لَمنظمات حكومية، وقنوات تربط بين وزارات ومعاهد عديدة مُهمتها تغيير مفاهيم المجتمع. فالأشياء والنشاطات التي كانت مرفوضة والتعامل بها محظور صارت اليوم مقبولة. الجزء الكبير من هذه النشاطات يستمد قوته من الظلام والممرات السرية البعيدة عن المراقبة التي كان مُؤشراً عليها بعلامات استفهام.

انقطع النقاش بين بيورك وفالاندر عندما طرق سفيدبري الباب.

صاح بيورك: اُدخل....

دخل سفيدبري حاملاً إحدى الصحف المسائية

«انظرا إلى ما هو مكتوب هنا!» قال سفيدبري وأشار إلى الجريدة.

جَفَلَ فالاندر بمجرد أن نظر إلى الصفحة الأولى من جريدة المساء.

مكتبة

بعناوين كأنها عناوين حرب، تحدثت فيها الجريدة عن اكتشاف مثير لجثتين عند سواحل سكونه.

نهض بيورك من كرسيه وسحب الجريدة إليه. ثم قرأ محاورها المتتالية. فوجئ فالاندر عندما شاهد أن الجريدة قد نشرت له صورة غير واضحة. وتذكر في الحال أن هذه الصورة قد التقطَت له أثناء عمله في التحقيق بالجريمة التي وقعت العام الماضي في منطقة لينارب.

«التحريات تُدار من قبل مفتش الجريمة كنوت فالمان.»

كما أن أحد التحقيقات المصورة في الجريدة كُتِب فيه اسم فالاندر بالخطأ.

أزاح بيورك الجريدة جانباً وبان على قسماته الغضب بشكل أظهر بقعة حمراء في جبهته، تلك العلامة المميزة لاشتعال غضبه، حتى أن سفيدبري انسحب بحذر باتجاه الباب.

«كل شيء مكتوب هنا.» صاح بيورك.

«تماماً كأن الذي كتب المقال هو أنت يا فالاندر، أو سفيدبري. الصحيفة تعرف أيضاً بأن وزارة الخارجية ستشترك بالموضوع، وأن رئيس الشرطة العامة يُتابع التطورات بنفسه. ويعرفون أيضاً أن طوافة الإنقاذ يوغسلافية الصنع. إذن لديهم معلومات أكثر مما أعرفه أنا شخصياً عن القضية. هل يجوز هذا؟»

«ببساطة يجوز هذا.» رد فالاندر. «وقد جلبَ مارتنسون هذه الأخبار صباحاً.»

«قالها مارتنسون هذا الصباح... يا إلهي...» ردّ بيورك.

«ولكن متى لَحقَت هذه الصحيفة وطبعته؟»

مشى بيورك مشيته العسكرية في الغرفة، بينما ظل فالاندر ومارتنسون ينظر أحدهما إلى الآخر. فعندما يفقد بيورك السيطرة على نفسه، يتيه في تفسيراته اللانهائية للأمور.

مكسه

سحب الصحيفة، وقرأ عناوينها مرة ثانية بصوت عالٍ

«دوريات الموت السوفيتية. هذه أوروبا الجديدة تفتح السويد للإجرام ذي الطابع السياسي». وراح يصرخ:

«ماذا يقصدون بذلك؟ هل بإمكان أحدكم أن يوضح لي هذا الشيء؟ قل لي يا فالاندر؟»

«ليس لدي أي فكرة،» رد فالاندر. «لكني أعتقد أنه من الأفضل أن يهمِل المرء كل ما هو موجود في الصحف هذه الأيام.»

«كيف يستطيع المرء إهمال هذا؟ فابتداءً من هذه اللحظة ستُحاصرنا الصحافة.»

قال بيورك جملته الأخيرة وكأنه يتنبأ بما سَيحصل. ففي اللحظة نفسها رن جرس الهاتف. كان المتكلم أحد الصحفيين من جريدة «أخبار اليوم» يريد الحصول على لقاء لغرض كتابة تحقيق صحفي.

رفع بيورك سماعة الهاتف، واضعاً يده عليها كي يحجب الصوت عن المتحدث، ثم سأل زملاءه:

«ما الأفضل برأيكم، نُجري لقاء صحفياً. أم نُرسل رسائل صحفية؟»

«كلا الاختيارين،» اقترح فالاندر. «لكن انتظر قليلاً، فالأفضل أن نُجَري لقاء صحفياً يوم غد، عند حضور مبعوث من قبل وزارة الخارجية فقد تكون لديه وِجهة نظر مُعينة في ذلك.»

رد بيورك على الصحفي الذي كان ينتظر على الهاتف بدون أن يجيبه عن أي من أسئلته. غادر سفيدبري الغرفة تاركاً بيورك وكورت فالاندر يتناقشان حولَ كيفية تحرير رسالة صحفية مُختصَرة. نهض فالاندر ليذهب، فطلب منه بيورك أن يبقى، وقال:

«يجب أن نفعل شيئاً للحد من ظاهرة تسريب المعلومات. أنا أعترف بأني كنت مُخطئاً وساذجاً تماماً حين لم أُصَدقك عندما شكوتَ لي من

مكسه

هذه الظاهرة في العام الماضي، لما كنت تحقق في الجريمة التي حصلت في لينارب. لكنني أنكرتُ ذلك واعتبرته مبالغة منك. أما الآن أنا خائفٌ يا فالاندر، ولا أدري ماذا سأفعل؟ وأتساءل دائماً «ما العمل لإيقاف هذه الظاهرة؟»».

«تعلمتُ من العام الماضي أن هذه الظاهرة صارت أمراً واقعاً. اعترض فالاندر. يجب علينا التعايش معه.»

صمَتَ بيورك وفكرَ للحظات ثم قال:

«في الحقيقة أكثر الأحيان أفكرُ في أن من الأفضل للمرء أن يتقاعد. لأن العمل في هذا السلك بدأ يتعقَد، وفي أكثر الأحيان أشعر بأن الوقت يفلت مني.»

«هذا الشعور يراود الجميع،» أجاب فالاندر. «سأتوجه الآن إلى مطار ستورب لجلب مبعوث وزارة الخارجية. ما اسمه؟»

«تورن.» أجاب بيورك.

«تورن هل هذا اسمه الأخير؟»

«لا أعرف بالضبط.» أجاب بيورك.

رجع كورت فالاندر إلى غرفته، فوجد كلاً من مارتنسون وسفيدبري بانتظاره. قرر مع نفسه أن يكون اللقاء قصيراً... فتحدث إليهما عن المكالمة الهاتفية، وعن استنتاجاته بوجود أكثر من شخص شاهد طوافة الإنقاذ.

«هل كان المتكلم من منطقة سكونه؟» سأله مارتنسون.

هز فالاندر رأسه بالإيجاب، بينما واصل مارتنسون كلامه:

«إذن في هذه الحالة لو استثنينا ناقلات النفط والبواخر الكبيرة، فماذا سيبقى لدينا للتحري عنه؟»

«لم يبق سوى قوارب صيد السمك،» أجاب فالاندر. «لكن كم تتوقع عدد هذه القوارب الموجودة على طول سواحل سكونه

مكسه

الجنوبية؟»

«أعتقد الآن وفي شهر شباط يوجد العديد منها راسياً في الموانئ. ومن المحتمل أن نتوصل إلى شيء ما إذا دققنا في أمرها. لكن ذلك أيضاً يتطلب جهداً كبيراً.»

«سنقرّر ذلك غداً. رد كورت فالاندر. ثم أخبرهما عما دارَ بينه وبين بيورك حول تسريب المعلومات. فتضايقَ مارتنسون، وتصرّفَ بطريقة أوحَت وكأنه هو المقصود بذلك. أما سفيدبري فاكتفى فقط بهز كتفيه دليلاً على عدم القناعة.»

ثم أنهى فالاندر حديثه وقال:

«سوفَ لن يطولَ اجتماعنا أكثر هذا اليوم، فالآن يجِب أن أكتُب تقريراً شاملاً عن كل ما حَصَلَ حتى هذه الساعة. وعليكما أيضاً أن تفعلا الشيء نفسه، ثم بعد ذلك سنُطابق تقاريرنا مع التوجيهات التي سيأتي بها ممثل وزارة الخارجية، ومُمثِلي الشرطة العامة عن قسم الجرائم العنيفة وقسم المخدرات.»

وصل كورت فالاندر إلى المطار في وقت مُناسِب. كان لديه متسع من الوقت قبل موعد وصول طائرة تورن، فشرِب القهوة مع زملائه من شرطة الجوازات، واستمع لشكاواهم الاعتيادية المتعلقة بالرواتب وساعات العمل. في الساعة الخامسة والربع جلس فالاندر على الأريكة الموجودة خارج قسم تدقيق الجوازات، ينظرُ بين الحين والآخر إلى لوحة إعلان مواعيد الطائرات القادمة والمغادرة، متسائلاً مع نفسه فيما لو كان مبعوث وزارة الخارجية يتوقع أن يكون في استقباله رجل شرطة بزيه الرسمي، ثم ردَّ على نفسه بطريقة ساخِرة: «الأفضَل أن أضع ذراعي خلف ظهري وأقف هيئة الاستعداد، كي يعرفني في الحال!».

وراحَ يتأمل المسافرين المارين عبر البوابة، لكنه لم يلاحظ أي شخص ينتظر في مكان ما.

مكتبة

انتهى سيل المسافرين النازلين من الطائرة، فظنَ بأنه قد أضاع الرجل، تساءل مع نفسه: «كيف تكون هيئة أحد موظفي وزارة الخارجية؟ هل هو شخص عادي أم أنه دوبلوماسي؟ ثم كيف هي هيئة الشخص الدوبلوماسي؟»

وفجأة سمع صوتاً من ورائه يقول: «كورت فالاندر»

عندما التفت كانت أمامه امرأة في الثلاثين من العمر

«نعم أنا هو كورت فالاندر.»

خلعت المرأة القفاز من يدها اليمنى ومدّها لتصافحه قائلةً:

«اسمي بركيتا تورن. مبعوثة وزارة الخارجية، ولربما انتظرتني طويلاً، فشكراً لك.»

«هذا صحيح، لكنني جئتُ على الموعِد قبل قليل.»

ثم قالت بركيتا مُمازحة:

«صحيح أن عدد النساء العاملات في السلك الدوبلوماسي ليسَ كبيراً، ولكن هذا لا يلغي كون الجزء الأكبر من إدارة الشؤون الخارجية للسويد هو بأيد نسائية.»

«ألهذه الدرجة؟» رد فالاندر وأكمل، «عموماً أنا أُرحب بكِ، وأتمنى لك إقامة سعيدة في سكونه.»

اختلس فالاندر النظر إلى يدي بركيتا الملتفة حول مقابض حقيبتها. كانت بركيتا امرأة عادية، مظهرها يوحي بأنها لا تتمتع بشخصية حاسمة. لكنها تحرص أن تُبقي مسافة بينهما. وعندما أراد أن يساعدها في حمل إحدى الحقائب والتقت عيناه بعينيها، جذبَ انتباهه شيء فيهما، فاكتشف أنها تضع عدسات لاصقة، وعرفَ ذلك لأن زوجته مُنى كانت تفعل الشيء نفسه.

عندما رَكبا السيارة باتجاه إيستاد قالت بركيتا تورن:

«عندي حجز في فندق اسمه سيكل كورد.» صمتت هنيهة ثم

أردفت، «أعتقد أنك بُلّغت بوجوب إطلاعي على مواد التحري وملف القضية.»

«كلا، لم يُخبرني أحد بذلك.» ردّ فالاندر. وواصل، «ولكن نظراً لعدم وجود شيء سري في القضية، فكل ما يتعلق بها حتى الآن محفوظ في الملف الموجود في المقعد الخلفي.»

«شكراً لك،» ردت بركيتا.

«لدي سؤال واحد فقط: ما سبب مجيئكِ إلى إيستاد؟» قال فالاندر.

فردَت بركيتا بهدوء:

«الأوضاع المتغيرة في الشرق تدفع وزارة الخارجية إلى الاحتراس والحذر من كل الأحداث غير الطبيعية. هذا بالإضافة إلى أننا سنُساهم في المساعدة والاستفسار عن كل الأسئلة الآنية التي ستُطرح. وذلك من خلال إرسالها عبر قنواتنا الخاصة للدول المرتبطة بالشرطة الدولية.»

فكر فالاندر مع نفسه: «إنها تتكلم مثل السياسيين... فكلماتها واثقة، ولا يوجد في صوتها أي نبرة تردد...» ثم قال لها:

«الطوافة الآن موجودة في ملجـــأ المركز، هل تودين مشاهدتها؟»

«لا، شكراً. فهذا عمل يتعلق بالشرطة لا أريد التدخل فيه، ولكن من الطبيعي أن نجتمع غداً قبل الظهر. أُريد أن يكون لهذا الأمر أولوية.»

«هل يُلائمك أن يكون الاجتماع في الثامنة صباحاً؟» سألها فالاندر وأضاف، «ربما لا تعلمين أن الشرطة العامة ستُرسِل اثنين من المُحققين، أعتقد بأنهما سيصلان غدا.»

«لدي علم بذلك.» ردت بركيتا

كان فندق سيكل كورد يقع في أحد الشوارع الموجودة خلف الساحة.

مكسه

أوقف كورت فالاندر سيارته ومد يده ليُناولها الملف من المقعد الخلفي، ثم ساعدها في حمل الحقائب بعد أن أخرجها من صندوق السيارة.

«هل زُرتِ إيستاد من قبل؟» سألها فالاندر.

«لا.» أجابته بركيتا.

«إذن سأقترح أن تقدم شرطة إيستاد لك دعوة عشاء.»

طافت على وجه بركيتا ابتسامة خجولة وردت عليه:

«هذا لطفُ منكم. ولكن كما تعرف لقد جئتُ لإكمال جزء من العمل.»

تضايق كورت فالاندر قليلاً من ردها. متسائلاً مع نفسه: هل صحبة رجل شرطة من المناطق الصغيرة يُعتبر شيئاً غير مُحبب عند نساء ستوكهولم؟

«فندق كونتيننتل يقع في الجهة اليمنى من الساحة. وفيه تُقدم وجبة إفطار لذيذة، فهل تُريدينني أن أمرَّ عليكِ غداً لاصطحابكِ إلى هناك؟» قال فالاندر.

«شكراً لك، سأذهب أنا بنفسي إلى هناك، ولكن على أي حال شكراً لاستقبالك لي في المطار.» ردت بركيتا.

ذهب فالاندر إلى بيته. في الساعة السادسة والنصف مساءً شعر وبشكل مفاجئ بأنه مُتعب من كل حياته. فهو لم يُعانِ من الفراغ فقط، ولا من عدم وجود مَن ينتظره عند عودته إلى البيت، بل إنه شعَرَ بعدم قدرته على ترتيب نفسه من الداخل ليواكب الحياة. فسابقاً كان يشعر بالأمان في عمله كرجل شرطة إجرام، أما الآن فهو يشعر عكس ذلك. بدأ عنده هذا الشعور منذ العام الماضي عندما حقق في الجريمة التي وقعت في منطقة لينارب. وكثيراً ما تحدث فالاندر مع صديقه ريدبري بأن السويد كبلد بدأت أوضاعه تتغيـــر بالكامل نحو المجهول، وصارَ

مكسه

بحاجة إلى أجهزة شرطة من نوع آخر. فمنذ العام الماضي أيضاً بدأ فالاندر يشعر بعدم الكفاءة في كل يوم يمر عليه، وسيطرت عليه حالة عدم الأمان هذه بالرغم من كل المحاضرات التي اشترك فيها خلال هذا العام التي نظمتها الشرطة العامة.

تناول علبة بيرة من الثلاجة، وشغّل جهاز التلفاز وجلس على الأريكة. كان التلفاز يعرض برنامج الكازينو اليومي. وفكر من جديد أن يُقدم خدماته في معمل الإطارات المطاطية في مدينة تريلبوري. إنه بحاجة لهذا التغيير، فربما على المرء أن يُغير عمله بين الحين والآخر، وأن لا يعمل طيلة حياته في سلك الشرطة. بقي مُمَدداً على الأريكة لوقت مُتأخر من الليل. ثم ذهبَ إلى سريره لينام عند منتصف الليل. وما إن أطفأ النور حتى رن جرس الهاتف فقال مع نفسه: «أتمنى أن لا يحصل الشيء نفسه...مشاجرة قوية في منتصف الليل!».

جلس على سريره ورفع سماعة الهاتف. وحالاً تعرف إلى الصوت، الصوت نفسه الذي تحدث معه بعد الظهر. وبادرَ المتحدثُ حالاً بالكلام:

«ربما أعرف بعض الشيء عن طوافة الإنقاذ.»

«نحن بصراحة مُهتمون بأي إيضاح يصِلنا، ونُقدر أي مساعدة.» ردّ فالاندر.

«لكنني سوفَ لن أقول ما أعرفه، إلا إذا تعهدت لي الشرطة بعدم تثبيتي شاهداً في القضية، وألا يذكر عن اتصالي شيء.»

«يُمكنك أن تبقى شخصاً مجهولاً، إذا أردت.» رد فالاندر.

«هذا لا يكفي. بل يجب أن تتعهد الشرطة بأن لا يكشفوا النقاب عن أي اتصال هاتفي لأي شخص على الإطلاق في القضية.»

فكر فالاندر بسرعة، وتعهدَ في الحال للرجل. الذي أحسه ظلَ خائفاً ومُتردداً!

مكسه

«أتعهد لك بشرفي، وكرجل شرطة.» بادرَ فالاندر بالكلام.

«سوف لا أُدلي بالكثير.» رد الرجل.

«هذا ما ينبغي عليك فعله. وإذا كنت لا تثق بما أقول، فخُذ فرصتكَ واسأل عني. أنا شخصية معروفة، ولا أظنُ أن هناك شخصاً واحداً في هذا العالم يمكن أن يذكرني بسوء.» قال فالاندر.

ساد الصمت لدرجة أن كورت فالاندر سمع أنفاس الرجل. ثم فجأة سأله الرجل:

«هل تعرف أين يقع شارع الصناعة؟»

عرف فالاندر الشارع في الحال، فهو في المنطقة الصناعية، في الطرف الشرقي خارج مدينة إيستاد.

«اذهب إلى هناك بسيارتك. ادخُل بسيارتك في ذلك الشارع ذي الاتجاه الواحد وغير المسموح الدخول فيه من جهة إيستاد، غير مهم، ففي الليل يكون الشارع خالياً تماماً. هناك أطفئ المحرك والأنوار، وانتظر.»

«هل أذهب إلى هناك الآن؟» سأله فالاندر.

«نعم الآن.»

«وأين سأنتظرك؟ فأنت تعرف أن الشارع طويل جداً.»

«اذهب إلى هناك،» ردّ الرجل. «سأعثر حتماً عليك، يجب أن تأتي وحدك. وإلا فاعتبر هذه المحادثة مُلغاة.»

شعر فالاندر في الحال بأن هناك مصيبة زاحفة نحوه. وفكر بسرعة أن يتصل بمارتنسون أو سفيدبري ليطلب منهما المساعدة، لكنه في النهاية سلّمَ نفسه للأقدار، غير مُهتمٌ بما سيحصل. قال مع نفسه: «في كل الأحوال ماذا يمكن أن يحصل؟!».

ألقى عنه البطانية. وخلال دقائق كان في سيارته جالساً يرتجف، فدرجة الحرارة انخفضت إلى دون الصفر المئوي. بعد خمس دقائق

مكسه

انعطف بسيارته نحو شارع الصناعة المليء بِورشات تصليح السيارات والشركات الصغيرة المختلفة. الشارع مُظلم وخالٍ من الأضوية. قاد سيارته في الاتجاه المعاكس للسير حتى وصل إلى منتصَف الشارع. توقف وأطفأ الأنوار مُنتظراً في الظلام. أشارت الأرقامِ الخضراء لساعة السيارة إلى أن الوقت قاربَ الثانية عشرة والنصف ليلاً، دون أن يحصل شيء. قرر أن ينتظر حتى الساعة الواحدة. وإذا لم يحصل شيء فإنه سيعود إلى البيت.

لم يكتشف كورت فالاندر الرجل إلى أن وقف بجانب السيارة، وبسرعة أنزلَ زجاج السيارة ليكلمه، لكنه لم يستطع تشخيص ملامحه في الظلام. غيرَ أنه ميّزَ صوته عندما قال:

اتبعني بسيارتك.

ثم اختفى.

بعد عدة دقائق شاهد فالاندر سيارة تسير في الاتجاه المعاكس له، مُستخدمة الضوء الواطئ. أدار كورت فالاندر محرك سيارته متتبعاً سيارة الرجل إلى خارج المدينة. فجأة شعرَ فالاندر بالخوف.

مكتبة

٥

كان ميناء برانتفك مهجوراً، وأكثر أضويته مُطفأة. ما عدا نقاط إضاءة مُتفرقة تُسقط ضوءها على ماء البحر غير المستقر في الظلام. وتساءل كورت فالاندر مع نفسه: «قد تكون هذه الإضاءة الرديئة للميناء ناتجة عن عطل العديد من المصابيح، التي لم يتم تعويضها بمصابيح جديدة حسب حملات الترشيد التي اتبعتها البلدية مؤخرا؟... إننا نعيش في عالم مُظلم».

ظلت هذه الفكرة تسيطر عليه.

في هذه الأثناء اشتعلت ثم انطفأت أضوية الكوابح والكشافات الأمامية لسيارة الرجل. فأطفأ فالاندر بدوره أضوية سيارته وبقي جالساً فيها في الظلام. أشارت حينها أرقام الساعة الإلكترونية التي كانت أمامه إلى الواحدة وخمس وعشرين دقيقة، وفجأة بدأ مصباح جيب يلعب في الظلام. فتح فالاندر باب السيارة ونزل منها مُرتعشاً من برد الليل، وتوقف الرجل الذي حَمَلَ المصباح بيده على مسافة قريبة لا تتعدى عدة أمتار منه، لكن فالاندر لم يتمكن من تمييز ملامحه.

«سنذهب إلى الرصيف.» قال الرجل.

شعر فالاندر بالأمان عندما سمع الرجل يتكلم (بلهجة سكونه). وفكر في الحال: «إذن لا يوجد أي شيء يمكن أن يُهددني، ما دمت أتبادل الحديث مع المقابل بلهجة سكونه». فهو لا يعرف مطلقاً أي لهجة غيرها تمتلك القَدَر نفسه من الود والألفة، لكنه مع ذلك شعر بالتردد. وسأل الرجل:

«لِم سنذهب إلى الرصيف؟»

«هَل أنت خائف؟» رد عليه الرجل. «سنذهب إلى أحد القوارب هناك.»

مكسه

ثم أشاح بوجهه للأمام وتابعَ سيره، وتَبعه فالاندر الذي شعر فجأة بالريح الباردة تحز وجهه، توقفا أخيراً أمام أحد قوارب صيد الأسماك. كانت رائحة البحر وزيت الوقود قوية في المكان. أعطى الرجل مصباح الجيب لفالاندر وقال له:

«ركّزْ الضوء على أمكنة الرسو.»

حينها فقط ولأول مرة شاهد كورت فالاندر وجه الرجل، الذي بدا في الأربعين من العمر، أو ربما أكبر بقليل. بشرة وجهه كانت خشنة ومسفوعة بالشمس. يرتدي بدلة عمل زرقاء غامقة ومعطفاً رصاصياً، وقبعة سوداء غطت رأسه إلى أسفل جبهته. سَلَكَ الرجل طريقه عابراً حبال الرسو وتسلق إلى متن القارب. اتجه نحو مقصورة القيادة واختفى في الظلام فيما ظل فالاندر مُنتظراً إلى أن ظهر وبيده مصباح غازي.

«اصعد!» قال الرجل مخاطباً فالاندر.

أمسك كورت فالاندر الحافة الباردة للقارب بخفة، وتعَثّرَ أثناء سيره خلف الرجل.

«توازَن لئلا تسقط، فالماء بارد جداً.» قال الرجل.

تَبِع فالاندر الرجل إلى المقصورة الضيقة ثم إلى غرفة المكائن التي تنبعث منها رائحة وقود الديزل وشحوم التزييت. علقَ الرجل المصباح في خطاف مُثبت بالسقف بعد أن زاد من شدة إضاءته.

أدرك فالاندر بسرعة أن الرجل كان خائفاً جداً، لأنه كان يتحدَث بشكل سريع ومُرتَبِك، كما أن أصابعه كانت ترتجف.

جلس فالاندر على كرسي خشن مُغطى ببطانية قذرة. سأله الرجل في الحال:

«هل ستوفي بعهدك؟»

«أنا ألتزم دائماً بأي عهد أقطعه على نفسي.» أجاب فالاندر.

«هذا لا يُهمني يا سيد فالاندر، أنا أفكر بما يتعلق بي.»

مكسه

«كيف عرفت اسمي؟» سأله فالاندر.

«هذا ليس مهماً.» ردّ الرجل.

«هل شاهدت طوافة الإنقاذ الحمراء وفي داخلها رجلان ميتان؟»

«ربّما.» أجاب الرجل.

«وإلا لماذا اتصلت بي؟» قال فالاندر.

سحب الرجل قميصاً وسخاً كان بجانبه على المقعد وبدأ بالكلام:

«هنا، وراح يُشير بيده، رأيت هذه الطوافة. ففي يوم ١٢ الذي صادف الثلاثاء وفي الساعة الثانية من بعد الظهر اكتشفتُها وتساءلتُ حينها: مِن أين جاءت؟»

بحث فالاندر في جيوبه عن قلم أو أي شيء ليكتُب عليه، وبالطبع لم يجد. قال للرجل:

«تحدث لي ببطء، من فضلك، من البداية. في أي مكان اكتشفتها؟»

«لقد كتبتُ ذلك لكي لا أنساه.» أجاب الرجل وأكمل:

«فعلى مسافة ست دقائق بحرية، أي ما يقارب عشرة كيلومترات تقريباً من مدينة إيستاد، وباستقامة على خط الجنوب. سيقت الطوافة باتجاه الشمال. لقد كتبتُ المكان المضبوط بالتحديد.»

ثم مدّ الرجل يده وأعطى لفالاندر ورقة مُجعدة، حدد فيها مكان الطوافة بالضبط، ولكن بدون أرقام. ثم استمر بالحديث:

«لقد سيقت الطوافة بفعل الريح. ولو لم يترل الثلج لما استطعنا مطلقاً اكتشافها.»

انتبه فالاندر بسرعة وفكر بالعبارة التي سمعها تواً: «لما استطعنا اكتشافها» ولاحظ أن الرجل يتوقف كلما كان يقول كلمة (أنا) وكأنه يتذكر بأن عليه أن يقول جزءاً من الحقيقة.

استمر الرجل بالحديث:

مكسه

«جاءت الطوافة إلى الجهة اليسرى من القارب. سحبتها باتجاه الساحل. إلى أن شاهدتُ اليابسة، فقطعتُ الحبل عنها وتركتها في الماء.»

فكّر فالاندر في الحال:

هذا ما يُفسر وجود قطعة الحبل في الطوافة. فقد قطع هؤلاء الحبل مُضَحّين بقطعة منه، لأنهم كانوا مُستعجلين ومُرتبكين.

«هل أنت صياد سمك؟» سأله فالاندر.

«نعم،» أجاب الرجل.

فكر فالاندر مع نفسه: «كان عليك أن تقول كلا، فلقد كذبتَ مرة ثانية. فأنت تُكذب بشكل سيئ ومفضوح. كم أتمنى أن أعرفُ ما يُخيفك...».

كنتُ في طريق العودة إلى البيت. استمر الرجل بالحديث

«لماذا لم تُعط إشارة إلى خفر السواحل عبر جهاز الراديو الموجود في القارب؟» سألهَ فالاندر.

«لديّ أسبابي الخاصة.» ردّ الرجل.

أدرك فالاندر بأن عليه أن يُقلل من المخاوف التي تكتنف هذا الرجل، وإلا فإنه سوف لن يحصَل مطلقاً على أي شيء، وفكر في ضرورة إعطائه الأمان لكي يَثِقُ به أكثر. فقال له:

«يجب أنَ أعرف المزيد،» قال فالاندر. لأن ما تقوله الآن سوف أستَخدمه في التحريات. ولكن بالطبع بدون أن يعرف أحد بأنك قلت شيئاً أَو اتصلت.»

«لم يقل لك أحد، و لم يتصل بك أحد.» أصرّ الرجل.

لمعت فكرة خاطفة في ذهن فالاندر جمّعت كل الأحداث أمامه. فلا يوجد سوى تفسير واحد منطقي يدفع الرجل لأن يُدلي بإفادته ويطلب أن يكون شخصاً مجهولاً.. هو أنه لم يكن وحيداً على ظهر

القارب، ومن هنا يأتي خوف الرجل، وهذا ما توصل إليه من قبل عندما تناقش مع مارتنسون. لكنه الآن عرف بالضبط عدد طاقم القارب. إنهما اثنان، وليس أكثر. إذن فإن الشخص الثاني هو مصدر خوف هذا الرجل.

«سوف لن أذكر أبداً بأنك اتصلت بي.» قال فالاندر للرجل ثم سأله فجأة:

«هل القارب مُلكُك؟»

«وماذا سيؤثر ذلك؟» أجاب الرجل.

أيقن فالاندر بأن الرجل لا علاقة له بالقتيلين، وهو ليس أكثر من أنه كان على ظهر أحد القوارب واكتشف الطوافة بالصدفة وسحبها بطريقة لتقترب من اليابسة. هذا أقرب تفسير. لكن الغموض يكمن في هذا الخوف الكبير الذي يحمله الرجل نفسه.

ردد فالاندر مع نفسه: «مَن يا تُرى الرجل الثاني؟» وخمن في الحال مع نفسه قائلاً: لا بد أن يكون هذا «الرجل مُهرباً... مُهرب بشر، مُهاجرين، أو خُمور... وهذا القارب يستعمل للتهريب فقط، فلا توجد فيه الآن أي رائحة سمك».

«هل شاهدتَ أي باخرة قريبة عندما اكتشفت الطوافة؟» سأله فالاندر.

«كلا.»

«هل أنت متأكد تماماً من ذلك؟»

«أنا أقول الذي أعرفه فقط.»

«لكنك قلت بأنك كنت تتأمل ما حولك.» قال فالاندر.

أجاب الرجل بشكل حاسم جداً:

«كانت الطوافة موجودة في الماء منذ مدة طويلة. ومن غير الممكن الاعتقاد أنها رُميت حديثاً من إحدى البواخر.»

مكسه

«ولِمَ لا تكون كذلك؟» سأله فالاندر.
«لأَن الطحالب قد بدأت بالتجَمع فيها وكادت تُغطيها.»

لم يستطع فالاندر أن يتذكر بأنه قد شاهد الطحالب أثناء فحصه للطوافة، فردّ عليه:
«عندما عَثرنا عليها لم يكن هناك أي أثر للطحالب!»
«ربما أُزيحت عنها لما سحبناها باتجاه اليابسة. فكما تعرف الطوافة منخفضة ومُحتمل أن يكون هيجان الموج قد أثر فيها.»
«كم تعتقد مضى على الطوافة في الماء؟» سأله فالاندر.
«ربما أسبوع. لا أدري.. من الصعب تحديد ذلك.»
جلس فالاندر يُراقب الرجل، الذي كانت عيناه في حركه مستمرة. وأدركَ بأنه يستمعُ إلَيه بتوتر، فسأله:
«هل لديك شيء آخر تريد التحدث عنه؟ فكل ما تقوله ذو فائدة ومعنى.»
«أعتقد بأن الطوافة قد سيقَتْ من إحدى دول حوض البلطيق.»
«ولِمَ تعتقد ذلك؟ لماذا لَا تكون من ألمانيا مثلاً.»
«أنا أعرف هذا البحر. لذا أعتقد بأنها قَدمَت من جهة البلطيق.»
حاول فالاندر أن يرسم خريطة المنطقة بذهنه. بينما استمر الرجل بالكلام:
«لا يمكن أن تكون قد جاءت من ألمانيا. فالطريق من هناك طويل جداً، إذ يتوجب قطع السواحل البولونية كلها فيما لو افترضناها قَدِمَت من منتصف ألمانيا. إذن أعتقد أن هذا الافتراض غير منطقي.»
«لكن أثناء الحرب العالمية الثانية استطاعت الريح دفع العديد من الألغام، من مسافات بعيدة إلى اليابسة وبوقت قصير.» رد فالاندر.
بدأ الضوء المُنبعِث من المصباح يضعف شيئاً فشيئاً.

«أريد أن أقول شيئاً آخر،» قال الرجل وضم في الوقت نفسه خريطته البحرية الوسخة وأكمل:

«أريد أن أذكرك بوعدك لي.»

«على وعدي.» رد فالاندر بحزم وأضاف، «أريد أن أسألك سؤالاً آخر، لماذا أنت خائف إلى هذه الدرجة من مقابلتي؟ ولماذا طلبتَ أن تكون المقابلة في منتصف الليل؟»

«أنا لست خائفاً. لكن لا بأس لو اعتبرتني خائفاً. لدي أسبابي الخاصة..» ردّ الرجل.

أخفى الرجل خريطته البحرية في إحدى الملفات.

حاول فالاندر أن يبحث عن سؤالٍ آخر، قبل أن يتأخر الوقت. لم يشعر كلاهما بالحركة الخفيفة في هيكل القارب التي كانت أشبه بانحناءات احترام خفيفة لدرجة لم تُدرك. تسلق كورت فالاندر خارجاً من غرفة المكائن. وبشكل سريع حاول أن يُسلط ضوء مصباح الجيب على جدران مقصورة القيادة. لكنه لم يتمكن من الحصول على شيء أو علامة من شأنها أن تُسهل عليه معرفة هوية قارب السمك هذا.

على الرصيف، سأله فالاندر

«أين يمكنني العثور عليك عندما أحتاجُك؟»

«لا يمكنك ذلك.» ردّ الرجل.

فأنت سوف لن تحتاجني، قلت لك كل ما عندي.

سارا على الرصيف، حَسَب فالاندر خطواته. فكانت خطوته الثالثة والسبعون أول خطوة له على حصى الميناء. بعدها أخذ الرجل مصباح الجيب من فالاندر واختفى في الظلام، من دون أن يقول كلمة واحدة. بينما جلس فالاندر في سيارته لعدة دقائق قبلَ أن يُدير مُحركها. ثم أدرك أن عليه أن يقود سيارته خلف سيارة الرجل ليخرج من الميناء. وعندما وصل إلى الشارع الرئيسي خفف سرعته، ليتأكد فيما إذا كانت

مكتبة

خلفه سيارة أخرى، لكنه لم يرَ شيئاً.

في الساعة الثانية إلاّ ربعاً فتح فالاندر باب شقته. جلس بجانب طاولة المطبخ وراح يكتُب المحادثة التي دارت في غرفة محركات قارب صيد الأسماك. ثم فكر مع نفسه: «هل يمكن أن تكون الطوافة قد قَدِمَت من إحدى دول حوض البلطيق؟».

نهض من مكانه وخطا نحو الصالة. بحث في أحد الخزائن التي كانت تحتوي على كومة من الصحف الأسبوعية القديمة إلى أن عثر على أطلس مدرسي. ثم فتح الأطلس وبالتحديد في الخرائط التي تُغطي جنوب السويد وبحر البلطيق. ظن أن منطقة البلطيق بعيدة وفي الوقت نفسه قريبة جداً. ثم فكر مُخاطباً نفسه: «أنا لا أفهم إلاّ القليل عن البحر والعواصف والرياح. فليس من الحكمة أن يدعي المرء شيئاً غير متأكد منه».

فكر كورت فالاندر من جديد بخوف الرجل، والشخص الآخر الذي كان معه على متن القارب والسر الذي يُخفيانه. أشارت الساعة إلى الرابعة قبل أن يذهب فالاندر إلى سريره. تَمدد لمدة طويلة مستيقظاً على فراشه قبل أن يغفو.

استيقظ فالاندر من نومه. أدرك في الحال إنه نام مدة طويلةً. نظر إلى الساعة الموجودة على الطاولة الصغيرة المجاورة لسريره. كانت تشير إلى ٧:٤٦. قفز من السرير وراح يَشتُم وهو يرتدي ملابسه. دس في جيبه معجون الأسنان والفرشاة. في الساعة الثامنة إلا ثلاث دقائق أوقف سيارته أمام مركز الشرطة. لوحَت له موظفة الاستعلامات «إبا» بيدها وقالت:

«يجب أن تَمُر على بيورك.» ثم سألته:

«ماذا بك؟ هل نمتَ جيداً البارحة؟»

«لماذا؟» ردّ فالاندر متسائلاً.

مكتبة

ذهب بعدها لدورة المياه. وفيما كان ينظف أسنانه، حاول أن يُجمّع أفكارُه ويُهيئ نفسه إلى اللقاء الذي سيشرحُ فيه رحلته الليلية إلى قارب صيد السمك في ميناء برانتفك.

دلف فالاندر إلى غرفة بيورك فوجدها فارغة. توجه إلى صالة الاجتماعات الكبيرة في المركز. طرق الباب ودخل شاعراً وكأنه تلميذ مدرسة تأخر عن الدوام. وجد في الصالة ستة أشخاص مُجتمِعين حول طاولتها البيضوية، جميعهم شخصوا أبصارهم نحوه.

اعتذر فالاندر، وتهالك إلى أقرب كرسي فارغ. نظر إليه بيورك بحدة. تبادل مارتنسون وسفيدبري ابتسامات فضولية خفيفة. وارتسمت علامات السخرية على قسمات سفيدبري. إلى يسار بيورك جلست بركيتا تورن، بوجهها ذي الملامح غير الحاسمة. ثمة شخصان آخران لم يسبق لفالاندر أن شاهدهما من قبل. نهض فالاندر من كرسيه ودار حول الطاولة ليُسلّم على الحاضرين. كان الرجلان في سن الأربعين، وكلاهما كان ذا بُنية قوية، على وجهيهما ابتسامة مُجاملة. أحدهما قَدمَ نفسه باسم ستوره رونلوند والثاني اسمه بيرتل لوفين.

«أنا أُمَثِّل قسم الجرائم الخطيرة، قال لوفين. وهذا زميلي ستوره يُمَثل قسم المخدرات.

«كورت فالاندر أكبر مُحققينا خبرة.» قال بيورك مُقدماً فالاندر لهم، وأردف:

«تَفَضلوا.. لتناول القهوة...»

ملأوا الأكواب. افتتح بيورك الاجتماع:

«نحن بالطبع شاكرون لأي مساعدة نحصل عليها منكم. كما ترَون لا أحد يُمكنه تَجاهل اهتمام الصحافة بالجُثتين اللتين تم اكتشافهما. لذا من المهم جداً أن ندفع بالتحقيق إلى الأمام بقوة. وبالطبع فإن تورن قد حضَرَت إلى هنا لتُساعِدنا في تأمين الاتصالات الضرورية مع الدول التي

مكسه

ليس لها ارتباط بالإنتربول، وفي الوقت نفسه يسعدنا أن نستمع لآرائها وملاحظاتها فيما يتعلق بالتحريات أيضاً.»

ثم جاء دور كورت فالاندر، الذي اكتفى بإعطاء مُلخَص لما جرى. لم يتطرَق للتفاصيل الموجودة على الطاولة أمام كل شخص من الحاضرين، إذ زَوّد كل شخص بنسخة عن آخِر التحقيقات في القضية. لكنه أفاض في شرح سلسلة الفحوصات التي قَام بها والاستنتاجات التي توصل إليها. لما أنهى كلامه سأله لوفين عدة أسئلة لتوضيح بعض التفاصيل. بينما كان بيورك طوال الوقت ينظر إلى ما حوله في الغرفة.

وفي النهاية خاطب بيورك الحاضرين:

«والآن، كيف سنُسَيِّر الأمور؟»

شعَرَ فالاندر بالضيق مِن تبجيل ومدح بيورك لهذه المرأة المُمَثِّلة لوزارة الخارجية وهذين الرجلين المندوبين من الشرطة العامة في ستوكهولم. كما أنه شعر وكأنه حتى الآن لم يُنجِز شيئاً بالمرة، فهزَ برأسه إلى بيورك إشارةً منه ليسمح له بالكلام:

«هناك أشياء كثيرة تبدو لي غير واضحة،» قال فالاندر. ثم أخذ نفساً عميقاً وأردف:

«لا أقصُد بذلك حالة التحريات نفسها. لكن لَم أَفهم لماذا تتدخل وزارة الخارجية في عملنا كشرطة وتعتبر إرسالِ السيدة بركيتا تورن مُمثلاً عنها إلى إيستاد أمراً مهماً؟ كما أني لا أُصدق بأن الأمر بهذه البساطة، لا يتعدى كون وزارة الخارجية تُريد فقطَ تأمين الاتصالات التي نحتاجها مع الشرطة الروسية أو غيرها، لأن هذا الأمر يمكنهم إجراؤه عبرَ الفاكس ومن ستوكهولم. أعتقد أن وزارة الخارجية قرروا مُراقبة تحرياتنا. وهنا أودُ أن أعرف لماذا قرروا ذلك؟ وما هي الأشياء التي يُريدون مُراقبتها؟ كما أني بالطبع لا أنكر أن وزارة الخارجية يعلمون أشياء قد لا نعلمُها، لكن ما أقصده هو: ربما يوجد هناك طرف غير

مكسه

وزارة الخارجية قد قرر ذلك.»

أنهى فالاندر كلامه فسقط الجميع في الصمت، بينما استمر بيورك بالتحديق إلى فالاندر غاضباً. قطعت بركيتا تورن الصمت:

«لا يوجد أي سبب يدعوك للشك في أسباب قدومي إلى إيستاد. فالحالة السياسية المتغيرة في أوروبا الشرقية تتطلب منا كجهة مَعنية أن نُتابع تطوراتها.»

«إننا حتى الآن لم نعرف أن الرجلين من أوروبا الشرقية.» اعترض فالاندر، وتابع، «إلاّ إذا كنتم تعرفون شيئاً لم نعرفه نحن؟ في هذه الحالة بودي معرفة هذا السر.»

«أظن بأن من الأفضل أن نهدأ قليلاً.» قال بيورك.

«أُريد جواباً لأسئلتي،» اعترض فالاندر. «أنا غير مُقتنع بالجزء العام الذي يتعلق بالحالة السياسية غير المستقرة.»

فجأة أزاحَت بركيتا تورن عن وجهها الملامح العادية. صارت لهجتها أكثر حزماً. نظرت نحوه باستخفاف واضح في مُحاولة لإسكاته، حتى أن فالاندر قال مع نفسه:

وقعتُ حقاً في مشكلة.. وأي مشكلة، يظهر إني صرت واحداً من هؤلاء الحُفاة أو الجهلة المُتعَبين.

قالت بركيتا بحزم:

«الحالة مثلما قُلتها لكم. وأنت يا سيد فالاندر كُن واعياً وافهم بأنه ليس هنالك ضرورة لمثل هذه المناورة.»

هز فالاندر برأسه دلالة الموافقة المشوبة بالشك، والتفت صوب لوفين وورونلوند وسألهما:

«وأنتما ما هي تعليماتكما. فكما نعرف أن الشرطة العامة لا تُرسِل أحداً من موظفيها خارج ستوكهولم من دون أن يَصلَها طلب رسمي للمساعدة. وعلى حد عِلمي فإننا لم نطلب ذلك، أو ربما طلبناه — مُشيراً

مكسه

بذلك إلى بيورك بطريقة غير مباشرة.»

هزّ بيورك برأسه نافياً، بينما استمر فالاندر بالحديث:

«لنَقُل أن ستوكهولم قد قررت ذلك برغبة منهم. فما هو السبب يا تُرى؟ لتتوضحْ الأمور كي يُمكننا بعد ذلك التعاون معكم. فما يحصل الآن برأيي يجعلني أعتقد أن الشرطة العامة يشكّون في إمكانياتنا كشرطة في إيستاد.»

بان عدم الارتياح على لوفِن، بينما أجاب رونلوند عن أسئلة فالاندر، وفي صوته نبرة تعاطف:

«لقد أُرسِلنا إلى هنا لأن رئيس الشرطة العام ظَن بأنكم ربما تحتاجون إلى مساعدة، فوجودنا بينكم قد يُزيد من ثقتكم بأنفسكم، ولا شيء سوى ذلك. أنتم الذين تقودون عمليات التحري، أما نحن فسنكون مسرورين من طرفنا إذا قدمنا مُساعدة ما، كما أني وزميلي بيرتل لا نشكُ أبداً في إمكانياتكم في التعامُل مع القضية بأسرها. وأنا شخصياً أعتقِد بأنكم قد عمِلتُم خلال هذه المدة القصيرة بشكل سريع وهادِف.»

هَز فالاندر برأسه راضياً بهذا الاعتراف، وبادله مارتنسون الابتسامة، في حين استمر سفيدبري بنبش أسنانه بقطعة خشب صغيرة خلعها من طاولة الاجتماع.

«يمكننا الآن أن نبدأ بالتفكير في كيفية المُضي قُدُماً في القضية.» قال بيورك.

«ممتاز.» قال فالاندر وواصل:

«لدي عدة فرضيات أرغب في معرفة آرائكُم فيها، لكن قبل كل شيء أود أن أحدثكم عن مغامرة ليلية حصلت معي أمس.»

شعر فالاندر بالهدوء مع تلاشي شعور الحنَق الذي كان مُسيطراً عليه قبل قليل، فهو الآن قد أثبت قدراته أمام بركيتا تورن ولم ينهزم!

مكسه

رغم أنه لم يعرف حتى الآن سبب مجيئها إلى إيستاد، أما نبرة التعاطُف في صوت رونلوند فقد زادت مِن ثقته بنفسه. فتحدث لهم عن المكالمة الهاتفية وعن زيارته الليلية لقارب السمك في ميناء برانتفك. وخصوصاً تصريح الرجل وتأكيده أن الطوافة ممكن أن تكون قد سيقَت إلى هنا مِن إحدى دول البلطيق. في هذه الأثناء بادر بيورك بشكل غير متوقع واتصل بالاستعلامات طالباً منهم أن يحضروا خرائط حول كل المنطقة.
صَب فالاندر لنفسه المزيد من القهوة وتابع شرح أفكاره وفرضياته:

«كل شيء يُشير إلى أن الرجلين قد قُتلا على متن إحدى البواخر، أما لماذا لم تُغرق أجسادهم في أعماق البحَر فلدي تفسير واحد لذلك، وهو أن القاتِل أو القَتَلة أرادوا أو خططوا لأن تكون الجثتان هدفاً سهل الاكتشاف. وهذا بدوره ما لم أتمكن من إيجاد أي تفسير للدوافع المحتملة له، ولكن أعتقد أن رؤية الجثتين في الطوافة قد يُسرِع من وصولها إلى اليابسة، وكذلك فإن الرجلين قد تم إطلاق النار عليهما بعد أن تعرّضا للتعذيب، وكما نعرف فإن تعذيب الأشخاص يحصل دائماً إما لغرض الانتقام أو لغرض المساومة والحصول على معلومات معينة. والشيء الثاني الذي يجب علينا عدم نسيانه هو أن الرجلين كانا تحت تأثير المخدرات، أو المنشطات إذا أرِدنا الدقة. إذن يمكننا القول المخدرات وتُجارها متورطون في القضية، بالإضافة إلى انطباعي عن القتيلين بأنهما ميسورَا الحال؛ هذا ما دلَت عليه ملابسهما، وحسب مقاييس دول أوروبا الشرقية لَمن يرتدي مثل هذه الملابس والأحذية التي أنا شخصياً لن أتمكن مطلقاً أن أقتني مثلها في يوم من الأيام.»

انفجر لوفين بالضحك لدى سماعه آخِر جملة. لكن بركيتا تورن استمرت بالنظر إلى الطاولة.

«إذن فنحن نعرف الكثير تقريباً.» استمر فالاندر في الحديث:

«حتى وإن كُنا لا نستطيع أن نُجَمّع الأجزاء إلى بعضها لنُكمِل

مكسه

الصورة اللازمة لتوضيح القضية بالكامل والأسباب التي أدّت إلى قتل الرجلين. الذي نُريد معرفته الآن هو شيء واحد، ألا وهو هوية الرجلين، وأرى أن هذا ما يجب أن نُركّز عليه. كما يجب أن نفحص بدقة الرصاصات التي عثرنا عليها في الجثتين، كما أُريد مراجعة لكل الأشخاص المفقودين أو المطلوبين للعدالة في السويد والدانمارك، نجمع صورهم وبصمات أصابعهم، ونبعثها إلى الإنتربول فربما سنحصل على شيء يفيدنا. بالإضافة إلى ذلك يتوجب علينا حالاً الاتصال بالشرطة السوفيتية وشرطة دول حوض البلقان. هذا ربما ما ستجيبنا بركيتا تورن عليه!

«سنتصل اليوم بوحدة الشرطة الدولية في موسكو.» ردت بركيتا.

«يجب الاتصال كذلك بالشرطة في آيسلندا، لاتفيا، وليتوانيا.» اقترح فالاندر.

«هذا يحصل عبر موسكو.» ردّتْ بركيتا.

نظر فالاندر إليها بتساؤل، ثم التفت إلى بيورك متسائلاً:

«ألَم يَزُرنا وفد من الشرطة اللاتفية في الخريف الماضي؟»

«نعم، لكن الإجراء الصحيح هو بالضبط ما قالته بركيتا تورن.» رد بيورك وأضاف:

«فمن المؤكد أن هذه الدول لديها أجهزة شرطة خاصة بها، لكن الاتحاد السوفيتي ما يزال قائماً، وبالتالي فإن هذه الأجهزة في هذه الدول تتسلم قراراتها من موسكو.»

«أنا أتساءل فقط! وأعرف بشكل مؤكّد أن وزارة الخارجية يعرفون أكثر مني.»

«نعم. نحن نعرف أكثر من أي جهة.» قالت بركيتا.

حال انتهاء الاجتماع اختفى بيورك وبركيتا تورن في الحال. ففي الساعة الثانية بعد الظهر لديهم اجتماع مع الصحافة، أما فالاندر فظل

مكسه

جالساً في صالة الاجتماعات مع زميليه من الشرطة العامة يراجعون المعلومات المختلفة حول القضية. جلب سفيدبري كيساً بلاستيكياً فيه رصاصتان، تناولهما لوفين قائلاً:

«سأقوم بفحصهما في أسرع وقت.»

أما فالاندر ورونلوند فقد بدآ بتمشيط سجلات المفقودين والمطلوبين للعدالة بُغية الحصول على معلومات نافعة. وتعهد مارتنسون بالاتصال بالشرطة الدانماركية. في النهاية قال فالاندر:

«لا تهتما سنجيب أنا وبيورك عن أسئلة الصحفيين في اللقاء.»

«هل صحفيو سكونه مُزعجون مثل زملائهم في ستوكهولم؟» سأل رونلوند.

«لا أعرف شيئاً عن صحفيي ستوكهولم،» رد فالاندر. «لكن الموجودين هنا غير مريحين أبداً!»

قُضي ما تبقى من اليوم في تبادل الإشارات والرسائل مع جميع مراكز الشرطة في السويد وبقية دول شمال أوروبا لمراجعة سجلات المجرمين عندهم، عسى أن تظهر بصمات أصابع القتيلين في أحد السجلات. طلبت الشرطة الدولية المزيد من الوقت ليتمكنوا من تقديم الجواب، أما فالاندر ولوفين فقد دخلا في نقاش طويل حول موقف ألمانيا الشرقية الجديد وهل ستنضَمُ عضواً فاعلاً إلى الشرطة الدولية أم لا؟ ثم هل سيتم نقل ما لديهم من سجلات لَلمجرمين إلى مركز الحاسوب في ألمانيا الجديدة التي سُتغطي البلدين؟ وهل كان هناك على الإطلاق سِجل للمجرمين في ألمانيا الشرقية؟ وأين ذهبت الحدود بين الأرشيف العَام لشرطة الأمن وسجلات المجرمين في ألمانيا الشرقية؟! في النهاية تعهد لوفين بالبحث في كل هذه التساؤلات، بينما انشغل فالاندر بالتحضير للاجتماع الصحفي.

وعندما التقى فالاندر ببيورك قبل اللقاء الصحفي شعرَ بأنه كان

مكتبة

متحفظاً منه، ففكر مع نفسه:

ــ هل اعتقَدَ بيورك بأني كُنتُ وقِحاً مع السيدة الأنيقة التي جاءت من وزارة الخارجية؟

حضر في صالة الاجتماعات عدد كبير من الصحفيين وممثلي وسائل الإعلام المختلفة. جال فالاندر بنظره في الصالة فلم يلمح الصحفي الشاب الذي يعمل لصالح صحيفة الإكسبريس. كالعادة بدأ بيورك اللقاء الصحفي مُرَحِباً بالحضور، ثم هجَم بشكل مفاجئ على الصحافة التي تقوم بنشر ما سَماه معلومات خاطئة ومُضللة، بينما كان فالاندر سارحاً يفكر في رحلته الليلية إلى ميناء برانتفكَ قبل أن يأتي دوره في الكلام، فبدأ بمناشدة الناس وكل من شاهد الطوافة الاتصال بالشرطة حالاً. سأله أحد الصحفيين فيما إذا وصلتهم معلومات جديدة. أجاب بالنفي. اندهش الصحفيون من النتائج التي خرجوا بها من هذا الاجتماع، فيما بدا بيورك مقتنعاً بهذه النهاية. وعندما خرجا من صالة الاجتماع سأله فالاندر:

«ماذا تفعل الآن السيدة ممثلة وزارة الخارجية؟»

«تُقَضي أكثر الوقت بجانب الهاتف.» ردّ بيورك.

«أظن بأنك تَقصد بأننا يجب أن نتنصت على مكالماتها؟»

«الفكرة ليست غبية،» تمتم فالاندر ذلك بصوت مُنخفض.

انتهى اليوم بدون أن يحصل شيء يُثير الاهتمام. والآن لم يبق سوى انتظار النتائج التي ستأتي بها الخطوط العديدة التي حددوها في مناقشاتهم.

قبل السادسة عصراً وقف مارتنسون في مدخل غرفة فالاندر. سأله فيما إذا كان لديه مزاج لزيارته في البيت وتناول وجبة العشاء مع لوفين ورونلوند اللذين دعاهما، وأضاف:

«سفيدبري سيقوم بمهمة أُخرى. أما السيدة بركيتا تورن ستذهب

مكسه

إلى مالمو هذا المساء.»

«لا أستطيع ذلك،» رد فالاندر. «أنا للأسف مشغول هذا المساء.»

هنا قال فالاندر نصف الحقيقة، فهو لم يُحَدد بعد إذا كان سيذهب إلى ميناء برانتفك ثانية ليُلقي نظرة دقيقة على قارب السمك هناك.

في الساعة السادسة اتصل بأبيه مثل كل يوم، فأبوه طلب منه أن يشتري علبة ورق لعب في الزيارة القادمة. انتهت المكالمة. لاحظ فالاندر أن الريح قد هدأت والسماء صارت صافية. عاد إلى بيته، وفي الطريق توقف عند أحد محلات بيع المواد الغذائية واشترى احتياجاته المترلية. في الساعة الثامنة تناول عشاءه. انتظر قلقاً القهوة لتجهز فلم يقرر حتى الآن فيما إذا كان سيذهب إلى ميناء برانتفك أم لا. لكنه في الوقت نفسه فكر بتأجيل الزيارة ليوم غَد لأنه مايزال منهكاً من رحلته في الليلة الماضية. ظل جالساً بجانب طاولة المطبخ مدة طويلةً. وحاول فيها تخيّل صديقه ريدبري يُشاركه في هذه الخلوة ويحاوره حول أحداث اليوم مراجعاً التحقيق خطوة بخطوة مع ضيفه غير المرئي:

ــ حتى الآن مرت ثلاثة أيام على وصول الطوافة إلى اليابسة عند منطقة موسبي. وهذه الطوافة كان فيها قتيلان، وإذا لم نتمكن من تحديد هوية القتيلين فسوف لن نتقدم خطوة في حل هذه القضية، وسيبقى كل شيء لُغزاً.

وضع فالاندر كوب القهوة على طاولة الغسيل. وانتبه إلى شتلة الورد الذابلة على حافة النافذة، فنهض وسقاها بالماء، ثم ذهب إلى صالة الشقة، ووضع في جهاز التسجيل قرص موسيقى للفنانة ماريا كالاس. وأثناء سماعه لمقطوعة «لا ترافيتا» قرر أن يؤجِل رِحلته إلى قارب السمك.

في وقت متأخر من تلك الليلة اتصل هاتفياً بابنته ليندا التي

مكتبة

تدرُس في الجامعة في ستوكهولم. إلا أنها لم ترد. تمدد على فراشه في الساعة الحادية عشرة ليلاً ونام في الحال.

في اليوم التالي، اليوم الرابع من التحقيق، وقبل الساعة الثانية بعد الظهر بقليل حصل ما كان ينتظره الجميع. حيث تقدمت بركيتا تورن إلى فالاندر وسَلّمته ورقة الفاكس التي تسلمتها من أحد الضباط من ذوي الرُّتَب العالية في شرطة موسكو جاء فيها أن الشرطة في لاتفيا، وبالتحديد في ريغا يُخبرون وزارة الخارجية السويدية بأن الجثتين اللتين عُثر عليهما في الطوافة التي اكتُشفت عند السواحل السويدية كانتا لمواطنين لاتفيين، ولكي يُدفَع البحث في هذه القضية قدُماً، اقترح العميد ليتفينوف في شرطة موسكو على زملائه في وزارة الخارجية السويدية أن يتصلوا مباشرة بقسم الجرائم الخطيرة في شرطة ريغا.

«إذن هذا كل شيء. الحل إذن عند الشرطة اللاتفية.» قال فالاندر.

«وَمن يُمكنه نفي ذلك؟» اجابت. «لكنك إذا خاطبتَ ريغا مباشرة لواجهتَ تعقيدات دبلوماسية شتى من شأنها أن تجعل الحصول على الجواب أمراً غير مؤكد، إذ لا يمكننا تجاهل الحالة غير المستقرة في لاتفيا.»

أدرك فالاندر ما ذهبت إليه بركيتا. فحتى الآن لم يمضِ شهر واحد على ما قامت به القوات العسكرية الروسية الخاصة التي يُسموها بـــ(ذوي البيريات السوداء) بقصف مبنى وزارة الداخلية في مركز العاصمة ريغا حيث قتل حينها العديد من الأبرياء، وتذكر أنه قد شاهدَ في الصحف صوراً للمتاريس التي كانت مبنية من الأحجار وقضبان الحديد الملحومة ببعضها، لكنه لم يدرك ما سيحصل، فهو قليل المعرفة بما يدور حوله.

«وماذا ستفعلون الآن؟» سألها فالاندر.

«ما نزال نُرتّب اتصالاتنا بالشرطة في ريغا، فقبل كل شيء يجب أن

مكسه

نحصل منهم على تأكيد بأن الفاكس الذي وصلنا من موسكو يتعلق بالرجلين نفسيهما.»

قرأ فالاندر الفاكس مرة أخرى، وفكر مع نفسه: «من الواضح أن الرجل صاحِب قارب السمك كان مُصيباً جداً. فالطوافةُ سيقت فعلاً من إحدى دول حوض البلطيق». إذن حتى الآن نحن غير متأكدين من جنسيتهما؟ قال فالاندر متسائلاً مع نفسه

بعد ثلاث ساعات عرف فالاندر الحقيقة من خلال مكالمة هاتفية من ريغا حيث اجتمعت مجموعة التحريات في صالة الاجتماعات، وكان بيورك متوتراً لدرجة أنه سكبَ القهوة على بدلته.

«هل يوجد فيكم مَن يتكلم اللغة اللاتفية؟» سألهم فالاندر وأضاف:

«أنا لا أجيدها.»

«لا عليك فالمكالمة يُمكن تحويلها إلى اللغة الإنجليزية.» قالت بركيتا تورن.

«نفذ أنت المكالمة.» قال بيورك لفالاندر.

«لغتي الإنجليزية غير مضبوطة.» رد فالاندر.

«بالتأكيد أيضاً لن تكون لغة المتحدث جيدة.» قال رونلوند وأضاف، «ما اسم المتكلم؟»

«العميد ليتفينوف من شرطة موسكو.» ردت بركيتا تورن.

بدأت المكالمة في الساعة الخامسة وتسع عشرة دقيقة. وكان الخط واضحاً بشكل مثير. سمع فالاندر صوت شخص قدم نفسه – العقيد ليبه من شرطة الإجرام في ريغا. كان فالاندر يكتب أثناء استماعه للهاتف، وبين حين وآخر كان يجيب عن سؤال ما. فالعقيد ليبه كان يتكلم اللغة الإنجليزية بشكل سيئ جداً. ولم يُصدق فالاندر قدراته عندما فهم كل ما قاله العقيد. عندما انتهت المكالمة كان قد كتب جميع الأشياء المهمة

مكسه

في دفتر ملاحظاته. وأهم ما جاء فيها اسمان هما:

«يانس ليه و يورس كالنس.»

«إذن تم تعريف الرجلين،» ردد فالاندر مع نفسه.

«بصمات الرجلين موجودة في ريغا، وحسب ما ادعى العقيد ليبه فإن الجثتين اللتين عثرنا عليها هما لهذين الشخصين.» قال فالاندر.

«ممتاز!» قال بيورك. «ومَن يا تُرى هذان السيدان؟»

قرأ فالاندر في دفتر ملاحظاته ما كتبه عنهم: «إنهما مُجرِمَان مَشْهوران». قالها فالاندر باللغة الإنجليزية وبلهجة سويدية

«وهل لدى العقيد ليبه فكرة عن سبب قتلهما؟» سأله بيورك.

«كلا.» رد فالاندر وأضاف:

«العقيد اللاتفي لم يكن متفاجئاً. وإذا كنتُ قد فهمته بشكل صحيح، فإنه سيُرسل بعض الوثائق التي ستُعزز ذلك. كما أنه سألني إذا كُنا مهتمين حقاً بالموضوع فإنه سيُرسِل لنا مجموعة من رجال الشرطة اللاتفية ليساعدونا في التحقيق.»

«ممتاز جداً.» قال بيورك وأضاف، «هذا أفضل شيء، فإرسال شرطة لاتفيين سيمكنُنا من الحصول على المعلومات بشكل أسرع.»

«وزارة الخارجية ستدعمكم في هذا الاتجاه،» قالت بركيتا تورن.

في اليوم التالي، أي اليوم الخامس من التحقيق، أرسل العقيد ليبه فاكساً ذكَرَ فيه أنه شخصياً سيصل غداً بعد الظهر إلى مطار آيرلند في ستوكهولم ثم سيطير مباشرة إلى مطار ستورب.

«ماذا يعني أن يحضر عقيد شرطة ليُتابع التحقيق؟» قال فالاندر.

«لا شيء. أنا شخصياً في بعض الأحيان أشعُر بأني برتبة عريف في هذه المهنة.» ردّ مارنسون.

رجعت بركيتا تورن إلى ستوكهولم. فكر فالاندر في أنه سوف لن يراها أبدا. الآن أصبح من الصعب عليه تخيُّل مظهرها أو صوتها. ردد

مكسه

مع نفسه: «سوف لن أراها مطلقاً، لكنني في الوقت نفسه لم أتمكن من معرفة سبب مجيئها إلى هنا!».

أخذ بيورك على عاتقه استقبال العقيد اللاتفي في المطار. وهذا يعني أنه سيكون لديه الوقت الكافي للعب الورق مع أبيه هذا المساء. في طريقه إلى بيت أبيه في لودَ روب فكر في أن المشكلة المتعلقة بالرجلين القتيلين اللذين ساقتهما الأمواج إلى اليابسة في منطقة موسبي سوف تنتهي، فرجل الشرطة اللاتفي الذي سيأتي يمكن أن يعطينا فكرة مفيدة. بعد ذلك التحقيق كله سيُنقل إلى ريغا، فمحتمل أن القتلة موجودون هناك، صحيح أن الطوافة ساقتها الريح إلى سواحل السويد. لكن أصل القَتَلة والضحيتين في الجهة الأخرى من البحر. إذن حتى الجثتان ستُعادان إلى لاتفيا... فحل لغز القضية هناك.

لكن هذا الاستنتاج كان خاطئاً تماماً، ففي النهاية لم يبدأ أي شيء سوى أن الشهود سيحضرون إلى سكونه...

مكتبة

٦

تَخَيلَ كورت فالاندر مع نفسه أن العقيد ليبه سيحضَر إلى مركز شرطة إيستاد مُرتدياً الزي الرسمي للشرطة اللاتفية، لكن في صباح اليوم السادس من التحقيق، قدّمَ بيورك الرجل ليُعرّفه إلى فالاندر. كان يرتدي بدلة مدنية رصاصية اللون فضفاضة وربطة عنق غير مُنسجمة معها، علاوة على ذلك كان قصير القامة، أحدبَ، دون رقبة، بحيث أن فالاندر لم يتمكن من اكتشاف أي ملامح عسكرية عليه. كان العقيد اسمه الأول كارل، وكان مُدخناً من الدرجة الأولى، بحيث بدت أطراف أصابعه صفراء من تأثير النيكوتين.

وعادة التدخين لدى العميد اللاتفي خلقت مشاكل عديدة في مركز الشرطة. إذ اشتكى إلى بيورك جميع الذين يُعارضون التدخين، فدخان هذا الضيف قد ملأ كل مكان، حتى الأمكنة التي فيها التدخين ممنوع، مع ذلك فقد طلب بيورك منهم أن يُظهروا الاحترام للضيف، لكنه اضطر في النهاية أن يطلب من فالاندر إخبار الضيف بضرورة احترام الأماكن التي فيها التدخين ممنوع.

عندما شرح فالاندر بلغته الإنجليزية المُتعثرة معارضة السويديين للتدخين. هزّ العقيد كتفه وأطفأ سيجارته، ولم يُدخن بعدها إلا في غرفة فالاندر أو صالة الاجتماعات. ولما لم يعد فالاندر هو أيضاً يتحمل التدخين، فقد ذهب إلى بيورك وطلب منه أن يُخصص مكتباً خاصاً للعقيد خلال مدة إقامته في إيستاد. وبالفعل خصصت في النهاية غرفة سفيدبري مكتباً للعقيد المدخن، ونُقِلَ مكتب سفيدبري مؤقتاً إلى غرفة مارتنسون.

مكسه

كان عقيد الشرطة اللاتفي يُعاني من قصر شديد في النظر. فنظارته الهادلة أمام عينيه توحي بضعف نظره، حتى أنه عندما يقرأ الورقة يرفعها لتصبح على بُعد بضعة سنتمترات من عينيه، فيظن مَن يراه أنه لا يقرأ الورقة، بل يشمّــها، وهذا ما جعَلَ مِنَ الصعب على من يشاهده الإمساك عن الضحك. أدرك فالاندر مغزى التعليقات الخالية من الاحترام للعقيد اللاتفي الأحدب التي يسمعها بين حين وآخر في الرواق، وراح يكبحها بهدوء.

اكتشف فالاندر أن العقيد ليبه رجل شرطة مُتمرس وذو نظرة حادة بالدرجة نفسها التي كان ريدبري يتمتعُ بها، رغم أن التحقيقات الجُرمية تتبع دائماً الروتين، إلا أن العقيد لم يعتد على اتباع الأفكار السقيمة في تحليلاته. يضاف إلى أنه سريع الغضب، ويخفي وراء مظهره البسيط ذهنية حادة تكشف عن مُحقق جرائم متمرس وغني الخبرة.

كان الطقس بارداً وعاصفاً في صباح اليوم السادس. وحسب تخمينات الأرصاد الجوية كانَ مِنَ المُتوقَع أن يُغَطى سائر إقليم سكونه بعاصفة ثلجية في مساء ذلك اليوم، فالسماء ملبدة بالغيوم، وبسبب انتشار وباء الإنفلونزا في تلك المدة كان العديد من رجال الشرطة يتمتعون بإجازات مرضية، ما أجبَرَ بيورك على إعفاء سفيدبري من الاستمرار في التحقيق بقضية الطوافة، كي يتفرغ للعمل في مراجعة جرائم السرقة التي كَثُرت في تلك الأثناء.

رجع كل من رونلوند ولوفين إلى ستوكهولم، حتى أن بيورك نفسه شعر بالتثاقُل عندما ترك مارتنسون وفالاندر وحيدين مع العقيد ليبه بعد أن قدمه لهما ليجلسا في صالة الاجتماعات مع العقيد وتدخينه المتواصِل.

فيَ الليلة الماضية لعب فالاندر الورق مع أبيه، ثم وعاد إلى بيته. ضَبَط ساعة المنبه لتوقِظه في الساعة الخامسة صباحاً كي يتمكن من

مكتبة

قراءة الكُتيب المصَور حول لاتفيا الذي حصل عليه قبل يوم من أحد محلات بيع الكتب، كما أنه فكر بضرورة الدخول في نقاش مع العقيد ليبه حول الأسس التي بُنِيَ عليها جهازا الشرطة في بلديهما، فأوضح العقيد أن الفرق أن الشرطة اللاتفية ذات طابع عسكري، وهذا الفرق كبير إذا ما قورنت بالشرطة السويدية. انتهى فالاندر من شرب قهوة الصباح. حاول أن يوضح باللغة الإنجليزية النقاط المهمة المتعلقة بالشرطة السويدية، وبغتة شعر بأنه غير متأكد مما يقوله، لأنه شخصياً لم يعرف كيف يعمل جهاز الشرطة السويدية، إذ أصبح هذا الجهاز أكثر كسلاً. هذا ما أكده رئيس الشرطة العامة الجديد والمعروف بحماسه ونشاطه عندما أحدث بعض الإصلاحات المترددة في المؤسسات الموجودة حاليا. إذ أن فالاندر اطلع على العديد من المذكرات التي تتحدث عن التغييرات المقررة التي ظهرت في هذا السلك. ولما حاول التحدث مع بيورك بهذا الخصوص وعمّا يتوقعه من إعادة ترتيب هذه المؤسسات، لم يحصل منه إلا على أجوبة وتبريرات مُترددة ووقائية.

شعر فالاندر بضرورة مُجاملة العقيد بتبادل بعض عبارات الاحترام، فسأله عن مكان إقامته في إيستاد.

«في أحد الفنادق،» ردّ العقيد وأضاف، «لكني طبعاً لا أعرِف اسمه.»

استنتج فالاندر أن العقيد لا يهتم بأي شيء سوى التحقيق. وفكر مع نفسه: «هذا ليس وقت مُجاملات. كل الذي بيننا هو تحقيق مُشترك في جريمة مزدوجة، لا غير».

شرح العقيد ليبه الآلية التي اتبعتها الشرطة اللاتفية في تثبيت هوية القتيلين. لاحظ فالاندر أن العقيد بسبب لغته الإنجليزية السيئة لا يستطيع في بعض الأحيان أن يشرح فكرته، وهذا ما جعله مُتضايقاً. أثناء الاستراحة اتصل فالاندر بصديق يعمل في معرض بيع كتب وسأله

مكسه

فيما إذا كان لديهم قاموس لاتفي – إنجليزي، فكان الجواب سلبياً. فأيقن أن عليهما الاستمرار بطريقة التفاهم المتعثرة.

بعد أكثر من تسع ساعات عمل مُكثفة ركّزَ فيها كل من مارتنسون وفالاندر لساعات مُطولة في قراءة نسخ (استانسل) رديئة لتقارير باللغة اللاتفية، حيث تولى العقيد ليبه ترجمة الكلمات اللاتفية. أصبحت الصورة لدى فالاندر أكثر وضوحاً. إذ عرف أن كلاً من يانس ليه و يورس كالنس بالرغم من حداثة سنهما إلا أنهما معروفان كشخصين سارقَين ومُجرمَين، كما لاحظ فالاندر مدى الكُره والاحتقار اللذين يكنّهما العقيد للروس واصفاً القتيلين بأنهما تابعَان للأقلية الروسية في البلاد، التي وَفدت إليها بعد الحرب العالمية الثَانية ليقفوا في مواجهة حركة التحرر الوطنية فيها ويطمسوها. وقتها لم يفهم فالاندر تلك المشكلة بسبب نقص معلوماته السياسية. لكنه لاحظ أن احتقار العقيد للروس كان مفتوحاً يتضح شيئاً فشيئاً إذ وصفهم باللغة الإنجليزية:

«الحرامية الروس... المجرمون الروس... قادة المافيا الشرقية!»

رغم أن ليه كان في الثامنة والعشرين من العمر و كالنس أكمل الثلاثين، إلا أن سجلهما الإجرامي طويل، فهما مُتخصّصان بالسطو وتهريب وتزوير العُملة، وتم استدعاؤهم للشرطة في ريغا لثلاث مرات بتُهم قوية تتعلق بارتكاب عدد من الجرائم، لكن لم تُثبَت عليهما أية تُهمة.

«هل ارتكب هذان الرجلان جرائم عديدة؟ وهل إنهما في كل مرة يُقبَض عليهما يودعان في السجن لمُدد قصيرة ثم يُطلق سراحهما بالرغم من الدلائل القاطعة ضدهما؟» سأله فالاندر.

أفصح وجهه الشاحب عن ابتسامة عريضة، عندما سمع أسئلة فالاندر حتى أن فالاندر فكر مع نفسه حينها: «أرادني أن أسأله هذا السؤال، فهو عنده أهم من كل المجاملات».

مكسه

«يجب عليّ أن أُوضّحُ لك الحالة العامة في بلدي،» قال العقيد. ثم أشعلَ سيجارته قبل أن يضيف:

«الروس لا يُشكِلون إلا ١٥٪ من السكان في لاتفيا. لكنهم منذ الحرب العالمية الثانية وحتى الآن يُسيطرون على مُقدرات مجتمعنا بالكامل، وتوطين الروس أهم وأكثر الطرق فعالية لدى موسكو الشيوعية لاضطهاد الشعوب. أنت سألتني كيف يمكن أن يقضي كل من ليا و كلانس وقتاً قصيراً في السجن ليطلق سراحهما دون إدانة، في حين إن مثلهما يستحق الحكم بالسجن مدى الحياة، لا بل يستحق الإعدام، للإجابة عن مثل هذا السؤال أقول إن القضاة والادعاء العام غير مُنزّه عن الفساد، لكن أدعي بأنهم يتصرفون هكذا بسبب التهديد، فببساطة أنا مُقتنع أن كلاً من ليه و كالنس كانا في موقع أقوى من القضاء! ويتمتعان بحماية خاصة.

«هل هما من المافيا؟» سأله كورت فالاندر.

«نعم ولا!» رد العقيد وأضاف موضحاً:

«فالمافيا في بلداننا يحتاجون أيضاً إلى حماية سرية. وأنا مُقتنع بأنهما كانا يعملان لمدة طويلة ضمن جهاز المخابرات السوفيتية كي جي بي. وهذا الجهاز السري لا يسمح مطلقاً بسجن مُنتسبيه، إلا إذا كانوا خونة أو عملاء مُزدوجين. فكل مَن ينتسب لذلك الجهاز يُحلّق فوق رؤوسهم دائماً ظِل ستالين.»

فكر فالاندر معَ نفسه بشكل سريع: «هذا الأمر يسري على السويد أيضاً، فحتى وإن كنا نتفاخر أحياناً بالتفوق في مجالات كثيرة، إلا أن هناك شبكة مُعقدة من العلاقات المُتبادَلة التي تبدو مثل ساحة سباق للحصول على المراكز السياسية».

استمر العقيد بالكلام: جهاز كي جي بي والمافيا مُرتَبطان مع بعضهما بخطوط وثيقة غير مرئية، لا يراها إلا من يكشفها.

مكسه

«المافيا شيء جديد علينا في السويد، قال مارتنسون الذي كان صامتاً طوال الوقت، إلا عندما يساعد فالاندر في إيجاد إحدى الكلمات الإنجليزية، أو أن يشرحها له... فمفردة «مافيا» بالنسبة لنا أشبه بإشارة لوجود منظمات روسية، أو أوروبية شرقية. فمنذ عدة سنين مضت أدركت الشرطة السويدية أن عصابات سوفيتية الأصل بدأت بالظهور في ستوكهولم. لكننا لا نعرف إلا القليل عنها. كما أن هناك حركة عُنف مستترة أشارَت إلى أن شيئاً ما سيحصل. وقد تم إنذارنا فقط بأننا يجب أَن نتوقع بأن هؤلاء الناس الذين اقتربوا منّا في السنين الأخيرة سيحاولون زَجَّ أنفسهم في عالمنا وبُنية مُجتمعِنا التَحتية ليسيطروا على المواقع المختلفة فيه.

استمع فالاندر بحسد إلى مارتنسون، لأنه كان يتكلم الإنجليزية بطلاقة، ولديه وِفرة في الكلمات أكثر مما عنده. ثم تساءل مع نفسه بضجر: «لماذا لا تقوم الهيئة الإدارية في الشرطة العامة بإعداد دورات لتعليم اللغة الإنجليزية بدلاً من الدورات المزعجة التي تُقام باستمرار حول بناء الشخصية القيادية أو تلك التي تُكَرّس لشرح الديمقراطية؟».

قال العقيد بعد أن أنهى مارتنسون كلامه:

«هذا صحيح تماماً، فعندما انحلت الشيوعية، انحلت معها هذه المنظمات وصارت مثل باخرة تحطمت في عرض البحر. أدت بالمُجرمين لأن يهربوا مثل الجرذان. وهؤلاء بالطبع معهم أموال طائلة، ولديهم الكثير من أعضاء الارتباط. أعتقد أن الكثير من طالبي اللجوء في دول الغرب والمتحدّرين من أصول روسية أو أوروبية شرقية هم ليسوا مُضطهدين، بل إنهم حرامية ومُجرمون، جاؤوا بحثاً عن مكان آمن، والعملية بالنسبة لهم سهلة ولا تتطلب أكثر من تزوير بعض الوثائق الشخصية لتُرفق مع طلبات اللجوء.»

قال له فالاندر مقاطِعاً

مكسه

«أيها العقيد ليبه أنت تقول أنك تعتقد... فهل يعني هذا أنك تتحدث من باب الافتراض؟»

«أنا متأكد! لكنني لا يمكنني إثبات ذلك! أو على الأقل ليس الآن.» أجاب العقيد.

أدرك فالاندر أن كلمات العقيد ليبه تُخفي في سياقها معاني لم يتمكن من فهمها. إذ يبدو أن في بلد العقيد ليبه ترتبط الجريمَة مع النخب السياسية، التيَ تُعطيها القوة والسلطة لتأثر مباشرة على العقوبات، فالقتيلان اللذان نُقلا إلى السواحل السويدية، حَمَلا معهما تحية مخفية من الجهات الغريبةَ والُمعقدة التيَ صَوبَت النار على قلبيهما؟!

كما أدرك فالاندر بوضوح أن العقيد ليبه يقصد أن التحقيق في أي جريمة يجب أن يُعزز بوثائق تكشف النقاب عن أي دافع سياسي مُحتمل أن يقف وراءها. وفكر: «إننا في السويد ينبغي أن نعمل بالطريقة نفسها، وربما يجب علينا أن نحفـــر بما فيه الكفاية أثناء التحقيق في أي جريمة تقع، فالظاهر نحن اليوم لا ننظر إلى ما حولنا بل داخل بلدنا فقط».

«مَن قتل هذين الرجُلين، ولماذا؟» سأله مارتنسون.

«لا أعرف.» أجاب العقيد ليبه وأكمل، «إنهما أعدما بالطبع، لكن لماذا تعرضا للتعذيب؟ ومَن فعل ذلك؟ وماذا أراد القتلَة منهما قبل أن يُسكتاهما إلى الإبد؟ وهل حصلوا بالفعل على ما أرادوا؟ أنا أيضاً لدي العدَيد من الأسئلة المُتحفِّظة.»

«أجوبة هذه الأسئلة غير موجودة في السويد طبعاً؟» سأله فالاندر.

«أعرف ذلك، الحل مُحتَمَل أن يكون خارجاً في لاتفيا.» رد العقيد.

جَفَلَ فالاندر لدى سماعه... مُحتَمَل أن يكون... فسأله في الحال: «إذا لم يكن الحل موجوداً في لاتفيا، فأين يا تُرى يمكن أن يكون؟»

مكسه

«بعيداً خارج لاتفيا،» رد العقيد.

«في أقصى الشرق.» اقترح مارتنسون.

«وربما في أقصى الجنوب،» عَقّب العقيد مُحاولاً إخفاء قصده.

لاحظ كل من فالاندر ومارتنسون أن العقيد لا يُريد أن يكشِف النقاب عن المزيد من أفكاره.

انتهى الاجتماع، وعاودت فالاندر آلامُ فقرات الظهر المزمنة لطول جلوسهم في بحث القضية مع العقيد.

تعهد مارتنسون بمساعدة العقيد في تصريف مبلغ بالعملة اللاتفية إلى الكرون السويدي من أحد البنوك. وكلفه فالاندر أيضاً بأن يتصل هاتفياً بلوفين في ستوكهولم ليعرف نتيجة فحص الطلقات النارية التي عُثِر عليها في الجثتين. أما هو فإنه سيكتب تقريراً حول ما توصلوا إليه في اجتماع اليوم. كما أن المدعي العام أنيتا برولن اتصلت وأبلغت عن رغبتها في الحصول على تقرير يتضمن ما توصلوا إليه مع العقيد اللاتفي، وبأسرع فرصة.

عندما خرجَ فالاندر من صالة الاجتماعات المليئة بالدخان فكر مع نفسه: «ماذا تُريد برولين؟ فالقضية سوف لن تُعرض على المحكمة. وملفها سوف يُرسَل إلى ريغا بأسرع ما يُمكن، مع الجثتين وطوافة الإنقاذ الحمراء. وبعدها سيتم إغلاق القضية ويتوقف العمل فيها، وحينها سوف لن يكون هناك أي مُبرر لأي إجراء من جانبنا».

لبى مارتنسون رغبة العقيد ليبه في الذهاب إلى المدينة لشراء ملابس لزوجته.

كتب فالاندر التقرير، واتصل بدائرة المدعي العام فأخبره أن أنيتا برولين طلبت مقابلته. في هذه الأثناء دخل مارتنسون إلى الغرفة عائداً من جولته في المدينة. فسأله فالاندر:

«أين العقيد؟»

مكتبة

«إنه جالس في غرفته يُدخن.» رد مارتنسون.

«هل تناول الغداء؟»

«دعوته لتناول وجبة اليوم - سكالوب في مطعم لوربلوسرن. لم يُحبها، اكتفى بالقليل!»

«هل تكلمت مع لوفين؟»

«اتصلتُ. كان مُجازاً بسبب مرضه بالإنفلونزا.»

«هل تحدثت مع شخص آخر؟» سأله فالاندر.

«لا.. الجميع اعتذروا لأنهم مشغولون، ووعدوني بالاتصال حال فراغهم، لكن حتى الآن لم يحصل ذلك.»

«ربما رونلوند يمكن أن يُساعدك؟» اقترح عليه فالاندر.

«حاولت الاتصال به، لكنه كان خارجاً في مهمة رسمية، وليس هناك مَن يعرفُ عنها شيئاً، ولا حتى متى يعود.»

«إذن عليك أن تُحاول مرة أخرى، أما أنا فسأذهب إلى دائرة المدعي العام مع هذا التقرير، وأظنُ أننا سوف نترك هذه القضية بالكامل ونُسَلمُها في الحال تقريباً، ومعها الجثتان وطوافة الإنقاذ ومواد التحقيق للعقيد ليبه. وأعتقد سوف يُسمَح له طبعاً بأن يأخُذ معه كل ما يتعلق بالقضية إلى ريغا.»

«هذا في الحقيقة ما أردت أن أتحدثُ فيه معك.» قال مارتنسون.

«تتحدثُ عن ماذا؟» سأله فالاندر.

«طوافة الإنقاذ.» أجاب مارتنسون.

«ماذا حصل بها؟»

«أراد العقيد ليبه أن يفحصها.»

«وما المشكلة في ذلك؟ فهي موجودة تحت في الملجأ، اذهب معه إلى هناك.»

«الأمر ليست بهذه البساطة،» رد مارتنسون.

شعر فالاندر بالضيق، فمارتنسون أحياناً يعقّد الأمور. فسأله بعصبية:

مكتبة

«ما الصعوبة في استخدام السلم والنزول للملجأ؟» سأله فالاندر.

«الطوافة ليست في مكانها! إنها مفقودة!» رد مارتنسون.

«ماذا تقصد؟» رد فالاندر متسائلاً بحيرة.

«لقد اختفت.» رد مارتنسون

«ماذا؟ الطوافة موضوعة على حمالات خشبية في الملجأ؟ وقد فحصتها أنت والكابتن أوستردال؟ هذا الرجل الذي نسينا أن نكتب له رسالة شُكر على المساعدة التي قدمها لنا.»

«الحمالات الخشبية موجودة، لكن الطوافة ليست هناك.» أجاب مارتنسون.

فجأة اكتشف فالاندر بأن مارتنسون يعني ما يقول، لذا ترك أوراقه على الطاولة وركض مع مارتنسون إلى الملجـــأ.

كان مارتنسون على حق، فالطوافة لم تكن هناك، والحمالتان الخشبيتان مقلوبتان على الأرضية الإسمنتية.

«ما الذي حصل؟» تساءل فالاندر.

أجاب مارتنسون بشكل مُتردد، وكأنه يشك فيما يقول:

«يبدو أن عملية سرقة قد حصلت، فليلة أمس شاهد زميلنا هانسون الطوافة في مكانها عندما نزل بمهمة ما، لكن هذا الصباح اكتشف أحد رجال شرطة المرور باباً مكسوراً، الطوافة سُرِقت أثناء الليل إذن.»

«هذا غير معقول! قال فالاندر وأضاف: لا يُمكن سرقة مركز الشرطة؟ فالناس موجودون هنا على الدوام؟» صمت قليلاً وتساءل:

«هل سُرق شيء آخر غير الطوافة؟ ولماذا لم يُشاهد أحد ما حصل؟»

«لقد نسي هانسون أن يُخبِرَك بما قاله شرطي المرور. لم يُسرق سواها. جميع الأبواب الأخرى مُغلقة ولم تتعرض للكسر. التفسير الوحيد هو أن الذين ارتكبوا السرقة جاؤوا من الخارج.»

مكسه

حدّق كورت فالاندر إلى المساند الخشبية المقلوبة، فاستعر غضباً، وخاطب مارتنسون بصوت منخفض:

«مارتنسون... هل تتذكر أن الصحف كتبت عن الطوافة، وذكرت أنها محفوظة في ملجــأ مركز الشرطة؟»

فكر مارتنسون لمدة قصيرة ثم قال: نعم. قرأت في إحدى الصحف أن الطوافة موجودة في الملجأ. وأتذكر أيضاً أن الخبر كان مُعزّزاً بصورة للطوافة في مكانها، ولكن مَن يَجرُؤ ويقوم بعملية سطو على مركز الشرطة؟

«هذا ما أتساءل عنه أيضاً.» قال فالاندر.

«لا أفهم شيئاً.» قال مارتنسون.

«ربما العقيد ليبه يفهم ذلك،» قال فالاندر. «اذهب وأحضِره إلى هنا. يجب أن نقوم بعملية فحص وتقييم للحَدَث. كما يجب استدعاء شرطي المرور الذي شاهد الباب المكسور. هل تعرف اسم هذا الشرطي؟»

«أعتقد أنه بيترس. هو الآن في بيته، لأنه مُتعب من عاصفة ليلة أمس الثلجية.»

«يجب إيقاظه فلدينا حاله اضطرارية.» قال فالاندر.

اختفى مارتنسون، وبقي فالاندر وحيداً في الملجأ. تقدم نحو الباب المكسور. تفحصه فلاحظ أن السارقين فتحوا الباب دون أن يتأثر رغم أنه مصنوع من الفولاذ السميك ومزود بقفلين.

وفكر فالاندر: «الفاعلون يعرفون ما يُريدون، وعلى خبرة واسعة بكيفية فتح الأقفال».

عاد وتأملَ المساند المقلوبة. وتذكر أنه قد فحص طوافة الإنقاذ بنفسه، لكنه لم يتوصل إلى وجود شيء ما فيها. كما أن مارتنسون والكابتن أستردال، وكذلك لوفين و رونلوند فحصوا الطوافة ذاتها.

«ما هو الشيء الذي كان ينبغي علينا ملاحظته؟ لا بد أن يكون

مكسه

هناك شيء في داخل الطوافة.»

عاد مارتنسون إلى الملجأ ومعه العقيد ليبه. أشعلَ فالاندر جميع مصابيح الفلورسنت الموجودة في السقف لإضاءة المكان، وشَرَح مارتنسون للعقيد ما حصل. لم يستغرب العقيد مما سمعه من مارتنسون، فالذي حصل كان يتوقعه بالضبط، فهزّ رأسه ببطء مُشيراً أنه أدرك كل شيء، ثم التفتَ إلى فالاندر قائلاً:

«حسب علمي فإن خبيركم حدّدَ بأنها يوغسلافية الصنع؟ التحديد مضبوط جداً، فكل البواخر اللاتفية تحمل على ظهورها مثل هذه الطوافة، حتى قوارب الشرطة. من المؤكد أنكم فحصتم الطوافة؟»

«نعم، رد فالاندر. وأدرَك في اللحظة نفسها غلطته الشنيعة، فلم يُفكر أحدا بالمرة في تفريغ الطوافة من الهواء الموجود فيها، ولم يُفكر أحد أيضاً في النظر إلى ما بداخلها. فكر مؤنباً نفسه: «كان عليّ فعل ذلك».

بدا أن العقيد قرأ ما فكر به فالاندر، الذي بانت على قسماته علامات الندم. لأنه أجل فكرة فتح الطوافة، كان عليه أن يفتحها حال انتهاء الفحص. شعر فالاندر بعدم الحاجة للمزيد من الإيضاح للعقيد الذي هو أساساً لديه الآن فكرة واضحة عن الموضوع. وبدلاً من ذلك بادر وسأله:

«ماذا تعتقد أن يكون في داخلها؟»

«بلا شك، كان في داخلها مُخدرات،» أجاب العقيد.

فكر فالاندر قليلاً قبل أن يقول:

«الآن اكتملت الصورة. قتيلان أُلقيا في طوافة إنقاذ بداخلها مخدرات؟ وتركت في عرض البحر لتسوقها الريح لليابسة.»

رد العقيد:

« هذا بالضبط. وإن خطأ ما وقع في تنفيذ العملية تم تصحيحه بسرقة الطوافة.»

مكسه

استغرقت عملية مراجعة الموقف الجديد في الملجأ ما يُقارب الساعة. بعدها أسرع فالاندر صاعداً باتجاه الاستعلامات ليطلب من الموظفة إبا إخبار المدعي العام أنيتا برولن بأن مهمة اضطرارية منعته من إرسال المحضر الكامل للقضية. انتشر في المركز حالاً خبر وقوع السرقة. فنزل بيورك مُندفعاً إلى الملجأ.

«لو انتشر الخبر، فإنه سيكون مفاجأة الموسم في كل البلاد.» قال بيورك متوتراً.

«الخبر لا شك سيُسَرَّب.» قال فالاندر.

وشرح لبيورك ما كان ينبغي عليهم فعله، فأدرك بأن بيورك كان غير مؤهل لتولي مسؤولية الاستمرار بهذه القضية المعقدة. فالخطأ الذي وقع من جانبهم كشرطة لا يُغتَفَر!

فكر فالاندر مع نفسه: «هل أصبحتُ كسولاً؟ وهل أنا ما زلت ملائماً للعمل كرجل أمن في مصنع الإطارات في تريلليبوري؟ وهل يجب عليّ بعد هذه الغلطة أن أطلب نقل خدماتي للعمل فى شرطة مالمو ضمن شرطة الدوريات الراجلة مثلما كنتُ سابقاً؟ يا إلهي...لا يوجد أي أثر. لم تُترك أي بصمات أصابع. لا يوجد أيَ آثار أقدام على الأرض المغطاة تماماً بالغُبار، حتى الحصى الموجودة في الخارج وأمام الباب الذي تم كسره لا يظهر عليها أي أثر لإطارات سيارة غير سيارات الشرطة. عندها أدركوا عدم وجود ما يُبرر بقاءهم عند مكان الطوافة في الملجأ، فعادوا إلى صالة الاجتماعات».

حضر شرطي المرور بيترس متزعجاً لإيقاظهم إياه من النوم. وحدد الوقت الذي اكتشف فيه السرقة، كما أن فالاندر حقق مع الموظف الخفير لليلة أمس وسأله فيما إذا كان قد سَمِعَ أو شاهد شيئاً أثناء الليل. إلا أن النتيجة كانت سلبية، فهو لم يرَ أحداً، ولم يرَ شيئاً. فجأة شعر فالاندر بأنه مُتعَب. وألمّ به صداع قوي بسبب تدخين العقيد ليبه

مكسه

المتواصل، والمُجبر على استنشاقه بشكل مستمر. فكر متسائلاً مع نفسه: «ماذا سأفعل الآن؟ وماذا عسى ريدبري أن يفعل؟».

مر يومان على اختفاء طوافة الإنقاذ، وما زالت حتى الآن لُغزاً. ناشدهم العقيد ليبه أن ينسوا الموضوع، ولا يُكرسوا المزيد من الجهود والوقت فيه. وافقه فالاندر بداخله الرأي، لكن شعوره بالذنب لخطئه كان السبب الحقيقي للصداع الذي يحس به عندما يستيقظ كل صباح.

هجَمت على إقليم سكونه عاصفة ثلجية قوية، فناشدت الشرطة جميع المواطنين بضرورة التزام منازلهم وعدم الخروج إلا للضرورات القصوى. تذكر فالاندر أباه الذي أصبح شبه محجوز في بيته بسبب هذه العاصفة، فاتصل به. سأله إذا كان بحاجة إلى شيء ما، لكن الأب لم يجب بل أشار أنه لم يرَ أبداً هطول الثلج بهذه القوة.

توقف التحقيق بصورة أو بأخرى تحت هذه الظروف من الفوضى. جلس العقيد ليبه في غرفة سفيدبري، وطالع التقرير الذي أرسله لوفين مؤخراً المتعلق بتحليل الطلقات النارية. فالاندر اجتمع بأنيتا برولن وأطلعها على آخِر التطورات. في كل مرة يلتقي فالاندر بأنيتا برولن يتذكر السنة الماضية عندما دعته في أمسية إلى شقتها للتباحث في بعض الأمور، حينها أفرطَ في شرب الخمر، وحاول أن يغتصبها، لكنه الآن يرى ذلك الحدث وكأنه ضرب من الخيال.

في النهاية اتصلت أنيتا برولن بالشرطة العامة وبالقسم الحقوقي في وزارة الخارجية لإنهاء هذه القضية حالاً ونقلها خارج السويد إلى ريغا. وشاهد العقيد ليبه أيضاً طلباً رسمياً من الشرطة اللاتفية إلى وزارة الخارجية السويدية بضرورة نقل القضية إلى ريغا.

عندما خَفّت العاصفة الثلجية، وفي مساء أحد الأيام دَعا فالاندر العقيد ليبه إلى شقته. فشربا زجاجة ويسكي كاملة تلك الليلة. بعد عدة كؤوس شعر فالاندر بالسُّكر، بينما لم يظهر أي شيء على العقيد ليبَه.

مكسه

بدأ فالاندر يُخاطبُ ليبه بـــ»سيادة العقيد» لكن الحديث معه ليس سهلاً، لم يتمكن فالاَندر من تحديد سبب ذلك، هل هو لغته الإنجليزية الرديئة، أم تمتعه بقدرٍ بالغ من الصلابة. حدثه فالاندر عن عائلته، وعن ابنته ليندا التي تدرس في جامعة ستوكهولم، وبالمقابل تحدث العقيد عن نفسه باقتضاب مُكتفياً بأنه كان متزوجاً من امرأة اسمها «آنا» وليس له منها أطفال. وعندما امتَد الليل والسكر لزم العقيد الصمت للحظات طويلة صامتاً وبيده الكأس إلى أن باغته فالاندر بالسؤال:

«هل هناك الكثير من التشابه بين السويد ولاتفيا؟ أم أنه لا يوجَد غير اختلافات بسيطة؟ فدائماً أُحاول تخيل شيء ما مُشترك بيننا كلما فكرت بلاتفيا، لكن للأسف لا أجد شيئاً على الرغم من أننا شعبان متجاوران.»

سمع فالاندر صوته أثناء ما كان يتكلم مع العقيد، وشعر بأنه سأل سؤالاً لا معنى له. فالسويد طوال تاريخه لم يُدر من قِبَل قوى خارجية كما يحصل في المستوطنات أبداً. ولم توضع المتاريس في شوارع مدنه مطلقاً. ولم يتعرض المواطنون الأبرياء فيه إلى القتل بسبب الرمي العشوائي أو الدهس بإحدى المركبات العسكرية. وهل هناك شيء أكبر من هذا الفرق؟ مع هذا جاء الجواب من العقيد مُفاجئاً:

«أنا رجل مُتدين، لكني لا أؤمن بأي إله! فالمرء يُمكن أن يؤمن بشيء خارق وخارج عن مداركه، حتى ماركس كان لديه نوع من هذا الاعتقاد الخارق المبني ضمنياً في نظريته، بالرغم من أنه كان يوحي بأفكار ومعرفة منطقية، لم تكن آيديولوجية فقط. هذه أول زيارة لي لبلد غربي، في السابق كان مسموحاً لي السفر إلى دول الاتحاد السوفيتي فقط، أو إلى بولونيا أو إحدى دول حوض البلطيق. شاهدت في السويد وفرة غير محدودة في الموارد لم ألمسها في بلد آخر. يوجد اختلاف بين بلدينا، وهو في الوقت نفسه تشابه. كِلا البلدين فقيران، وللفقر وِجهان

مكسه

مُختلفان. نحن نفتقر إلى وفرة الموارد الموجودة لديكم، نفتقر للحرية في الاختيار، أما الفقرَ الموجود لديكم فهو انعدامِ الكفاح من أجل البقاء الذي يحمِل أبعاداً دينية بالنسبة لي.. أبعاداً لا أُحبُ إبدالها.»

شعر فالاندر بأن العقيد وكأنه مُهيأ للجواب، إذ لم يكن بحاجة للبحث عن الكلمات. لكن ما هذا الذي تحدثَ فيه العقيد عن الفقر السويدي؟!

اعترض فالاندر:

«أنت مُخطئ يا سيادة العقيد. الكفاح مستمر حتى في هذا البلد. فما زال هناك الكثير من الناس لا يعيشون بالوفرَة التي تتحدثُ عنها. صحيح لا يوجد لدينا من يموت جوعاً، لكن يخطئ من يعتقِد أننا نفتقِر للكفاح.»

«المرء يُكافِح فقط من أجل البقاء،» رد العقيد. «أنا أفهم الكفاح من أجل الحُرية والاستقلال الذاتي هو: أن يعمل المرء من أجِل شيء اختاره هو، لا أن يُجبَر على عمله.»

سأل فالاندر عما حصل في الأشهرِ الأخيرة في ريغا. لكنه لم يُحب التعَمُق، بل أراد فقط الإيحاء بإنه يعرفُ ما حصل، وبدلاً من الاستمرار نهض من مكانه ووضع قرص موسيقى للفنانة ماري كالس في جهاز التسجيل.

«مقطوعة تورنيدو... أي البركان، إنها جميلة جداً.» قال العقيد ليبه.

كانت الريح والثلج يضربان زجاج النافذة بشدة. غادره العقيد بعد منتصف الليل، فوقف فالاندر جوار النافذة ينظُر إليه وهو مُتلبد تحت معطفه المَطَري.

في اليوم التالي توقفت العاصفة.

لما استيقظ فالاندر شعَر بأنه ما يزال ثَملاً. وكان قد قرر بينما هم ينتظرون قرار الادعاء العام أن يصطحِب العقيد ليبه إلى ميناء برانتفك

لزيارة قارب السمك الذي زاره في تلك الليلة من الأسبوع الماضي.

في الساعة التاسعة توجه فالاندر بسيارته مع العقيد باتجاه الشرق. الريف المُغطى تماماً بالثلج يلمع تحت الشمس. درجة الحرارة ثلاث تحت الصفر، والريح ساكنة. كان الميناء مهجوراً، والعديد من قوارب السمك راسية بجانب الرصيف. لم يستطع فالاندر تحديد ذلك القارب. سارا على الرصيف، وعدَّ فالاندر ٧٣ خطوة وهي المسافة نفسها التي قطعها تلك الليلة عندما غادر القارب، وفعلاً وصل إليه. كان القارب مصنوعا من الخشب، طوله حوالي ٤٠ قدماً. يحمِل اسم بيـــرون. وضعَ فالاندر يديه على حبال الرسو وتسلق إلى متن القارب تبعه العقيد. كانت غرفة التحميل مُغطاة بقماش مُشَمّع أحمر غامق اللون، وبينما كانا في طريقهما إلى مقصورة القيادة تعَثَر فالاندر بأحد الحِبال، فأدرك حينها بأنهما على متن القارب المطلوب. كانت مقصورة القَيادة مقفلة بقفل كبير. رفع العقيد طرفاً من القماش المُشمع وأنار غرفة التحميل بمصباح جيب. كانت الغرفة فارغة.

«لا يوجد رائحة أو قشور سمك، ولا حتى شبكة صيد أسماك.» قال فالاندر وأضاف:

«يبدو أنه قارب تهريب. لكن ماذا يُهربون؟ وإلى أين يُهربون؟»

«يُهربون كل شيء إلى بُلداننا التي هي بحاجة لكل شيء.» قال العقيد.

«يجب علي أن أعرف مَن المالك الحقيقي لهذا القارب؟ حتى لو أنني أعطيتُ تعهداً. قال ذلك وكأنه يحدث نفسه ثم التفت إلى العقيد وسأله: هل سبق لك أيها العقيد أن أعطيتَ تَعهداً لأحد؟»

«كلا. هذا ما لم أفعله مطلقاً!»

لم يكن هناك المزيد. فعادا إلى إيستاد. كرس فالاندر عصر ذلك اليوم للبحث عن المالك الحقيقي للقارب بيرون. وكان البحث شاقاً،

مكسه

فالقارب تغيرت مُلكيته مرات عديدة خلال السنين الأخيرة، ومن بين هؤلاء المالكين كان شركة تجارية مقرها في مدينة سمرسهامن تحمل اسما فنتازياً (سمكة روسك بريسك)، التي باعته لصياد سمك اسمه أورستروم الذي بدوره باعه بعد عدة أشهر. في النهاية استطاع فالاندر أن يتوصل إلى المالك الحالي الذي يحمل اسم ستين هولمكرين الساكِن في مدينة إيستاد، ومما أثار استغراب فالاندر أن المالك يسكن الشارع نفسه الذي يسكنه - شارع ماريا. بحث عن اسم هولمكرين في دليل الهواتف لمدينة إيستاد، دون جدوى، كما أنه لم يجد في سجلات إدارة الإقليم أي شركة مُسَجَلة باسم هولمكرين، وللتأكد أكثر بحث في سجلات مدينة كريخانستاد ومدينة كارلس كرونه، لكنه لم يجد شيئاً.

رمى فالاندر القلم جانباً وقام ليجلب كوباً من القهوة. وحال عودته رنَّ الهاتف، كانت أنيتا برولن على الخط:

«احزر.. ماذا سأقول لكَ؟»

«ربما أنكِ غير مُقتنعة بتحقيقاتنا؟» رد فالاندر.

«لا.. ليسَ هذا ما أَردتُ قوله.»

«إذن لا أعرف.» ردّ فالاندر.

«سوف يُغلَق التحقيق. وتُرسَل القضية إلى ريغا.»

«هل هذا مؤكد؟!»

«اتفق كل من الادعاء العام ووزارة الخارجية، وأخبرونا بأن نغلق التحقيق. علمتُ بذلك قبل قليل، كل شيء يجب أن يتم بأسرع وقت. يمكن للعقيدَ أن يَعود إلى ريغا مع الجثتين.»

«إنه سيسعَد بهذا الخبر، فهو ينتظر عودته إلى بلده بفارغ الصبر.» رد فالاندر.

«هل أنت حزين لذلك؟»

«ليس لهذا الخبر على الأقل.» رد فالاندر.

مكسه

«يُمكنك أن تدعوه ليأتي عندي. كما أني أخبرت بيورك بذلك. هل العقيد قريب منك الآن؟» سألت أنيتا.

«يجلس الآن في غرفة سفيدبري ويدخّن. لم أرَ بحياتي مُدَخناً مثله.»

في اليوم التالي غادر العقيد ليبه في رحلة طيران مبكرة من ستورب إلى ستوكهولم ليواصل سفره إلى ريغا، أما الجثتان فتم وضعهما في تابوتين مصنوعين من الصفيح المطلي بالزنك وتم نقلهما بسيارة نقل إلى مطار ستوكهولم بُغية تحميلهما بإحدى الطائرات.

وقبل أن يفترق فالاندر عن العقيد ليبه في نقطة الجوازات في مطار ستورب قدم له كتاباً مُصَوراً عن إقليم سكونه كهدية. وودعه قائلاً:

«أتمنى لك عمراً مديداً، لنبق على اتصال!»

«ستصلكم أخبارنا.» أجاب العقيد ليبه.

تصافحا، ثم استدار العقيد متوجهاً إلى طائرته.

عندما خرج فالاندر من المطار فكر مع نفسه: «العقيد رجُل غريب... يا تُرى أي فكرة أخذَ عني؟».

اليوم التالي كان السبت. في الليلة الماضية نام فالاندر طويلاً، ولما نهض صباحاً ذهب لزيارة أبيه، وفي المساء تناول عشاءه وشَرِب النبيذ في أحد مطاعم البيتزا. لم يتوقف تفكيره لحظة عن تقديم طلَب للتعيين في معمل الإطارات في تريللبوري، إذ لم يبق سوى أسبوع واحِد لقبول طلبات التعيين.

في يوم الأحد نزل إلى غرفة الغسيل، جهز ملابسه. نظف شقته، وفي المساء قصد السينما ليشاهد فِلماً بوليسياً أميركياً دون رغبة رغم كونه مثيراً لكنه بدا غير واقعي.

صباح الاثنين، وفي الثامنة تماماً، دخل كورت فالاندر إلى مكتبه في مركز الشرطة. وبينما كان منشغلاً بخلع معطفه وقف بيورك عند باب

مكتبة

الغرفة وقال:

«وصلنا تلكس من الشرطة اللاتفية وبالتحديد من ريغا.»

«هل جاء التلكس من العقيد ليبه؟ وماذا كَتبَ لنا؟» سأله فالاندر.

«لم يكتُب العقيد.» قال بيورك بشكل مُتردد.

«ماذا تعنِي؟» سأله فالاندر وتأمله بِحيرة.

«لقد قُتِلَ العقيد، في اليوم نفسه الذي وصل فيه إلى وطنه. والتلكس الذي وصلنا كان موقعاً من العميد بتنس. طلبوا منا المساعدة. أعتقِد أن هذا يعني بأنك يجِب أن تذهب إلى هناك.»

جلس فالاندر علي كرسيه وراح يقرأ بالتلكس مردداً:

«مات العقيد... قُتِل!»

«أنا متأسف جداً لَما حصل للعقيد.» قال بيورك وأردف:

«الحدث غريب. سأتصل برئيس الشرطة العامة بشأن الطلب الذي جاء به هذا التلكس.»

ظل فالاندر جالساً في كرسيه كالمشلول، حاساً بحشرجة في حنجرته:

«مات العقيد... من يا تُرى قَتَلَ هذا الرجل القصير النظَر والمُتواصِل التدخين؟ ولماذا؟».

تساءل مع نفسه وفكر بريديري الميت. وفجأة شعر بأنه وحيد في هذا العالم.

بعد ثلاثة أيام وبالضبط في ٢٨ كان فالاندر على متن إحدى طائرات خطوط آيروفلوت في طريقه إلى لاتفيا يحملق من نافذة الطائرة إلى ريغا الممتدة على طول البحر متسائلاً عما ينتظره. في الثانية بعد الظهر كان في مطارها.

مكتبة

٧

البرد كان أول شيء فكر فيه كورت فالاندر في ريغا.

فعندما وقف في طابور تدقيق الجوازات في صالة الوافدين لم يَشعُر بالفرق في درجة الحرارة مقارنة بينها وبين مثيلتها لحظة خروجه من الطائرة. إذن البرد في الخارج والداخل بالدرجة نفسها في هذا البلد. نَدِمَ لعدم جلبه ملابس داخلية طويلة.

كان طابور المسافرين المُرتجفين أمام تدقيق الجوازات في صالة الوافدين الكئيبة يتحرك ببطء. لاحظ في الطابور رجلين دانماركيين يتحدثان بصوت عال شاكيَين مما يتوقعانه من زيارة ريغا. أحد هذين الرجلين الذي بدا أكبر سناً سبق له أن زار ريغا، راح يشرح لزميله الشاب حالة اللامبالاة واليأس وعدم الأمان في هذه البلاد. تضايق فالاندر من هذين الدانماركيين. وتمنى لو أنهما يصمتان احتراماً للعقيد اللاتفي القصير البصر الذي مات قبل عدة أيام. حاول أن يتذكر ما يعرفه عن هذا البلد الذي يزوره لأول مرة، فقَبل أسابيع قليلة لم يَكن يعرف المواقِع الصحيحة لدول البلطيق، وما هي العلاقة بينها على الخريطة. كان كل ما يعرفه هو أن تالين تقع في لاتفيا، وأن ريغا ميناء مهم في إيستلاند، أما معلومات أيام دراسته البعيدة عن جغرافية أوروبا فكانت غامضة وغير دقيقة بالمرة.

فقط في الأيام القليلة التي سبقت مُغادرته لمدينته إيستاد حاول قراءة شيء من الأدب اللاتفي. والآن هو أمام الصورة الوحيدة لبلد صغير كان دائماً، وفي كل مراحل تاريخه يقع ضحية للصراعات المتبادلة بين مراكِز القُوى، حتى السويد في الماضي دَمرت هذا البلد من خلال فرض السيطرة عليه بطريقة دموية. والتاريخ الآن يُعيد نفسه، ففي

مكسه

أحداث ربيع ١٩٤٦ عندما خَسَر الحصان الألماني الحرب، وظهر الاتحاد السوفيتي كقوة في الشرق وفتَحَ لاتفيا، التي حاولت بدورها في ذلك الحين إنشاء حكومة وطنية، لكنها سُحِقَت من قِبَل جيش التحرير القادم من الشرق والمعروف بتاريخه الدمويَ الساخر من أي حركة تقف في مواجهته. وبالنتيجة شُكلَت في لاتفيا حكومةَ حازمة سيطرت على كل الأمة اللاتفية.

في النهاية شعر بأنه لا يعرف شيئاً.

أخيراً وصل الدانماركيان أمام موظف تدقيق الجوازات، واتضح أنهما جاءا إلى ريغا لعقد صفقة بيع مكائن زراعية. مَد فالاندر يده ليُخرِج جوازه من جيبه، فشَعَر بيد تتلمَس كتفه، جَفَلَ شاعراً كأنه يُقبض عليه. التفت فوجد شخصاً يرتدي بدلة رسمِية رصاصية مُزرَقة اللون.

«أنت كورت فالاندر؟» بادر الرجل وأكمل:

«أنا اسمي يازيب بتنس. أعتذر لوصولي متأخراً عن الموعد، لكن الذي حصَلَ هو أن طائرتك هبطَت بوقت أبكر مما توقعنا. أنت بالطبع مُعفىً من إجراءات تدقيق الجواز. وسنسير بهذا الطريق.»

كان يازيب بتنس يتكلم اللغة الإنجليزية بشكل ممتاز، فتذكر فالاندر معاناة العقيد ليبه في العثور على الكلمات الصحيحة واللفظ الملائِم لها.

سار فالاندر خلف العميد باتجاه أحد الأبواب التي كان يحرسُها أحد الجنود، ودخلا بعدها لصالة أخرى، كانت كئيبة ومهترئة أيضاً، تُفَرغُ فيها الحقائب من إحدى العربات.

«نتمنىَ أن لا تتأخر حقائبك،» قال بتنس وأردف:

«أتمنى لك إقامة سعيده في ريغا. هل زرت ريغا من قبل؟»

«كلا.»

مكسه

«كنتُ أتمنى أن أكون قد استقبلتُك هنا في ظروف غير هذه.» استمر بتنس:

«عملية اغتيال العقيد ليبه حدث مؤلم بالنسبة لنا.»

انتظر فالاندر ليُكمِل الرجل كلامه، إلا أن بتنس الذي هو حسب التلكس الذي تسلمته الشرطة السويدية يحمل رتبة عميد توقف فجأة، وبدلاً من أن يستمر بالحديث عن مقتل العقيد، اتجه نحو شخص كان واقفاً بجانب أحد الجدران يرتدي بدلة عمل زرقاء فاتحة ويضع على رأسه قُبَعَة من الفرو. تحرك الرجل في الحال عندما أمره بتنس، واختفى عبر بوابة من الأبواب المؤدية إلى داخل المطار.

«الأمور تسير هنا ببطء.» قال بتنس وتساءل:

«هل لديكم المعاناة نفسها؟»

«أحياناً ينتظر المرء قليلاً،» رد فالاندر.

كان العميد بتنس عكس العقيد ليبه بالضبط، فهو طويل جداً، ويتحرك بحيوية وتركيز، ويمتلك نظرة ثاقبة. شخصيته الحادة وعيناه الرماديتان توحيان بأنه يعرف كل ما يُحيطُ به. شخصية العميد المُتوثبة جعلت فالاندر يتخيـّله قطاً بريـاً يرتدي بدلة عسكرية رمادية مُزرَقة.

«إنه في الأربعين أو أقل من ذلك» قال فالاندر مع نفسه.

في هذه الأثناء جاءت عربة الحقائب تُقرقِعُ خلف إحدى الساحبات الزراعية وخلفها يتصاعد الدُخان من جهاز العادم. عثر فالاندر على حقيبته في الحال، لكنه لم يستطِع منع العميد من حَملها حتى سيارة فولكا سوداء كانت تنتظرهما خارج بناية المطار بجانب طابور سيارات الأجرة. فتح السائق أبواب السيارة، وأدى التحية العسكرية. تـفاجأ فالاندر، لكنه استطاع أخيراً رِدَّ التحية بشيء من التردد مردداً مع نفسه بشكل سريع: «ليأت بيورك ويرى بعينيه قدراتي العسكرية. ماذا ظن العقيد ليبه بمُفتشي الجَريمة السويديين الذين يرتدون بناطيل الجينز

مكسه

دائماً، ويجوبون مدينة إيستاد الصغيرة؟ الذين لم يتعاملوا مُطلقاً بالتحية العسكرية؟».

«حَجَزنا لك في فندُق لاتفيا.» قال له العميد بتنس عندما خرجا من المطار مضيفاً:

«أحسن فنادق المدينة، بنايته مؤلفة من ٥٢ طابقاً.»

«حسناً.» قال فالاندر وأضاف:

«بدوري أُقدم التحيات ومشاعِر الأسى من زملائي كافة في مركز شرطة إيستاد لمقتل العقيد ليبه، بالرغم من لقائنا القصير به، كان العقيد شخصية محبوبة.»

«شكراً لكم. مقتل العقيد خسارة كبيرة بالنسبة لنا.» رد العميد.

توقَع فالاندر أن يستمر العميد في الحديث، لكن ظنه خاب، ففكر فالاندر: «لماذا لم يقُل العميد شيئاً؟ ولماذا لا يتحدث عما حَصَل؟ ولماذا قُتِلَ العقيد؟ وهل هناك علاقة بين مقتَل العقيد وزيارته للسويد؟».

نظَرَ فالاندر حوله أثناء سير سيارتهم عبر الريف، فشاهدَ الحقول مهجورة ومُغطاة بالثلج. وبين الحين والآخر كانت تَظهر لهم مساكِن رمادية اللون مُحاطة بأسوار غير مصبوغة. وفي أمكنة متفرقة شاهد حقولاً لتربية الخنازير، وأكواماً عالية من السماد فتولد لديه انطِباع مُحزِن عن هذه الرحلة وشبهها بالرحلة التي قام بها إلى مدينة مالمو مع أبيه. وفكر لحظتها مع نفسه: «ربما الريف السويدي في منطقة سكونه له المظهر نفسه أثناء الشتاء. لكن الريف هنا يمتلك فراغاً يمتدُ للعُمق».

شعر فالاندر بالأسى، وبدا له الريف اللاتفي وكأنه لُوِّنَ بفرشاة غُمسَت بكل آلام التاريخ. ثم شعر فجأة بحاجته لعمل شيء ما، فهو لم يأتِ إلى ريغا ليصف ريفها أثناء الشتاء، فبادر بالقول:

«يجب أن أطلع على تقرير يتضمن ما حصلَ فعلاً؟! فكل الذي أعرفُه أن العقيد ُقتِلَ باليوم نفسه الذي وَصَلَ فيه إلى ريغا.

مكسه

عندما تستقر في غرفتُك في الفندق، سأُسَلّمُك ذلك، وفي المساء سنلتقي.» قالَ العميد بتنس.

«يكفيني أن أضَع حقيبتي في الغرفة. فليس بوسعي الانتظار أكثر.» قال فالاندر.

«قررنا أن يكون لقاؤنا في الساعة الثامنة.» ردِ العميد بتنس.

أدرك فالاندر عدم قدرته على تغيير خطتهم المُقررة مُسبَقاً!

مع الغروب وصلا ضواحي ريغا باتجاه مركز المدينة. تأمَل فالاندر المناطق السكنية الكئيبة الممتدة على جهتي الشارع، وخمّن أنه من الصعب عليه تحديد ما ينتظره.

كان الفندق يقع وسط المدينة، في نهاية شارع عريض ومُشَجر. وبدا وكأنه عمود أزرق غامق اللون صاعِد نحو السماء. لمح فالاندر تمثالاً عن بُعد ففكرَ في الحال بأنه للينيـــــــن. دخَلَ العميد بسرعة مُخترِقاً باب الفندق وتوجه إلى الاستعلامات. قدر فالاندر حينها أنه يقف الآن في ساحة لوقوف السيارات، تم تحويلها بشكل اضطراري إلى مدخل فُندق، وأمامه المصاعد، وفوق رأسه السلالِم المؤدية إلى اتجاهات مختلفة. أثار استغرابه أن موظف الاستعلامات لم يطلب منه هوية تعريف، ولم يسجل اسمه، إذ تسلم العقيد مفاتيح الغرفة منه، وصَعَدا بمصعد ضيق إلى الطابق الخامس عشر. غُرفة فالاندر رقم ١٥٠٦ تطلُ علَى سقوف بيوت المدينة. تساءل فيما إذا كان بإمكانه رؤية خليج ريغا في ضوء النهار. تركه العميد وحيداً في الغرفة قائلاً:

«سأمرُّ بعد ساعتين لنذهب إلى اجتماع المساء.»

وقف فالاندر بجانب النافذة يتأمل المدينة المُمتدة سامعاً صوت سيارة نقل تقرقع في أسفَل الشارع. تحسس الهواء البارد المندفع من فتحة النافذة، ثم تلمس بيده مدفأة الغرفة التي كانت سخونتها فاترِة. ومن مكان ما سمع صوت جرس هاتف يرن بلا انقطاع.

مكسه

فتح حقيبة سفره ووضع بعض حاجاته في الحمام. فكر في شراء ملابس داخلية صباح غد. صب كأس ويسكي من زجاجة اشتراها من السوق الحرة في المطار، وأدار الراديو الروسي الصنع الموضوع بجانب سريره، فأتى صوت رجالي لمذيع يتكلم بسرعة. تمدد على السرير قائلاً مع نفسه: «الآن أنا في ريغا، لم أعرف حتى الآن ما حصل للعقيد. كل الذي أعرفه أنه قُتِل. ولكن قبل كل شيء لا أعرف ما هو الشيء الذي يتوقع العميد بتنسَ أن يحصَل عليه من خلالي».

ظل مُمداً على السرير إلى أن شعر بالبرد. نزل إلى الاستعلامات، واستغرب عندما شاهد التاجِرين الدانماركيين هناك، كان الأكبر سناً يتحدث إلى المرأة الواقفة خلفَ طاولة مكتبها، عن كيفية صُنع الطيارة الورقية، ويضحك بصوت مرتفع بين آونة وأخرى. ثم لاحظ لافتة تُرحب بمن يُريد التصريف للعُملة اللاتفية، فتوجه نحو امرأة حيّته بهزة من رأسها. صرّف فالاندر ورقتين فئة مائة دولار، فسلمته كومة من العملة اللاتفية. لما رجع إلى الاستعلامات وجد الدانماركيين قد اختفيا. سأل موظفة الاستعلامات عن المكان الذي بإمكانه أن يشرب القهوة فيه. أشارت له نحو صالة المطعم. تناول القهوة في الحال. وهو يتأمل عبر زجاج نوافذ الصالة العالية المطلة على الشارع المارة المرتدين قبعات فرو، وعربات قطار كهربائي. تلفت حواليه. على طاولة قريبة جلس زوجان عجوزان يتناولان وجبتهما بصمت، وعلى طاولة أخرى رجل يجلس وحيداً يرتدي بدلة رصاصية ويشرب الشاي. رجعَ فالاندر بذاكرته إلى الوراء مستعيداً الليلة التي سبقت مجيئه إلى ريغا، عندما وصل إلى ستوكهولم بطائرة الساعة الواحدة بعد الظهر من مطار ستورب، حيث استقبلته ابنته ليندا في محطة القطار في مركز المدينة. ذهبا بعدها إلى فندق سنترال الواقِع في شارع الملك فازا، ولأنها كانت تسكن في غرفة صغيرة في منطقة بروما المجاورة بالضبط للجامعة، قرر فالاندر أن

مكسه

يحجز لها غرفة في الفندق نفسه الذي أقام فيه. في الليل دعاها للعشاء في أَحد مطاعم المدينة القديمة، فهما لم يلتقيا منذ وقت طويل. شعر أن الحديث بينهما يسير ببطء بالرغم من أنهما تَحدثا في مواضيع عديدة ومختلفة. سألها عن مدى صحة ما جاء في آخر رسالة وصلته منها، وهل هي مرتاحة في الجامعة، فجاءت إجاباتها مُقتضَبة. فبدا الضيق عليه وسألها عن خطتها للمستقبل، فأجابت بأنها لا تعرف شيئاً عن ذلك، فرد مستفهماً:

«ألَم يَحِن الوقت لذلك؟»

«هذا ما لا تقرِّرَه أنت.» ردت عليه.

فبدأ الخصام دون أن يرتفع صوتاهما. أكد لها ضرورة اتخاذ قرار كي لا تضيع سنيها بالتنقُّل بين المدارس. ردت بأنها أصبحت ناضجة ويمكنها فعلُ ما تُريد.

فجأة اكتشف أن ابنته ليندا تشبهه. إذ الآن استطاع أن يَسمَع نبرة صوتِه في صوتِها، فتعززَ لديه إحساس بأن الأحداث تُعيد نفسها. فنقاشه مع ابَنته معقدٌ مثل علاقته مع أبيه. تناولا وجبتيها وشربا النبيذ، فخفت التوتر وتوارى الانزعاج، فحدثها عن رحلته، وللحظة حاول أن يلعَب بأفكارها، فسألها فيما إذا كانت لديها رغبة في مُرافقته. مضى الوقت سريعاً، وعند منتصف الليل دفعا حسابهما، وعادا مشياً إلى الفندق رغم برودة الجو. وظلا جالسين في غرفته حتى الثالثة، وعندما ذهبت ليندا إلى غرفتها، شَعَر بأنهما قَضيا ليلة سعيدة رغم بعض التشنجات. لكنه لم يستطع التخلص من مخاوفه بشأن ابنته، وهذا يعني أنه غير متأكد تماماً من أنَها في النهاية تعيش حياتها. عندما ترك الفندق قبل ظهر اليوم التالي كانت ليندا ما تزال نائِمة، فدفع حساب غرفتها وترك لها رسالة لدى موظفة الاستعلامات.

استيقظ فالاندر من أحلام يقظته. فرأى الزوجين العجوزين يغادران

مكسه

الصالة. لم يدخل ضيف جديد. بقي الرجل ذو البدلة الرصاصية جالساً وحده وأمامه كوب الشاي. نظر إلى ساعته، ما يزال أمامه ساعتان حتى يحضر العميد ليأخُذه.

دفع حسابه وحوّل بذهنه المبلغ لما يعادله بالعملة السويدية، فأدرك أن الوجبة رخيصة جداً. عاد إلى غرفته. راجع بعض الأوراق التي جلبها معه، وشعر بأنه بدأ بشكل بطيء يدخُل في التحقيق من جديد، ذلك التحقيق الذي أتعبه، ولم يُصدق لما نُقل إلى ريغا. فبدأ من جديد يِشُم رائحة دخان العقيد القوية.

في الساعة السابعة والربع طرق العميد بتنس الباب. كانت السيارة تنتظرهما خارج الفندق. توجها عبر شوارع المدينة المعتمة إلى مقر شرطة ريغا. كان هناك القليل من الناس في الشارع ودرجة الحرارة انخفضت كثيراً. شوارع وساحات المدينة مُضاءة بشكل رديء. شعر فالاندر بأنه يسير في مدينه مؤلفة من صور مظللة وكواليس، مرت سيارتهم عبر بوابة كبيرة محاطة بحديقة كبيرة. ظل العميد صامتاً طوال الرحلة بينما استمر فالاندر يفكر بوجوب معرفة سبب قدومه إلى ريغا. قطعا رواقاً مُقفِراً يسمع المرء صدى خطواته أثناء السير فيه. نزلا سُلما، وسارا في رواق آخر إلى أن توقفا أمام بابٍ فُتِح دون أن يطرقا عليه.

دخل فالاندر غرفة كبيرة دافئة، لكنها رديئة الإضاءة. غَلَب على أثاثها طاولة بيضوية كبيرة مُغطاة بغطاء أخضر، وضعت وسطها عدة زجاجات ماء وأكواب. وحولها اثنا عشر كرسيا. ومن عُمق الغرفة تقدم رجل كان واقفاً ينتظر، ورحب بفالندر قائلاً:

«أهلا بك في ريغا،» اسمي يوريس مورنيرس.

«العميد مورنيرس، يشاركني بمسؤولية التحقيق في قضية مقتل العقيد ليبه.» قال بتنس.

شعر فالاندر في الحال بوجود توتر بين العميدين من خلال نبرة صوت

مكتبة

بتنس، وكذلك كان هناك شيء ما في تعليقاهما المُقتضبة. لكن فالاندر لم يتمكن من تحديد هذا الشيء بالضبط.

كان العميد مورنيرس في الخمسين من العمر. شعرَه قصير ورمادي. وجهه شاحب ومتورم. قصير القامة. لاحظ فالاندر أنه يتحرك بخفة ودون أن يُحدث صوتاً. فكر فالاندر في الحال بأن هذا العميد هو أيضاً من سلالة القطَط! «عميدان كأنهما قطان بريّان في بدلتين رماديتين يجلسان أمامي الآن!»

علق فالاندر وبتنس معطفيهما، وجلسا بجانب الطاولة. تساءل فالاندر مع نفسه: «ما الذي حصَل مع العقيد؟... الآن يجب أن أعرف منكما التفاصيل».

ابتدأ مورنيرس الاجتماع. لاحظ فالاندر أن العميد مورنيرس يحرص أن يُبقي وجهه في الظل. فبدا الصوت الذي يتحدث إليه باللغة الإنجليزية المُرتبة كأنه يأتيه من عُمق الظلمة، أما العميد بتنس فكان ينظُر نحوه باستقامة، وكأنه لا يُريد أن يسمع شيئاً. نَفد صبره مدركاً أي قَدَر أصاب العقيد.

«القضية مليئة بالغموض،» قال العميد مورنيرس وأردف:

«في اليوم نفسه الذي عاد فيها العقيد ليبه من ستوكهولم. اجتمعنا في هذه الغرفة وقدم تقريره لنا فتناقشنا بالحالة. واتفقنا أن يتسلم العقيد في المستقبل مسؤولية كل التحقيقات في البلد وانتهى الاجتماع في الساعة الخامسة. علمنا بعدها أن العقيد ذهب إلى بيته فهو يسكن خلف محكمة ريغا. أخبرتنا زوجته أنه بدا كالمعتاد، وكان فرَحاً لعودته. تناولا العشاء وحدثها عما صادفه في السويد. أنت مثلاً يا مفتش فالاندر تركت انطباعاً حسناً لديه. قبل الساعة الحادية عشرة ليلاً وبينما كان العقيد يُهيئ نفسه للنوم رن جرس الهاتف. لم تتمكن زوجته من معرفة مَن الذي اتصلَ به في تلك الساعة، لكن العقيد ارتدى ملابسه وأخبرها أن عليه أن يذهب حالاً إلى مقر الشرطة. لم تستغرب الزوجة لذلك،

مكسه

لكنها تألمت لهذه الدعوة التي جاءت في الليلة نفسها التي وصل فيها من خارج البلاد. والعقيد بدوره لم يقُل لها مَن الذي تحدثَ إليه ولا ماهية المُهمة الليلية.

صَمَتَ مورنيرس ومد يده إلى إحدى زجاجات الماء. رمى فالاندر نظره إلى العميد بتنس الذي ما يزال يُحَدّقُ إلى الأمام.

«بعد ذلك أصبح َكل شيء غير واضح،» استمر مورنيرس:

«في وقت مبكر من صباح اليوم التالي عثر عدد من عُمال الميناء على جثة العقيد في منطقة داوكافكريفا، وهذا الاسم يُطلق على الجزء الأكبر من الميناء. وجدوها مُلقاة على الرصيف. وفي وقت متأخر عرفنا أن العقيد تَلَقى ضربه على رأسه من الخلف بشيء صلب، ربمَا كان قطعة أنبوب معدني أو عصا خشبية غليظة.

وقد ذكرت فحوصات أطبائنا أن العقيد قُتَل بعد أن ترك بيته بساعة أو ساعتين. هذا هو كل الذي استطعنا معرفته، لا يوجد أي شخص شاهد العقيد يتمشى في الميناء، أو عندما غادر مترله. كل شيء يبدو لُغزاً. فنادراً ما، أو لم يحصل مطلقاً في بلدنا أن قُتل رجل شرطة، أو على الأقل ضابط برتبة عالية مثل العقيد ليبه. نحن بالطبع حريصون على القبض على المجرمين بأسرع وقت.»

صَمَت مورنيرس وغطّ من جديد في الظل، بادر فالاندر بالسؤال:

«هل اتصل أحد منكم بالعقيد وطلب منه أن يحضَر إلى هنا؟»

«كلا.» أجاب بتنس بسرعة وأردف:

«بحثنا في هذا الأمر، فأكّدَ قائد الحرس الكابتن كوزلوف، بأنه لم يَحصَل أي اتصال بالعقيد ليبه في تَلك الليلة.»

«أذن في هذه الحالة هناك احتمالان.» قال فالاندر.

هزّ بتنس برأسه موافقاً، فأكمل فالاندر:

«ربما يكون العقيد قد كَذَبَ على زوجته. أو أنه خُدِعَ بالصوت

مكتبة

الذي تحدثَ إليه.»

«حسب الاحتمال الثاني، يفترض أن العقيد عَرَفَ صاحب الصوت الذي تحدث إليه فلبى طلبه بالحضور إلى مقر الشرطة. أو أَن الشخص المتصل غيّر صوته بطريقة جعلت العقيد يتوهم بشخصٍ ما يعرفه.»

«هذا احتمال وارِد أيضاً.» رد بتنس.

نبّ مورنيرس من الظل الجالس فيه قائلا:

«بالطبع لا يمكننا استنتاج وجود أي علاقة بين مقتَل العقيد وبين تواجده وعمله في السويد، ولا يمكننا أن نستخلص أي شيء بهذا الخصوص. لذلك طلبنا المساعدة من جانب الشرطة السويدية. ومنكم بالتحديد يا مفتش فالاندر. نحن بحاجة لأي اقتراح، لأي مساعدة، كما أننا سنكون شاكرين لأي فكرة تُقدّمها.» قال ذلك ونهض من كرسيه مردفاً:

«أقترح أن نكتفي بهذا القدَر من النقاش، فأنت يا مُفتش فالاندر مُتعَب من السفر، ولا نُريد أن نُثقِل عليك في أولِ أمسية لك في ريغا.»

لم يشعر فالاندر بالتعَب، بل كان مهيأً للعمل طوال الليل إذا تَطَلب الأمر، لكنه أدرك أن الاجتماع انتهى لأن بتنس هو الآخر نهضَ من مكانه.

ضَغَطَ مورنيرس على زر جرس كهربائي كان مُثَبتاً على الطاولة. ففُتِحَ الباب في الحال، وظهر شاب يرتدي ملابس عسكرية. فقال مورنيرس مخاطباً فالاندر:

«أُقَدم لكَ الرقيب زيدس، يتكلم الإنجليزية بشكل ممتاز، وسيكون سائقكَ طوال مدة تواجدك في ريغا.»

أدى زيدس التحية العسكرية. لم يرد فالاندر بأكثر من أن هزّ له برأسه.

اَعتبر فالاندر هذا المساء له، فهو لم يحصل على دعوة للعشاء لا من

مكتبة

مورنيرس ولا من بتنس. تبع زيدس إلى الحديقة الموجودة خارج مقر الشرطة. شعَرَ بالبرد يصفع وجهه فالفرق في درجة الحرارة بين الخارج والغرفة الدافئة كان كبيراً.

جلَسَ في المقعَد الخلفي لسيارة سوداء. كان زيدس قد سَبَقه وفتح له الباب.

تحركَت السيارة ومرت عبرَ البوابة الكبيرة، قال فالاندر:

«الجو بارد جداً.»

«نعم سيادة العَميد، فهذا الوقت من السنة يكون الجو بارداً جداً.» أجاب زيدس.

«سيادة العميد!» فكر فالاندر. أعتَقَد أن المعلومات الشخصية التي قُدمَت عنه كانت كرجل شرطة سويدي برتبة أقل من رتبة بتنس ومَورنيرس. أقلقته هذه الفكرة، لكنه في الوقت نفسه ظن بأنه يحتاج إلى مدة طويلة حتى يتعود على هذه الألقاب والامتيازات، سيارة خاصة، سائق، وهذه الهالة غير الطبيعية.

كان زيدس يقود سيارته بسرعة في الشوارع الخالية، لم يشعر فالاندر بالتعب غير أنه شَعَر بالخوف لمجرد التفكير بتلك الغرفة الباردة في الفندق.

«أنا جائِع، هل لك أن تدُلَني على أحد المطاعم الجيدة ولكن ليس غالياً.» قال فالاندر لزيدس.

«صالة الطعام في فندق لاتفيا هي أحسن الأماكن.» رد زيدس.

«لكني سبق وكنت هناك.» قال فالاندر.

«لا يوجد هناك أي مطعم في ريغا يقدِم طعاماً أفضل من تلك الصالة.»

أجاب زيدس وتوقف بشكل مفاجئ بسبب مرور عربة قطار مُقرقِعة من ركن الشارع.

مكسه

«لا بد أن تكون هناك مطاعم جيدة في مدينة عدد سكانها مليون مواطن تقريباً،» قال فالاندر.

«الأكل ليس طيباً إلا في صالة لاتفيا.» رد زيدس.

اتكأ فالاندر على مسند المقعد الخلفي وقرر إنهاء الحديث قائلاً مع نفسه: «يبدو أن لدى زيدس أوامر بعدم السماح لي بالذهاب إلى المدينة! فتصرفات أي سائق في هذا السلك بصورة عامة مُقيدة».

توقف زيدس أمام باب الفندق، وقبل أن يمد فالاندر يده ليفتح الباب، كان زيدس قد فتحه.

«متى سأحضَر هنا صباح غَد، سيادة العميد؟» قال زيدس.

«الساعة الثامنة،» أجاب فالاندر.

دخَلَ فالاندر إلى بهو الفندق فوجده ما يزال مهجوراً كما تركه قبل عدة ساعات. سمع موسيقى من مكان ما بعيد. أخَذَ مفاتيح غرفته وسأل موظفة الاستعلامات فيما إذا كانت صالة الطعام مفتوحة. هزت برأسها. كانت تضَع على عينيها نظارة سميكة ووجهها شاحِب، ذكّرَه في الحال بالعميد مورنيرس، فسألها فالاندر عن مصدر الموسيَقى:

«هذا اليوم لدينا حفلة.»

وعندما ترك فالاندر الاستعلامات اكتشف الرجل نفسه الذي كان موجوداً يشرب الشاي في الصالة. لكنه هذه المرة كان جالساً على إحدى الأرائك الجلدية المهترئة في البهو ومنغَمساً في قراءة جريدة. كان متأكداً أنه الشخص نفسه. ففكر مع نفسه: «إذن أنا مُراقَب! وبالضبط مثلما الأمر في روايات الحرب الباردة... يجلس رجل ببدلته ويتظاهر بأنه لا يرى شيئاً. ماذا تظُنان يا بتنس ومورنيرس؟ وبمَـن تعتقدان أن بإمكاني أن ألتقي؟»».

صالة الطعام كانت شبه مهجورة مثلما تركها في النهار. على إحدى الطاولات المنخفضة البعيدة جلس مجموعة رجال يرتدون ملابس داكنة

مكسه

اللون ويتحدثون بشكل متواصل. استغرب فالاندر لأن عامل الخدمة في الصالة دعاه إلى الطاولة نفسِها التي جلس عندها من قبل في النهار. تناول وجبته المكونة من حساء خضراوات وقطعة ستيك وكوتليت مجفف. أما البيرة اللاتفية فكان طعمها طيباً. كان قلقاً، فلم يهتم لشُرب القهوة. دفعَ حسابه وترك الصالة ليبحَث عن مكان النادي الليلي في الفندق. شاهد في طريقه الرجل ذا البدلة الرصاصية جالساً على الأريكة نفسها.

شَعَرَ فالاندر بأنه موجود في متاهة، لأنه سلكَ طريقاً مؤلفاً من عدد من السلالم المتقاطعة أعادته في النهاية إلى صالة الطعام التي خرج منها قبل قليل. حاول أن يُوَجه نفسه مُتابعاً صوت الموسيقى. وأخيراً اكتشف لوحة ضوئية في نهاية الرواق المُظلم. وصَلَ جوارها ففتحَ له الباب رجل قال كلاماً لم يفهمه فالاندر. دخَلَ إلى البار ذي الإضاءة المُعتمة والمليء بالناس. خلف ستائر المسرح المقطوع من البار كانت هناكَ فرقة موسيقية تعزف بصوت مُرتَفع مقطوعة لفرقة آبا السويدية. كانت التهوية في المكان سيئة، وهواء المكان ذكّرَه في الحال بسجائر العقيد ليبه. اتجه نحو طاولة خمّن أنها فارغة وسط الزحام. كان طوالَ الوقت يحس أن ثمة عيوناً كثيرة تُراقبَه، كان شديد التركيز فالنوادي الليلية تعج بالعصابات التي تعتاش على سرقة وسلب الأجانب من مواطني الدول الغربية الذين يأتون لزيارة ريغا.

ضغَطَ فالاندر جرساً مُثبتاً على الطاولة، فجاء عامل البار وسجلَ طلباته. بعد عدة دقائق وقف بجانب الطاولة وبيده كأس ويسكي، كان سعره نفس سعر وجبة العشاء التي تناولها. شمّ فالاندر مُحتويات الكأس مُتخيلاً وجود مؤامرة شراب مسموم مثلاً، راح يشرب دون رضا. اندَفعَت من الظلمة إحدى الفتيات. جلست على الكرسي بجانبه تماماً دون ان تُعرّف بنفسها. قَرَبت رأسها من وجهه فشم منها رائحة

مكسه

الشتاء. هز فالاندر رأسه بالنفي عندما تكلمت معه باللغة الألمانية، فتحدثت بإنجليزية رديئة رداءة لغة العقيد ليبه. طلبت منه السماح بمصاحبته وسألته أن يطلب لها مشروباً. شعَر فالاندر بالضعف. اعتقَد بأنها إحدى الغانيات! لكنه حاول أن يطرد هذه الفكرة، ففي بلد مُقفر وبارد مثل ريغا يحتاج المرء إلى أن يتحدث إلى شخص ما. طلب لها مشروباً، لكنه لم يلغ الحاجز بينه وبينها خاصة عندما أوغَلَ في الشرب، وشَعَر بفقدان التركيز مخافة أن يحصل له ما حصل في العام الماضي عندما هجَم بطريقة غريبة وشَبَق جنسي رامياً بنفسه على السيدة أنيتا برولن المدعي العام في منطقة إيستاد. انتفَضَ لمجرد تَذكره تلك الحادثة، وفكر مع نفسه: «سوف لن أسمح لنفسي بتكرار تلك الفعلة، على الأقل ليس هنا في ريغا».

لم يُدرِك سبب جذَبه لانتباه الفتاة، وفكر مع نفسه: «لم يمر على وجودي في هذا البلد الغريب طويلاً، فكيف يُمكنني فهم تصرُف هذه الفتاة!».

قدرَّ بأنها لم تبلُغ سن العشرين. وخلف مواد التجميل الصارخة تمكن من رؤية وجه طفولي ذكره بابنته ليندا. لذلك قال لها:

«ربما غداً. ليس هذه الليلة.»

ثم عبَّ ما في كأسه دفعة واحدة ونهض مغادراً الطاولة قائلاً مع نفسه: «لقد كُنتُ قريباً جداً، قريباً تماماً من الوقوع في الخطأ نفسه!»

في بهو الفندق شاهد فالاندر الرجل ذا البدلة الرصاصية ما يزال جالساً يتصفح جريدته. فقال مع نفسه مُخاطباً الرجل: «نَم جيداً... فإننا سنلتقي بالتأكيد صباح غد».

عاد إلى غرفته، ونام نوماً قلقاً، إذ شعَرَ بالأغطية ثقيلة والسرير غير مريح، وفي عُمق نومِه خُيل إليه أنه سَمِعَ الهاتف يرن بدون انقطاع، ظن أنه في حلم ومع ذلك حاول النهوض، ولما استيقظ وجد الصمت عميقاً.

مكتبة

في الصباح أيقظه طرق على باب غرفته. فرد بصوت يغلب عليه النعاس:

«ادخُل...!»

استمر الطرق، فأدرك أن الباب كان مُقفَلاً منذ ليلة أمس. ولمح المفاتيح ما تزال مُعلقة فيه. لبِس بنطاله بسرعة وفتح الباب. فوجد امرأة ترتدي صدرية تنظيف وتحمل بيدها صينية الفطور. استغرَبَ فهو لم يطلب فطوراً. فظن أن الفطور ضمن سعر المبيت في الفندق! أو ربما يكون الرقيب زيدس قد طلبه له.

«صباح الخير.» قالت المنظفة باللغة اللاتفية.

حاول أن يحفظ تلك العبارة في ذاكرته. وضَعَت المنظفة الصينية على إحدى الطاولات، وابتسمت بخَجَل واستدارت متجهة نحو الباب. تبعها فالاندر ليغلقه بعدَها. بعد ذلك حَصَل كل شيء بسرعة، فبدلاً من أن تترك المنظفة الغرفة، أغلقَت الباب من الداخَل ووضَعَت أصبعها على فمها كإشارة لإسكاته. تأملها فالاندر دون أن يفهم شيئاً. أخرَجَت المنظفة من جيبها بحذر ورقة. حاول فالاندر أن يقول شيئاً، فوضَعَت أصبعها مرة أخرى على فمها. لاحظ فالاندر أن المرأة خائفة، فقدر أنها لم تكن مُنظفة، لكنه في الوقت نفسه أحس بأنها لا تُشكِل تهديداً. كانت خائفة فقط. أخَذَ فالاندر الورقة. كانت بالإنجليزية. قرأ ما هو مكتوب عليها. راجَعَ قراءتها مرتين، ونظر إلى المرأة المتسمرة في وقفتها أمامه التي أسرعت بإخراج ورقة دليل من جيبها الثاني، وناولتها له. فتحها فالاندر محاولاً إعادتها لوضعها الصحيح، فاكتشف أن الورقة هي الغلاف الخارجي للكتاب الذي أهداه للعقيد ليبه في يوم عودته إلى وطنه، كان كتاباً مصوراً حول إقليم سكونه. تأملها مرة ثانية، فلاحظ أن وجهها الخائف كان يَخفي ملامح أُخرى، الرغبة أو ربما التحدي. سار فالاندر علَى الأرض الباردة حافَياً وتناول القلم الذي كان موجوداً

مكسه

على طاولة الكتابة في الغرفة، وكتب على ظهر الغلاف المُجعد الذي كان يمثل صورة للكنيسة الكاتدرائية في لوند عبارة باللغة الإنجليزية ليُعبر لها بأنه أدرك الموضوع «I have understood I». أعاد لها الغلاف، وفكر مع نفسه بأن السيدة بايبه ليبه لا تبدو مثلما تخيلها من قبل عندما جلس مع العقيد في شقته واستمعا معاً إلى موسيقى ماريا كالاس، حيث إن العقيد قال إنه متزوج من امرأة اسمها آنا.

رغم أنه لا يتذكر ما قاله العقيد بالضبط، إلا أنه في حينها تصورها بوجه آخر. انسحَبَت بايبه ليبه من الغرفة وبقي فالاندر يبلع ريقه دون أن يعرف ماذا يقول! فقد حضَرَت المرأة لتتحدث له عن زوجها المقتول. إلا أنها كانت خائفة. اتفقا على شِفرة خاصة؛ وهي إذا ما اتصل به هاتفياً شخص ما وطلب الحديث معَ السيد إيكرس، فعليه أن يترل حالاً إلى بهو الفندق، ويستخدم السلالم المؤدية إلى السرداب، حيث توجد هناك صالة (ساونا) بجانبها باب حديدي رمادي اللون، يمكن أن يفتحه دون مفتاح ويخرج إلى الشارع الموجود خلف الفندق، وهناك ستلتقي به وتخبره عن ملابسات مقتل زوجها. كتبت على ظهر الورقة كلمة رجاء بالإنجليزية مُكررة please، please، please حينها أصبح متأكداً تماماً بأنه لم يرَ في وجهها الخوف فقط، وإنما فيه إصرار وتَحدٍّ، وربما كُره. وفكر مع نفسه:

«هناك شيء أكبر بكثَير مما أتخيله، شيء كان حقاً بحاجة إلى ساعي بريد يرتدي صدرية مُنظّفة! يجب أن لا أنسى بأني أعيشُ في عالمٍ غريب!».

في الساعة الثامنة إلا خمس دقائق صباح اليوم التالي استقل فالاندر المصعد ونزلَ إلى بهو الفندق. لم يجِد قارئ الصحيفة في مكانه. خرَجَ إلى الشارع، فشَعَر أن الجو أصبح أقل برودة من يوم أمس. وجد الرقيب زيدس في انتظاره، حيّاه بتحية الصباح، وأدار محرك السيارة بعد

مكسه

أن جلسَ فالاندر في المقعد الخلفي. مضى ذلك اليوم بطيئاً، اطلع فيه على معالِم ريغا. كانت حركة المرور كثيفة أعاقَت الرقيب زيدس عن قيادة سيارَته بسرعة مثلما اعتاد. طوال الوقت كان وجه بايبه ليبه أمام فالاندر، وبغتة شعر بالخوف.

٨

ظنَ كورت فالاندر أنه موجــود في إحدى المتاهات عندما تظاهرَ الرقيب زيدس بالنظر إلى السلالم الصاعدة والنازلة التي كانت مُمتدة على طول بناية مقر الشرطة، قبل أن يتوَقَفَ عند الباب المؤدي لمكتب مورنيرس. وفكر مع نفسه بأن هذه ربما كانت إيماءة مُغلــّفة بشيء من المناورة من جانب زيدس في اختيار الطريق المُختصَر لمكتب مورنيرس من دون أن يدع ضيفه يشعر بذلك، غير أن فالاندر هو أيضاً وجد نفسه غير مُهتم بحفظ ذلك الطريق.

كان المكتب متوسط الحجم وفخماً بأثاثه، عند أحد الجدران اصطفّت خزانة حديدية مليئة بالملفــات المرصوفة، وما جلَبَ انتباهه وجود ثلاثة هواتف مختلفة على الطــاولة وبجانبها منفضَة سجائر ضخمة مصنوعة من الحديد الزهر ومزينة بتمثال غريب ظَن فالاندر في البداية أنه لا يُمثل شيئاً، لكنه لما دقّق فيه النظر تبين أنه يمثل شخصاً مفتول العضلات يحمل رايَة ويسير بعكس اتجاه الريح. كانت الطاولة خالية من الأوراق. أما الستارتان المعدنيتان المُعلقتان على طول النافذتين العاليتين خلف ظهر مورنيرس، فلم يستطِع فالاندر أن يُحَدد فيما إذا كانتا مسحوبتين إلى النصف، أم انهما كانتا معطّلتين، وظل طوال الوقت يتأمَلهما. فجأة اكتشف كورت فالاندر أن السجائِر التي يُدخنُها العميد مورنيرس هي من نفس النوع الذي كان يدخنه العقيد ليبه، عندها أخرج العميد من سترته علبة سجائره (بريما) ووضعها على الطاولة، بطريقة توحي بالتباهي وهو يزف له خبراً ساراً:

«قَبِضنا على أحَد المُجرمين، حيث نجحَت تحرياتِنا ليلة أمس في

مكسه

الوصول إلى ما كُنا نتوقَعُه!»

في البداية اعتقَد فالاندر بأن الأمر يتعلق بمقتل العقيد ليبه، لكنه أدرك في النهاية أن العميد كان يتحدَث عن القتيلين اللذين عُثِرَ عليهما في طوافة الإنقاذ.

«عصابة مُنَظمة أو حلقة من المُجرمين ذات فروع في كل من مدينتي تالين ووارشو. يعتاشون على التهريب، السلَب، السرقة وكل ما من شأنه أن يَجلب لهم الأموال. وحسب معلوماتنا فإن هؤلاء بدؤوا أيضاً يُتاجِرون بالمخدرات التي اجتاحَت بلدنا للأسف في السنين الأخيرة. لقد كلفنَــا العميد بتنس بالتحقيق مع هذا المُتهم، وبالتأكيد سنحصل على المزيد من المعلومات.»

أوحـَــت كلمات مورنيرس الأخيرة بالطريقة التي ينتهجُها بتنس في التحقيق، إلى درجة جعلت فالاندر يتخيل أن العميد بتنس يُعرّض من يُحقق معهم للتعذيب. وتساءل مع نفسه في النهاية: «ما الذي تعرفه عن أساليب الشرطة في لاتفيا؟ وهل هناك برأيك حدود للسلطات الدكتاتورية على الإطلاق؟ ثم هل إن نظام الحكم في لاتفيا دكتاتوري؟»».

ثم فكر بوجه بايبه ليبه المليء بالخوف والجُرأة في الوقت نفسه عندما خاطبته: إذا اتصل بك شخص وطلب أن يتحدث إلى السيد إيكرس... فعليك أن تترل في الحال إلى بهو الفندق.

ابتسم مورنيرس بوجه فالاندر إشارةً إلى أنه أدرك ما يُفكر به زميله مفتش الشرطة السويدي الذي حاول بالمُقابل أن يُخفي أسراره بتغييره للحديث:

«لقد ترك العقيد ليبه لدي انطباعاً بأنه كان قلقاً ويشعر بعدم الأمان في عمله، لكنه لم يوضح أسباب ذلك، وأظن أن على العميد بتنس الآن وهو يحقق مع هذا المتهم أن يُحدد تلك الأسباب، بأن يبحث عن احتمال وجود علاقة بين مقتل العقيد وبين القتيلين الذين عُثِر عليهما

مكسه

في طوافة الإنقاذ.»

لاحظ فالاندر تغيراً في ملامح وجه العميد مورنيرس الذي لم يتوقع ما سمعه تواً. ولكن هل كان العقيد ليبه قلقاً بالفعل؟ وهل كان يعرف بالفعل نهايته هذه؟ ثم واصل كلامه:

«يجب عليكم مناقشة هذه الأسئلة. ما الذي جعلَ العقيد ليبه يخرُج في منتصف الليل؟ ومَن الذي استطاع في النهاية اغتيال العقيد؟ هل هناك دافِع سياسي وراء هذه الجريمة؟ مثلما حصل مع الرئيس الأميركي كنيدي، الذي تكررَ بعد عدة سنوات مع رئيس الوزراء السويدي أولف بالما عندما أُطلقَ عليه النار في أحد شوارع ستوكهولم المفتوحة. يجب عليكم أن تُفكَروا بكل هذه الأمور؟ كما يجب عليكم أيضاً أن تُفكروا في احتمال وجود دوافِع شخصية وراء هذه العملية. وإلا لماذا طلبتم حضوري إلى هنا؟!»

«هذا عين الصواب، قال مورنيرس. فأنت رجل شرطة مُتمرِس، ذو خبرة عالية، وأعطيت تحليلاً مضبوطاً للأمور. فالعقيد ليبه عاش حياة زوجية سعيدة. وهو رجُل نزيه، مستقيم السيرة، ليس لديه عشيقة، وعملياً كان ضابط شرطة مُثابِراً في عمله وطموحـــاً لتطوير بلده. نحن نعتقد أيضاً بأن عملية اغتياله لها علاقة بعمله، لأنه قبل أن يُقتل كان متفرَغـــاً تماماً للتحقيق في قضية هذين القتيلين اللّذَين عُثِـــر عليهما في طوافة الإنقاذ عند السواحِل السويدية، لذلك طلبنا مساعدتكم لنعرِف فيما إذا كان العقيد قد صرّحَ لكم بشيء يتعلق بتلك القضية، لم يكن مكتوباً في التقرير الذي سلّمَه لنا قبل اغتياله. نحن في حاجة لمعرفة ذلك، ونتمنى أن تُساعدونا فيه يا مفتش فالاندر.»

«حدثني العقيد ليبه في السويد عن المُخدِرات،» قال فالاندر. «وعن طريقة دخول المُنشطات إلى أوروبا الشرقية، وكان مُقتَنعاً تماماً بأن القتيلين في طوافة الإنقاذ كانا ضحية لقرار داخلي اتُخِذ من قِبَل تنظيم

ضخم يتعامل بتجارة وهريب المُخدرات. أن قتلهما كان نوعاً من الانتقام، أو لربما إنهما رَفَضا كشف النقاب عن شيء ما! هذا بالإضافة إلى أن هناك سبباً كبيراً للاعتقاد بأن طوافة الإنقاذ نفسها كانت وسيلة لنقل المخدرات، لأنها اختفت بعد عملية سطو على أحد مراكِز شرطتنا، و لم نتوصل أبداً إلى كيفية ترابُط هذه الأحداث مع بعضِها.»

قال مورنيرس:

«أنا شخصياً أتمنى أن يحصَل العميد بتنس على أجوبة لِهذه الأسئلة، فهو أحد المحققين المَهرة. وخلال هذا الوقت فكرتُ أن أُريك المكان الذي اغتيلَ فيه العقيد ليبه، وكي نَسمَح في الوقت نفسه للعميد بتنس أن يأخُذ الوقت الكافي في التحقيق.»

«وهل المكان الذي عُثِر على الضحية فيه، هو مكان وقوع الجريمة نفسه؟» سأله فالاندر.

«لا يوجَد ما يُعارِض ذلك،» رد مورنيرس. «كما أن المكان يقع في جهة منعزِلة من المدينة. لا يمر بها إلا القليل من الناس أثناء الليل.»

فكر فالاندر مع نفسه: «هذا الكلام لا يبدو صحيحاً، فالعقيد يجب أن يكون قد دافَعَ عن نفسه أو أبدى مقاومة. لا يُمكن أن يُرمى هكذا على رصيف الميناء وسط الليل، وليسَ صحيحاً أن نكتفي بالقول إن المكان كان منعزِلاً».

ثم أردف:

«بودي أن ألتقي بأرمَلة العقيد ليبه، فإن محادثة واحدة ولو قصيرة معها تعتبر شيئاً مُهماً بالنسبة لي، هذا على افتراض أنكم أجريتُم معها لقاءات عديدة.»

رد مورنيرس:

«لقد حققنا مع السيدة بايبه ليبه، وسوف نُرتب لك لقاءً معها.»

قادا سيارتهما بمحاذاة النهر في ذلك الصباح الشتوي والرمادي

مكتبة

الصّبغة. تسلم الرقيب زيدس تعليمات بأن يُحضر أرملة العقيد ليبه، بينما ذهب كل من فالاندر والعميد مورنيرس إلى المكان الذي قال العميد إنه مكان اكتشاف الجريمة. وعندما عادا للسيارة وجلس فالاندر في المقعَد الخلفي لسيارة مورنيرس، شعــرَ بأنه كان أوسَع وأكثر راحة من المقعَد الخلفي لسيارة زيدس، وبعد لحظات صمت قال فالاندر:

«ماهي نظريتكم عن كيفية وقوع الجريمة؟ فلا بد أنكما وأقصِد أنت والعميد بتنس قد فكرتُما بذلك.»

«المُخدرات،» أجاب مورنيرس بشكل حاسم. «فنحن نعرف أن الرجال الرئيسيين في التعامُل بالمخدرات يُحيطون أنفُسَهم بجيشٍ من الحراس الشخصيين. وهؤلاء بدورهم عبارة عن مجموعة من المُدمنين المُستَعدين لتنفيذ كل ما يُطلَب منهم وبشكل طوعي مُقابل الحصول على جُرعَتهم اليومية. فلربما أن هؤلاء الرؤساء قد شَعَروا بأنَ العقيد ليبه قد أصبَحَ قريباً من الإمساك بهم.»

«وهل كان العقيد ليبه قريباً بالفعل منهم؟» سأله فالاندر.

«كلا،» رد العميد. «فلو كانت هذه النظرية صحيحة، لتَم اغتيال العشرات من ضباط الشرطة من ذوي الرتَب العالية قبلَ ان يأتي دور العقيد ليبه. والأغرَب في ذلك أن العقيد ليبه لِم يَسبُق له أن اشترك من قبل بالتحري عن جرائم المخدرات. كما أنه أُرسِل إلى السويد بمحض الصدفة.»

«وأي نوع من التحقيقات كان العقيد ليبه يقوم به؟» سأله فالاندر.

«إنه كان ماهراً ومتمرساً في التحقيقات العامة.» أجاب العميد بينما كان ينظُرَ إلى الخارج عبر زجاج السيارة. «فقد حل العقيد ألغاز الكثير من جرائِم السطو والسرقة التيّ تحصَل بكِثرة في ريغا، وأمسَك بمنفذيها

مكسه

بشكل مُذهل. كما أنه كثيراً ما يتُم استدعاؤه طلبا للمساعَدة من قِبَل زملائه المُحققين الذين لهم نفس الخبرة في التحقيقات الجنائية.»

عندما توقَفَت السيارة عند الإشارة الضوئية الحمراء، جلسٍ كل من فالاندر والعميد صامتين. وتأمَلَ فالاندر مجموعة من الناس المُنكَمشين من البرد والمُنتَظرين في موقف الحافلة. وتوَلَّد لديه إحساس بأنَ هؤلاء الناس سوف لَن تأتيهم أيَ حافلة لتفتَح أبوابها لهم. ثم كَسَرَ فالاندر الصمت عندَما قال:

«المخدرات، بالنسبة لنا في الدول الغربية تُعتبر مشكلة قديمة، لكنها شيء جديد بالنسبة لكم.»

«ليست بالجديدة تماماً،» اعترض مورنيرس. «لكن ليس بالحجم الذي نراه الآن. فالحدود المفتوحة خَلَقت حركة وسوقاً غير طبيعيين. وأعترف هنا بأننا في أكثر الأحيان نقف بلا حول ولا قوة أمام نشاطات مُهربي المخدرات. نحن في الحقيقة نحتَاج لتطوير التعاون مع شرطة الدول الغربية، لأن هذه المخدرات التي تعبُر الأراضي اللاتفية ستذهب إلى أسواقكُم بسبب قوة عُملتكم التي بصراحة تجذُب المُهربين. كما أن السويِد بالنسبة لنا أقرب بلد مفتوح بشكل دائم للعصابات اللاتفية، لأسباب طبيعية فالمسافة لا تتجاوز عدة أميال بحرية بين مدينة فينتسبيل اللاتفية والساحل السويدي، بالإضافة إلى كون ساحِلكم طويلاً ويصعب السيطرة عليه. فكما تعرف إن تهريب براميل الخمور كان شيئاً كلاسيكياً وروتينياً على هذا الطريق منذ زمن.»

«تحدث لي بالمزيد.» قال فالاندر متسائلاً. «أين تُصنَع هذه المخدرات؟ ومَن يقِف وراءها؟»

«يجب أن تفهموا سيادتكم، بأنكم الآن موجودون في بلد فقير،» قال مورنيرس. «نعم بلدنا لاتفيا فقير ومُتهدم مثله مثل بقية الدول الاشتراكية التي تُجاورنا. كُنا لسنين طويلة مُجبَرين على العيش بطريقة

كُنا فيها مثل المعزولين في قفَص. كان حينها باستطاعتنا فقط التطلع عَن بُعد إلى ثروات العالم، التي أصبَحَت الآن وبشكل مفاجئ مـُباحة لنـا. ولكن تحت شرط واحد ومُهم: وهو أن يكون لدى المرء المال الكافي. وهنا برزَت الحاجة للبحث عن الأساليب التي تَجلب المال بشكل سريع وبصرف النظر عن المقاييس الأخلاقية. والمُخدرات بالطَبع هي أقصَر طريق للحصول على الأموال. كما أنكم - أقصُد الغرب- عندما ساعدتمونا في تهديم أسوار عُزلَتنا، فَتَحتُم علينا في الوقت نفسه بوابة التغيير بشكلٍ مفاجئ وَلَـّدَ عندنا أمواج جوع جارفة... جوع لكل الأشياء التي كُنا نَتَطلَع إليها عن بُعد، التي كان اقتناؤها أو لَمسُها ممنوعاً علينا، أو هو ضرب من الأحلام. إننا بالطبع حتى الآن لا نعرف إلى أين ستسير الأمور.»

ثم انحنى مورنيرس إلى الأمام وهَمَس في أذن السائِق، الذي كبح سيارته في الحال وأوقفها بجانب الرصيف.

«انظُر إلى آثار الطلقات النارية على تلك البناية التي لم يَمضِ عليها أكثَر من شَهر،» قال مورنيرس وأشار بيده.

انحنى فالاندر هو الآخر إلى الأمام ليرى منظَر الحائِط المليء بآثار الطلقات النارية، ثم سأله:

«لِمَن تعود هذه البناية؟»

«إنها إحدى البنايات التابعة لوزارتنا،» رد مورنيرس.

إنا أُريك هذا المنظر كي تفهم، بأننا حتى الآن لا نَعرف كيف سنُسيّر الأمور! هل سنُزيد من الحريات؟ أم إننا سنرجَع ونَكبتُها من جديد؟ أم نُخفيها إلى الأبد؟ حتى الآن لا نعرف كيف نتصَرف! عليك أن تفهم يا مُفتش فالاندر أنك موجود في بلدٍ لم تُحسَم فيه الأشياء حتى الآن.

ثم تقَدموا في الشارع أكثَر، وانحرفوا باتجاه منطقة الميناء.

حاول فالاندر أن يفهم كل ما قاله مورنيرس. وبشكل مفاجئ بدأ

يشَعر بالتعاطُف مع هذا الرجُل ذي الوجه الشاحِب والمُتورِم، الذي استمر في الحديث:

«نحن نعرف بأن هناك مُختبرات خاصة لصناعة المُنشطات وربما المخدرات أيضاً مثل المورفين والإيفدرين. بالإضافة إلى مصادر آسيوية، وتنظيمات الكوكائين الأميركية الجنوبية. كُل هؤلاء بنوا شبكاتهم الجديدة لنقل مُنتجاتِهم عبر أوروبا الشرقية. وهذا يعني أنهم بدلوا محطاتهم القديمة التي كانت سابقاً تُجَهز للدول الغربية بشكل مُباشِر بعد أن تم ضَبطُها وتهديمها من قبَل الشرطة في أكثر تلك الدول الأوروبية. لذلك نَقَلوا نشاطاتهم إلى الأسواق البِكر في دول أوروبا الشرقية، لتَجنّب رقابة الشرطة. واسمح لي بالقول هنـــا إننا أي أجهزة شرطة هذه الدول نتقَبَل الرشوة والفساد.»

«مثل العقيد ليبه؟» عقَب فالاندر.

«هذا الرجل لم يسمَح أبداً بإهانة نفسِه يوماً ما، ولم يقبل أي رشوة.» رد مورنيرس.

«هل هذا يعني إنه كان رجل شرطة حَذراً جداً؟» سأله فالاندر.

«أتمنى أن يتوصَل العميد بتنس في تحقيقاتِه إلى الحقيقة حالاً،» أجاب مورنيرس. «لنعرف فيما إذا كان العقيد نزيهاً بالفعل، أم إنه مُجرد حَذِر مثلما تظن!»

«ومَن هذا الذي ألقيتُم القَبض عليه؟»

«إنه أحَد الأشخاص الذين كثيراً ما كُنا نراهم في الأماكِن التي كان يتواجَد فيها القتيلان في طوافة الإنقاذ قبلَ قتلهما، ففي كل مرة ارتكب فيه القتيلان جُرماً ما دفعنا إلى أن نقبُض عليهما، نجد هذا الرجل في المكان ذاته. هذا الرجل كان في السابِق يعمل جزاراً في ريغا، لكنه مؤخراً أصبح قائداً لمنظمة إجرامية كبيرة كُنا نُطارِدُها بشكل دائم. والغريب أنه كان يفلِت من تطبيق حُكم السَجن عليه في كل مرة يُقبَض

مكتبة

فيها عليه. ربما سنتمكن هذه المرة من تطبيق الحُكم عليه!»

توقَفَت السيارة عند الرصيف، بجانب رافعة بناء كبيرة وكومة خردة من البقايا الحديدية. حيث نزلا من السيارة وسارا إلى الأمام على الرصيف، ثم قال العميد:

«هنا عُثِرَ على جثة العقيد ليبه.»

نظر فالاندر حولِه وحاول أن يأخُذ انطباعاً عن المنطقة متسائلاً مع نفسه:

«كيفَ جاء القَتَلة بضحيتهم - العقيد إلى هنا؟ ولماذا؟ ليس كافياً أن يكون الرصيف مُنعَزلاً؟».

ثم تأمَل المكان ونظر من جديد لكومة الخردة والرافعة المُتهالكة، وتذكَر ما كتبته له بايبه ليبه على ظهر الغلاف.. رجاءً .. لثلاث مرات.

أما مورنيرس فإنه وقف على جهة وراح يُدخِن، بينما تساءل فالاندر حينها مع نفسه: «لماذا لم يفصَح لي هذا العميدَ عن مكان الجريمة؟ لماذا قابلتني بايبه ليبه بتلك الطريقة السرية؟» وتذكّر هنا قولها:

إذا اتصل بك أحد، وأرادَ التحدُث مع السيد إيكرس فعليك أن تنزل في الحال...

لماذا أنا الآن في ريغا؟... ثم شعر بالانقباض، وفكر بأن هذا الانقباض الذي يُعانيه الآن ربما هو بسبب زيارته لبلد غريب عليه. فرجال الشرطة في السويد أناس يتعاملون دائماً بالواقِع الذي هم جزء منه. أما هنا وفي هذا البلد، فهو خارج عن الواقِع. بل هو ربما مثل السيد إيكرس الذي لا وجود له! إذنِ هو كمُحقق شرطة سويدي، وكشخص اسمه كورت فالاندر، لا حولَ ولا قوة له الآن.

ثم عاد إلى السيارة...

مكسه

«بودي دراسة القضية بالكامِل، والاطلاع على تقاريركم،» قال فالاندر. «وإذا كان لديكم صوَر، تقارير التشريح، فحوصات مكان وقوع الجريمة.»

«سوف نسمَح بترجمة مواد التحقيق،» أجاب مورنيرس.

«ربما أحتاج لمترجم يقوم بترجمة هذه المواد مباشرة،»

واقترح فالاندر أَن يقوم زيدس بهذه المهمة لأنه يتحدث الإنجليزية بطلاقة.

ابتسم مورنيرس ابتسامة غريبة وأشعَلَ سيجارته، ثم قال:

«أنت مُستَعجِل يا مُفتش فالاندر، ويبدو أن صبرَك قد نفد، أنا أدرك بأن زيدس قادر على ترجمة التقارير لك.»

وعندما عادا إلى مقر الشرطة، دخلا إلى أحد الأماكن ووقفا خلف ستارة ليتأملا العميد بتنس وهو يُحقق مع ذلك المُتهم في غرفة التحقيق التي كانت فارغة وباردة، وفيها طاولة خشبية وكرسيان فقط. كان العميد بتنس قد خلعَ سترته العسكرية. أما الرجل الذي جلس مقابله تماماً بدا عليه التعب والإنهاك، وكان يُجيب عن أسئلة بتنس ببطء.

«يبدو أن هذه العملية ستستغرق وقتاً طويلاً،» قال مورنيرس «ولكن عاجلاً أم آجلاً ستظهر الحقائق.»

«أية حقائق؟» سأله فالاندر

«فيما إذا كنا على حق أم لا.»

ثم عادا إلى متاهة الممرات الداخلية ليذهبا إلى غرفة صغيرة بالرواق نفسه الذي توجد فيه غرفة مورنيرس. جاء الرقيب زيدس حاملاً أحد الملفات التي تحتوي على ظروف عملية اغتيال العقيد ليبه. ثم تبادل العميد مورنيرس مع زيدس مكالمة قصيرة باللغة اللاتفية، وبعدَها تركهما وحيدين في المكان.

«ستُجلب بايبه ليبه للتحقيق في الساعة الثانية بعد الظهر.» قال مورنيرس.

مكسه

خافَ فالاندر وفكر مع نفسه في أن بايبه ستُسيء الظن به، وربما ستقول: «لقد خُنتَني يا سيد إيكرس، لماذا فعَلت ذلك؟» ثم رد فالاندر بشكل مُتردد:

«لقد طلبت مقابلة بايبه لمكالمة قصيرة وليس للتحقيق.»

«هذا صحيح،» رد مورنيرس. «فكان واجباً عليّ أن أستَخدم كلمة أُخرى غير التحقيق، واسمح لي أن أقول لكَ بأنها فرِحَت كثيراً عندما عَرفَت بأنها ستُقابِل حضرتَك.»

ثم ذهب مورنيرس

وبعد ساعتين انتهى زيدس من ترجمة كل ما هو موجود في الملفين...

تأمَلَ فالاندر الصور غير الواضحة والمُرفَقة مع الملفين التي أُخذت للجثة. وتولد لديه شعور بأن هذه المُرفَقات غير كافية وأن الدلائل لا تُشير إلى أن هناك نية صادقة لدفع التحقيق في هذه القضية نحو الطريق الصحيح. لذلك فكر في أن يقوم بعمل آخر أكثَر فائدة، فطلب من زيدس أن يذهب معه إلى أحَد المحلات ليشتري لباساً داخلياً طويلاً. تضايَقَ فالاندر من تصرفات الرقيب داخل معرض المنسوجات، حيث إنه- أي الرقيب- كان يسيرُ مُتبختراً، بطَريقة جعلت فالاندر يشَعر بأنه اشترى لباسه الطويل هذا تحت حمَاية عسكرية. كما أن زيدس أصَر على أن يُجَرب فالاندر اللباس الجديد ليتأكَد من قياسَه قبل أن ينتهي الدوام الرسمي في المعرض. في النهاية تسلم فالاندر زوجي الملابس الداخلية اللذين اشتراهما ملفوفين بورق أسمر مشدود بخيط. وعندما خرَجا إلى الشارع اقترح عليه فالاندر أن يذهبا إلى أحَد المطاعم لتناول الغَداء.

«لنتناوَل الغداء في أي مكان، ما عدا المطعَم الموجود في فندق لاتفيا.» قال فالاندر

خرجَ زيدس بسيارته من الشارع الكبير وانحرف في شوارع المدينة

مكسه

القديمة. فكر فالاندر في أنه الآن في طريقة إلى متاهة وعليه أن يعتَمِد على نفسه ليخرُجِ منها.

كان المطعَم المختار اسمه سيكولدا.

وطلَب فالاندر الأومليت، بينما فَضَل زيدس صحن حساء. كانت التهوية في المطعَم سيئة، فالهواء مليء بالدخان. وعندما دخلا المطعَم كانت جميع الكراسي فيه مشغولة. شاهدَ فالاندر كيف تقدَمَ زيدس وأمر صاحِب المطعَم بأن يُجَهز لهما إحدى الطاولات.

وعندما تناولا وجبتيهما قال له فالاندر:

«في السويد لا يُسمَح أبداً لرجُل شرطة أن يدخُل أحَد المطاعُم المكتَظة ويأمرهم بتجهيز إحدى الطاولات له.»

«هذا الشيء لا يسري هنا، رد زيدس بلا مُبالاة. فرجل الشرطة هنا يمتلك امتيازات واسعة وأحياناً يمكنه أن يفعل ما يَحلو له.»

انزعجَ فالاندر من تباهي هذا الشرطي الشاب، فقال له:

«في المرات القادمة لا أريد أن نتجاوز على دور أحد في أي طابور انتظار.»

نظَر إليه زيدس باستغراب، وقال:

«حينئذ سوف لن نَحصَل على أي طعام.»

«صالة الطعام في فندق لاتفيا مفتوحة طوال الوقت،» رد فالاندر.

رجعا إلى بناية الشرطة بعد الساعة الثانية ظهراً.

أثناء تناولهما الغداء فكر فالاندر في الأشياء غير المنطقية التي كانت موجودة في التقرير الذي أحضَره العميد مورنيرس، وتوصَل إلى أن التقرير مكتوب بطريقة مثالية مُحبوكة سببت له الانزعاج لكونه كُتب بهدف مُحدد الغرض منه تغطية كل الأسئلة المحتملة. لم يواصِل تفكيره شاعراً بتواضع في إمكانياته لتقييم الأمور. فهو الآن ربما يُشاهد شبحاً في مكان خالٍ من الأشباح.

مكسه

ذهب مورنيرس تاركاً مكتبه، في حين استمر بتنس بالتحقيق. وزيدس هو أيضاً ذهب لمقابلة بايبه. بذلك ظل فالاندر وحيداً في المكتب. وجد نفسه مُوزعاً بين أفكاره المختلفة، وتساءل فيما إذا كانت هناك أجهزة تنَصت في المكان، أو أن هناك مَن يُراقِبه من خلال مرآة مموهة! ولكي يُثبت حسن نيته فقد فتح كيس الملابِس الداخلية ونزَعَ بنطاله، ثم لبِس الملَابس الداخلية التي اشتراها شاعراً بحـــكة في رجليه. عندها سَمِع طرقاً على الباب، ولما صاح من مكانه: تفضَل...

فتح الرقيب زيدس الباب ودخلت بايبه. فقال فالاندر مخاطباً بايبه بصمت: « أنا الآن فالاندر، وليس السيد إيكرس، الذي لا وَجود له بالمرة... لذلك قررت أن أتحدَث معك كفالاندر».

«هل تتحدث السيدة أرملة العقيد ليبه اللغة الإنجليزية؟» سأل فالاندر الرقيب زيدس الذي هز رأسه موافقاً.

«إذن اتركنا وحدنا،» رد فالاندر.

حاول فالاندر أن يُهيئ نفسه للموقف، وتحدث مع نفسه بصمت: «يجب أن أُفكر بكل شيء أقوله وأن لا أنسى المراقبة السرية لكل ما سيدور بيننا. فلا يجوز لنا بالطبع أن نضع الأصبع على الفم، ولكن يمكننا المُخاطَبة بكتابة قصاصات صغيرة من الورق. فيجب أن تفهم بايبه أن السيد إيكرس ما يزال موجودا».

كانت بايبه ترتدي معطفاً أسود اللون وعلى رأسها قبعة من الفرو، وكانت تضع نظارة طبية. رَفَعت قبعتَها لتُحيِّه وبان شعرها الأسود القصير.

«تفضلي واجلسي، سيدة ليبه، قال فالاندر وفي الوقت نفسه ابتسم ابتسامة سريعة، وكأنه غَمَز لها بإشارة سرية، ولاحظَ أنها استقبلت الإشارة بدون استغراب، وكأنها كانت تتوقع هذا الشيء تماماً.

كان فالاندر يعرف أن عليه أن يسأل الأسئلة التي يعرف جوابَها

مكسه

مُقدماً، فربما تستطيع هي أن تُجيبه جواباً مخفياً موجَهاً للسيد إيكرس.

قدَم فالاندر أسفه للسيدة لفقدان زوجها، بطريقة رسمية جداً. ثم سألها الأسئلة الطبيعية المغزى، وكان طوال الوقت يتوقع وجود مَن يستمِع لما يقولان ويُراقِب كل حركاهما.

«كم سنة مضت على زواجك من العقيد ليبه؟»

«ثماني سنين،» ردت بايبه.

«أعتقد أني أدركتُ أنكما لم تنجبا أطفالاً؟» سألها فالاندر.

«فضلنا الانتظار، بسبب عملي»

«وماذا تعمل السيدة ليبه؟» سألها فالاندر.

«أنا مُهندسة،» ردت بايبه. «لكني في السنين الأخيرة عملتُ في ترجمة الكتبَ العلمية. التي تُدرس في جامعاتنا.»

في تلك اللحظة فكر فالاندر مع نفسه: «كيف استطعتِ أن تحملي صينية الإفطار وتأتي إلى غرفتي في الفندق... ومَن هذا الذي تثقين به من بين العاملين في فندق لاتفيا؟»... سرَحَ لبعض الوقت في تفكيره، ثم واصَل أسئلته:

«هل مهمة الترجمة لم تعطيك الوقت الكافي للتفكير بالأطفال؟» سألها فالاندر، وندم في الحال لأنه سأل عن مسألة شخصية بحتة لا علاقة لها بالموضوع. لذلك اعتذر لها دون أن ينتظر الجواب، واستمر في أسئلته.

«سيدة ليبه، أنتِ طبعاً لا بد أنك فكرت وتساءلت حول ما حصَل أخيراً مع زوجك. وبالنسبة لي فقدَ اطلَعتُ على تقَرير احتوى على إفادتك أثناء التَحقَيق الذي أجرته الشرطة معك. وقد قُلت فيه إنك لا تعرفينَ شيئاً، ولا تفهمين شيئاً، ولا حتى تفترضينَ أو تُخمنين شيئاً. وهذا بالتأكيد صحيح. فأنت لا تُريدين شيئاً سوى إلقاء القَبض على قاتِل زوجكِ لينال عقابه. ومع ذلك أنا أُناشدُكِ أن تُراجعي نفسكِ

مكتبة

ثانية، وتتذكري معي الأحداث منذ اليوم الذي عاد فيه زوجكِ من السويد. فلربما وبسبب الصدمة التي اجتاحتكِ عند سماعك خبر اغتياله، تكونين قد نسيتِ شيئاً ما!»

جـــاء جوابها مباغتاً ليعطيه أول إشارة سرية عليه الانتباه إليها:

«أنا لم أنسَ شيئاً، قالت بايبه. نعم لم أنسَ شيئاً على الإطلاق.» وكأنها أرادت أن تقول له: «سيد إيكرس...أنا لم أُصدَم بشيء بالمرة، فقد وقعَ ما توقعناه بالفعل...».

«ربما ما زال الوقت مبكراً.» رد فالاندر وفكر مع نفسه في الوقت نفسه: «الآن يجب أن أكون أكثَر حذراً من تعريضها للمزيد من الصعوبات التي لا تستطيع مُعالجتها».

«زوجي لم يتحدَث إلي مُطلقاً عن عمله، قالت بايبه. فهو لم يكسر بحياته قاعدة الصمت وعدم البوح بأسرار مهنته كرجل شرطة. أنا يا سيد فالاندر كنتُ متزوجة من رجل ذي قيم أخلاقية عالية جداً.»

فكر فالاندر بما سمعه منها ورد عليها في داخِله: «هذا صحيح جداً... فهذه الأخلاق العالية هي التي سَبّبت قتله...».

«أنا لدي الانطباع ذاته عن العقيد ليبه، على الرغم من أننا التقينا لأيام قصيرة في السويد.» رد فالاندر.

فكر مع نفسه في الوقت نفسه: «هلِ أدركت بايبه الآن أني أقف إلى جانبها؟ وأني طلبتُ مقابلتها لكي أُفهِمُها هذه الحقيقة؟ وأن هَذه الأسئلة التي لا معنى لها، كانت مُجرد تمويه؟»».

ثم أعاد فالاندرَ رغبته في أن تُراجِع بايبه نفسها وتبحَث في ذاكرتها. وراجع معها الأسئلة نفسها لعدة مرات، وقبل أن يُنهي المحادثة ضغَط على زر الجرس الكهربائي مُنبهاً الرقيب زيدس الذي كان يسترقُ السمع عليهما. ثم نهض من مكَانه ومد يده إليها مُصافحاً، وفكر في الوقت نفسه: «مَن الذي أخبرَكِ بأني قادمِ إلى ريغا. لا بد أن يكون

هناك شخص ما تحدثَ إليك، شخص أرادَ لنا أن نلتقي. ولكن لماذا؟ وبماذا تعتقدين أن ضابط شرطة لمدينة سويدية صغيرة ومعزولة يستطيع أن يُساعدَك؟».

بعدهَا جَاء الرقيب زيدسٍ وتبعته بايبه باتجاه المخرج. بينما وقف فالاندر بجانب النافذة متأملاً الحَديقة. شاهد الثلج يهطل على المدينة، متساقطاً على السياج العالي لَمقر الشرطة وبرج الكنيسة والبنايات المتفرقة والعالية. وبشكل مفاجئ فكرَ مع نفسه في أن كل ما حصل كان ضرباً من الخيال، واسترسلَ في تخيلاته بشكلَ سريع دون أن يتقبّل أي فكرة من شأنها معارضة افتراضه بأن ما حصل كان خالياً من أي مؤامرة، على الرغم من اقتناعه بأن الأنظمة الدكتاتورية بنت نفسَها على نظرية تسليط مواطن على مواطن آخَر، وهذا ما جعله لا يثق بمورنيرس ولا حتى ببتنس! كما أنه فسّرَ ظهور بايبه ليبه بملابس منظفة في الفندق بأن هذه السيدة قد تكون تعمل لصالح العميدين؟ أو لصالح أحدهما؟

انقطعت سلسلة أفكارِه عندما طرقَ العميد بتنس عليه الباب ودَخل.

بدا التعب واضِحاً على بتنس، لدرجة أنه أجبر نفسه كي يبتسِم، ثم قال:

«لقد أوقفت التحقيق معَ هذا المُتهم بشكل مؤقَت، فللأسَف لم يُقدم هذا الرجل الإفادة التي ننتظرُها. لذلك سنواصل مساعينا للتأكد من صحة المعلومات التي قَدمها، لنواصل التحقيق معه مرة أخرى.»

«على ماذا كانت اتهاماتكم مبنية؟» سأله فالاندر.

«في وقت متأخر عرفنا أن هذا الرجل أصبحَ مُساعداً لكلٍ من ليه وكلانس. قالَ بتنس. وكُنا نتمنى أيضاً أن نحصَل منَ هذا المُتهم الذي اسمه هاكلمان على اعترافات حول اشتغال هذين المُجرمَين بتجارة المخدرات في السنين الأخيرة. إن هذا الشخص لا يعمل وحده، وهو

مكتبة

من النوع الذي لا يتورع عن تعذيب أو قتل أحَد من مُساعِديه إذا اعتقد أنه خائِن. نحن حتى الآن نبحَث عن المزيد من أعضاء العصابة الذين هم للأسَف مواطنون سوفيت، وأغلب الظن أنهم الآن قد هربوا إلى روسيا ليختفوا هناك. لكننا سوف لن نستسلِم. عَثَرنا على الكثير من الأسلحة عند هاكلمان. ونحن الآن بصدد فحص الطلقات النارية التي عثرتُم عليها في جُثتي (ليه وكلانس) لنرى فيما إذا كانت تتطابِقُ نوعاً ما مع هذه الأسلحة.»

«هل هناك علاقة بين هذه الجريمة وبين اغتيال العقيد ليبه؟» سأله فالاندر.

«لا نعرف حتى الآن.» رد بتنس. «لكن هذه الجريمة كانت جريمة مُتَعَمدة أو هي بالأحرى عملية إعدام. علينا أن نتوقَع أن الحادث له علاقة بوظيفة العقيد.»

«هل بإمكاننا الاعتقاد أن العقيد كان يعيش حياة مزدوجة؟» سأله فالاندر.

ابتسم بتنس ابتسامته الغريبة وقال:

«نحن نعيش في بلد طوّرنا فيه أساليب المراقبة والسيطرة على مواطنينا بشكل دقيق، وهذا يسري حتى على مُنتسبي الشرطة مهما كانت مراكزهم أو رِتبهم. فلو كان العقيد ليبه مثلما تعتقِد لعرفنا بذلك.»

«وإذا لم يكن محمياً؟» قال فالاندر.

تأمَله بتنس باستغراب، ثم قال متسائلاً: «ومَن سيَحميه؟»

«لا أدري،» رد فالاندر. «أنا فقط فكرت بصوت عالٍ، وليس لدي أي فكرة مُحددة.»

نهضَ بتنس من كرسيه مُستعداً للذهاب، وقال لفالاندر:

«لقد فكرتُ أن أدعوك للعَشاء عندي في البيت هذا المساء، لكن بسبب رغبتي في الاستمرار بالتحقيق مع هذا المتهم، أعتذر لك عن

مكسه

ذلك. ربما سيدعوك مورنيرس هذا المساء أو لديه الفكرة نفسها! فكما تعرف ليس من اللياقة أن نتركَكَ وحيداً في هذه المدينة الغريبة.»

«فندق لاتفيا ممتاز جداً.» قال فالاندر. «كما أني فكرتُ في استغلال هذا المساء لترتيب المعلومات التي تجمعَت لدي حول عملية اغتيال العقيد ليبه. بصورة عامة أنا أحتاج هذا المساء لأمور شخصية.»

«إذن غداً مساء،» رد بتنس. «ستقومون بزيارة لبيتي للتعرف إلى عائلتي. فزوجتي اسما طباخة ماهرة.

«أنا أفضل طعام البيت دائماً،» رد فالاندر. «وعموماً هذا لُطف منك.»

ثم ذهب بتنس، تاركاً فالاندر الذي ضغطَ حالاً على زر جرس ليأتيه الرقيب زيدس، فقد أراد أن يُغادِر مقر الشرطة قبل أن يأتيه مورنيرس ويدعوه إلى بيته، أو إلى أحد المطَاعِم.

وعندما جاء زيدس قال له فالاندر:

«أريد الذهاب إلى فندق لاتفيا الآن، فلدي أعمال كتابية كثيرة وددت الانتهاء منها هذا المساء. ويمكنك أن تأتي بالطبع غداً صباحاً.»

عندما أوصله الرقيب زيدس عند فندق لاتفيا، اشترى فالاندر بطاقات تهنئة وطوابع من الاستعلامات، وعندما طلب خريطة لمدينة ريغا، جاءت له موظفة الاستعلامات بخريطة مجانية كانت غير واضحة، لكنه عموماً استطاع أن يعرف الطريق المؤدي إلى أقرب محل لبيع الكتب.

نظر فالاندر حوله في بهو الفندق، فلم ير أي شخص يقرأ جريدة أو يشرب الشاي. ففكر حينها:

– إذن هذا يعني أني مُراقَب باستمرار وبطريقة خاصة، حتى أن المراقبة تتم بواسطة أشخاص يظهرون في يوم ويختفون في اليوم التالي. في النهاية وبلا شك لا بد أن يكون هناك أكثَرُ من ظِل يُراقِبَني الآن.

ثم غادر الفندق ليبحث عن محل بيع الكُتب.

نزلَ حينها الظلام، وابتلت الأرصفة بالثلج المتساقط. حركة الناس في الشارع كانت كثيفة نوعاً ما. كان فالاندر يتوقفَ بين حين وآخر لينظر إلى واجهات العَرض للمحلات التي يمر عليها التي كانت تعرُض بضائعِ قليلة ومتشابِهة. كان في كل مرة عندما يَقف أمام أحد المحلات يرمي بنظرة سريعة للخَلف عبرَ كتفِه. لم يرَ أي شَخص يتحرك حركة مفاجئة أو بخطوات غريبة.

فَي نهاية جولته قابلَ فالاندر رجلاً مُسناً يتحدث بلا انقطاع باللغة اللاتفية ظاناً أن فالاندر سيفهمه رغم كَل شيء. اشترى منه فالاندر خريطه لمدينة ريغا ثم عاد إلى الفندق مُفكراً مع نفسه في أنه يجب أن يكون هناك في مكان ما مُخبر يُراقبَه من الخلف أو من الأمام، وقرر أن يُصارِح العميدين غداً بطريقة أَشبه بالمزاح عن سبب وضعه تحت المراقبة.

وعندما دخَل الفندق سألِ الاستعلامات فيما إذا كان أحد قد اتصل به، فأجابته موظفة الاستعلامَات بالنفي. بعدها صعَد فالاندر إلى غرفته وانشغَل بكتابة بطاقات التهنئة التي اشتراها. فكتب إلى بيورك بطاقة تحمل صورة لمحكمة ريغا. ذلك المكان الذي تسكن بايبه ليبه إلى جانبه الآن، الذي استُدعيَ منه العقيد ليبه بمكالمة هاتفية مجهولة في نفس الليلة التي وصلَ فيها من السويد. وفكر وهو يكتب هذه البطاقة: «مَن يا ترى هذا الذي اتصل بالعقيد؟ لا بد أن تكون بايبه تعرفه؟».

كتبَ بعد ذلك بطاقات إلى أبيه وإلى ابنته ليندا وإلى أُخته كريستينا.

وعندما قارب الوقت السابعة، ملأ الحوض في الحمام بالماء الدافئ، وحاول أن يُوازنُ زجاجة ويسكي على حافة الحوض. ثم أغمَضَ عينيه وراحَ يُفكرُ بكل شيء من جديد. طوافة الإنقاذ، الرجلين الميتَين، وتعانقهما الغريب. حاول أن يرى شيئاً لم يكن قد شاهده من قَبل.

وتذكر ما قاله ريدبري في بعض الأحيان عن قُدرة المرء على رؤية الأشياء غير المرئية، إذ إنها تُكتَشَف بشكلٍ غير مُتوقّـع في الظواهر الزائفة. راجَعَ فالاندر كل الأحداث مُتسائلاً:

«أين يكمن الخيط الذي لم أُمسِـك به حتى الآن؟».

بعد الاستحمام جلس فالاندر خلف طاولة الكتابة وراحَ يكتُب مُذكرات جديدة. وشَعَر بأنه الآن مُتأكد بأن هذين العميدين في الشرطة اللاتفية كانا في الطريق الصحيح. ولَيس هناك ما يتعارَض مع كون هذين القتيلين في طوافة الإنقاذ كانا ضحية لتسوية داخلية للوسط الذي ينتمون إليه. أما لماذا تم إطلاق النار عليهما بعد أن خلعا سترتيهما؟ ولماذا ألقيا بعد ذلك في طوافة الإنقاذ؟ فلم يحصل على أي تفسير لذلك! ثم كَتَبَ: «لماذا سُرقَت طوافة الإنقاذ؟ ومَن سَرَقَها؟ وكيف استطاع المُجرمون اللاتيفون أن يدخلوا السويد بهذه السرعة؟ وهل اقتُرفَت عملية السرقة من قبل مواطنين سويديين، أم لاتفيين يعيشون في السويد وينتمون لمنظمات تعمل على الأراضي السويدية؟».

ثم استمر بتساؤلاته ومراجعته للأمور: «هل إن اغتيال العقيد ليبه كان بسبب تفوهه بكلام كثير، بحيث أنه تجاوز الحدود لدرجة استَدعَت إسكاته؟ وأي أمور عرفها العقيد؟ ولماذا أُوضع أنا الآن في مكان غير مناسب للتحقيق في قضية ناقصة تماماً ومكتوبة بطريقة محسومة بحيث تم فيها تجنُّب الحديث عن مكان الجريمة؟».

راجع كورت فالاندر ما كتبه ثم استمر بالكتابة: «ما هو الشيء الذي تعرفه بايبه ولا تُريد أن تكشف عنه النقاب؟».

ثم أغلَقَ دفتر ملاحظاته وصب لنفسه كأساً من الويسكي. عندما قاربت الساعة على التاسعة شعر بالجوع، ورفعَ سماعة الهاتف ليتأكد من أنه صالح للعمل، ثم نزل إلى الاستعلامات وأخبرهم بأنه في صالة الطعام فيما لو جاءت مكالمة من أحد على غرفته. نظر حوله في بهو

مكسه

الفندق، ولم يكتشف وجود أحد من المُخبرين الذين يُراقبونه. وفي صالة الطعام دعاه عاملُ الخدمة للجلوس إلى الطاولة ذاتها ففكر فالاندر مع نفسه ساخراً:

«ربما يوجَد هناك ميكرفون في منفضة السجائر؟ أو ربما هناكَ شخص جالس تحت الطاولة يحسب أنفاسي!».

تناول دجاجاً مشوياً وبطاطا وشربَ زجاجة نبيذ (واين أرميني). كان طوال الوقت وفي كل مرة ينفتح باب صالة الطعام تقفز إلى ذهنه فكرة أن موظفة الاستعلامات جاءت لتُخبره بوصول مكالمة ما. ثم شربَ كأس كونياك وأتبعها بفنجان قهوة ونظر إلى ما حوله في صالة الطعام. في هذه الليلة كانت الصالة مليئة بالكثير من الزوار. ففي الزاوية كان هناك عدد من الروس، وحول إحدى الطاولات المنخفضة كان هناك عدد من الألمان بصُحبة مجموعة من اللاتفيين.

عندما قارب الوقت على الساعة العاشرة والنصف دفعَ حسابه الذي لم يفهم لماذا كان قليلاً إلى هذا الحد! وتردد أن يزور النادي الليلي في الفندق هذه الليلة. ثم قرر أخيراً أن يذهب إلى غرفته في الطابق الثالث. بمجرد أن وضعَ المفتاح في الباب سمعَ جرس الهاتف يرن.

فراحَ يشتُم ويلعَن ثم فتحَ الباب على عجَل ورفع سماعة الهاتف، فسمعَ في الحال رجُلاً يقول له بإنجليزية سيئة:

«هل بالإمكان أن أتحدث مع السيد إيكرس؟» وأجاب فالاندر حسب الاتفاق بعدم وجود شخص بهذا الاسم. فاعتذر الرجل وأنهى مكالمته. وتذكرَ في الحال ما قالته بايبه له: «استخدِم الباب الخلفي للفندق... رجاءً، رجاءً...».

فارتدى معطفه ووضعَ قبعة صوفية على رأسه، ثم ندَمَ فخلعَ القبعة ووضعها في جيبه. وعندما نزل إلى بهو الفندق حاول أن لا يمُر بالقرب من الاستعلامات حتى لا يراه أحَد. وفي هذه الأثناء خرجَت مجموعة

مكتبة

الألمان وأصدقاؤهم اللاتفيون من صالة الطعام، فاتَخَذها فالاندر فرصة لينخرط أمامهم ويترل إلى الطابق الأسفل. ذهب باتجاه الباب الرمادي اللون الذي كان مثلما وصفَته بايبه بالضبط. فتحَه بحَذَر وشعَر بالبرد في الخارج يصفَع وجهه. ثم عبر الباب ووجَدَ نفسَه خارجَ الفندق.

كانت المنطقة خلف الفندق مُضاءة بشكل سيئ. أغلَقَ فالاندر الباب خلفه وانخَرط في الظلام وراح ينتظرُ هناك. و لم يجد في الشارع غير رجل عجوز بصحبة كلبه، وكان مُتململاً بينما كان الكلب يتبول على حاوية الأوساخ. ثم سار الرجل بصحبةَ كلبه باتجاه فالاندر، وعندما مر على فالاندر قال له: اتبَعـــنـــي... ثم اختفَى عند ركن الشارع، قرقعَت في هذه الأثناء عربة قطار فاضطر فالاندر للتوقُف، ووضَعَ على رأسه القبعة الصوفية. وفي هذه الأثناء توقفَ نزول الثلج وأصبحَ الجو أكثر برودة. ثم سار فالاندر في الاتجاه نفسه الذي سار فيه الرجل، وعندما أكمَلَ الشارع ظهر له طريق ضيق، ولاحظَ أن الرجل العجوزَ وكلبه قد اختفيا تماماً. وفي هذه الأثناء سمعَ صوتاً يُناديه سيد إيـــكـــرس... من إحدى السيارات التي كانت متوقِفة في الظلام. ثم فـُـتحَ باب السيارة وعاد الصوت ليقول له:

«عجّل... يجب أن نُغادر المكان حالاً.» فاندسَ فالاندر في المقعَد الخلفي، وبحركة خاطفة وُضعَ غماء على رأسه. في تلك اللحظة شعرَ بأنه قد ارتكبَ خطأً كبيراً، وتنامى شعوره بالَخوف.

مكتبة

٩

شيء خَشِن يحملُ رائحة صوف رطب...

هذا كل ما تذكره كورت فالاندر من رحلته الليلية الغريبة بتلك السيارة... تذكر أيضاً كيفَ جلسَ القرفصاء في المقعد الخلفي للسيارة، وكيف أن يداً مجهولة امتدت إليه، قبل أن تعتاد عيناه على الظلام لتضع في رأسه ذلك الغماء الخشن الذي كان يحمل رائحة الصوف الرطب، الذي غطى رأسَه بالكامل. شيئاً فشيئاً شعر فالاندر حينها بالتعرق وبدأت الحكّة بالهيجان في بشرة رأسه. أما خوفه فقد اختفى عند اللحظة التي جلس فيها في مقعد السيارة الخلفي، وظل فقط يُكابد خوفه المُركز بسبب اقترافه لخطأ كان شنيعاً. جاءه صوت من الخلف، اعتقد فالاندر بأنه يعود للشخص نفسه الذي ألبسَه الغِماء، تحدَثَ معه بطريقة مُهدِّئة:

«إننا لسنا إرهابيين.... إننا فقط حذِرون.»

وتذكر أن هذا الصوت هو الصوت ذاته الذي سمعه من قبل بالهاتف عندما سأله عنِ السيد إيكرس، الذي اعتذر بعدها لاتصاله الخاطئ. وبدا هذا الصوت المُهدئ مقتنعاً تماماً بما يقول. فكر فالاندر بأن هذا الذي يراه أو يسمعه الآن هو ربَما من الأشياء التي يجب على المرء أن يعرفها عن طبيعة مواطني هذه الدول الشرقية ذات الأنظمة المُتهالكة. حيث إنهم يتظاهرون بالقناعة ويُحاولون تبسِيط الأمور التي يعرفون عنها مُسبقاً بأنها في غاية الخطورة.

كانت السيارة التي صعد فيها غير مريحة، ومن صوت المحرك خمّنَ فالاندر بأنها روسية الصنع، وبالتحديد - لادا. ولم يعرف بالضبط كم عدد الذين كانوا في السيارة، لكنه كان متأكداً أنهم ليس أقل من

مكسه

شخصين، إذ إن الشخص الذي كان أمامه الذي كان يسعل طوال الوقت هو سائق السيارة. أما الشخص الي تحدثَ معه مُهدئاً فكان يجلس إلى جانبه، وكان بين حين وآخـــر يُنزِل زجاج السيارة لتهويتها من دخان السجائر، فيسفَع البرد وجه فالاندر. اشتَــمّ فالاندر رائحة طيبة وخفيفة للحظة خاطفة، فتوقَع مصدرها في الحال من بايبه لِيبه، لكنه في الوقت نفسه اعتبر ذلك ضرباً من الخيال، أو ربما كانت أمنية في داخله. لم يستطع تحديد سرعة السيارة، لكنه شعَــرَ بالتغيير المفاجئ لأرضية الشارِع فافترضَ بأنهم قد غادروا المدينة. بعد ذلك فرملت السيارة وانعَطَفَت إلى جهة معينة، ثم راحت السيارة تَــلفُ لمدة مؤقتة حول استدارة مرورية. حاول فالاندر مع نفسه أن يُحدد الوقت حينها، لكنه فقد السيطرة فظل ساكناً إلى أن انتهت الرحلة وتوقفَت السيارة في مكان ما. أطفأ السائق المُحرك والأضوية، وفُتحَت أبواب السيارة بسرعة وتقدم نحوه شخصان ليساعداه على الخروج منها.

كان الجو حينها بارداً جداً، واشتَمَ فالاندر رائحة أشجار الصنوبر.

في هذه الأثناء أمسكه أحد الأشخاص من ذراعه كي لا يعثَر في المشي. ثم صَعَد سُلماً ودلف من باب حديدي أوصَلَه إلى غرفة دافئة، تفوحُ منها رائحة النفط الأبيض، هناك رُفِعَ الغماء عن رأسه بطريقة مُفاجئة. جَفَلَ فالاندر لما رآه. فالصدمة كانت أَصعَب من الغَماء الذي غطى وجهه. فهو الآن أَمام غرفة طويلة، وجدرانها خشبية خشِنة، شاهدَ فالاندر على أحد الجدران رأساً لغزال كبير مُثَبت بمسامير على أحد الجدران، فصار لديه انطباع بأن المكان كان صالة لتدريب الرِماية. أما أثاث الغرفة فكان أغلبه خشبياً شاحب الألوان، وكان المكانَ مــُضاءً بمصباحين نفطيين.

وتحدثَ معه الرجل ذو الصوت المُهدّئ مرة ثانية.

مكتبة

وكان وجه الرجل على عكس ما تَخيَله فالاندر.. هذا إذا كان لفالاندر في تلك اللحظة قدره على التخَيل! فالرجل كان قصير القامة، ونحيفاً بشكل غير طبيعي، وكأنه مـُـصاب بمرض عضـــال أو أنه خرِجَ حديثاً من مجاعة قاسية. فوجهه كان شاحباً، وعلى عينيه كان يضع نظارة كبيرة الحجم، وفكر فالاندر في الحالَ بأن سن الرجل تتراوَح بين العشرين والخمسين عاماً.

ابتسم الرجل وأشار بيدِه لأحد الكراسي، فجلسَ فالاندر، وجاء من الظلمة رجل آخَر يحملُ ترمس شاي ومجموعة من الأوراق، فخمن فالاندر في الحال بأنه كان سائق السيارة، الذي كان أكبر سناً وذا شوارب سوداء كثة، وملامح عَبوسة، كأن مَن يراه لا يتوقَع أنه ابتسم في يوم ما. قدَمَ لفالاندر كوباً من الشاي، وجلسَ الرجلان في الجهة المقابلة لفالاندر، بينما قام السائقِ بزيادة إضاءة المصباحين. وفي هذه الأثناء وصَلَ لأذن فالاندر صوتَ خفيف من مكان ما في الظلمة خارج منطقة إضاءة المصباحين. وهذا ما دعاه لأن يتوقَع وجود أشخاص آخَرين في المكان، ربما كانوا ينتظرون وصولهم، أو ربما إنه الشخص نفسه الذي أحضـــرَ لهم الشاي.

ثم بادر الرجل النحيف بالكلام؛

«لا يوجد لدينا شيء غير الشاي لنـُـقَدمه لك يا سيد فالاندر، وحسب علمنـــا انك تناولت عشاءك قبل المَجيء، هذا بالإضـــافة إلى أننا سوف لن نتأخــّـر طويلاً.»

شيء ما في هذا الرجل أغضـــبَ فالاندر!

فهو يعرف بأن هؤلاء يعرفـــونه باسمه الوهمي (سيد إيكرس)، لكن هذا الرجل يخـــاطبه الآن بـــ(سيد فالاندر). كما يعرفـــون بأنه تناول وجبة عشائه، اذن هم كانوا يُراقبونه من مكان ما أثناء تناوله العشاء. الشيء الوحيد الذي أخطأوا فيه هو عدم دقتهم بالوقت، فقد اتصلوا به

مكسه

هاتفياً قبل وصـــوله لغرفته بوقت قصير.

«لديِ أسباب عديدة لا تجعلني أثقُ بكـم،» قال فالاندر. «أنا ببساطة لا أعرفُكُم! مَن أنتُم؟ كما أن بودّيَ أن أعرف أين بايبه ليبه، أي أرملة العقيد؟»

«نرجو منك أن تعذرنـــا على الطريقة غير المؤدَبة التي أُجبرنا على استخدامها معك هذا المساء. عموماً أنا اسمي أوبتس. أرجو أنَ تطمئن وتهدأ، فمُجرد أن تنتهي محادثتنا هذه سنُرجِعَك إلى الفندق، أُعاهدُك على ذلك.»

فكر فالاندر في تلك اللحظة: «ماذا يقصد أوبتس بكلامه هذا؟ وأي عهد أو ضمانة تسري في هذه الحالة؟ ألا يُمكِن أن يكون اسمه رديفاً لاسم السيد إيكرس؟»، ثم رد فالاندر:

«أنت تعرف بأن أي تعَهد من أي شخص مجهول يعتبر تعهـــداً لا قيـــمة له. فأنتم حملتموني إلى هنا ووَضَعتُم في الطريق كبوسا في رأسي. في حين أنني جئت معكم لأني ببساطة وافقتُ على مقابلة السيدة ليبه وحسب شروطَها. لأني أعرف زوجَها، وعلى فرض أن باستطاعتها الحديث عن أشياء من شأنها أن تُساعد الشرطة في التوصِل لأسباب اغتيال زوجها العقيد ليبه. ففي الحقيقة أنا لا أعرفكم؟ لذلك أنـــا لاأثق بكم!»

أطـــرق الرجل الذي قال بأن اسمه أوبتس رأسه مُفكِراً، ثم رد على فالاندر:

«أنا معك فيما قلت، لكن أُريدُك أن تعرف بأن هناك أسباباً ضرورية دفعتنـــا لتوخي الحذر والتصرف معك بتلك الطريقة الغريبة. أما عن السيدة ليبه فهي لم تستطع المجيء معنا هذه الليلة، ولكني سأتحدث نيابة عنها.»

«وكيف أستطيع التأكُد من هذا؟ ثم ماذا تُريدون مني؟» سأله فالاندر.

مكسه

«نحن بحاجة إلى مساعدتك،» رد أوبتس.

«لماذا أعطيتموني اسماً مُستعاراً؟ ولماذا أيضاً هذا المكان السري للقائنا؟»

«مثلما قلتُ لك سابقاً هذه الأشياء ضرورية،» رد أوبتس. «فأنت لم يمضِ عليك وقت طويل في ريغا، يا سيد فالاندر، سوف تَفهم كل شيء لاحقاً.»

«بأي طريقة يمكنني مساعدتكم؟» سأل فالاندر.

سَمِعَ فالاندر من جديد الصوت الضعيف الصادر من الظلمة، وتخيلَ بأنه كان صوت بايبه. «إذن بايبه موجودة بالقرب مني لكنها لا تُريد أن تظهر».

واستمر أوبتس بالكلام:

«أرجو أن تتحملنا لبعض الوقت يا سيد فالاندر، ودعني أشرح لك بالضبط الأوضاع في لاتفيا.»

«ما دُمت سيادتكم تعتقِد بأن بلدنا مثل بقية البلدان، فهناك أشياء مهمة يجب أن تفهمها.»

«وهل تعتقد أن هذا ضروري؟» سأله فالاندر. «لاتفيا بالنسبة لي بلد مثل سائرِ البلدان، ولو أني في الحقيقة لا أعرفُ الألوان التي يحتويها علم لاتفيا.»

«ما دُمت سيادتكَم تعتقد أن بلدنا مثل بقية البلدان،» رد أوبتس. «فهناك أشياء مهمة يجب عليَ أن أُوضحها لك كي تفهمها على حقيقتها.»

تذَوقَ فالاندر الشاي الفاتِر. وحاول أن يُتابِع بعينيه ما يجري في الظل الخارج عن مدى إضاءة المصباح النفطي، لعله يرى بطرف عينه شيئاً ما عند فتحة الباب غير المُغلق بالكامِل.

في هذه الأثناء راح السائِق يُدفئ يديه بتحريكهما حول كوب

مكسه

الشاي، ثم أغمَضَ عينيه، فأدرك فالاندر حينها أن المحادثة سوف تستمر بينه وبين أوبتس، فبادر بالسؤال:

«مَن أنتُم؟ هل لي أن أعرف المزيد عنكُم؟»

«نحنُ لاتفيون، أجاب أوبتس. نحن وُلدنا في هذا البلد الجريح، وفي حقبة صعبة تقطّعت فيها سُبُل الحياة بنـــا لمدة طويلة، ولذلك نحن نعتقد أن علينا أن نتوحّد الآن.»

«تقصد العقيد ليبه؟» سأله فالاندر.

«دعني أبدأ من البداية.» قال أوبتس. «يجب أن تفهموا سيادتكم أن بلدنا يقف على حافة انهيار، بالطريقة نفسها التي حصلت في بقية دول البلطيق، أو تلك الدول التي خضـَعـَـت لمدة طويلة للسيطرة الاستعمارية السوفيتية. فقد أرادت شعـــوب هذه البلدان أن تَستعيد حريتها التي فقدتها منذ الحرب العالمية الثانية. لكن هذه الحُرية بدورهـــا ولدَت هذه المرة في ظروف من الفوضى المخيفة يا سيد فالاندر. بحيث أنَ هناك وحشاً مُتستِّراً في الظلام، وهو طوال الوقت يُراقب الأحداث ويراقب حركة الناس لتنفيذ مآرب وأهداف شنيعة. فمن الوهم الفظيع أن يعتقد المرء أن الحُرية تُعطى أو تُؤخَذ. بل للحُرية وجوه عديدة ومتباينة. فالأقلية الروسية الكبيرة الذين جُلبوا ليُقاسموا اللاتفيين بلدهم بهدف إرغامهم على مواجهة الهلاك والجوع على مدى سنين عديدة، أصبحوا الآن قلقين على مستقبلهم وتواجدهم. وخـــائفين من أن يَخســَروا امتيازاتهم التي طالمـــا تمتعــوا بها على مدى سنين طويلة. فالتاريخ كما تعرف لم يُسجل أي واقعة توحـــي بأن هناك أناساً تنازلوا بشكل طوعي عن امتيازاتهم. من هنا عَبـــأ هؤلاء — أي الأقلية الروسية في لاتفيـــا أنفُسَهم بالسلاح والعتاد بطريقة سرية مُحبـــوكة لحماية أنفسهم، وتبنّوا موقفاً ضـــد أي تغيير يحصل في هذا البلـــد من شأنه أن يسحب السلطة والقرار من يـــد الجيش السوفيتي. فإن من

مكسه

أكبــر الأوهــام هو الاعتقاد بإمكانية تحوّل شخص ما ينتمي لإحدى القوميات أو الأقليــات المُستبدة التي تمتعت لمدة طويلة بدكتاتورية متشددة إلى شخص ديمقــراطي، فبالنسبة لنا – نحن اللاتفيين فإن الحرية شيء جذاب، مثلها مثل امرأة جميلة صعبة المنال...

أمــا بالنسبة للآخرين – من الأقلية الروسية في لاتفيا فإن الحرية شيء مكروه، يجب مقاومته بكل الوسائَل... ثم صمتَ أوبتس، وكأن كلماته هذه عَنَت موعظة مُقدَسة جعلته يهتز من الهول.»

«ماذا تعني بشيء مكروه؟» بادر فالاندر بالسؤال.

«أقصُد أنه ممكن أن يؤدي إلى اندلاع حرب أهلية.» قال أوبتس. «فالنقاشات السياسية يمكن أن تتحول إلى انتقام عند الناس الذين يجري الحقد في قلوبهم. وبالتالي فإن هذا التلهــف للحرية يمكن أن يتحول إلَى رُعــب لا تُحسَب عُقباه. فالوحش المُتستر خلف الكواليس ينتظر ويشحَذ سكاكينه طوال الليالي. والتسوية النهائية للأمور ستكون صعبة للغاية في المستقبل.»

على ضوء معاني الكلمات التي قالها أوبتس حاول فالاندر أن يُــرشد نفسه أو أن يُراجِع معلوماته، لكنه كان متأكداً بأن هذه المحاولة سوف لن توصله إلى شيء، هذا بالإضــافة إلى إدراكه بأن قابليته على فهم التحولات السياسية السريعة التي تجري في أوروبا تُعتبَر قاصِرة. ففي عالمه كرجل شرطة في السويد لا مكان لشيء اسمه سياسة. حتى أنه غالباً ما يُدلي بصوته بطريقة غير مُخطــط لها ولا مُتحمسة لجهــة ما عند قيــام الانتخابَات في البلد، كما أنه كان دائماً يستغرب من أن هذه التغيرات السياسية التي تتمَخض عن هذه الانتخابات لا تمسّ حياته ولا تُؤثــر عليها بشكل مباشِر.

ثم فكر أن يُواصِل حدَيثه مع أوبتس، فقال بشكل متردد:

«إن مُتابعة هذَا الوحش الذي تتكلم عنه هي من مُهمات جهاز

مكتبة

الشرطة. وبالنسبة لي أنا وافقتُ على قبول شخصية السيد إيكرس على افتراض أن السيدة بايبه ليبه أرادت مُقابلتي لأمر غير هذا الذي تتحدَث عنه الآن. كما أن الشرطة اللاتفية طلبوا مساعدتي في العثور على قاتِل العقيد ليبه، وقبل كل شيء البحث عن العلاقة بين مقتل العقيد وبين القتيلين اللاتفيين اللذين عُثِرَ على جثتيهما في السويد. والآن أنتم ببساطة، وبدون سرد طويل وعريض لمشاكل مجتمعكم التي لا أفهمها بطبيعة الحال، تـُفاجئونني بطلبكم للمساعدة مني!»

«هذا صحيح،» قال أوبتس. «ولكن اسمح لي بالقول إننا سوف نُساعد بعضنا بعضاً.»

بَحَثَ فالاندر في رأسه عن كلمة باللغة الإنجليزية تعني (لغز) لكنه لم يَجِد، فقال بدلاً من ذلكَ:

«هذا غير واضح. قل لي بالضبط ماذا تُريدون؟ وبدون مُقدمات.»

سَحَبَ أوبتس دفتر ملاحظات كان مَخفياً خلفَ المصباح النفطي بعد أن أخرَجَ قلَماً من أحَد جيوب معطَفه المُهترئ، ثم بدأ بالحديث:

«هل أنتُم بالتحديد مَن تعاونَ مع العَقيد ليبه عندما زارَكُم في السويد، على إثر وصول جثتي شخصين لاتفيين إلى الأراضي السويدية؟»

«نعم، وقد كان رجل شرطة ممتازاً.» قال فالاندر.

«لكنه بقي في السويد لمدة قصيرة لا تتجاوز عدة أيام.» سأل أوبتس.

«نعم،» أجاب فالاندر.

«فكيف استطعتُم سيادتكُم أن تعرفوا أنه كان متمرِساً في عمله؟»

«الخبرة والفهم عند أي شخص أكاديمي يكشفان النقابَ عن نفسيهما في الحال.» رد فالاندر.

فكر فالاندر بسرعة مع نفسه في أن هذا السؤال لم يكُن عفوياً ولا بريئاً. لكنه أدرَكَ حالاً هدف أوبتس من وراء ذلك. فالأسئلة كانت

مكسه

مثل عملية نســـج لشبكة غير مرئية. وبدا كأنه مُحقق ماهر يمتلك هدفاً مُحدّداً في نقاشه، ويمكـُـر أحياناً باستخدامه أسئلة غير مباشرة للتمويه على أهدافه. لذَلك فكر فالاندر بأن هذا الرجل ربما كان رجل شرطة؟ وبالتالي فليس هناك احتمـــال لوجود أو اختفـــاء بايبه ليبه الآن في الظلام؟.. بل ربما مَن يختفي الآن هو العميد بتنس؟ أو مورنيرس؟

«إذن أنتُم تُقدرون ما قامَ به العقيد ليبه؟» رد أوبتس.

«بالطبع، وهذا ما سبَقَ أن قُلتَه لك.» رد فالاندر.

«ماذا لو تجاهلَ المرء خبرة ومثابرة العقيد ليبه؟» قال أوبتس.

«ماذا تقصد؟»

«أقصد ما هو انطباعكم عن العقيد ليبه كإنسان؟» رد أوبتس.

«الانطباع نفسه الذي تركه كرجل شرطة،» رد فالاندر. «فهو إنسان هادئ، مبدئي، صَبور، معلوماته واسِعة وكان ذكياً ولماحاً.»

«حمَــل العقيد ليبه الانطباع ذاته عنكم، يا سيد فالاندر.» قال أوبتس.

في مكان ما داخل فالاندر دقّت إشارة تحذيرية... لم تتجاوز كونها مجرد إحساس. وأدرك فالاندر أن أوبتس الآن بـــدأ يطأ بقدمه المنطقة التي ستصبح فيها أسئلته مهمة. في الوقت نفسه أدرك أن كل المعلومات التي حصل عليها حول اغتيال العقيد ليبه كانت خاطئة. فالعقيد ليبه لم يبقَ في بيته غير عدة ساعات قبلَ أن يُقتَل، ومع ذلك فإن أوبتس هذا الذي يجلس أمامه الآن يُريد معرفة ما فعَله العقيد أثناء رحلته إلى السويد. فهو يُريدِ معرفة المعلومات التي يمكن أن يبوحَ بها العقيد لأقرب الناس إليه، ولتكن زوجته. ثم رد فالاندر

«هذا أمر طبيعي من العقيد، فهو بالتأكيد سيُقَدّر ما قُمتُ به.»

«هل عملتَ كثيراً مع العقيد عند زيارته لكم في السويد؟» سأل أوبتس.

«دائماً يـُعتبر التحقيق في أي جريمة عملاً مُكثَفاً.» رد فالاندر.

مكتبة

«ألم يَكُن لديكم وقتٌ للمجاملة؟» سأل أوبتس.

«لم أفهم هذا السؤال!»

«أقصُد بالمجاملة: الاسترخاء، الغناء، الضحك أو التمتع بالوقت بعد ساعات العمل. فحسب معلوماتي إن السويديين يُغنون جيداً ويُحبون الغناء.»

«لقـــد دعوت العقيد للحضور إلى بيتي في مساء أحد الأيام التي كان فيها موجوداً في السويد،» قال فالاندر. «وحينها شَرِبنا زجاجة ويسكي، واستمعنا معاً للموسيقى، وفي ذلك المساء هبّت عاصِفة ثلجية، وبعد ذلك ذهب العقيد إلى مكان إقامته في الفندق.»

«العقيد ليبه كان من مُحبـــّي الموسيقى،» قال أوبتس. «وكثيراً ما اشتكى من ضيق وقته المـُـعرقـِـل لحضوره بعض العروض الموسيقية.»

دق جرس الإنذار عند فالاندر بقوة... وفكر مع نفسِه: «مَن بحق الجحيم أوبتس هذا؟ وأين يا تُرى بايبه ليبه؟».

«هل لي أن أجرؤ وأسألكَ أي موسيقى سَمِعتُم؟» سأل أوبتس.

لقد سَمِعنا أوبرا،» رد فالاندر. «كانت إِحدى مقطوعات الفنانة ماريا كالَس، وعلى ما أتذكَر كان اسم المقطوعة (تورنيدو).»

«لم أسمع بهذه المقطوعة،» رد أوبتس. «لكنكم شربتُم الويسكي حينها؟»

«نعم،» رد فالاندر.

«كما كان الطقس حينها عاصفة ثلجية؟» سأله أوبتس.

«نعم،» رد فالاندر.

فكر فالاندر بشكل مَحموم: «إن هذا الذي يسألني الآن في النقطة الحَرِجة. ما الذي يريدَني أن أقوله بدون أن أشعُر».

«ما نوع الويسكي الذي شَرِبتموه؟»

«على ما أعتقِد كان JB.»

مكسه

«العقيد ليبه يَتَحدث كثيراً عندما يشرب الخمر،» قال أوبتس. «لكنه كان يُحب الاسترخاء بين حين وآخر.»

«هل حقا كان كذلك؟» سأل فالاندر.

«إنه ثرثار بكل الأوجه،» رد أوبتس.

«في تلك الليلة أعتقد بأني شخصياً وقَعتُ تحت تأثير الشرب أكثر منه، إذا كان هذا ما تُريد معرفته.» قال فالاندر.

«وهل تتذَكَر ما دار بينكما ذلك المساء.» سأل أوبتس.

«لقد سمعنا الموسيقى، جلسنا والكأسان بيدينا. ثم تحدثنا وصَمَتنا بعدها. ولكَن لماذا تُريدني أن أتذكر هذه الأشياء؟»

«في ذلك اللقاء استمرَرتما طبعاً الحديث عن هذين القتيلين اللاتفيين اللذين عُثِرَ عليهما في السويد، أليس كذلك؟»

«على ما أتذكر فإن الأمر ليس كذلك،» قال فالاندر. «فالذي حصل أن العقيد ليبه تحدّثَ كثيراً عن لاتفيا، وفي تلك الليلة عرفت أنه كان متزوجاً.»

ثم وبشكل مفاجئ لاحظَ فالاندر أن شيئاً ما تغَيرَ في الغرفة. وتأمله أوبتس بنظرات فاحصة، حتى السائق غيّر طريقة جلوسه على الكرسي، وتأكدَ فالاندر في تلك اللحظة من قدرته على تقييم الأمور، إذ إن النقطة التي كان أوبتس طوال الوقت يُكافِح من أجلِها قد تم عبورها، لكنه لم يُحَدّدها بالضبط! وفي داخله شاهد العقيد ليبه جالساً على الأريكة، وحاملاً الكأس بيده التي كانت مستندة على إحدى ركبتيه، وهو يستمع للموسيقى التي كانت تنساب من مكبرات الصوت في الصالة.

«هل أهديتُم للعقيد ليبه كتاباً عند مُغادرته السويد؟» سأله أوبتس.

«لقد أهديته كتاباً مُصوراً عن إقليم سكونه،» أجاب فالاندر. «كنت أتمنى أن أُقدِم له الكثير، لكن حينها لم أجِد أفضَل من ذلك.»

«كان العقيد ليبه شاكراً لك كثيراً على تلك الهدية،» رد أوبتس.

«وكيف عرفتُم ذلك؟» سأل فالاندر. ثم فكر مع نفسه: «نحن الآن في طريقنا لإنهاء النقاش، فهذه الأسئلة هي فقط لكي نبتعِد عن الموضوع».

«هل سبقَ لكم أن عَمَلتُم مع أحد من شرطة دول أوروبا الشرقية؟» سأل أوبتس.

-»نعم، لقد عملت لمرة واحدة فقط مع باحث إجرام بولوني.»

قام أوبتس بترتيب طاولة الكَتابة. وسحب دفتر ملاحظاته الذي لم يكتُب فيه أي كلمة طيلة هذه المحادثة. لكن فالاندر كان متأكداً أن أوبتس قد حصَلَ على ما أراده. ولكن ما هو؟ وأي الأشياء كان مُهماً؟ وما هو الشيء الذي قد قاله دون أن يدري؟

أخَذَ فالاندر رشفة من الشاي الذي أصبحَ بارداً تماماً. وفكر مع نفسه: «الآن جاءَ دوري، ويجب أن أعصر كل هذه المحادثة فوق رأسه». وفعلاً بادر بالسؤال:

«لماذا قُتلَ العقيد ليبه؟»

«العقيدَ ليبه كان مشغولاً جداً بوضع البلد،» أجابَ أوبتس. «وقد سبقَ وأن تحدثتُ معه حول ذلك.»

«وهل كان ذلك هو السبب في موته؟»

«وماذا عدا ذلك؟» رد أوبتس.

«هذا ليس جواباً،» قال فالاندر، «والآن عندي سؤال آخَر هو: مَن يمتلك المُبرر لقتل العقيد ليبه؟»

«تذكر ما قلته لك سابقاً،عن الناس الذين يخافون الحرية.»

«الذين يشحذون السكاكين في الظلام!»

هز أوبتس رأسه ببطء إشارة منه بالموافقة، بينما حاول فالاندر أن يفكر في كل ما سمعه، ثم قال:

«إذا كنتُ قد أدركت الأمر بشكل صحيح، فإنكم مُرتبطون بتنظيم سري.»

«الأصَح إننا مُرتبطون بحلقة مفتوحة من الناس، عن طريق أحد التنظيمات التي هي للأسف سهلـــة الاختـــراق.»

«وماذا تُريدون من وراء ذلك؟» سأل فالاندر.

«نحن يا سيد فالاندر أناس أحرار في وسط هذه الفوضى وانعدام الحرية، رد أوبتس. نحن أحرار بالمعنى الأخلاقي الذي يُمكنُنا من تحليل أي حَدَث يحصَل حولنا في لاتفيا. وهذه الإمكانية تعود لكون أغلبنا أناساً عقلانيين ومفكرين أكاديميين، فبيننا الصحفيون، الباحَثون والشعراء. ربما في المستقبل سنكون نواة لتنظيم سياسي وطني يعمل على إنقاذ هذا البلد من أي تدخل خارجي، أو يقف ضد مَن يُريد إشاعة للفوضى فيه. تنظيم يحفظ البلد من أي هجوم عسكري سوفيتي مُحتمَل، أو يُعرقِل نشوب حرب أهلية فيه.»

«هل كان العقيد ليبه واحِداً منكُم؟» سأل فالاندر.

«نعم،» أجاب أوبتس.

«وهل كان شخصية قيادية؟»

«ليس بيننا مَن هو قائد،» يا سيد فالاندر. «لكن العقيد ليبه كان شخصية مهمة في وسطنَا السياسي، وبسبب موقعه الوظيفي، كان للعقيد مكانة ونظرة خـــاصة في تسيير الأمور. إننا نعتقِد أن العقيد تعَرّضَ لخيانة.»

«ماذا تقصد بتعرضه للخيانة؟»

«سلك الشرطة في هذا البلَد بالكامل هو بأيد فاسدة.» قال أوبتس. «نستثني من ذلك طبعاً العقيد ليبه الذي كان يعملَ بين زملائه بطريقة مزدوجة، دفعته في أكثر الأحيان للمجازفة.»

فكر كورت فالاندر فيما سمِعَ، تذكر شيئاً كان أحد العميدين قد قاله: «نحن ماهرون في مُراقبة بعضنا...» ثم عاد وسأل أوبتس من جديد:

مكسه

«هل تقصد أن عملية اغتيال العقيد العقيد ليبه نُـفذَت من قبل أحد المسؤولين في جهاز الشرطة.»

«نحن غير متأكدين من ذلك،» أجاب أوبتس. «لكننا نَشُك في أن القضية سارت بهذا المَنحى، فلا يوجد أبداً ما يُعـارض هذا الاحتمال.»

«ومَن بالضبط المُتهم بذلك؟»

«هذا ما نُريدَكَ أن تُساعدنا فيه.» أجاب أوبتس.

بشكل مفاجئ أدرك فالاندر بأنه حصَلَ أخيراً ومن سياق الكلام على التلميح الأول لنوايا أوبتس. وفكر في التحقيق الناقص الذي أعدته الشرطة حول مقتل العقيد ليبه، وكذلك بالمكان الذي عُثِرَ فيه على جثته، كما أنه فكر في المراقبة المُشددة لتحركاته منذ مجيئه إلى ريغا.

«هل تعتقد أن أحد العميدين بتنس أو مورنيرس كان متورطاً في عملية الاغتيال؟» سأل فالاندر.

جاءَ جواب أوبتس بدون أن يُفكر بروية، وأحَسَ فالاندر بأن هناك نبرة نصر في صوته وهو ينطُق كلماتَه:

«نحن نشُك بالعميد مورنيرس.»

«ولماذا؟» سأل فالاندر.

«لدينا أسبابنا الخاصة،» أجاب أوبتس.

«أيُ أسباب؟»

«في مواقف عديدة ومختلفة أظهر العميد مورنيرس ولاءه للسوفيت، فهو أحد مواطنيهم.»

«وهل إن مورنيرس روسي الأصل؟» سأل فالاندر.

«لقد جاءَ العميد مورنيرس إلى هنا أثناء الحرب العالمية الثانية. وكان أبوه من منتسبي الجيش الأحمر. وقد بدأ مورنيرس في سلك الشرطة عام ١٩٥٧. كان حينها شاباً ومُفعَماً بالأمَل.»

مكسه

«وهل هذا سيُبرر فعلته بتصفية أحد زملائه من الضباط الذين يعملون تحت إمرته؟» سأل فالاندر.

«لا يوجد تفسير آخر. إلا أن تنفيذ العملية لم يتُم على يد العميد نفسه، بل على يد شخص آخَر.»

«ولكن لماذا تَمـــت تصفية العقيد في مساء اليوم نفسه الذي عادَ فيه من السويد؟»

«كان العقيد ليبه رجلاً كتوماً،» أجاب أوبتس بصوت واثق. «فهو لا يَنطُق أبداً بكلمة غير ضرورية، وهذا ما يجب على المرء أَن يتعلمه في هذا البلد. فبالرغم من أني كنت أقرب أصدقائه، لكنه لم يقل لي إلا الأشياء الضرورية. فعلى المرء أيضاً أن لا يُحَمّل أصدقاءه الكثير من المسؤولية بزيـــادة ثقته بهم. لكنه في بعض الأحيان كان يريد إيصال بعض الأمور المهمة عن طريق قولها بالطريقة العادية، فمثلاً قال لي أخيراً أنه على وشك كشف أحد المسارات.»

«وماذا كان يعني بأحد المسارات؟» سأل فالاندر.

«لا نعرفُ ذلك،» أجاب أوبتس.

«كان لزاماً عليكم أن تعرفوا ذلك.»

هز أوبتس رِأسه منكراً، وبدا عليه التعب، والسائِق صار قلقاً في جلسته على الكرسي.

ثم سأله فالاندر:

«كيفَ عرفتُم أني أهلٌ لثقتكم؟»

«لا أعرف بالضبط،» رد أوبتس. «لكننا يجب أن نُجازِف، فقد تصورنا أن أي رجل شرطة سويدي لا يُحِب التورط بأعماقَ الفوضى التي تعمُّ بلادَنا.»

فكر فالاندر مع نفسه: «هذا صحيح، أنا لا أُحبُ أبدا أن أعمَل في الظل، كما أني لا أحِبَ أيضاً أُنقَل إلى أمكنة مجهولة في وسط الليالي،

وفي النهاية أُريدُ لهذه الرحلة أن تنتهي بأسرَع وقت لأعود ثانية إلى وطني».

ثم بادر بالسؤال:

«يجبُ أن أقابل بابيه ليبه.»

هزَ أوبتس رأسه، وقال:

«سنتصلُ بكَ هاتفياً مرة ثانية يا سيد إيكرس، وربما سيكون ذلك قبل صباحَ غد.»

«لا تنسَ أن بإمكاني أن أطلبُها ثانية للتحقيق.» قال فالاندر.

هزَ أوبتس رأسه ثانية، وقال:

«بالطبع يُمكنكم استدعاء مَن تُريدون، ولكننا سنُرَتبُ لكما لقاءً آخَر.»

انتهت أخيراً المحادثة، وغط أوبتس بشكل عميق مع أفكارِه. رمى فالاندر نظره مباشرة إلى الظلمة، فشاهد الضوء الضعيف فيها قد اختفى. ثم سأل:

«هل عرفتُم ما أرِدتموه مني؟»

ابتسم أوبتس دون أن يُجيب، إلا أن فالاندر استمر بالكلام: كان بإمكانكَ أن تسأل بشكل مباشِر فيما إذا كان العقيد ليبه قد قالَ شيئاً من شأنه أن يُسَلط الضوء علىَ موته أثناء تلك الليلة التي قضيناها معاً واستمعنا فيها لمقطوعة التورنيدو الموسيقية عندي في البيت.

«لا يوجد في بلدنا ما يُسمى بالطرُق المُختصَرة أو المباشرة،» رد أوبتس. «فغالباً ما تكون الطرق المختصرة غير سالكة أو غير آمنة.»

ثم سحب دفتر ملاحظاته ونهضَ من مكانه، ووثب السائِق أيضاً من كرسيِه. وهنا طلبَ فالاندر من أوبتس:

«أُريد أن تعفيني من ارتداء الغِماء أثناء العودة، لأنه يُسبب لي الحَكة.»

مكسه

«بالطبع،» رد أوبتس. «يجب عليك أن تَفهم أن الحذر هو لأجلك أيضاً.»

عندما عادوا إلى ريغا كانت الليلة مقمرة والطقس بارداً. ومن خلال زجاج السيارة شاهدَ فالاندر البنايات المهترئة في القرى المظلمة. مروا في ضواحي ريغا، البنايات العالية والبيوت اللامنتهية والمُطفأة الأنوار.

نزل فالاندر في المكان ذاته الذي صَعَد منه، فقد أوصاه أوبتس بأن يستخدم الباب الخلفي للفندُق. وعندما مد يده إلى مقبض الباب وجَده مُغلَقاً، وتردد لبعض الوقت، فحينها لم يعرف ماذا سيفعَل، ثم سمعَ فجأة كيفَ أن الباب فُتِحَ بحذَر من الداخِل. واستغرَبَ عندما شاهدَ أن الرجل الذي فتحَ له الباب هو ذاته الذي فتحه له قبل أربعة أيام عندما دخَلَ لأول مرة إلى النادي الليلي للفندق. سار فالاندر خلف الرجل حيث صعدا عبر سلالم الحريق الاضطرارية في الفندق، وافترقا عندما فتحَ فالاندر باب الغرفة المرقمة ١٥٠٦. كان الوقت حينها هو الثانية ليلاً إلا ثلاث دقائق.

كانت درجة الحرارة منخفضة في الغرفة، لذلك صب فالاندر لنفسه كأساً من الويسكي ولف نفسه بالبطانية وجلس بجانب طاولة الكتابة، وبالرغم من أنه كانَ مُتعَباً، إلا أنه لم يشعُر بالاستقرار قبل أن يكتُب مُلخصاً لما حصَل له هذه الليلة. شَعَر أن القلم كان بارداً بيده، لكنه استمر وسحَبَ دفتر ملاحظاته، ثم ارتشَفَ كأسه وبدأ بالتفكير:

إذا سألتُ ريدبري عن كيفية التصرف في مثل هذا الموقف فإن جوابه سيكون:

«»ارجَع لنقاط المخارج في القضية... اترك الأشياء غير الواضحة ولا داعي أن تفتح الأغطية... ابدأ بالأشياء والنقاط التي أنت مُتأكِد منها تماماً...»

ولكن ما هي الأشياء التي يعرفُها؟

مكتبة

«قتيلان لاتفيان نُقلا إلى الأراضي السويدية خارج مدينة إيستاد بطوافة إنقاذ يوغسلافية الصُنع. هذه نقطة مخرج في القضية لا يمكن معارضتها. أحد الضباط من الشرطة في ريغا الذي كان برتبة عقيد قَـدِمَ إلى إيستاد وأقامَ فيها لعدة أيام لكي يُساعدنا في التحقيق. وحينها ارتكَبتُ غلطة شنيعة بعدم فحصي للطوافة بشَكل دقيق. وبعد ذلك سُرِقَت الطوافة. ولكن مَن سَرَقَها؟ لا أحد يدري...

عادَ العقيد ليبه إلى ريغا، وسَلَمَ تقريره لكلا رئيسيه العميدين بتنس ومورنيرس. ثم ذهب إلى بيته وأعطى لزوجته الكتاب الذي أهداه له مُفتش الشرطة السويدي فالاندر، ولا أحد يعرفُ ماذا قال العقيد لزوجته! وما الذي دعاها لأن تتجه إلى أوبتس ليُحقق مع فالاندر بعد أن قامت هي بذلك عندما اقتحمت عليه الغرفة بملابس إحدى عاملات التنظيف في الفندق. ولماذا اخترعَت اسم السيد إيكرس؟»

شَربَ فالاندر ما تبقى في كأسِه وصب لنفسه المزيد من الويسكي، ثم خاطَبَ نفسه:

«الآن عليّ أن أبحَث عن العلاقة بين الأشياء حتى لو لم تكُن موجودة... هذا ما كان ريدبري يقوله أحياناً، ولكن هل ما زالت هناك علاقة بين الأشياء؟ فالشيء المشترك حتى الآن هو العقيد ليبه، الذي تحدثَ عن التهريب والمخدرات. والعميد مورنيرس أيضاً تحدثَ عن الشيء نفسه. لكن لا يوجَد هناك أي وثيقة إثبات، سوى التخمينات».

راجَعَ فالاندر ما كتبه، وتذكر في الوقت نفسه ما قاله أوبتس نقلاً عن العقيد ليبه قبل أن يموت: «أتوقع أني سوفَ اكتشف مساراً أو خيطاً خطيراً...»، وتساءلَ: «ما هو هذا الخيط؟ هل هو أحد الوحوش الذين تحدّثَ عنهم أوبتس؟».

تأملَ فالاندر ستارة الغرفة التي كانت تهتز بشكل بطيء بسبب الهواء المُتسرِب من إطار النافذة، واستعاد في ذاكرته بعض العبارات التي سمعها

مكسه

أثناء محادثته مع أوبتس:

أحد الأشخاص خان العقيد... نحن نشُك في العقيد مورنيرس...

«وهل هذا ممكن؟» تساءل فالاندر مع نفسه.

وتذكر ما حصَل في العام الماضي عندما قام أحد رجال الشرطة في مدينة مالمو بإطلاق النار على أحد طالبي اللجوء السياسي من المهاجرين للسويد. ثم أجابَ عن تساؤله: «وهل هناك شيء غير ممكن في هذه الأيام؟».

ثم استمر بالكتابة: « قتيلان في طوافة- مخدرات- العقيد ليبه- العميد مورنيرس. ماذا تعني هذه السلسلة؟ ماذا أرادَ أوبتس أن يَعرف مني؟ وهل كان يعتقد أن العقيد ليبه قد كشَفَ النقاب عن شيء ما أثناء جلوسه على الأريكَة في بيتي واستماعه لـــ(ماريا كالس)؟ هل أراد أن يعرف ما دار بيننا من حديث؟ أم أنه أرادَ أن يعرف فيما إذا كان العقيد ليبه قد ائتمنني على أحد أسراره؟».

قارَبَت الساعة الثالثة والربع، وشعَرَ فالاندر بعدم قدرته على الاستمرار أكثَر، فذهبَ إلى الحمام ونظف أسنانه بالفرشاة. وعندما نظرَ إلى المرآة شاهدَ أن وجهه ما زال محمراً وأحَسَّ ببشرة وجهه مُلتهبة بسبب ذلك القناع الصوفي الخشن. وسألَ صورته في المرآة:

«ما هو الشيء الذي تعرفه بايبه ليبه؟ ما هو الشيء الذي لم أره حتى الآن؟».

ثم دقَّــتَ الساعة لتوقظَه قبل السابعة، وخلعَ ملابسه واندسَ تحت البطانية في السرير. لكنَ النوم لم يأته، وعندما نظرِ إلى ساعته اليدوية عرفَ بأن الوقت كان الرابعة إلا رُبعاً، غيرَ أن عقارب ساعة المنبه التي ضبطَـــها قبل قليل جلَبَت انتباهه، لأنها كانت تلمَع في الظلام مُشيرة إلى الثالثة وخمس وثلاثين دقيقة. وبعد قليل من التفكير هبَّ من مكانه ونظرَ مرة ثانية لساعته اليدوية التي أشارَت حينها للرابعة إلا تسع دقائِق،

مكسه

ثم مد يده لساعة المنبه الموجودة على المنضَدة التي أشارَت حينها للرابعة إلا تسع عشَرة دقيقة. ثم مد يدَه وأشعَلَ مصباح الغرفة. وجلسَ بعدَ ذلكَ على سريره متسائلاً: «لماذا سارت ساعة المنبه بالخطأ؟ أم أن ساعتي اليدوية هي التي كانت غير صحيحة؟ لماذا هذا الاختلاف بين الساعتين؟ لكني متأكد تماماً من ساعتي؟ ثم ضَبَطَ عقارب ساعة التوقيت وِفقا لساعته اليدوية، عند الساعة الرابعة إلا ست دقائِق، ثم أطفأ النور ورجَعَ لفراشه لينام».

وبينما كَانَ على وَشك أن يغفو، نهض من جديد. وجلَسَ صامتاً في الظلام شاعِراً وكأنه في حُلُم. وفي النهاية أشعَلَ ضوء الغرفة من جديد وجَلَسَ على سريره وبدأ بفكِّ البراغي الموجودة في الغطاء الخلفي لســـــاعة المنبه.

وجَفَلَ في الحال عندما وجَدَ ميكرفون تجسّس داخل الساعة من الخلف. ميكرفون بقطر أقل بقليل من عُملة العشر أورات السويدية — أي بحدود ٨ مليمترات وسُمك ٣ مليمترات. كان الميكرفون محشورا بين البطاريتين. وظن فالاندر في البداية أن هذا الذي عَثَرَ عليه كان غُباراً مُتجمعاً أو قطعة شريط عازل رمادية اللون. لكنه عندما قَرّبَ مصباح الطاولة القريب منه عرفَ أنه ميكرفون لاسلكي محشور بين البطاريات.

ظلّ بعد ذلك جالساً والساعة في يده لمدة طويلة. ثم أرجعَ الغطاء الخلفي للساعة وشدَّ البراغي التي تربطه بالساعة.

وبقي هكذا مع أفكاره وقَلقِه لغاية السادسة، تارِكاً الأضوية في الغرفة مضاءة.

مكسه

١٠

استيقظ كورت فالاندر وفي داخله غضب مكتوم...

شاعراً بالصدمة والإهانة بسبب اكتشافه لميكرفون التجسس الذي وضعه أحد الأشخاص في ساعة المنبه الموجودة في غرفته بالفندق، وعندما دخَلَ ليستحِم محاولةً منه لطرد التعب من جسمه قرر أن يعرفَ السبب المباشر لوضعه تحت هذه المراقبة. وأدرك بأن كلا العميدين كانا وراءَ هذه العملية. ولكن لماذا يُراقبونه ويتصرفون معه بهذه الطريقة الفجّة في حين أنهما هما اللذَان طلبا المَساعدة من الشرطة السويدية؟ وأدرك أيضاً مَن هو ذلك الرجل ذو البدلة الرصاصية الذي اكتشفه في صالة الطعام وظهرَ له في أكثَر من مرة عند الاستعلامات. تخَيَل أن هذه حالة طبيعية للحياة في بلد ما زال موجوداً خلفَ الستارة الحديدية. لكنه لم يستوعِب عملية اقتحامهم لغرفته وإخفائهم ميكرفوناً للتجسس عليه!

في السابعة والنصف صباحاً شرب قهوته في صالة الطعام. ونظر حوله ليستكشف إذا كان هناك أحد من مُراقبيه. لكنه كانَ وحيداً في الصالة ما عدا رجلين يابانيين كانا يتناقشان بصوت منخفض عند طاولة في إحدى زوايا الصالة. قبلَ الثامنة بقليل خرج إلى الشارع. حيث أن الهواء أصبحَ مُنعشاً من جديد، فربما هذه كانت إشارة لقدوم الربيع. لوحَ له الرقيب زيدس الواقف بجانب سيارته. جلَسَ فالاندر في المقعد الخلفي بصمت أثناء ذهابهم لمقر الشَرطة تعبيراً عن عدم رِضاه لما حصَل. وعندما أرادَ زيدس أن يُرافقه لغُرفة مورنيرس مثلَ كل يوم، مانَعَ فالاندر بإشارة رافضة منه. فهو يعتقد الآن بأنه يعرف الطريق، لكنه بالطبع أخطأ فيه وصارَ لِزاماً عليه أَن يسأل وهذا ما ضايقه. ثم توقَف عند الباب المؤدي لغرفة العميد مورنيرس ورفعَ يده ليطرق على الباب، لكنه

مكسه

تراجع وسارَ إلى غرفته. كان ما يزال مُتعَباً وشعَرَ بأنه في حاجة إلى أن يُجمعِ أفكاره قبل أن يُجابه بغضَبه مورنيرس. رنَ جرس الهاتِف بمُجرد أن علق فالاندر سترته.

«صباح الخير،» قال بتنس. «عسى أن تكون قد نمت جيداً يا مفتش فارندر.»

فكر في تلك اللحظة بغضَب وتحدَثَ مع نفسه: «أنت تعرف بلا شك أنني تقريباً لم أنَم، لأنكم لم تسمعوا شخيري ليلة أمس بالميكرفون. وبالتأكيد يوجد الآن على طاولتكَ تقرير كامل حول تحركاتي».

«سوف لن أشتكي من ذلك،» رد فالاندر. «ولكن قل لي كيف سارت الأمور في التحقيق؟»

«ليست كما يجب،» رد بتنس. «لذا أنا خائف، لكنني سأستمر بعد الظهر، سوفَ أجابه هذا المجرم بمعلومات جديدة من شأنها أن تجعله يُعيد النظر بوضعه مرة ثانية.»

«بالنسبة لي أَشعُر بعــدم الفائدة من وجودي،» قال فالاندر. «كما أني أُواجه صعوبة في تحديد الأشياء التي يمكن أن أُساهم بها.»

«رجال الشرطة الجيدون هم دائماً مُستعجلون،» رد بتنس. «أردتُ أن أُخبركَ بأني سأمرُّ عليك بعد لحظات، إذا لم يَكن لديك مانعِ.»

«أنا أنتظرُك في مكاني،» رد فالاندر.

بعدَ ربع ساعة جاءَ العميد بتنس ويتبَعه شرطي شاب يحمل صينيةَ فيها كوبا قهوة، وبدا بتنس مُتعَباً لدرجة ظهرت حلقتان داكنتان حولَ عينيه.

«يبدو عليكَ التعَب، سيادة العميد؟» قال فالاندر.

«التهوية في غرفة التحقيق سيئة.» رد بتنس.

«ربما تكون قد دخنتَ كثيراً.»

«هذا صحيح،» أجاب بتنس وهز بكتفه. «هل صحيح ما سمعتُه

مكسه

أن رجال الشرطة السويديين نادراً ما يُدخّنون؟ أما أنا فلا أُطيق الحياة بدون السجائر.»

تذكر فالاَندر في الحال مُعاناة العقيد ليبه أثناء إقامته في السويد، وكيفَ إنه لم يكن يتخيل وجود مراكز شرطة فيها التدخين ممنوع.

سحَبَ بتنس سيجارة من جيبه وقال:

«هل مسموح لي التدخين هنا؟»

«تفضَل،» رد فالاندر. «أنا لا أُدخِن ولكني لا أتضايَق من التدخين.»

تذوقَ فالاندر القهوة، التي لم تكن طيبة، بل كانَت مركّزة ومرّة الطعم، في حين جلسَ بتنس في مكانه مُتأمّلاً الدخان المتصاعِد نحو السقف.

«لماذا تُراقِبونني؟» باغته فالاندر بالسؤال.

نظَرَ إليه بتنس بتساؤل ورد عليه: «ماذا قلت؟»

رَكّزَ فالاندر عليه وأدرك أن هذا الرجل الذي أمامه يجيد التمثيل، كما شعرَ بالغضب من جديد. وعاد ليسأله:

«لماذا تُراقبونني؟ لقد اكتشفت شخصياً ولَمستُ بيدي مُراقَبتكم لي بواسطة العديد من المخبرين المُحيطين بي في أكثَر من مكان. ولكن لماذا وضعتُم ميكرفوناً في ساعة المنبه في غرفتي؟»

تأمله بتنس مُفكراً وقال:

«ماذا؟ ميكرفونَ في ساعة منبه؟ إنه لشيء مؤسف. ولكن بالتأكيد هذا حصَلَ بسبب سوء فهم للتعليمات من قبل أحد الضباط الذين يُنفذون الأوامر، إنه من المؤكد كان اجتهاداً أو مبالغة في المراقبة. نعم لقَد عيّنا شرطة مدنيين لمراقبتك، ولكن هذا لأجِل سلامتك.»

«وما الذي يمكن أن يحصَل؟» سأله فالاندر.

«نحن بالطبع لا نُريد أن يحصَل شيء لك،» رد بتنس. «فما تعرضَ

مكسه

له العقيد ليبه جعلنا أكثر حذراً.»

«يمكنني أن أتدبر حماية نفسي بنفسي،» رد فالاندر بشكل رافض. «ولا داعي للمزيد من الميكرفونات التي إذا عثرت على المزيد منها فإني سأطلب منكم إعادتي إلى السويد حالاً.»

«أنا آسِف،» رد بتنس. «سوفَ أُعاقِب هؤلاء الذين قاموا بهذا العمل.»

«ولكنهم نفّــذوا أوامركم؟» سأل فالاندر.

«لم تتضمن أوامرنا الميكرفونات،» رد بتنس بسرعة. «لا بد أن تكون هذه مبادرة من قبل أحد ضباطنا الشباب.»

«الميكرفون كان صغيراً جداً.» قال فالاندر. «كما أنه كان متطوراً، وبالتأكيد أن أحداً ما كان جالساً في مكان ما قريب ويسترق السمع!»

«بالطبع،» رد بتنس هازّاً رأسه.

«كنت أعتقد بأن الحرب الباردة قد انتهت.» قال فالاندر.

رد بتنس معتذراً بطريقة فلسفية:

«عند تبديل عهد بعَهد آخَر، فإن الناس لا يتبدّلــون بالكامل. بل يبقى أناس من العهد القديم متمسكين بالعادات القديمة. وبصراحة أنا خائف لأن هذا الأمر يسري حتى على سلك الشرطة.»

«هل مسموح لي أن أسأل بعض الأسئلة التي ليس لها علاقة مباشرة بالتحقيق؟» سأل فالاندر.

«بالطبع،» رد بتنس بعد أن عادت لوجهه الابتسامة المُتعَبة. «لكنني غير متأكد من قدرتي على إعطاء الجواب الملائم.»

فكر فالاندر بسرعة في أن بتنس يُبالِغ الآنَ في احترامه، ومبالغته هذه تتناغَم بشكل سيئِ مع تظاهره بالانزعاج من نُظُم الشرطة في دول أوروبا الشرقية. ثم تذكر بأنه شَبه بتنس في أول لقاء معه بأنه قِط بَري،

telegram @ktabpdf

مكسه

أو حيوان وحشي مُبتسِم، إذن هو الآن حيوان برّي مؤدب ومبتسم. ثم بدأ بالحديث:

«أود الاعتراف أولاً بأني غير مُتمكن من فهم كيفية سير الأمور في لاتفيا. لكني بالطبع أعرف ما حصَلَ في لاتفيا في الخريف الماضي. حين كانت المدرعات العسكرية تجوب في شوارع المدن، وجثث الموتى على الأرصفة وقرب بالوعات تصريف المياه وسط الشوارع. وكان منظر جيش البيريات السود مُخيفاً. كما أني لاحظتُ أيضاً أن المتاريس ما زالت موجودة حتى الآن في بعض الشوارع. ففي هذا البلد رغبة قوية للانفصال عن الاتحاد السوفيتي وإنهاء حالة الاحتلال، وهذه الرغبة تواجهها طبعاً مقاومة.»

«الواقع أن الأمور تسير هنا في هذا الاتجاه.» أجاب بتنس بشكل مُبَطّن.

«وأين مكانكُم كشرطة في هذه الحالة؟»

«واجبُنا بالطبع هو حفظ الأمن وتطبيق القوانين.» رد بتنس بعد أن نظرَ إلى فالاندر باستغراب.

«وكيفَ تُطبقون القوانين؟ بالمدرعات العسكرية؟» سأله فالاندر.

«أقصدُ بتطبيق القوانين، إننا نُناشِد الناس بضرورة التزام الهدوء حتى لا تحصَل إصابات.»

«وبكل الأحوال يجب أن يُنظَر للمدرعات على أنها وسيلة أساسية لحفظ الأمن.»

أطفأ بتنس سيجارته بشكل غير مبال قبل أن يُجيب:

«أنا وأنت الاثنان رجُلا شرطة وتقريباً بنفس الرتبة، ولنا تقريباً الدراية نفسها في كيفية تأمين الأمن للناس. لكننا نعمل في ظروف مختلفة. وهذه الظروف هي التي تُحدد الأساليب الواجب استخدامها.»

«لقد قلتَ في البداية إن الأمور تسير بذلك الاتجاه، فهل هذا يسري

مكسه

على سلك الشرطة أيضاً؟» سأل فالاندر.

«نحن هنا نعرف أن الشرطة في الدول الغربية يُعتبرون موظفين سياسيين، وهم لا ينتمون لأي حكومة تحصَل على السلطة. ومبدئياً نحن لدينا الشيء نفسه.»

«ولكن هنا يوجد حزب واحد؟» سأل فالاندر.

«ليس في هذه الأيام،» رد بتنس. «فقد نشأت تنظيمات سياسية عديدة فِي السنين الأخيرة.»

لاحظَ فالاندر أن بتنس ماهر في التملّــص من الأسئلة الجدية. لذلك قرَر الدخول بشكل مباشِر؛

«وما هو رأيُكَ الشخصي؟»

«رأيِي حولَ ماذا؟» رد بتنس.

«رأيُكَ في الاستقلال؟ هل هو حل صحيح للشعوب؟» سأل فالاندر.

«إن ضابطا مثلي برتبة عميد في بلد مثل لاتفيا لا يجوز له التحدُث بمثل هذه المواضيع. أو على الأقل للغرباء.»

«هل يوجد هنا العديد من ميكروفونات التجسس؟» سأل فالاندر بعناد. «جوابكَ سيبقى سراً بيننا. كما أني سأعودُ قريباً إلى بلدي، وبالتالي فليسَ هناكَ أي خوف من احتمال وقوفي في إحدى ساحات ريغا في يوم من الأيام لأصيحُ بأعلى صوتي فاضِحاً السر الذي أودعته عندي.»

نظَرَ بتنس طويلاً له قبلَ ان يُجيب:

«أنا أثقُ بك طبعاً، يا سيد فالاندر، واسمح لي بالقول بأني مُتعاطف مع شعب هذا البلد، وكذلك مع بقية الشعوب في البلدان المجاورة لنا، وكذلك مع شعوب الاتحاد السوفيتي. لكنني خائِف من أن بقية زملائي لا يُشاركونني الرأي.»

مكتبة

في تلك اللحظة فكر فالاندر: «بتنس يقصد العميد مورنيرس، لكنه لا يُريد الاعتراف».

ثم نهضَ بتنس من كرسيه وقال:

«هذه المحادثة شائقة ولكن يجب أن نتذكر أن هناك شخصاً مُزعجاً ينتظر في غرفة التحقيق. كما أني في الحقيقة قَدمتُ إلى هنا فقط لأقول لك إن زوجتي اسما تتساءل فيما إذا كان مساء غَد يلائمك لتناول العشاء عندنا في البيت. فقد نسيتُ أن أقول لك إنها مشّغولةَ لهذا اليوم.»

«إنه يُلائمني تماماً،» قال فالاندر.

«لقد طلب العميد مورنيرس منك أن تتصل به اليوم.» قال بتنس. «فهوِ يعتقد أننا يجب أن نراجع آخرِ التطورات في القضية. كما أني سوفَ أُسلّم تقريري المتعلق بالتحقيق.»

ثم غادر بتنس الغرفة تاركاً فالاندر يُراجع قراءة ملاحظاته التي كتبها في الليلة الماضية، بعدَ أن عادَ من تلك الرحلة الليلية من صالة الرماية في غابة الصنوبر. حيث قال أوبتس حينها: «نحن نشك بالعميد مورنيرس، كما أننا نعتقد أن العقيد ليبه قد تعرَضَ إلى خيانة... فلا يوجد أي تفسير آخر لمَا حصَل».

وقفَ فالاندر عند النافذة وراحَ ينظر لسقوف البيوت مفكراً في الوقت نفسه:

«لم يسبق لي أبداً أن اشتركتُ بمثل هذا البحث. أنا الآن موجود في بلد ليس لي أي خبرة بسكانه. فكيفَ سأتصرَف؟ ربما كان أفضَل شيء هو العودة إلى بلدي؟ وفي الوقت نفسه لم أُنكر بأني فضولِي أيضاً في معرفة سبب اغتيال ذلك العقيد الضعيف البُنية والقصير النظَر».

ثم جلسَ عند طاولة الكتابة وراحَ يُراجع الملاحظات التي كتبها من جديد. رنَ جرس الهاتف الذي كان بجانبه، فرفعَ السماعة ظاناً أن هذا هو مورنيرس.

مكتبة

كان الصوت متقطعاً ولم يسمع في البداية سوى خرخشة قوية. ثم أدرك أخيراً أن الذي يتحدث كان بيورك. فصاحَ بالسماعة

«هذا أنا فالاندر، اسمعُك بشكل واضح.»

«كورت، صرَخ بيورك.. هل تسمعُني؟ أنا لا أسمعُكَ بوضوح، فربط الخطوط مع بلدان بحر الشرق سيئ... هل تسمعُني؟»

«اسمعُك بوضوح لا داعي أن تُعيد الكلام،» قال فالاندر.

«ماذا قُلت؟»

«تحدَث ببطء ولا تُعد الكلام.»

«كيف َتسير الأمور عندك؟» سأله بيورك.

«الأمور تسير ببطء، وأشكُ في أن تتقدم للأمام.»

«هالو...!» صاح بيورك.

«قلتُ إن الأمور تسير ببطء. هل تسمعُني؟»

«اسمعُكَ بشكل سيئ، تكلم ببطء.»

وفي اللحظة نفسها تحسَنَ الخط وأصبح الصوت واضِحاً لدرجة شعَرَ فالاندر أن بيورك يتحدث من الغرفة المجاورة.

«الآن أسمعُكَ بوضوح،» قال بيورك. «أخبرني كيف تسير الأمور عندك؟»

«إنها تسير ببطء،» رد فالاندر. «ولا أدري فيما إذا كانت ستتقدَم إلى الأمام أم لا، فأحَد عُمداء الشرطة هنا الذي اسمه بتنس أجرى ليلة أمس تحقيقاً مع أحد المتهمين. لكني لا أدري إلى ماذا ستؤول الأمور.»

ثم تردد فالاندر قليلاً، وبعدها أجابَ بشكل سريع وحاسِم:

«نعم أظنُ أن وجودي هنا مُهم، هذا إذا كان بإمكانكم العمل بدوني لبعض الوقت.»

«لم يحصَل شيء مهم هذه الأيام،» رد بيورك. «يُمكن القول إن

الوضع هنا هادئ، ويمكنك أن تُركز على عملك هناك.»

«هل عثَرتُم على المزيد من المعلومات حول سرقة الطوافة؟» سأله فالاندر.

«لا شيء.»

«وهلِ حصَلَ شيء كان ينبغي عليّ معرفته؟ وهل أن مارتنسون قريب منكَ الآن؟»

«إنه مريض بالإنفلونزا، أما بالنسبة لقضية الطوافة فقد أغلقناها بسبب نقلِ القضية إلى ريغا، وليس لدينا أي شيء جديد.»

«هل نزلَ الثلج عندكم؟» سأله فالاندر.

ثم انقطع الخط بشكل مفاجئ وكأن شخصا قد قطعه، ولم يفهم فالاندر كلمات بيورك الأخيرة. فأرجَعَ السماعة، وفكرَ في أن عليه أن يُحاول الاتصال بأبيه. كما أنه حتى الآن لم يُرسِل بطاقة التهنئة التي كتبها له. فكر في أن عليه شراء المزيد من بطاقات التهنئة التي تُصَوِر مشاهد ريغا، وتساءلَ مع نفسه ماذا عساه أن يشتري هدية لأبيه من ريغا.

اهتاجَت لدى فالاندر مشاعِر الحنين للوطن للحظة قصيرة...

ثم شربَ بقايا قهوته التي أصبحَت باردة وعاد لينحني ثانية على دفتر ملاحظاته. بعدَ حوالي نصف ساعة أدار ظهره لطاولة الكتابة وتمطى في محاولة منه لطرد التعب من جسمه. فكر في تلك اللحظة مع نفسه: «أولاً وقبلَ كل شيء يجب أن أتحدَث مع بايبه ليبه، فبدون مقابلتها ستبقى كل تحليلاتي مجرد تخمينات، إنها يجب أن تجلس أمامي وتسرد كل التفاصيل المفيدة. كما أني يجب أن أعرف ماذا أراد أوبتس من وراء تحقيقه معي في تلك الليلة. وما هو الشيء الذي أرادَ معرفته مني؟ وهل خافَ من كوني اطلعتُ على أحد أسرار العقيد؟».

كتبَ فالاندر اسم بايبه ثم رسَمَ دائرِة حول الأحرُف. ثم كتبَ

مكسه

علامة تَعَجب أمام الدائرة. ثم كتبَ اسم مورنيرس ووضَعَ علامة استفهام أمام الاسمِ. بعدها جمعَ أوراقه ونهضَ من كرسيه وخرجَ من الغرفة. وعندما طرَقَ على باب مورنيرس سمعَ صوتاً عالياً داخل الغرفة. إذ إن مورنيرس كان يتحدث بالهاتف فدخَل الغرفة وأشارَ له مورنيرس بالجلوس على أحَد كراسي الضيوف، جلسَ فالاندر مُنتظِراً يستمع لصوت مورنيرس وهو يتحدث بتلك الطريقة الهائجة وأدركَ بأن هذا الوجه المتورم يمتلك طاقات غير طبيعية. لكنه بالطبع لم يفهم كلمة واحدة مما سمعَه. وفجأة اكتشف بأن مورنيرس كان يتحدث بلغة أخرى ذات نغمة تَختلف عن نغمة اللغة اللاتفية، وبعد عدة لحظات أدرك بأنه كان يتكلم اللغة الروسية. وانتهت المكالمة بأن تفـــوّه مورنيرس بكلمات أوحَت بالتهديد، ثم ضرب سماعة الهاتف وراح يُردد كلمة «مجانين» ومسحَ وجهه بمنديل ورقي ثم التفت لفالاندر الذي حاوَلَ أن يُهدّئه إلى أن ابتسم وقال:

«إن مصدر المشاكل دائماً من الضباط من ذوي الرُّتب الدنيا، فهم لا يُنفذون الأوامر بدقة. هل لديكم الشيء نفسه في السويد؟»

«أحياناً،» رد فالاندر بأدب، وتأملَ الرجل الذي يجلس أمامه في الجهة الأخرى من الطاولة، وتساءلَ مع نفسه: «هل بإمكان هذا الرجل أن يقتلَ العقيد ليبه؟ ثم ردَ على نفسِه: نعَم، بالطبع هذا ممكن!».

استنتجَ هذا الجواب الواضح من خلال خبراته التي كونها عبر سني عمله الطويلة في سلك الشرطة. ففي علم الجريمة لا يوجد هناك قـــاتـــل، بل يوجد فقط مُرتكِبٌ للجريمة.

ثم قال مورنيرس:

«فكرتُ بأن نعمل مراجعة لكل المواد التحقيقية في قضية اغتيال العقيد. أنا مُقتنِع بأن العميد بتنس يُحقق الآن مع شخص متورط بكل الذي حصَل. وربما أثناء المراجعة سنعثَر على معلومة مهمة.»

مكسه

وهنا قرر فالاندر بسرعة أن يتحول للهجوم، فردَ على مورنيرس

«لدي إحساس بأن فحص مكان الجريمة ناقص.»

«ناقص؟ من أي ناحية؟» رد مورنيرس بعدَ أن رفَعَ حاجبيه.

«عندما ترجَمَ لي الرقيب زيدس التقرير وجدتُ فيه ظروفاً غريبة. وأول شيء هو عدم وجود أي اهتمام من قبلكم بفحص الرصيف نفسه.»

«وماذا يُمكن للمرء أن يعثَر هناك؟» سأل مورنيرس.

«على الأقل آثار إطارات السيارة التي نقَلَت العقيد ليبه للميناء في تلك الليلة،» رد فالاندر. وانتظَرَ أن يرُد العميد على كلامه، لكن ذلك لم يَحصَل. لذلكَ استمر في الكلام:

«كما أنه لا يوجد في القضية أي تحديد لسلاح الجريمة. يبدو أن المكان الذي عُثِرَ فيه على جثة العقيد هو ليس المكان نفسه الذي وقَعَت فيه. ففي التقرير الذي ترجمه الرقيب زيدس حدَد فقط بأن مكان العثور على الجثة هو نفس مكان وقوع الجريمة. ولا يوجد أي اعتراضات أو مناقشات حولَ ذلك. والأغرب من ذلك كله هو عدم وجود أي شاهد.»

«لا يوجَد أي شاهد،» قال مورنيرس.

«وكيفَ عرفت؟» سأله فالاندر.

«لقد تحدثتُ مع حرَس الميناء وحققت معهم، فلم يكن هناك مـَـن شاهد شيئاً. بالإضافة إلى أن ريغا من المدُن التي تنامُ مبكراً في الليل.»

«فكرتُ كذلكَ في المنطقة التي يسكُنُ فيها العقيد. ففي محضر الجريمة ذكرتم أن العقيد خرَجَ من بيته ليلاً، وهنا لا بد أن يكون هناك أحد الأشخاص من سكان العمارة قد سمعَ أحد الأبواب أو الباب الرئيسي للعمـــارة يُغلَق في تلكَ الساعة المتأخرة، ونظرَ من نافذته بدافع الفضول ليرى ما يدورَ هناك. كما أن السيارةَ التي جاءت لتنقُلَ العقيد لا بد أنها

أصدرت صوتاً أثناء التوقف أو الحركة. وإذا أرادَ المرء أن يتعمق قليلاً في القضية فيجب أن يكون هناك على الأقــل شخص واحد شاهد أو سَمِعَ شيئاً ما.»

«نحن بصدد البحث في هذا الموضوع،» قال مورنيرس وهو يهز برأسِه. «لقد ذهب عدة رجال شرطة لمدخَل البناية التي يسكن فيها العقيدَ ومعهم صورة شخصية للعقيد ليبه ليسألوا عنه الجيران.»

«أليسَ هذا الإجراء متأخراً؟» سأل فالاندر. «فالناس بالطبع ينسون بسرعة، أو أنهم يخلطون فِي التواريخ. وما الداعي لاستخدام صورة العقيد إذا كان هو في العادة يستخدم سلالم البناية يومياً.»

«أحياناً يكون المرء بحاجة لأن ينتظر قليلاً،» قال مورنيرس. فعندما شاعَ خبر مقتل العقيد صارَ الناس ينظر أحدهم إلى الآخَر، وبكل الأحوال لَم يرغَب أحد في أن يورِط نفسه بشيء من هذا القبيل. لذلك رأينا من الافضل الانتظار لعدة أيام، لأن ذلك قد يُساعد الناس في مراجعة ما لديهم من معلومات، وأن يُميــّزوا بينَ ما هوَ واقعي وبين ما هو مجرد تخيلات.»

أعطى فالاندر الحق لمورنيرس في تحليله. فهو في الوقت نفسه كان يُدرك أنه من الضروري في مثل هذه الحالات أن يقوم المرء بزيارتين للمَكان، على أن تفصِل بينهما عدة أيام.

«هل لديكَ أسئلةَ أُخرى؟» قال مورنيرس.

«ما هي الملابس التي التي كان يرتديها العقيد ليبه؟» سأل فالاندر.

«ماذا تقصُد بالملابس؟»

«أقصُد هل كان العقيد يرتدي ملابس مدنية، أم بدلة عسكرية؟» رد فالاندر.

«لقد كان يرتدي بدلة عسكرية،» رد مورنيرس. «فقد أخبرَ العقيد زوجته بأنه ذاهب لقضاء مهمة رسمية.»

مكسه

«وماذا عَثَرتُم في جيوبه؟»

«وجَدنا في جيوب العقيد سجائِر وأعواد ثقاب، وعدداً من العملات المعدنية، وقلماً، وفي جيب الصدر وجَدنا هويته الشخصية، أما محفظة نقودة فقد تركها في البيت. هذا كل الذي عَثَرنا عليه. طبعاً لَم تُفقَد أي حاجة من محتويات بدلته.»

«هل كان معه سلاح شخصي، أقصد المسدس الذي يحملَه الضابط في الظروف الاعتيادية؟»

«العقيد ليبه من النوع الذي لا يُحب أن يحمِل مسدساً. إلا في الظروف المفاجئة التي تتطلب استخدام السلاح.» رد مورنيرس.

«كيف يأتي العقيد ليبه لمقر الشرطة؟» سأل فالاندر.

«بالطبع توجد سيارة خاصة مع سائقها مُخصصة لنقل العقيد،» رد مورنيرس. «لكن أحياناً يختار العقيد أنْ يذهب لبيته أو لقضاء حوائجه سيراً على الأقدام، ولا أحد يعرف سبب ذلك... ربما الله فقط يعرف السبب!»

«في محضَر التحقيق مع بايبه ليبه لَم تذكُر أنها سَمِعَت صوت سيارة تتوقَف خارج الشارع.»

«هذا طبيعي،» رد موريرس. «فالعقيد لَم يذهب لقضاء مهمة رسمية، إنه خُدِعَ ببساطة.»

«حينها لم يدرك العقيد تلك الخُـدعـة،» رد فالاندر. «لكنه لَم يَعُد لبيته ثانية، ففي هذه الحالة يجب أن يكون قد اعتقد بأن عطلاً ما حصَل في السيارة. فماذا تعتقد أنهَ يتصَرَف حينها؟»

«هناك احتمال كبير أنه فكَرَ أن يمشي قليلاً باتجاه الشارع العام، لكننا غير متأكين من ذلك.»

لَم يطرح فالاندر المزيد من الأسئلة...

لكنه بعد هذه المحادثة مع العميد مورنيرس أصبحَ مقتنعاً بأن

مكتبة

التحقيق في هذه القضية تم إعداده بشكل رديء. فهو يعطي انطباعاً بمراعاة اللوائِح القضائية. ولكن لإخفاء شيء غير واضِح. وبعدَ صمت قليل قالَ فالاندر:

«بودي تخصيص بضع ساعات لزيارة بيت العقيد والشوارع المحيطه به. ويمكنِ أن يُساعدني الرقيب زيدس بذلك.»

«سوفَ لن تَعثروا على أي شيء هناك.» رد مورنيرس. «لكننا بالطبع نُرحِبُ بأي إجراء تحبون القيام به على طريقتكم. وإذا حصَلَ شيء مثير في غرفة التحقيق فسوفَ أُخبركم به.»

ضَغَطَ فالاندر على زر جرس مُثبت على الطاولة، فظَهر الرقيب زيدس في الحال عند الباب. وطلَبَ منه فالاندر أن يهيئ سيارته ليعملا جولة في المدينة، لأنه شَعَر أنه بحاجة لأن يروِّح عن نفسه قبل أن يُباشِر ثانية بقضية مصير العقيد.

كان زيدس يرى إنه من المُمتعِ أن يُفرّج أحد على مدينته. ففي أكثَر من مرة لاحَظَ فالاندر تفاخُر زيدس وهو يصف له الشوارع والساحات. فقد سارا طويلاً على امتداد شوارع آسباسيا العريضة، ففي الجهة اليسرى يقَع النهر، حيث توقَفَ هناك زيدس على الرصيف ليُريه نصب الحُرية التذكاري العالي جداً. وحاول فالاندر من جانبه أن يفهم إلى ماذا يرمز هذا التمثال الذي كان يقف على أربعة أعمدة صخرية مدببة. فكر في تلك اللحظة بكلمات أوبتس عندما تحدثَ عن الحــــرية التي يتوقُ لها المرء ويخافُ منها في الوقت نفسه. عند قدمي التمثال جلسَ العديد من الرجال الفقراء المسحوقين بملابسهم الرثة مرتجفون من البرد. وشاهدَ فالاندر كيفَ التقــطَ أحدهم عقب سيجارة من الأرض ودخنه. وفكر: «بأن ريغا هذه مدينة لا ترحَم. فكل شيء أراه الآن يحمل ضِده في الوقت نفسه. البنايات العالية غير المصبوغة تحضن البيوت المتهدِمة التي تعود لزمن الحرب العالمية الثانية

مكتبة

أو الأولى. الشوارع العريضة والمُشَجرة تُخفي وراءها الأزقة الضيقة، والساحات المُكتظة. القطع الإسمنتية الضخمة التي تعود لعصر الحرب الباردة تُقابلُ الواجهات المرمرية في أماكن عدة».

عندما توقَفَ زيدس عند الإشارة المرورية الحمراء حاولَ فالاندر أن ينظر لموجة الناس الذين كانوا يطوفون على الأرصفة وتساءل مع نفسه: «هل إن هؤلاء سعداء؟ وهل هم يختلفون عن الناس في السويد؟ ولم يستطع أن يُجيب عن أحد السؤالين».

في هذه الأثناء قال زيدس:

«هذه ساحة فيرمان، توجَد هنا دارا سينما، الأولى اسمها سبارتاك والثانية اسمها ريغا. إلى اليسار يُمكن لحضرتكم أن تروا الشوارع العريضة والحدائق. الآن سننحرف في شارع فالديمار. وعندما سنعبُر الجسرِ الموجود في طرف المدينة سترى مسرح الدراما في الجهة اليُمنى. وسوفَ ننحرف لليسار ثانية لندخُل في رصيف ١١ نوفمبر. هل سَنَستَمُر يا مُفتش فالاندر؟»

«هذا يكفي،» رد فالاندر الذي شَعَر حينها بأنه على الأقل مثل أي عميد.

«سأطلُب مساعدتكَ لاحقاً في شراء عدد من الهدايا. أُريدكَ الآن أن تقف بالقُرب من بيت العقيد ليبه.»

«بيت العقيد يقع في شارع سكارنو، الذي يقع في وسط قلب الحي الحكومي لمدينة ريغا.»

توقَفَ زيدس بسيارته خلفَ إحدى سيارات النقل القديمة التي كانت متوقفة لتفرغ حمولتها من أكياس البطاطا. وتردد فالاندر لبعضِ الوقت فيما إذا كان سيسمح لزيدس أن يُرافقه أم لا. فبدونه لا يُمكنه أن يطرح أي سؤال على أحد من سكان العمارة، لكنه مع ذلك شعرَ بأنه بحاجة لأن يبقى وحيدا مع أفكاره ومراقباته.

مكسه

«هناكَ بيت العقيد ليبه،» قال زيدس. وأشارَ بيده لإحدى البنايات الواطئة والمحشُورة بين بنايتين عاليتين، وكأنهما يَعصرانَها.

«هل يسكُن العقيد مقابِل الشارع؟» سأله فالاندَر.

«إنه يسكن في الطابق الثاني،» قال زيدس. «وبالضبط فإن النوافذ الأربع الموجودة على الجهة اليسرى تعود لشقته.»

«انتظر هنا عند السيارة.» قال فالاندر لزيدس.

وبالرغم من أن الوقت كان منتصَف النهار، إلا أنه لَم يكن هناك الكثير من الناس في الشارع. تقدَمَ فالاندر ماشياً بشكل بطيء نحو البناية التي فيها بيت العقيد. وفكر ببعض الكلمات التي كثيراً ما كان ريدبري يُرددها؛ «رجل الشرطة يجب أن يكون مُمثلاً في بعض الأحيان. عليه أن يفهم الأشياء المجهولة بمُعايشتها. أن يزحَف تحت جلد المُجرم، أو تحت الطاولات. عليه أيضاً أن يتخيَل ردود الأفعال».

ذهبَ فالاندر إلى البوابة الخارجية للبناية وفتحه. وعند المدخَل المُعتم قبلَ السلالم اشتَمَ رائحة البول اللاذعة. وعندما دخَلَ ترك الباب، فرجِعَ لينغَلق من جديد بدون أن يُحدثَ صوتاً سوى خبطة خفيفة.

ولَم يعرف من أينَ جاءته تلَك الفكرة الخاطفة. لكنه عندما نظَرَ في وسط الظلام الذي كان في منطقة السلالم اعتقد فجأة بأنه يرى سياق القضية واضحاً له. حصَلَ ذلك مثل قدحَة مفاجئة جعَلَت ذاكرته تعمل بشكل لماحَ. وفكر مع نفسه: «لقد كان هناكَ شيء ما قبلَ مجيء العقيد ليبه إلى السويد...

فالطوافة التي عَثرت عليها أرملة فورسيل عند ساحل موسبي كانت فقط جزءاً من مُخطط شامل عرفَ العقيد ليبه سياقه العَام. وهذا ما أرادَ أوبتس أن يعرفه عندما طرحَ أسئلته. هل كشَفَ العقيد النقاب عن شيء كان أوبتس مُشتركاً فيه، أو اعتقد بأنه جريمة في بلده؟».

وأدرك فالاندر بشكل مفاجئ بأنه في البدء قد أضاع خيطاً للتفكير،

مكتبة

لكنه اكتشف ذلك الآن. فقد كان أوبتس مُصيباً، لأن العقيد ليبه قد تعرضَ فعلاً لخيانة من قبل أحد زملائه، وربما من قِبَل العميد مورنيرس، إذن الغرض من طرح أوبتس لأسئلته هو لاكتشاف ما يعرفه رجل الشرطة السويدي كورت فالاندر حول ذلك! وهل فضفضَ العقيد ليبه لفالاندر ببعض أسراره أو شكا له من بعض الأشخاص، او ربما زملاءه في العمل؟

شعر فالاندر بالخوف، وأدرك بأن هذا الشعور كان بمنزلة إشارات تحذيرية. فربما من الأجدر به بعد اليوم أن يكون أكثر حذراً مما كان في السابق! فالذين يقفون خلفَ عملية قتل الرجلين في طوافة الإنقاذ وخلفَ اغتيال العقيد ليبه لا يترددونَ أبداً في ارتكاب عملية قتل أخرى إذا تطلب الأمر. ثم عَبَر فالاندر الشارع وراحَ ينظُر للنوافذ في أعلى البناية. وفكرَ: «لا بد أن يكون جُزءٌ من السر مع بايبه... ولكن لماذا لَم تأتِ إلى صالة الرماية عندما التقيتُ بأوبتس؟ هل كانت مراقبة؟ وهل كانَ ذلك بسبب كوني السيد إيكرس في تلك الليلة؟ لماذا تحدثتُ ذلك اليوم مع أوبتس؟ ومَن هو أوبتس؟ ومَن كان الذي يقف خلف فتحة الباب التي كانت مُضاءة بشكل ضعيف بواسطة المصباح؟».

ثم تذكر فالاندر صديقه ريدبري وحاولَ ان يتخيل تحليلاته لما يجري:

«عاد العقيد ليبه من السويد. سلَّمَ تقريراً للعميد بتنس والعميد مورنيرس. ثم ذهبَ لبيته. وقد قال لهما شيئاً تعلَقَ بسفرته للسويد، شيئاً كان في النهاية سبباً للحُكم عليه بالموت. ثم ذهبَ لبيته وتناولَ العشاء مع زوجته، وقدمَ لها الكتاب المُصوَّر الذي حصَلَ عليه هديةً من زميله مفتش الشرطة السويدي فالاندر. وكان مسروراً بعودته إلى وطنه. لَم يكُن لديه أي فكرة بأن هذه آخر ليلة في حياته، ولكن عندما مات قامت زوجته بالاتصال برجل الشرطة السويدي. وقد اخترَعَت

له اسم السيد إيكرس، الذي حقق معه أوبتس ليتأكد من الأشياء التي يعرفُها هذا السويدي عن العقيد ليبه والأشياء التي لا يعرفُها!... وطلب من رجل الشرطة السويدي أن يُساعدَهم، بدون أن يعرف الأخير بأي أسلوب سيساعدهم. ولكن اتضح بَشكل كبير أن هذه الجريمة دوافعُها سياسية وتتعلق بالقلق الذي يعمُّ البلد. ومحور كلُ شيء هو اغتيال أحد ضباط الشرطة الذي كان برتبة عقيد واسمه ليبه، كان عضواً في تنظيم وطني. السياسة... هل هذا ما تحدثَ به العقيد لزوجته في آخر ليلة؟

رن جرس هاتف العقيد في الساعة الحادية عشر ليلاً، لا أحَد يعرف مَن الذي اتصل في تلك الساعة. لكن العقيد بدوره لَم يتوقَع بأنه حان الوقت لتنفيذ حكم الإعدام به. وقال لزوجته بأنه سيذهب لقضاء مهمة رسمية اضطرارية أثناء الليل، ثم غادر بيته ولَم يَعُد...».

وتذكر ما قاله العميد مورنيرس من أنه ربما لَم تأتِ أي سيارة، لذلك انتظر العقيد لعدة دقائق. ولكنه لَم يشُك حينها بحصوَل شيء ما، ولكن بعد لحظات فكر في أن السيارة يمكن أن تكون قد تعطلت، لذلك قرر أن يتمشى قليلاً.

أخرجَ فالاندر خريطة ريغا التي كانت في جيبه وبدأ بالمشي... كان الرقيب زيدس جالساً في السيارة يتأمل حركة فالاندر الذي تساءل مع نفسه حينها: «لَمن قدَم العقيد تقريره؟ هل قدمه إلى العميد مورنيرس؟... ثم إن الصوت الذي تحدثَ معه بالهاتف ودعاه للخروج في تلك الليلة، لا بد أنه كان يحمل نبرة خاصة أو أنه يعود لشخص موثوق به. فالعقيد من النوع الذي لا يُمكن استغفالَه. كما أنه كان مُصيباً في عدم وضع ثقته بالجميع!».

«وفي النهاية لا بد أن يكون للعقيد شخص يثِقُ به، فمَن يا تُرى هذا الشخص؟ إنها بايبه ليبه، زوجة العقيد». أجاب فالاندر عن سؤاله

بعدها أدركَ فالاندر بضرورة عدم الاستمرار بالمشي هكذا والخَريطة

مكسه

بيده. وفكر من جديد في أن المشتركين في العملية هم أكثرُ من شخص، الذي حصَلَ أن أحدهم جلبَ العقيد من بيته في رحلته الأخيرة، وأُجبِرَ بعدها على متابعة السير في المسار المُخَطَط له مُسبَقاً.

وعندما عادَ فالاندر إلى زيدس الذي كان ينتظره في السيارة، استغرَبَ أن التحقيق لا يتضمن تقريراً خطياً حولِ رحلة العقيد إلى السويد. في حين أنه شاهد بنفسه كيفَ كان العقيدَ يستنتج الأفكار المفيدة أثناء وجوده في إيستاد. وكثيراً ما صرحَ العقيد بضرورة توثيق الأحداث بتقارير خطية. وكان يعتقد أن الإفادات الشفهية يجب أن تكون قصيرة جداً في أي تحقيق أساسي.

وهكذا لَم يحصَل فالاندر على أي شرح حولَ اللقاء الأخير مع العقيد ليبه، سوى الشرح الشفهي الذي سمِعَه من العميدين مورنيرس وبتنس. ولَم يُترجِم له الرقيب زيدس مُطلقاً أي تقرير مكتوب. وتخيَّل أنه الآن يرى العقيد ليبه أمامه أثناء رحلة العودة إلى وطنه؛ فبمجرَد أن أقلَعَت طائرته سَحَبَ الطاولة الصغيرة من خلف الكرسي الذي أمامه وبدأ بكتابة تقريره. وإنه بالتأكيد سوفَ يستمر بكتابة تقريره أثناء مدة الانتظار- الترانزيت في مطار آيرلند في ستوكهولم أثناء عودته عبر بحر الشرق باتجاه ريغا.

وعندما جلَسَ فالاندر في السيارة قال لزيدس:

«هل هناك تقرير خطي كتبه العقيد ليبه حول رحلته في السويد؟»

«وكيف سيستطيع أن يفعَل ذلك؟» رد زيدس بعد أن نظَرَ باستغراب إليه.

لكن فالاندر ردَ بصمت على نفسه: « لقد استطاع العقيد أن يفعَل ذلك، وهذا التقرير لا بد أن يكون الآن محفوظاً في مكان ما. ولكن ربما يكون هذا التقرير عند شخص لا يُريدني أن أطلِع عليه».

«أريدُ أن أزور أحد المحلات لشراء بعض الهدايا. ثمَ بعدها سنتناول

مكسه

وجبة الغداء معاً. لكني لا أُريد التجاوز على أي طابور.»

ثمَ أوقفوا السيارة خارجَ أحد المحلات التجارية. وخلال ساعة من الوقت تجولَ فالاندر خلفَ زيدس في المحلات التجارية التي كانت مُكتظة بالناس، لكن البضائِع المعروضة كانت قليلة. وعندما وصلا إلى قسم الكتب والقرطاسية توقفَ بشيء من الاهتمام. حيث عَثَرَ هناك على عدد من تسجيلات الأوبرا والأوركسترا الروسية التي كانت أسعارها منخفضة جداً. كما أنه اشترى عدة كتُب حول الفن التي كانت رخيصة أيضاً. ولم يعرف حينها لِمَن سيعطي هذه الهدايا. ثم تسلم أغراضَه ملفوفة بالورق الأسمر. وقربَ المكان الذي يُحاسِب فيه الزبائِن كان زيدس يتمشى ذهاباً وجيئة بزهو، بينما بدأ فالاندر بالتعرق وهو يدفع ثمن أغراضه.

وعندما خرجا ثانية إلى الشارع، اقترح فالاندر بدون مواربة أن يتناولا وجبة الغداء في فندق لاتفيا. فهزّ زيدس رأسَه موافقاً وكأن فالاندر أخيراً صارَ يسمَع كلامه.

وعندما وصلا إلى الفندق صعَدَ فالاندر إلى غرفته حاملاً أكياسه. وعلقَ سترته وغسَلَ يديه في الحمام. وبشكل غير مُجد تأملَ الهاتف مُنتظراً أن يرنَ جرسه ليطلب أحد السيد إيكرس. لكن ذلك لَم يحصَل. لذلكَ أقفلَ الغرفة وسلك المصاعِد نازلاً إلى الطابق الأرضي. وعندما سلّمَ المفاتيح لموظفة الاستعلامات سألها فيما إذا اتصل احد ما بغرفته بالرغم من أن الرقيب زيدس كان معه. فهزت الموظفة رأسها بالنفي، وعند الاستعلامات نظرَ فالاندر حولِه ليتأكد من وجود أي مُخبرِ في البهو. ثم طلبَ من الرقيب زيدس أن يسبقه إلى صالة الطعام ليحجز لهما مكاناً عند إحدى الطاولات غير تلك التي يجلس عندها كل يوم.

وبشكل مفاجئ اكتشف فالاندر إحدى النساء تلوِّح له. كانت المرأة جالسة خلف طاولة تُعرَض عليها الصحف والمجلات وبعض بطاقات

مكتبة

التهنئة. نظر فالاندر حوله وتردد للحظة في أنه كان هو الشخص المقصود الذي تُلوح له المرأة. بعدَها ذهبَ نحوها. وعندما وصلَ إليها قالت له:

«ألا يُريد السيد فالاندر أن يَشتري بطاقات تهنئة؟»

«ربما ولكن ليس الآن،» أجاب فالاندر. وتساءل مع نفسِه في الوقت نفسه «كيفَ عرفَت هذه المرأة اسمي؟».

كانت المرأة الواقفة خلف الطاولة ترتدي بدلة رصاصية اللون، وكانت في الخمسين تقريباً، وقد صَبغَت شفتيها باللون الأحمر بشكل مُقرِف لدرجة أن فالاندر فكر في أنها بحاجة لامرأة أخرى تُخبرها بأن مظهرها بهذا اللون الأحمر يبدو كريهاً.

قدَمَت له المرأة بضع بطاقات وقالت:

«هل هذه البطاقات جميلة؟ ألا تُحبُ أن تَرى بلدنا بشكل فعلي؟»

«في الحقيقة بودي ذلك، ولكن لَا أظن أن عِندي وقتاً لذلك.» رد فالاندر. لذلك سأفكر بأن أُخَصِص رحلة لبلدكُم الجميل.»

ثم قالت له المرأة:

«هناكَ عرض في لأوركسترا هذا المساء. على حد علمي إنكَ تُحِب الموسيقى الكلاسيكية.»

جَفَلَ فالاندر وهو يسمع كلمات المرأة. فكيف عرفَت ذوقَه الموسيقي؟ فلا توجد أي إشارة حولَ ذلكَ في جواز السفر.

غير أن المرأة استمرت بالكلام:

«هذا المساء يوجد في كنيسة جيرترود عرض موسيقي على آلة الأورغن. والعرض سيبدأ في الساعة السابعة. لقد رسمتُ لكَ خريطة للطريقِ المؤدي إلى هناك إذا كان هذا يُعجبك.» ثم مدت له الخريطة، ولاحظَ فالاندر أن الظرف الذي قدمته لَه له مكتوب على ظهره اسم السيد إيكرس بالقلم الرصاص. ثم أردفت المرأة: «إن العرض مجاني.»

هز فالاندر رأسه موافقاً ودسّ الخريطة في جيبه. ثم أخَذَ معه عدة

بطاقات وذهبَ إلى صالة الطعام. لكنه في هذه المرة تأكد بأنه سيلتقي مع بابيه ليبه.

وعندما دخَلَ فالاندر صالة الطعام لوَحَ له الرقيب زيدس. جلسا معاً على الطاولة نفسها. وبشكل غير طبيعي كانت الصالة مليئة بالضيوف، ولأول مرة لاحظَ أن عُمال الخدمة في الصالة مشغولون جداً. عندما جلَسَ فالاندر عرضَ على زيدس البطاقات التي اقتناها فرد عليه زيدس:

«نحن نعيش في بلد جميل جداً.»

لكن فالاندر رد عليه بصمت مع نفسه:

«بلدكُم تعيس، جريحا، مُهان، مثل طَير كسير الجناح.
في هذا المساء سأُقابِلُ أحد هذه الطيور الكسيرة الجناح
إنها السيدة بابيه ليبه...».

مكسه

١١

ترك كورت فالاندر الفندق في الساعة الخامسة والنصف...

بات على يقين بأنه إذا لم ينجح خلال الساعات القادمة في الإفلات من الرقابة، فإنه سوف لن يستطيع ذلك مطلقاً. لذلك قالَ لزيدس مُعتَذراً عندما افترقا بعد تناولهما وجبة الغداء بأنه سيبقى في غرفته هذا المساَء لكي ينتهيٍ من الأعمال الكتابية المتراكمة لديه. في حين أنه فكرَ في تكريس الوقت المتبقي مِن مدة ما بعد الظهر لمحاولة اكتشاف المسالك التي ستُساعده على التخلص من المُخبرين للبدء بمغامرته القادمة.

لم يكُنَ لفالاندر أي خبرة مُسبقة في التملّص من المُخبرين...

فهو لم يتذكر بالمرة بأنه كان مُراقَباً في يوم ما، كما أنه شخصياً لم يُراقب أحدا من المُتهمين...

ودقَقَ في ذاكرته مُتسائلاً مع نفسه فيما إذا كان ريدبري قد تحدَّثَ ببعض الكلمات البليغة عن فن المراقبة السرية، لكنه لم يستطع أن يتذَكّر أية فكرة حاسمة لإنجاح عمليات المُراقبة هذه. كما أنه اعتبر نفسه الآن موجوداً في أصعَب الظروف، لأنه لا يعرف حتى أسماء الشوارع. لذلك فهو لا يستطيع التخطيط لأي حركة مُفاجئة، وبالتالي ليسَ هناك أي احتمالِ لنجاحَه في حالة تفكيره بالإفلات. معَ ذلكَ وجَدَ نفسه مُجبراً على المُحاولة. فمن المؤكد أنَ بايبه ليبه لم تدخر جُهداً من أجل أن يكون لقاؤهما بعيداً عن أي مُراقَبة خطيرة أو محَظورة. وتخَيلَ فالاندر أن هذه المرأة التي كانت زوجة للعقيد ليبه قد نذرَت نفسها لكشف مُلابسات اغتيال زوجها.

هبط الظلام عندما ترَكَ فالاندر الفندق...

مكسه

وعندما سلّم مفاتيح غُرفته لاستعلامات الفندق، لم يُخبرهم بالجهة التي سيذهب إليها، ولا حتى بوقت عودته للفندق. فكنيسة جيرترود التي سيذهب إليها تقع بالقُرب من فندق لاتفيا. وأمَلَ أنه ربما سيتمكن من الاختفاء بين الناس العائدين إلى بيوتَهم من العَمَل.

خارج الفندق لاحظَ أنّ الريح بدأت تعصف بقوة. رفعَ سحاب معطفه حتى أوصَله إلى حنكه ونظرَ حوله بشكل سريع. لم يكتشف أي شخص يمكن أن يكون مُخبراً. ولكن ربما كانَ هناكَ أكثر من مُخبر واحد! ففي إحدى المرات قَرأ فالاندر أن المُخبَرين المُتمرسين لا يقتربون مطلقاً من ظهر الشخص الذي يُراقبونه، بل إنهم دائماً يسيرون أمامه. سار ببطء وراحَ يتوقف بين الحين والآخر أمام واجهات العرض الزجاجية للمحلات التي يمر عليها. فهو لم يجد فكرة أفضَل من التظاهر بأنه الآن يقوم بنزهة مسائية كأيِ سائح يزور ريغا ويتجول في شوارعها ليختار الهدايا التي سيشتريها قبلَ أن يُغادرها. عَبَر الشارع العريض ثم خرجَ منه ودخَلَ في الشارع الذي يقع خلف مُجمَع الدوائر الحكومية وفكرَ للحظة في ركوب سيارة أجرة لتنقله إلى مكان غير محدد، ثم يستقِل أخرى لتنقله إلى الكنيسة، لكنه عَدل عنها، فمن الممكن أن تسهِل بذلك مُهمة مراقبيه، فمن المؤكد أن هؤلاء لديهم سيارات سوف تلاحقه.

توقَفَ فالاندر أمام واجهة عرض محلات بيع الملابس الرجالية، وانتظر قليلاً وهو ينظُر إلى صور المارة المُنعكسة على الزجاج، لم ير أي شخص يعرفه. تساءلَ مع نفسه: «ماذا سأفعَل؟ كان على بايبه ليبه أن تقولَ للسيد إيكرس شيئاً من شأنه أن يوضِح له كيفية الوصول إلى الكنيسة بعيداً عن عيون المُراقبين؟».

وجاءته فكرة خاطفة، فقرر مع نفسه الدخول إلى أي مقهى سيصادفه في الطريق. وفعلاً بعدَ خطوات دخَلَ عبرَ أحد الأبواب المؤدية إلى

مكتبة

مكان مُكتظ بالناس والدُخان، رائحته مزيج من روائح البيرة والسجائر والأجساد المُتعرِقة. راح ينظر باحثاً عن مكان للجلوس، إلى أن عثَرَ على كرسي فارغ عند طاولة يجلس حولها رجلان كبيران في السن أمامهما كأسا بيرة ومنشغلان بنقاش عميق. سألهما فالاندر- بالإشارة طبعاً، فيما إذا كان الكرسي فارغاً، فأجابا بهز رأسيهما دلالة الموافقة. جاءت النادلة. طلب فالاندر كأساً من البيرة وذلك بأن أشارَ نحو البيرة الموجودة على الطاولة. ظلَ طوالَ الوقت يُراقب الباب الخارجي خوفاً من دخول أحد المُخبرين. قدمَت النادلة حاملةً كأس بيرة تعلوه الرغوة، أعطاها فالاندر ورقة نقدية. وضعت الباقي على الطاولة. في هذه الأثناء دخَلَ من الباب الخارجي رجل يرتدي معطفاً جلدياً مُهترئاً، تابعه فالاندر بنظراته. جلَسَ الرجُل بين مجموعة، بدا أنهم كانوا ينتظرونه بفارغ الصبر. تذوقَ فالاندر كأس البيرة ونظرَ لساعته اليدوية، وجدها تشير إلى السادسة إلا خمس دقائق. الآن يجب عليه أن يُقرر ماذا سيفعَل. في الزاوية التي كانت خلفَه شاهَدَ باب دورة المياه، ولاحظَ بأنه في كل مرة يدخُل فيها شخص عبرَ ذلك الباب تنبعث موجة مُركَزة من رائحة البول. احتسى نصف كأَسه، ونهض متوجها صوب دورة المياه. دخَلَ في ممر ضيق مُضاء بمصباحِ واحد مُعلق في السقف، المراحيض على جانبيه، وفي نهاية الممر كانتَ هناك مبولة. فكر بشكل سريع في احتمال وجود باب خلفي من المُمكن استخدامه، لكن الممر انتهى بحائط مبني من الطوب. عندها تيقنَ أن أي محاولة من هذا النوع لا تُجدي نفعاً، تساءل مع نفسه: «كيفَ يُمكن للمرء أن يتجنَب شيئاً لا يستطيع رؤيته؟ للأسف يا سيد إيكرس لا يُمكنكَ اليوم اللحاق بالحفل الفني!».

أصبحَ مُتضايقاً من عدم قدرَته على إيجاد الحل. وقفَ أمام المبولة. في الوقت نفسه فُتِحَ الباب، فشاهدَ الشخص نفسه الذي دخل قبلَ لحظات إلى المقهى، دخل إلى أحد المراحيض مغلقاً خلفه الباب. وعرفَ فالاندر

حالاً بأن هذا الشخص ذا المعطف الجلدي جاءَ إلى المقهى ليتتبّع خُطاه، تذكّرَ وجهه تماماً. ومن دون تردُد أدركَ بأنه سيرتكب مُجازفة فيما لو عادَ إلى طاولته. قرر أن يترك دورة المياه ويذهب عِبرَ الممر المليء بالدخان إلى الباب الخارجي للمقهى بأسرَع وقت. وعندما وصَل إلى الشارع نظر حوله. ركز في الظلال القريبة من مدخل المقهى. لم يكن هناك أحد. سار مسرعاً في الشارع نفسه الذي قَدمَ منه إلى أن وصَل للشارع المُشجّر العريض. وعندما وصل موقف الحافلات كانت إحدى الحافلات قد توقفت تواً، أسرعَ نحوها وصَعَدَ قبل أن تغلَق بابها. نزَلَ في الموقف التالي من دون أن يسأله أحد عن ثمن البطاقة. ترك الشارع العريض ودخلَ مرة أخرى في أحد الشوارع الضيقة. أخرج الخريطة من جيبه، أخذ ينظر إليها بسرعة تحت ضوء الشارع محاولاً ترتيب وضعه. فما زال أمامه بعض الوقت، قرر أن ينتظر قليلاً قبلَ أن يستمر. وقف تحت إحدى المظلات المتروية في الظلام وراحَ يُراقب الشارع، وقف عشر دقائق، لم يمر أي شخص يمكن أن يكون من هؤلاء المخبرين. اعتقَدَ أنه قد أدى كل ما بإمكانه لتجنُب المخبرين، على الرغم من إدراكه بأنه ما زال حتى الآن مُراقَباً.

دخَلَ فالاندر عِبرَ بوابة الكنيسة في الساعة السابعة إلا تسع دقائق.

كانت الكنيسةَ مكتظة. بجانب أحد الطوابير الجانبية لمح فالاَندر سطراً من المصاطب فيه مقعد فارغ. جلسَ عليه، وراح يتأمَل الناس الذين كانوا يتدفقون بين حين وآخر إلى داخل الكنيسة. جال بنظره داخل قاعة الكنيسة. لم يلاحظ أياً من المُخبرين ولا حتى بابيه ليبه.

جاءَ صوت الأورغن مُفاجئاً مثل الصدمة، وكأن قاعة الكنيسة انفجرَت. فتذكرَ فالاندر أول مرة ذهب فيها معَ أبيه إلى الكنيسة، حينها كان طفلاً وأخافه صوت الأورغن إلى درجة أنه انفجرَ ببكاء شديد، أما الآن فهو يستمع للموسيقى بهدوء متناه، وفكرَ: «إن الموسيقار باخ

مكتبة

ليس له وطن، فموسيقاه موجودة في كل مكان...» ثم غطّ في تفكير عميق مع نفسه:

«ربما كان مورنيرس على حق... فمن المؤكد أن العقيد ليبه قال شيئاً عند عودته من السويد، شيئاً أجبرَ مورنيرس على إسكاته. وممكن أن يكون العقيد قد تسلم أمراً بالحضور إلى مقر الشرطة لأداء مهمة رسمية. وبالتالي فمن الممكن أن يكون العقيد قد قُتِلَ في نفس مقر الشرطة!».

هب فالاندر بشكل مُفاجئ مُستيقظاً من أفكاره على إحساس بأنه مراقب... نظرَ حواليه كانت الوجوه مشدودة بتركيز إلى الموسيقى، ففي الطابور الأوسط العريض لم يرَ فالاندر سوى الظهور والرقاب. جال بعينيه حتى الطابور الجانبي المقابل له. فالتقت عيناه بعيني بايبه ليبه. كانت تجلس في منتصف سطَر من المَصاطب مُحاطة بالمُسنين، تضَع على رأسها قُبعة فرو سوداء اللون. لما تأكدَت ان فالاندر اكتشفها، أدارَت وجهها جانباً. ومن جانبه حاول فالاندر تحاشي النظر إليها طوال ساعة العرض الموسيقي، لكنه في عدة حالات ينسحب نظره عليها، وفي كل مرة يجدها مشغولة ومُركزة بنَظرِها وسَمعِها إلى الأورغن. اجتاحه شعور خيالي في تلك اللحظة، فقبلَ عدة أسابيع كان زوجها العقيد جالساً على الأريكة عِنده في شقته في شارع ماريا بإيستاد، يستمعان إلى مقطوعة التورنيدو للفنانة ماريا كالس بينما كانت الريح تعصف خارج النافذة. أما الآن فهو موجود في إحدى الكنائس في ريغا، وقد مات العقيد الذي تجلسُ أرملته الآن مشدودة الأحاسيس لتستمع إلى مقطوعة باخ. وفكر: «يجب عليها الآن أن تُرتب كيفية الخروج من هنا... لأنها هي التي اختارت هذا المكان للقائنا ولَيس أنا!!».

انتهى العزف الموسيقي. نهضَ جميع المستمعين مباشرة، فحصل ازدحام عند مدخل الكنيسة. بُوغِتَ فالاندر بهذه الحالة المُفاجئة وكأن

مكسه

الموسيقى لم تكُن موجودة قبل قليل، أو أن المستمعين تلقوا تهديداً بالقنابل. في هذه الأثناء ضاعَت بايبه عن أنظاره. اندفعَ فالاندر مع الناس المتدافعين للخروج من الكنيسة. جوار الباب الرئيسي اكتشفها واقفة في طابور طويل من الناس. أشارت له، فسحَبَ نفسه من وسط التيار المُتدافع نحو الباب الخارجي مقترباً منها، سمعها تقول له:

«اتبعني...!»

ثم أخرجَت بايبه مفتاحاً كان أكبر من يدها وفتحت به باباً جانبياً صغيراً، دخلا مقبرةً. نظرت حواليها بشكل سريع. وسارت فتبعها مسرعاً وسط مجموعة من القبور المُتهدمة إلى أن وصلا إلى بوابة صغيرة تطلُ على الشارع الخلفي. كانت هناكَ سيارة متوقفة في العتمة، وما إن وطأت أقدامهما الرصيف حتى بدأ محرك السيارة بالدوران. في هذه المرة تأكد أن السيارة التي صَعدا فيها كانت من نوع لادا. كان السائق شابا، يُدخن سجائِر من النوع القوي. نظرت بايبه ليبه نحو فالاندر مُبتسمة بشكل خجول وكأنها غير مصدقة لما يجري. غادروا المكان. دخلت السيارة شارع فالديمار الرئيسي متجهة نحو الشمال، مروا على متنزه عرفه فالاندر في الحال من جولاته مع الرقيب زيدس، وانحرفت السيارة نحو اليسار. سألت بايبه السائق حول شيء ما، فأجاب السائق بهز رأسه، وانحرف يساراً ثانية، وفجأة داس السائق على دواسة البنزين واستدار بغتة بحيث أن العجلات خرجت عن حافة الطريق، ثم مروا ثانية بالمتنزه ذاته. تأكد فالاندر أنه الآن بالقرب من متنزه فالديمار، ثم اتجهت السيارة مرة ثانية باتجاه مركز المدينة، مالت بايبه إلى الأمام نحو السائق وهمست قرب رقبته كأنها تبلغه تعليمات حول الطريق. قطعوا الشوارع المُشجرة، والجسر الذي عرفَ اسمه فالاندر. وصلوا منطقة مصانع مهدمة، ومساكِن كئيبة. خفف السائق مِن السرعة. رجعت بايبه ليبه بجسدها مستندة إلى مسند المقعد. أدركَ فالاندر أنهم الآن

مكسه

تأكدوا من عدم وجود مَن يُتابِعهم.

سارت السيارة لدقائق ثم توقف السائق أمام بناية مُهملة ذات طابقين. نظرت بابيه ليبه نحوه وهزت رأسها. نزلوا من السيارة. سارت أمامه في طريق مكسوٍّ بالحصى متجهة نحو بوابة حديدية. دخلا وأغلقَت البوابة بمفتاح كان جاهزاً في يدها. اختفى صوت محرك السيارة. في المدخل شم فالاندر رائحة مُطهر صحي. المكان مُضاء بمصباح واحد مخفي تحت واجهة من القماش الأحمر. فكر فالاندر بأنه قد يكون في مدخل لأحد النوادي الليلية. علقت بابيه معطفها، في حين رمى فالاندر معطفه على أحد الكراسي التي كانت موجودة هناك وتبعها إلى ما يشبه صالة استقبال شاهدَ فيها صورة للسيد المسيح المصلوب معلقة على أحد الجدران. أشعلت بابيه المصابيح في الصالة قبل أن تجلس بهدوء وتشير له بالجلوس.

مع مرور الوقت لم يعُد فالاندر يتذكرُ شيئاً من تلك الغرفة التي التقى فيها مع بابيه ليبه... الشيء الوحيد الذي بقي في ذاكرته منها هو صورة السيد المسيح المصلوب التي كان ارتفاعها حوالي المتر والمعلقة على جدار بين نافذتين ستارتاهما مُرتبتان باعتناء، كما أن رائحة المُطهر في المدخلَ بقيت هي أيضاً في ذاكرته، أما لون الأريكة التي جلسَ عليها عندما استمع لبابيه وهي تقصُ عليه الأحداث التاريخية المُخيفة فلا يتذكره! ولم يتذكره مطلقاً، كأنهما كانا يجلسان في غرفة ذات أثاث شفاف، وصورة السيد المسيح مُعلقة بقدرة إلهية. كانت بابيه ترتدي بدلة ذات لون بُني فاتح، تذكرها فالاندر مؤخَراً، وهي البدلة ذاتها التي اشتراها العقيد قبل عودته من محل ملابس في إيستاد، وقد قالت له أنها ارتدت تلك البدلة لتوقظ ذاكرته بُغية التعرف إليها وسط الزحام أثناء العرض الموسيقي في الكَنيسة، ولتذكره أيضاً بالصدمة التي تعرضت لها بسبب اغتيال زوجها العقيد.

مكسه

استمر الحديث بشكل مُكثَف و لم يُقطَعه إلا ذهاب أحدهما إلى دورة المياه، أو عندما تذهب بايبه لعمل الشاي. أجابت عن كل أسئلة فالاندر بصوت حزين.

أول شيء حصلَ بينهما أنهما أوقفا التعامل باسم السيد إيكرس لانتفاء الحاجة له.

«ولكن لماذا اخترتِ لِي هذا الاسم؟» سألها فالاندر.

«إنه مُجرد اسم، لاَ دلاله له، قد يكون لشخص موجود فعلاً أو لا. اخترعته من خيالي، ربما لأنه سهل الحفظ، ومن المحتمل جداً أن يعثر المرء على شخص بهذا الاسم إذا ما بحثَ في دليل الهواتف.»

في البداية تحدثَت بايبه بطريقة ذكرته بأوبتس، وبدت كأنها تبحثُ عن محور لحديثها. انصت لها فالاندر بتركيز خوفاً من عدم فهمه لبعض العبارات غير المباشرة التي يستخدمها المجتمع اللاتفي بكثرة. لاحظ أن بايبه أكدت كلَمات أوبتس عندما تحدثت عن الوحش الذي كان يحتضن شياطينه خلف الكواليس، مُتربصاً الفرصة في هذا الصراع البغيض في لاتفيا. تحدثت عن الثأر، وعن الكره، وعن الخوف الذي فاقَ تصوراتها، وعن الجيل الذي تلا الحرب العالمية الثانية. أدرك فالاندر أنها ضد الشيوعية، ضد الهيمنة السوفيتية، إنها أحد أصدقاء الغرب، الذي تسعى الدول الشرقية دائماً إلى إظهاره لمواطنيها بمظهر العدو اللدود، كما لاحظ أنها تتصرَف معه مثل مُعلمة تحرص على تعليمه دقائق الأمور وتُريده أن يكون على علم دقيق بكل شيء يقف وراء الأحداثَ التي لم تنته بعد. اكتشف أنه كان يجهل الكثير من المعلومات حول ما يدور في أوروبا الشرقية.

«رجاء خاطبيني باسمي فقط، قولي كورت.» قال فالاندر.

لكنها هزت برأسها له واستمرت بمخاطبته باللقب نفسه الذي قررت أن تستخدمه في البداية. ولأجلها وافق فالاندر ان يبقى سيد فالاندر...

سألها فالاندر عن المكان المتواجدَين فيه الآن، فأجابته:

«في شقة أحد الأصدقاء، فكما تعرف إننا لكي نُكافح ونُناضِل من أجلِ البقاء، يجب علينا أن نتشارك بكل شيء. خاصة في بلد وفي وقت الكُل مُطالبون فيه التفكير في أنفسهم فقط!»

قال فالاندر:

«لكن الشيوعية حسب ما أفهم عكسَ ذلك، وأعتقد بأن الشيء الإيجابي والجيد الوحيد في الشيوعية هو مُطالبتها بأن يعيش الناس بشكل مشترك.»

ردّت بايبه:

«كان ذلك في السابق. أما الآن فقد اختلف كل شيء. ربما من المُحتمل إحياء ذلك الحُلم في المستقبل، لكن الأحلام الميتة ربما لا يُمكن إيقاظها ثانية في الحياة! مَثلُها بذلك مثل الناس الموتى.»

«ما الذي حصَل؟» سألها فالاندر.

في البداية لم تفهم بايبه قصد فالاندر، لكنها أدركت بعد ذلك أنه بدأ يتحدث عن زوجها، فردت عليه:

«لقد تعرض كارل للخيانة وبالتالي للقتل. لأنه ومن خلال عمله في التحقيقات نَفَذَ في العُمق تحت سطح إحدى الجرائم الكبيرة جداً، التي تورطَ فيها عدد كبير من الشخصيأت المهمة في البلاد. وحينها أعطوه عهداً بعدم التعرّض لحياته إذا كتمَ السر ولم يُكشفه لأحد. فقد كان كارل يعلم أنه يعيش على حد الخطر، لكنه كانَ في الوقت نفسه شبه مُطمئن ما دام لم يُخالف الاتفاق ولم يبُح بشيء.»

«عندما عاد العقيد من السويد، ذهبَ مباشرة إلى مقر الشرطة وسلّمَ تقريره. هل كنتِ في استقباله في المطار؟» سألها فالاندر.

ردت بيايبه:

«لم أدر حينها بموعدِ عودته. ربما حاول العقيد الاتصال بي هاتفياً،

مكسه

وربما اتصل بمقر الشرطة وطلبَ منهم أن يُخبروني بموعِد عودته، لا أدري! لكنه اتصل بي عندما وصَل ريغا. ولم يكن حينها لدي طعام للاحتفال بعودته. وأتذكر بأن إحدى صديقاتي أعطتني دجاجة فطبختها له، وبالضبط لما انتهيتُ من إعداد الطعام دخَلَ كارل حاملاً معه ذلك الكتاب الجميل حول بلدكم.»

شعرَ فالاندر بالحرج، فقد اشترى ذلك الكتاب على عجل دون الاطلاع عليه بشكل جيد، ردَّ عليها:

«ماذا قالَ لكِ العقيد عند عودته؟» سألها فالاندر.

«كان سعيداً جداً، وقلقاً أيضاً،» ردت بايبه. «لكن قبل كل شيء أتذكر بأنه كان فَرِحاً وسعيداً.»

«وماذا حصَلَ بعد ذلك؟»

«قال بأنه الآن توصَل أخيراً للحقيقة كاملة، وكان يُردد: «والآن أنا متأكد تماماً من ذلك الشيء...» ولأنه كان يعلم أن شقتنا مُراقَبة وموضوعة تحت التنصُت فقد سحبني إلى المطبخ، وفتحَ حنفيات الماء بقوة وهَمَسَ في أُذني قائلاً أنه اكتشف مؤامرة خطيرة وكبيرة إلى درجة ستجعل دول الغرب مُجبرة على فهم ما يحصل من مؤامرة في دول البلطيق.»

«هل قال لكِ ذلك؟ مؤامرة في البلطيق؟ وليس في لاتفيا؟» سألها فالاندر.

ردّت بايبه:

«أنا متأكدة من ذلك، كان العقيد يتضايق من اعتبار دول البلطيق الثلاث وحدةً واحدة، على الرغم من وجود اختلافات كبيرة بين هذه البلدان، لكنه في هذه المرة لم يتحدث عن لاتفيا فقط.»

«وهل استخدَمَ كلمة مؤامرة؟»

«نعم. ردت بايبه وأعادتها بالإنجليزية – Conspiracy»

«هل عرفت قصده؟» سألها فالاندر.

«كان كارِل مثل غيره من الآخرين يعرف بأن هناكَ ارتباطاً مُباشراً بين مُختلِف المُجرمين وبين العديد من السياسيين وحتى رجال الشرطَة. فهم يحمَون بعضهم بعضاً من أي خطر مُحتمل، كما أنهم يتقاسمون بينهم كل ما يقع بأيديهم. وحتى كارل نفسه وفي أكثر من مرة قُدِّمَت له رِشىً عديدة، لكنه لم يقبل أياً منها، لأنها تتعارض مع قيمه. وخلال هذا الوقت الطويل كان يتابع الجرائم، ومَن هم متورطون فيها. وقد عرفتُ منه أننا نعيش في مُجتمع لا يوجد فيه شيء غير المؤامرة، وفي عالم تتنامى فيه آيديولوجية المؤامرة وشريعة الغاب.»

«مُنذُ متى كان العقيد مشغولاً بأبحاثه هذه؟» سألها فالاندر.

«مضى على زواجنا ثماني سنوات، لكن العقيد كان قد بدأ بأبحاثه قبل ذلك بوقت طويل.»

«هل تعرفين إلى ماذا كان يريد التوصل في أبحاثه؟»

«في البداية كان يبحث لإثبات الحقيقة.» ردت بايبه.

«أية حقيقة؟» سالها فالاندر.

ردّت بايبه:

«لقد كان يُفكر في الأجيال القادمة، في زمن الحرية القادم وما سيكشفه عما جرى خلال مدة الاحتلال.»

«إذن كان مُعارضاً للنظام الشيوعي؟ فكيفَ تبوأ هذا المنصِب العالي في سلك الشرطة؟»

جاء جوابها سريعاً، كأنها تدفع عن زوجها تهمة:

«يبدو أنكَ لا تفهم الواقع حتى الآن؟ نعم زوجي كان شيوعياً! شيوعياً واعياً، كان يخاف على بلده من الخيانة، كان يُعاني من تفشي الفساد والرشوة واللامبالاة. كان يحلُم بمجتمع نظيف، لكن ذلك الحلم تحول إلى كِذبة.»

مكسه

«إذن هو كان يعيش حياة مزدوجة؟»
«إنكم لا تتخيلون ماذا يعني أن يتحول المرء سنة بعد أُخرى من شخصية إلى شخصية أخرى، فيتنازل عن قيمه ويُدافِع عن الآراء التي يكرَهها، أو يُدافِع عن نظام لا يُحبه. وهذا لم يسرِ على زوجي كارل، ولا عليّ فقط، بل انه يسري أيضاً على جميع الناس الواعين الموجودين في هذا البلد الذين تجرّأوا على التفكير بعالم أفضل.»
«ما هو الشيء الذي اكتشفه العقيد، الذي جعله مُتعجِباً؟» سألها فالاندر.
ردّت بايبه:
«لا أدري بالضبط، فلم يكُن لدينا الوقت للحديث بذلك، فأكثر مُحادثاتنا تحصَل تحت اللحاف، وبصوت مُنخفض لا يكاد يُسمع أحدنا الآخر.»
«وهل قال لك شيئاً عندما عاد؟»
«كان جائعاً. أراد أن يأكُل ويشرب النبيذ، وأعتقد بأنه كان يود الاسترخاء وكَان مملوءاً بالإعجاب والارتياح. وأظنه كان على وشك أن يُغني لولا ذلك الاتصال اللعين.»
صمتت بايبه لبعض الوقت، انتظرها فالاندر، وفكر في أنه لم يعرف حتى الآن فيما إذا كان العقيد قد دُفِنَ أم لا!
قال لها فالاندر ببطء:
«فكري قليلاً، وتذكري فيما إذا لمّحَ العقيد لشيء ما. فالناس الذين يحملون اكتشافات مهمة يقولون أحياناً أشياء لا يقصدونها.»
قالت بايبه بعد أن هزت برأسها:
«لقد فكرتُ في ذلك، وبتّ شبه متأكدة من أنه قد اكتشف هذا الشيء في السويد! وربما كان الحل لإحدَى المشاكل الحاسمة موجوداً في رأسه؟»

مكسه

«وهل ترك العقيد بعض الأوراق في البيت؟» سألها فالاندر.

«لقد بحثتُ عن ذلك،» ردت بايبه. «لكني أعرفه جيداً كان شديد الحذر ويُقدر أن الكلمات المكتوبة يمكن أن تكون خطيرة.»

«هل ترك شيئاً من هذا القبيل عند أحد أصدقائه؟ أوبتس مثلاً؟»

«كلا،» ردت بايبه. «لو فعل ذلك لعرفتُ به.»

«هل كان يثقُ بكِ؟» سألها فالاندر.

«كلانا يثقُ بالآخر.»

«وهل كان العقيد يثقُ بشخص آخر؟»

«بالطبع، كان العقيد يثق بأصدقائه، ولكن أي ثقة نمنحها لإنسان آخر ممكن أن تكون حِملاً إضافياً علينا. وأنا متأكِدة أن كارل لم يمنح ثقته إلا لقلة.»

قال فالاندر:

«يجب أن أعرف المزيد، وخصوصاً الشيء المهم الذي عرفتِه حول تلك المؤامرة.»

جلست بايبه صامتة للحظات قبل أن تشرع بالكلام. ولاحظَ فالاندر أنها تعرّقت من شدة التركيز، قبل أن تبدأ بالحديث:

«قبلَ أن نلتقي بعدة سنين، أي في نهاية عام ١٩٧٠، حصَلَ شيء جدي جعَلَ كارل يفتح عينيه على ما يحصَل في هذا البلد. حينها قال يجب على الإنسان فتح عينيه بشكل كامل. وكان يستخدم عبارات مُقارنة بين الأشياء. في البداية لم أفهم هذا الأسلوب فمثلاً كان يقول: «بعض الناس يتصرفون مثل الديوك في توعية الآخرين، والبعض الآخر يفعلون العكس في إسكات الآخرين وهؤلاء بالطبع أكثر عدداً» الآن فقط عرفتُ ماذا كان يقصد، هذا ما حصل قبل حوالي عشر سنين عندما بدأ مشواره الطويل والمُتعب في أبحاثه. وفي المدة الأخيرة تمكنَ من القبض على مجرم كان يسرق الإيقونات من كنائسنا وهي كما تعرف

مكسه

تُحَف فنية ثمينة، ويُهربها إلى الخارج لتُباع بأسعار عالية جداً. كانت الأدلة ضد هذا الرجل دامغة بحيث أن كارل كان متأكداً من أدانته، لكن ذلك لم يحصَل.»

«وما الذي حصَلَ؟» سألها فالاندر.

ردّت بابيه:

«لم يُبرّأ الرجُل، لكنه لم يقف أمام المحكمة، وأغلق التحقيق. لم يفهم كارل حينها شيئاً، فطالب أن تنعَقد المحكمة، لكن في النهاية أطلِقَ سراح المجرم من الحجز وأُغلِقَ المَحضَر. وبُلّغَ كارل من قِبَل أحَد رؤسائه بأن ينسى كل شيء. مَازلتُ حتى الآن أتذكر اسم ذلك المسؤول آمتمانس. اقتنع كارل حينها أن آمتمانس نفسه حام لذلك المُجرم، وربما مُشترِك معه في تقاسم الغنيمة. كانت تلك الحادثَة ضربة قوية لكارل.»

تذكرَ فالاندر فجأة تلك الليلة العاصفة التي جلسَ فيها العقيد الضعيف البُنية على الأريكة في شقته وقالَ:

«أنا رجُل مُتدين، ولا أُؤمن بأي إله، لكنني مع ذلك متدين...»

ثم قطعَ أفكاره وسألها: «ماذا حصَلَ بعد ذلك؟»

«وقتها لم أكُن التقيتُ بكارل بعد! لكني متأكدة أنه عاشَ حينها أزمة قوية، وربما فكرَ حينها في الهرب إلى إحدى الدَول الغربية، أو ربما فكر في ترك العمل في سلك الشرطة الذي لمّا التقيت به أقنعتُه بالاستمرار به.»

«وكيف حصل لقاؤكِ الأول مع العقيد؟» سألها فالاندر.

«وهل هذا مُهم؟» ردت عليه بعد أن نظرت إليه بتساؤل.

«ربما.. لا أدري، رد فالاندر. ولكن يجب أن تجيبي على أسئلتي إذا أردت أن أساعدك.

رَدّت بابيه مع ابتسامة حزينة:

مكتبة

«وكيف يُمكن للمرء أن يلتقي؟ على أي حال حصَل ذلك عن طريق أصدقائنا. سمعتُ حِينها عن ضابط الشرطة الذي كان مُختلفاً عن الآخرين. وكرجل لم يكُن كارل جميلاً جداً، غيرَ إني أحببته مَن أول ليلة التقيته فيها.»

«وماذا حصل بعد ذلك؟ هل تزوجتما؟ وهل استمر بعمله؟»

«كان كارل برتبة مُلازم، عندما التقيتُ به. لكنه ترقّى عدة رتب بسرعة غير متوقَعة. كان في كلٍ مرة يترفَع فيها يرجع إلى البيت، ويقول: مسؤولية إضافية تعني ثقلاً إضافياً وضِعَ على كتفي. لم ينقطع عن أبحاثه للكشف عن العلاقات التي تربط بين المنظمات الإجرامية بالنخب السياسية وأجهزة الشرطة في هذا البلد. أخبرني مرة بوجود وزارة غير مرئية في لاتفيا وظيفتها فقط تنظيم الاتصالات بين هذه المنظمات الإجرامية والسياسيين والشرطة المتورطين، وقبل حوالي ثلاث سنين سمعته لأول مرة يستخدِم كلمة «مؤامرة». ويجب عليك أن لا تنسى نقطة مهمة وهي أنه كَان يعتقد أنه يعمل على تطبيق سياسة موسكو الجديدة «البروتسترويكا» لتغيير الأوضاع في موسكو وبقية البلدان التي تأتمر بأمرها ومن ضمنها بلدنا لاتفيا، تلك التغييرات التي سرعان ما واجهناها بشكل مفتوح وصار النقاش علنياً وتحت عنوان «ماذا سنفعَل لبلدنا؟».»

«هل أن آمتمانس ما يزال اسم مسؤول العقيد ليبه؟» سألها فالاندر.

«توفيَ آمتمانس، وصار كل من مورنيرس وبتنس أقرب رؤسائه. كان العقيد يشكُ بكليهما، لأنه كان يمتلك إحساساً حاسماً بأن أحدهما متورِط، وربما قائد لهذه المؤامرة التي كان حينها العقيد يتعمقُ فيها. وقالَ إحدى المرات: «يوجد الآن نسر وحمامة في مقر الشرطة...».»

لكنه لم يعرف حينها أي منهما النسر ولا مَن هو الحمامة.

مكتبة

«وماذا قصَدَ بالنسر والحمامة؟» سألها فالاندر.

«النسر طير جارح، بينما الحمامة كما تعرف، طير أليف. فزوجي كارل عندما كان شاباً كان مولعاً بتربية الطيور، وكان يحلُم بأن يكون خبير طيور في المستقبل.»

«مع أن العقيد لم يُحَدد حينها مَن هو النسر ومَن هو الحمامة، غير أني أعتقِد بأنه توصل إلى أن العميد مورنيرس يُمثِل النسر.» قال فالاندر.

«هذا ما تأكدَ مؤخرا قبل حوالي عشرة أشهر.»

«وماذا حصَل؟» سألها فالاندر.

«قبل حوالي عشرة أشهر اكتشف كارل عملية تهريب مخدرات كبيرة جداً. وقال حينها بأن هذه خطة مجنونة سوفَ تقتلُنا مرتين.»

«ستقتُلنا مرتين؟ ماذا قصَدَ بذلك؟»

«لا أعرف.» ردّت بايبه. ونهضَت من مكانها بطريقة قلقة وبدت كأنها تخاف الاستمرار بالحديث قائلة: «سأدعوكَ لكوب شاي، فللأسف ليسَ لدينا قهوة...»

«لا يهمكِ أنا أُفضل الشاي.» رد فالاندر.

لما ذهبتَ بايبه إلى المطبخ، حاولَ فالاندر إيجاد الأسئلة المُهمة التي يتوجب طرحها، وشعَرَ بأنها كانت صريحة معه، على الرغَم من أنه حتى الآن لم يعرف ما هيَ الأشياء التي يُفكر فيها أوبتس أو بايبه، التي يمكن لفالاندر أن يُساعدَهما فيها. شعرَ بأنه غير واثق من قدرته على معاملة التوقعات المحتملَة. وفكر: «أنا لست أكثَرُ من رجل أعزَل أعمَل في شرطة إجرام إيستاد. أما أنتُم أيها السادة فتحتاجون لرجُل ذي خبرة عالية مثل ريدبري، لكن هذا الرجل مات، مثل العقيد ليبه».

عادت بايبه حاملة صينية فيها ترِمس شاي وعدة أكواب. خمّن فالاندر حينها وجودَ المزيد من الأشخاص في هذا المكان، فمن المستحيل

مكتبة

أن يغلي الماء ويتم إعداد الشاي بهذه السرعة! قال مع نفسه: «يا إلهي أنا مُحاط بالأشباح في كل مكان أتوجه إليه! لاتفيا بلد لا أفهمُ منها إلا القليل جداً مما يحصلُ حولي».

لاحظَ فالاندر أيضاً أن بايبه كانت مُتعَبة

«إلى أي وقت يُمكِننا الاستمرار في هذه المحادثة؟» سأل فالاندر.

ردت بايبه:

«ليس طويلاً، فبيتي الآن مُراقَب، وعليَ أن لا أكون خارجه أكثر من هذا الوقت. ولكن يُمكننا أن نواصل لقاءنا مساء غد.»

«للأسف أنا مَدعوٌّ غداً لوجبة عشاء في بيت بتنس»

«فَهمت،» ردت بايبه. «ولكن هل بالإمكان بعد غد.»

هز فالاندر رأسه، وارتشَفَ شايه الذي كان مُركزاً، واستمر في طرح أسئلته

«كان من الواجب عليكُم أن تفهموا ما قصده العقيد عندما قال بأن: المخدرات ستقتلنا مرتين... ومن الواجب على أوبتس أن يفكر في الشيء نفسه، أو بالأحرى كان يجب عليكم في تنظيمكم السري أن تكون قد فكرتُم فيما قاله العقيد!»

أجابت بايبه:

«في إحدى المرات أشار كارل إلى أن المرء يمكن أن يستخدِم أي شيء لغرض الابتزاز، وعندما سألته عن قصده، قال إن ذلكَ أحد الأشياء التي قالها أحد العميدين... ولا أدري لماذا تذكرتُ هذا الشيء الآن، ربما لأن كارل كان صموتاً وكتوماً جداً في تلك المدة.»

«هل قال كلمة «ابتزاز»؟» سألها فالاندر.

«نعم استخدَمَ تلك الكلمة.»

«ومَن الذي تعرَضَ للابتزاز؟»

«بلدنا، لاتفيا.» ردت بايبه.

مكسه

«وهل قال فعلاً بأن كُل البلد سوف يتعرض لعملية ابتزاز؟» سألها فالاندر.

«نعم، ولو كان لديَ أدنى تردد لما قُلتها.»

«وأيٍّ من هذين العميدين استخدَمَ كلمة ابتزاز؟»

«أعتقد بأن مورنيرس هو مَن قالها،» ردت بايبه.

«وماَ هي فكرة العقيد ليبه حولَ العميد بتنس؟» سأل فالاندر.

«لقد قال عنه ذات يوم بأنه ليس من بين هؤلاء السيئين.»

«وماذا قصَد بذلك؟»

«أنه يحترم القانون، ولا يطلب رشوة من أي شخص.»

«لكنه يتسلم الرشوة،» عقَبَ فالاندر.

«هذا ما يفعله الجميع،» أجابت بايبه.

«ولكن ليسَ كارل.»

«مُطلقاً، إنه مُختلف تماماً عن الجميع.»

لاحظَ فالاندر أن بايبه أصبحت قلِقة، فأدرك ضرورة تأجيل أسئلته الباقية، وتوجه إليها قائلاً:

«بايبه،» وهذه أول مرة ينطقُ فالاندر باسمها... «أُريدُك أن تفكري في كل الذي قلتِه لي هذه الليلة. فربما سأسأُلكِ مرة ثانية الأَسئلة نفسها عندما نلتقي بعدَ غد.»

«نعم سأفعلُ ذلك،» ردت بايبه. «أنا لا أفعلُ شيئاً سوى التفكير.»

للحظة ظن أنها على وشك أن تجهش بالبكاء، لكنها سيطرت على نفسها ثم نهضت من مكانها. أزاحت ستارة عن أحد الجدران فظهر باب قامت بفتحه. عندها دخلت امرأة شابة من المطبخ. ابتسمت له ابتسامة سريعة وبدأت برفع أكواب الشاي.

قدمتها بايبه:

مكسه

«هذه إنسي التي قمْتَ بزيارتها هذا المساء، وسيكون هذا تفسيرك إذا سؤلت. لقد التقيتَ بها في النادي الليلي الموجود في فندق لاتفيا، وأصبحت حينها عشيقتــــــكَ. وكل الذي عرفته عن مكان سكنها هو أنها تعيش في شقة تقع في الجهة الأخرى من الجسر. ولم تعرف طبعاً اسمها الكامل، لأنها كانت عشيقتكَ في ريغا فقط لعدة أيام. وظننتَ أنها بسيطة وتعمل موظفةً في أحد الأعمال الإدارية.»

استمع فالاندر باندهاش لبايبه ليبه وهي تتحدث بكلمات باللغة اللاتفية إلى الفتاة التي اسمها إنسي فوقفت الفتاة أمامه. وقالت له بايبه:

«انظُر لها الآن، وتذكر منظرها الحقيقي، فبعدَ غد ستأتي هي لتجلبُك للقائنا القادم. وما عليكَ إلا أن تذهب إلى النادي الليلي في الفندق بعد الساعة الثامنة وستجدُها هناك.»

فسألها فالاندر:

«وإذا صادَف أن قابلك أحد من السلطات وسألكِ من أين جئتِ؟ فماذا سيكون جوابكَ؟»

«سأقول إنني حضرتُ عرضاً موسيقياً، وبعدها زُرتُ أخي في بيته،» ردّت بايبه.

«وهل لديكِ أخ فعلاً؟»

«نعم إنه السائق الذي جلبنا إلى هنا هذا المساء.»

«هل تعرفين لماذا ألبَسوني غِماءً عندما ذهبتُ لمقابلة الرجل الذي اسمه أوبتس؟» سأل فالاندر.

«إنه تصرفَ بطريقة أحسن مني، أنا وضعتُ ثقتي بك في الحال.»

«وهل أنا أهل لذلك الآن؟» سألها فالاندر.

«نعم، قالتها بايبه بطريقة جدية. انا أثقُ بك.»

«وما الذي تظنون أن بإمكاني عمله؟»

«ستعرف ذلك بعد غد، لأن علينا الآن أن نُسرِع في مغادرة المكان.»

مكتبة

كانت السيارة تنتظرهم خارج البوابة. وأثناء العودة جلست بايبه صامتة. خمنَ فالاندر بأنها كانت تبكي. وعندما تركوه قرب الفندق مدت بايبه يدها وصافحته مُتمتمة بكلمات لاتفية. أسرعَ في النزول من السيارة، فاختفت من المكان حالاً. بالرغم كونه جائعاً إلا أنه توجه إلى غُرفته مباشرة. صب لنفسه كأساً من الويسكي، وتَمدد على سريره متغطياً بالبطانية، وراحَ يفكر ببايبه ليبه...

وعند الساعة الثانية ليلاً، خلعَ فالاندر ملابسه واندسَ في الفراش. أثناء نومه حلمَ بامرأة ممددة بجانبه. لم تكن العشيقة التي اسمها إنسي، بل كانت مخلوقة أخرى لم يتمكن من رؤية وجهها طوال الحلم.

في الساعة الثامنة تماماً أوصله الرقيب زيدس إلى مقر الشرطة، وفي الثامنة والنصف دخَل العميد مورنيرس إلى مكتب فالاندر وقال له:

«نعتقد أننا عثرنا على قاتل العقيد ليبه.»

نظر فالاندر إليه وهو غير مُصدّق.

«وهل هو الرجل نفسه الذي يُحقق معه بتنس منذ يومين؟»

أجاب مورنيرس:

«لم يكن هو، إنه رجل آخر، ذو خلفية إجرامية خطيرة، تعال معي لترى.»

سارا معاً إلى الطابق السفلي. فتح مورنيرس أحد الأبواب المؤدية لأحد المداخل التي كان في أحد جدرانها نافذة ذات زجاج عاكس. وأشارَ مورنيرس لفالاندر أن يتقدم ليرى. كانت جدران الغرفة جرداء، وفيها منضدة حولها كرسيان. جلسَ على أحدهما أوبتس، وكان أحد صدغيه مُغطى بلفاف طبي قذر. لاحظ فالاندر أن أوبتس يرتدي القميص نفسه الذي كان عليه في تلك الليلة عندما التقى به في ذلك المكان المجهول.

«مَن هذا الرجل؟» سأل فالاندر من دون أن يُبعد نظره عن أوبتس، كان متوجّساً من ظهور انفعاله من المشهد مُقدّراً أن مورنيرس يعلم

مكتبة

ذلك مُقدماً.

أجاب مورنيرس:

«إنه أحد الرجال الذين كانوا تحت أنظارُنا منذ زمن، أكاديمي فاشل وشاعر وصحفي هوايته جمع الفَراش. كثير الكلام، أمضى سنين طويلة في السجن بسبب الاختلاسِ، عرفنا مؤخراً تورطه بأعمال إجرامية مختلفة وعنيفة، لكننا لم نملكُ ضده أدلة كافية. أبلـــِغنـــا بصلته بـــ.... مقتل العقيد ليبه.»

«وهل لديكم إثباتات حول ذلك؟» سأله فالاندر.

«إنه لم يعترف بالطبع. لكننا نمتلك الدليل القاطع الذي سيجبُره على الاعتراف.»

«وما هو؟»

«سلاح الجريمة،» ردّ مورنيرس.

التفت فالاندر وتأملَ مورنيرس، الذي واصل الحديث:

«سنذهب إلى مكتبي لنتناقش بذلك، وسيحضر العميد بتنس معنا.»

سار فالاندر خلف العميد وصعدا السلالم، لاحظَ أن العميد كان يُدندن مع نفسه. بينما راحَ هو يفكرُ مع نفسه: «شخص ما قد خدعني، أجل أحد الأشخاص قد خدعني ولكني لا أعرف مَن هو بالضبط. نعم أنا لا أعرف مَن الذي خدعني ولا حتى لماذا؟!..».

مكسه

١٢

أُلقي القبض على أوبتس. وعُثِر في شقته أثناء تفتيشها من قبل الشرطة على هراوة خشبية قديمة مُلطخة ببقع دم وبقايا شعر بشري. و لم يستطع أوبتس أن يُبين للشرطة أين كان، أو بماذا كان مشغولاً في تلك الليلة التي اغتيلَ فيها العقيد ليبه. ادعى بأنه كان سكران، وكان في زيارة لأحد أصدقائه، لكنه لم يتذكر اسم ذلك الصديق! وقد أرسل مورنيرس مجموعة من رجال الشرطة قبل الظهر ليُحقّقوا مع بعض الأشخاص الذين يمكن أن يبرئوا أوبتس أو يقدموا ذريعة ضد اتهامه بمقتل العقيد، ولكن لم يتذكر أحد بأنه شاهدَ أوبَتس أو أن أوبتس زاره. وقد تعامل مورنيرس بقسوة مع هذا الحدَث، في حين تصرف بتنس بتروٍّ وترقّب.

حاول كورت فالاندر بشكل محموم فهم ما يجري حوله. وأول فكرة راودته وهو ينظُر إلى أوبتس من خلال النافذة الزجاجية الصغيرة المُظللة والمُطلة على غرفة التحقيق، هي أن أوبتس تعرض هو أيضاً لعملية خيانَة. لكنه بدأ بالتردد بعد ذلك، فكل شيء حوله كان ما يزال مُبهماً جداً. وظلت كلمات بايبه ليبه حول المجتمع اللاتفي:»إننا نعيش في مجتمع تعتبر فيه المؤامرة أقصى قاعدة مُشتركة...» تُدوي في رأسه طوال الوقت. حتى لو كانت شكوك العقيد ليبه صحيحة وفي محلها بأن مورنيرس كان ضابطاً مُرتشياً ويقف وراء مقتل العقيد، اعتقد فالاندر بأن الموضوع كله بدأ يتضمَن افتراضات غير واقعية. وهل إن العميد مورنيرس مستعِد فعلاً لإرسال أحد الأبرياء ليقف أمام المحكمة؟ وليتخلَص منه فقط؟

«إذا كان هذا الرجل مُذنِباً فعلاً، فماذا سيكون عقابه؟» سأل فالاندر بتنس.

«نحن من الطراز القديم، رد بتنس. وما زلنا نحتفظ بعقوبة الإعدام في بلدنا. أجاب بتنس. حتى الآن عملية قتل ضابط شرطة وبرتبة عالية، يُعَد أسوأ الجرائم وعليه أعتقد بأن العقوبة لهذا الفعل هي الرمي بالرصاص. وأنا شخصياً أعتبر هذا هو الحُكم المناسب. والآن بودي أن أعرف ماذا تعتبرَه أنت يا مُفتش فالاندر؟»

لم يكن لدى فالاندر أي جواب أبداً. فالتفكير في أنه موجود في بلد قوانينه تُعدم المُجرمين أخافه، وتجَمّد لعدة لحظات بلا حول ولا قوة. كما أنه انتبه إلى أن بتنس كان يُراقِب ردود أفعاله. وأدرك أيضاً أن العميدين أحياناً يَتصيدان في اتجاهاتٍ مختلفة بدون أن يُعلِم أحدهما الآخر. فالمعلومات المجهولة التي وصلَت إلى العميد مورنيرس، لَم يتم إشعار العميد بتنس بها. وتحت إحدى الحالاتِ التي كان فيها مورنيرس في أقصى هجماته النشطة وبالتحديد عندما أُلقي القبض على أوبتس في قبل الظهر، سحَبَ فالاندر العميد بتنس إلى مكتبه، وطلبَ من الرقيب زيدس أن يجلب لهما القهوة، في محاولة منه أن يفهم من بتنس ما الذي يحصل حوله، وللتأكد من الانطباع الذي أخذه عن العميدين في أول لقاء له معهما، إذ إنه افترضَ وجود تحرّيات خفيّة بين العميدين، بحيث أن أحدهما يتجسس على الآخر. والآن وتحت هذه الحالة من التشوش فكر فالاندر بأنه سوف لا يخسرُ شيئاً فيما لو واجه العميد بتنس بتساؤلاته، فبادر بالسؤال:

«هلَ هذا الرجل هو الشخص المطلوب فعلاً؟ وما هي المبررات التي دعت لإلقائكم القبض عليه؟ أما الهراوة الخشبية المُلطخة بالدم وبعض الشعَر، فلا يُمكن اعتبارها دليلاً قبل أن يتم فحص الدم! حتى بقايا الشَعَر فيمكن أن تكون لحيوان أليف، كأن يكون قطة مثلاً.»

«هز بتنس بكتفه ثم أجاب: سوف نرى، ولكن مورنيرس يظنُ أنه متأكِد مما يفعل. فهو من النوع الذي نادراً ما يخطئ. وهو في الحقيقة

مكسه

أكثر نشاطاً مني. ولكن يبدو عليك الشك فيما يحصل، فهل لي أن أسألك لماذا؟»

«أنا لا أشك، أجاب فالاندر. ففي أكثر من مرة حصَل معي شخصياً بأن ألقي القبض على أحد المُتهمين الذي يظهر في النهاية مُجرِماً خطيراً لا يتوقعه أحد. أنا فقط أتساءل، ولا شيء غير التساؤل.»

ظلا صامتين لمدة ليست بالقصيرة أثناء جلوسهما ليشربا القهوة، ثم بادر فالاندر بالكلام:

«إنه من دواعي السرور طبعاً أن يتم القبض على قاتل العقيد ليبه. ولكن انطباعي عن هذا الرجل – أوبتس هو أنه لا يُمكن أن يكون قائداً لمجموعة من المُجرمين الذين اختاروا تنفيذ عملية قتل أحد ضباط الشَرطة.»

«ربما كان مُدمناً على المخدرات،» أجاب بتنس بتمهل. «فالمدمنون كما تعرف يُمكن أن يقوموا بعمل أي شيء، وحسَب الأوامر التي تُعطى إليهم.»

«إن قتل العقيد بهراوة خشبية شيء لا يُصَدَق!» رد فالاندر. «ممكن أن تُنفذ عملية القتل بسكين أو بمسدس، ولكن ليس بهراوة. ثم كيف حُملت الجثة إلى الميناء؟»

«لا أدري، ولكن هذا ما سيعرفه مورنيرس.»

«وكيفَ سارت الأمور مع الرجل الأول الذي كُنتَ تُحقّق معه؟» سأله فالاندر.

«سارت الأمور بشكل جيد، رد بتنس. مع أنه حتى الآن لم يعطَ المزيد من الاعترافات، لكنه سيفعَل ذلك لاحقاً. أنا مُقتنع جداً بأنه متورط بعملية تهريب المخدرات هذه، وكذلك عملية قتل الرجلين اللذَين عُثِرَ عليهما في بلدكم. حالياً أنا أنتظره لبعض الوقت لكي يُفكر هو بنفسه.»

مكسه

ترك بتنس الغرفة وظل فالاندر جالساً على أحد الكراسي مُفكراً في التوصِل لخلاصه مما حصل. وتسألَ مع نفسه أيضاً فيما إذا كانت بايبه قد علمت بخبر القبض على صديقهم أوبتس بتُهمة قتل زوجِها. ثم عادَ بذاكرته لصالة الرماية في غابة الصنوبر، وفكر بأن أوبتس هذا ربما خافَ من أن فالاندر قد عرفَ شيئاً ما يجبره على أن يُضرَب بهراوته على جُمجُمته حتى لو كان ضابط شرطة سويدي. وأدرك فالاندر أن كل النظريات التي يمكن الاعتماد عليها في تحليل عملية اعتقال أوبتس تبدو غير مجدية، وكل الخطوط الممكن سلوكها في التفكير تبدو باردة. لذلك حاول أن يمسح كل ما فكر فيه، ليرى فيما إذا كان هناك شيء آخر يُمكن أن يبدأ به من جديد. وبعدَ حوالي ساعة من التفكير بصمت وحده في الغرفة توصَلَ إلى أن هناك شيئاً واحداً يمكن أن يفعله. وهو أن يعودَ إلى وطنه السويد. فهو قد جاء إلى ريغا لأن الشرطة اللاتفية طلبوا مساعدته. وهو بدوره لم يستطع أن يُساعدَهم بشيء. الآن وبعد أن تم القبض على أحد المجرمين، لم يبقَ داعٍ لبقائه. وهو الآخر خرجَ عن المألوف عندما وافقَ في إحدى الليالي أن يَخضَع للاستجواب مِن قِبَل شخص ظهر أخيراً بأنه هو أيضاً مطلوب للعدالة. كما أنه مثلَ دور السيد إيكرس بدون أن يعرف شيئاً عن تلك المسرحية التي اشترك فيها. إذن الشيء الوحيد المُفيد بالنسبة له هو العودة إلى وطنه بأسرع وقت ونسيان كل شيء.

مع ذلك قاومَ فكرة العودة...

فخلفَ كل هذه الإزعاجات والحيرة شيء آخر هو إصرار بايبه ليبه وتحدّيها، يوجد أيضاً عيون أوبتِس المتعَبة. وفكر بحسرة متمنياً لو أن المجتمع اللاتفي هذا شفاف لتمكن من رؤية الآخرين الذين لم يستطِع رؤيتهم من قبل.

وقرر أخيراً أن يعطي لنفسه أو لوجوده في ريغا عدة أيام إضافية.

مكسه

لقد شعَرَ بأنه في حاجة لأن يقوم ببعض الأشياء العملية، وبعد مدة قصيرة من الجلوس مُفكراً في غرفته، طلبَ من الرقيب زيدس أن يُحضر له كل القضايا التي حقَقَ فيها العقيد ليبه في الاثني عشر شهرا الأخيرة من حياته. فعندما رأى عدم وجود احتمال لتقدمه في القضية، قرر أن يبحث في ماضي العقيد ليبه، فربما سيعثَر في الأَرشيف على شيء يُساعده في المُضي قُدُماً.

أَجادَ الرقيب زيدس المهمة بجدارة إذ إنه عادَ بعد نصف ساعة حاملاً سلة تحتوي على مجموعة من الملفات المغطاة بالغُبار. وبعدَ ست ساعات من العمل المتواصِل شكا زيدس من الصداع، وفالاندر لم يتمتع بأي فرصة للاستراحة، حتى أنه نسيَ وجبة الغداء. راجعوا جميع الملفات الواحد تلوَ الآخر، والرقيب زيدس ترجَمَ، وشرَحَ، وأجابَ عن أسئلة فالاندَر كلها. والآن وصلوا لآخِر صفحة من الملف الأخير، حيثُ بدأت الكآبة تدبُ في فالاندر.

واستخلصَ أن العقيد ليبه استخدَمَ سنته الأخيرة للقبض على أحد المجرمين المتمرسين بالسطو والسرقة الذي أرهبَ إحدى ضواحي ريغا لمدة ليست بالقصيرة، وخلال هذه السنة أيضاً حل ثلاث حالات من تزوير الطوابع البريدية، وثلاث جرائم قتل حصَلَت بين عائلات كان فيها المجرم والضحية يعرف أحدهما الآخر. ولم يتمكن أن يكتشف شيئاً يمكِن أن يتعارض مع ما قالته بايبه ليبه عن صفات زوجها الفعلية، فهو فعلاً مجتهد، منطقي، وباحث أكاديمي. ولكن هذا كل ما استطاع أن يستخرجَه من الأرشيف. أَعادَ بعد ذلك جميع الملفات بصحبة زيدس إلى الأرشيف. وفكر في أنه مع ذلك يبقى الشيء اللافت للاهتمام هو ذلك الشيء الناقص، إذن يجب أن يكون العقيد ليبه قدَ أخفى مواده الحقيقية السرية في مكان ما. فليس من الممكن أن يحفظ هذه المواد في دماغه كي لا يتم الكشف عنها، كما أن هذا الشيء يتعارض مع مشروعه في

مكسه

أرشفة هذه الأحداث وتسجيلها للأجيال القادمة، هذا المشروع الذي يتطلب من العقيد نفسه أن يكتُب على الأقل وصيته ويحفظها في مكان ما. بحيث إذا تعرضَ لحادث ما كأن يُدهس بسيارة في أحد الشوارع، فيمكن لِمَن يخلفه أن يتوصَل إلى هذه الوصية ليعرف ماذا تركَ العقيد. إذن يجِب أن تكون هناك مواد مكتوبة وموجودة في مكان ما، كما يجب أن يكون هناك شخص ما يعرف مكانها. ولكن مَن يا تُرى هذا الشخص؟ هل هو بايبه ليبه؟ أم إنه أوبتس؟ هل يوجد هناك شخص آخر يثقُ به العقيد بالإضافة إلى زوجته؟ هذا بدوره مُستحيل حسب ما قالته بايبه ليبه «إن كل ثقة نمنحها لأحد تُعتبر حملاً ثقيلاً علينا...» ومؤكد أن هذه الكلمات هي كلمات زوجها أيضاً.

عاد الرقيب زيدس من الأرشيف فسأله فالاندر:

«هل للعقيد ليبه عائلة أخرى، أقصِد زوجة أُخرى غير السيدة بايبه؟»

هز زيدس برأسه مستغرباً:

«لا أدري، ولكن بايبه تعرف ذلك تماماً.»

شعَرَ فالاندر بأنه الآن ليس لديه مزاج لطرح مثل هذه الأسئلة حول بايبه ليبه، فهو ليس بحاجة لأن يبث المعلومات التي تجلب الانتباه والشك حوله شخصياً. إنه بحاجة لأن يتصيد هذه المعلومات في الأمكنة التي يُقرِرها هو شخصياً. لكنه طلبَ شيئاً آخر من الرقيب زيدس:

«أُريدُ الاطلاع على الملف الشخصي للعقيد ليبه.»

«هذا الشيء محظور علي، ولا يُمكنني أن أجلبه لك،» رد زيدس. «فأرشيف الملفات الشخصية مسموح فقط لبَعض الأشخاص أن يدخلوه.»

أشارَ له فالاندر على الهاتف وقال:

«اتصل بأي شخص يمتلكَ هذه الصلاحية، وقُل له بأن هذا المُفتش

مكسه

السويدي بودّه الاطلاع على الملف الشخصي للعقيد ليبه.»
وبعدَ لحظات من التوتر استطاع الرقيب زيدس أن يتصل بالعميد مورنيرس الذي أصدرَ أوامره لزيدس أن يُحضر ملف العقيد ليبه لفالاندر حالاً. وبعدَ حوالي أربع وعشرينَ دقيقة أُلقَي ذلك الملف على طاولة فالاندر. الصورة الشخصية للعقيد كانت قديمةَ جداً، واستغرَبَ فالاندر لأن العقيد لم يُغير من مظهره منذُ حوالي عشر سنين.
«الآن ترجمْ لو سمحت،» قال فالاندر لزيدس.
«أنا لا أملكُ الصلاحية للنظر إلى محتويات هذه الملفات الحمراء،» رد زيدس.
«إذا كان بإمكانك جلب هذا الملف فلا بد أن يكون بإمكانك ترجمة محتوياته لي.» قال فالاندر.
هز زيدس برأسه غير موافق وقال:
«ليس بإمكاني ذلك، فليس لدي ترخيص بذلك.»
«أنا أمنحُكَ هذه الرُخصة، وأُريدكَ أن تقول لي هل أن كان للعقيد زوجة أخرى غير بايبه، وبعد ذلك سآمرُكَ أن تنسى كل شيء.»
جلسَ زيدس من دون رغبة وراحَ يتصفحُ الملف. وشعَرَ فالاندر بأن زيدس يلمس أوراق الملف بتقزّز وكأنه يفحص جثة ميت.
وحسب هذا الملف فإن العقيد له أب يحملُ اسم الابن نفسه — كارل، وكان موظفاً متقاعداً من إحدى دوائر البريد وعنوانه في مدينة فينتسبيل. وتذكرَ فالاندر الكتاب المصور الذي قدمته له المرأة صاحبة الشفتين الحمراوين التي تبيعُ الصحف وبطاقات التهنئة في فندق لاتفيا، إذ إن المرأة تحدثت عن إحدى الرحلات إلى الساحل وحول مدينة فينتسبيل. وحسب معلومات الملف فإن الأب أرمَل وعمره ٧٤ عاماً. تصفحَ فالاندر الملف ثم طرحَه جانباً بعد أن تفحَصَ وجه العقيد. وفي الوقت نفسه دخَل مورنيرس فنهضَ زيدس في الحال بسرعة مُبتعداً قَدر

مكسه

الإمكان عن النظر إلى محتويات الملف الأحمر.

«هل عثرتُم على شيء ما؟» سأل مورنيرس. «شيء قد نكون نحنُ قد غفَلنا عنه؟»

«لا شيء،» رد فالاندر. «لقد كنتُ على وشَك أن أُعيد الملف إلى الأرشيف.»

في هذه الأثناء حملَ الرقيب زيدس الملف الأحمر وانطلَقَ نحو الأرشيف.

«كيفَ سارت الأمور مع ذلك المُتهم؟» سأله فالاندر.

«سوفَ نُطقطق عظامه قليلاً،» رد مورنيرس بشدة. «أنا مُتأكد أنه الشخص المطلوبَ على الرغم من اعتراض بتنس على ذلك.»

فكر فالاندر مع نفسه:»أنا أيضاً مُعترض على القبض على أوبتس، وربما سأتحدَث مع بتنس هذه الليلة عندما نلتقي، لكي أعرف مدى تقاربُنا في المعارضة لما يحصَل».

وفجأة قرر أن يبدأ حالاً في إنهاء حالة التشوش عنده. فمنذُ الآن لا يوجد سبب للاحتفاظ بأفكاره مع نفسه فقط.

وفكر بأنه: «في مملكة الكذب ربما يكون نصف الكاذب...ملكاً» إذن لماذا يقول المرء الحقيقة مثلَما هي؟ ما دام الناس يتعامُلون بالصَدق كيفما شاؤوا... وبادر بالسؤال:

«لقد قال لي العقيد ليبه أثناء إقامته في السويد شيئاً أذهلَني. وما قصَده لم يتضِح لي، فحينها شَربَ العقيد كأساً من الويسكي بجُرعة واحِدة قال حينها إنه قلِق لأن العديد من زملائه في العمل غير موثوق بهم.»

لم ينبس مورنيرس بكلمة وبدت عليه المفاجأة، غير أن فالاندر استمر بالكلام برغبة غامضة في الافتراء والكذب علي لسان شخص ميت:

«بالطبع كان العقيد سكرانَ، ولكَن إذا كُنتُ قد أدركت ما قال

بشكل صحيح، فإنه كان يشكُ في أن أحد مسؤوليه كان يؤازر أوساط الجريمة في هذا البلد.»

«إنه ادعاء مهم على الرغم من صدوره من شخص سكران،» قال مورنيرس بتفكر. «وإذا قال كلمة مسؤوليه فبالتأكيد كان قصَده هو أنا أو العميد بتنس.»

«إنه في الحقيقة لِم يذكر أي اسم،» رد فالاندر.

«وهل ذكر سبباً لهذه الشكوك؟»

«لقد تحدَثَ حينها عن تهريب المخدرات، وعن مسالك نقلها عبر دول أوروبا الشرقية. وأشار حينها إلى أن هذه النشاطات لا يُمكِن تنفيذها بدون غطاء من قِبَل شخص ذي منصِب رفيع في الدولة قادر على تأمين الحماية الكافية لها.»

«عظيم،» رد مورنيرس. «لقد كُنتُ دائماً أنظُر إلى العقيد ليبه بأنه شخصية نادرة جداً، وإنسان ذو ضمير حي.»

تابعَ فالاندر ردود فعل مورنيرس وفكر مع نفسه: «إنه لم يُبالِ... هل من المُمكن أن يكون هو الشخص الذي قصده العقيد ليبه؟».

«وماذا تظِنُ انت يا مفتش فالاندر في هذه الاستنتاجات؟» سأله مورنيرس.

«لا علاقة لي بما ذكرت. أنا فقط أردتُ أن أُشيرُ إليها.» رد فالاندر.

«هذا صحيح،» قال مورنيرس. «بودي أن تقولها أيضاً لزميلي بتنس.»

ذهبَ مورنيرس تاركاً الغرفة، وتبعه فالاندر بعد أن ارتدى معطفه، وفي الرواق قابل الرقيب زيدس وطلَب منه أن ينقله إلى الفندق. وعند عودته للفندق تمدد فالاندر حالاً على سريره ونام ساعة كاملة ملفوفاً بلحافه. وعندما استيقظ أجبرَ نفسه على أن يأخُذ حماماً بارداً ثم ارتدى

مكسه

البدلة الزرقاء القاتمة التي جلبها معه من السويد. في تمام الساعة السابعة نزَل إلى صالة بهو الفندق، حيث كان الرقيب زيدس واقفاً بجانب طاولة الاستعلامات ينتظره ليوصله إلى بيت العميد بتنس.

العميد بتنس كان يسكن في الريف، على بعد عدة أميال إلى الجنوب من ريغا. وخلال الرحلة انتبه فالاندر أنه دائماً يتنقَلُ في ريغا في الظلام. وفكر متعمقاً في الظلام، وبينما هو جالس في مقعد السيارة الخلفي شعَرَ بموجة من الحنين إلى الوطن. وأدرك بأن ذلك ربما يعود لمهمته غير المُحَددة، وراح ينظرُ في الظلام وفكرَ في أن عليه أن يتصل بأبيه في اليوم التالي. وتردد لأن الأب من المؤكد سوف يسأله عن موعِد عودته.

وحينها سوفَ يجيبه: حالاً يا والدي... سأعودُ حالاً.

انحرف الرقيب زيدس من الشارع الرئيسي ودخَلَ عبرَ بوابتين عاليتين، كان المدخَل للبيت مُبلطاً بالإسفلت، وفكر فالاندر في أن الطريق الخاص المؤدي إلى بيت العميد بتنس هو أفضَل الطرق الي سارَ عليها خلال إقامته في لاتفيا. توقَفَ زيدس أمام شرفة كانت مُضاءة بأضوية مخفية. وتولَدَ لدى فالاندر شعور مُفاجئ بأنه ربما دخلَ في بلد آخر. فعندما خرجَ من السيارة تذكرَ بأن كل شيء حوله قبل قليل كان مُظلماً ومُهدماً، لقد تركَ الظلمة، لقد ترك أيضاً لاتفيا خلفه.

وقف في استقباله العميد بتنس عند الشرفة.

إنه الآن قد خلعَ بدلته العسكرية وارتدى بدلة مدنية من النوع الراقي الذي ذكّره في الحال بملابس القتيلين اللذين عُثِرَ عليهما في طوافة الإنقاذ. إلى جانب بتنس وقفَت زوجته الشابة اسما التي كانت تصغره بكثير، خمّنَ فالاندر حالاً بأن سنها أقل من ثلاثين عاما. وعندما سلمَ عليها اكتشف أنها تتكلم الإنجليزية بطلاقة، ثم دخَلَ فالاندر إلى البيت الجميل وحضَرَه شعور بالسعادة، التي هي السعادة نفسها التي تملأ المرء

مكسه

عندما ينتهي من رحلة طويلة ومُضنية.

ناوله بتنس كأس ويسكي مصنوعة من الكرستال النقي، وتجولا معاً داخل البيت ليُطلعه عليه، ولم يُخفِ بتنس مدى تفاخره. وشاهد فالاندر أن الغُرف كانَت مؤثثة بأثاث منشؤه من دول غربية، وهذا ما أعطى انطباعاً مُبالَغاً فيه للبيت. وفكر فالاندر حينها: «بالتأكيد سأكون واحِداً من هؤلاء الناس فيما لو عِشتُ في بلد يعتقدُ فيه الناس بأن كل شيءٍ فيه دائماً في طريقه إلى النهايَة والانهيار. فهذا البيت من المؤكد قد كلَفَ كثيراً... فهل إن عميد الشرطة هنا يكسب بهذا المستوى شهرياً؟ أبداً، إنها الرشوة، نعم إنها الرشوة والفساد.. ولكن لأنتظر قليلاً، أنا لم أعرف حتى الآن العميد بتنس ولا زوجته، فربما هما من العائلات الثرية أصلاً في لاتفيا؟ على الرغم من أن العائلات المُسيطِرة أوالقياصِرة قد مر عليهم أكثر من خمسينَ عاماً بعد تغير المعايير الاقتصادية للبلد».

وماذا عَرِف فالاندر عن وضعية عائلة بتنس بعد الانتظار؟ لا شـــــيء! تناولوا عشاءهم في صالة طعام كانت مُضاءة بثريات مُعلَقة على ارتفاع عالٍ جداً. وأدرك فالاندر أن زوجة بتنس هي الأُخرى تعمل في سلكٍ الشرطة، ولكن ضمن اختصاص آخَر. وشعَرَ بإحساس غامض بأنها تعمل في المهمات السرية جداً، وبشكل سريع فكرَ بأنها ربما تعمل ضمن المخابرات الروسية (KGB) في لاتفيا. فقد سألته أسئلة كثيرة عن السويد، وبالرغم من أنه حاولَ أن يُسيطِر على نفسه إلا أن النبيذ قد جعله يتصرّف بتفاخُر.

وبعد العشاء اختفت اسما في المطبخ لتُحضر القهوة، بينما قدَم بتنس الكونياك لفالاندر في صالة الاستقبال ذاتَ الأرائك الجلدية الجميلة المُختلفة الأنواع. وفكر فالاندر بأنه سوفَ لن يتمكَن من شراء مثل هذه الأثاثَ في كل حياته، وهذا الشعور أجّج في داخله شعوراً عدائياً تجاه العائلة المُضيفة له. وبشكل غير واضِح شعرَ بأن مَن مسؤوليته الشخصية

الاعتراضِ على هذه الرِشى التي دُفِعــت لتدخُل في كلفة بيت العميد بتنس. فبادر بالحديث:

«إن لاتفيا هذه بلد يحمل تفاوتاً طبقياً وتناقُضات عديدة.»

«وهل هذا الشيء غير موجود في السويد؟» رد بتنس.

«إنه موجود بالطبع،» رد فالاندر. «ولكن ليس بهذه الدرجة الموجودة هنا، فقائد الشرطة السويدي العام لا يُمكِن أن يُفكر بالعيش في مثل هذا البيت.»

أفرغَ العميد بتنس يديه من الكأس، وراحَ يفرك بعضهما ببعض وكأنه يُحاولُ أن يجد لنفسه عُذرا، ثم رد على فالاندر:

«أنا وزوجتي أَغنياء أصلاً، ولكننا قد عشنا سنين طويلة في حالة تقشف وفَرنا فيها مبالِغ كثيرة، والآن كما تعرف أبلغ من العمر أكثر من خمسين عاما ومن حقي أن أتمتَع بالمبالغ التي وفرتُها كي أعيش سنواتي الأخيرة بارتياح.»

«هذا من حقك تماماً، وأنا لا أتحدَثُ عن ذلك، بلِ إني أتحدَثُ عن الاختلافات. فعندما قابلتُ العقيد ليبه كانت أول مرة أقابِل فيها إنساناً من دول البلطِيق، تخيلتُ أن العقيد جاءَ من بلد فيه فقر كثير.»

«وأنا لا أُنكر وجود الكثير من الناس الفقراء،» رد بتنس.

«بودي أن أَفهم كيف جُمعَت هذه الثروات؟» سأله فالاندر.

تأملَ العميد بتنس فالاندر بعين متفحصة وسأل:

«أظنُ أني لم أفهم سؤالَك.»

«بودي أن أفهم هل هذه الأموال جُمعَت من الرِشى أم من العمولات التي تُدفَع من المنظمات الإجرامية إلى المجموعات المتعاونة معها من السياسيين؟ وبالنسبة لي أفضَل جواب لهذا السؤال هو ما قاله العقيد لِيبه أثناء زيارته للسويد، حيث أنه قال شيئاً بعدَ أن شربَ الويسكي وسَكرَ مثلي الآن.»

مكسه

تأمله بتنس مبتسماً وقال:

«بالطبع... بالطَبع سأشرَح لكَ كل شيء ولكن في البداية بودي أن أعرف ما قاله العقيد ليبه.»

أعادَ عليه فالاندر الكلمات الكاذبة التي اختلقها على لسان العقيد قبلَ عدة ساعات عندما التقى بالعميدَ مورنيرس وواجهه بها. فرد عليه بتنس:

«بالطبع إن الاحتيالات حدثَت حتى ضمن أجهزة الشرطة. فرواتب الكثير من رجال الشرطة متدنية، وبالتالي فهم مُعرضون دائماً لإغراء قبول الرِشى. ولكن هنا يجب أن أقول إن العقيد ليبه لم ينجَرّ أبداً وراء ذلك، بل إن نزاهته وجده في العمل كانا بالطبع محَطّ إعجاب الجميع. لكنه ربما خلَطَ بين الواقَع المرّ والقيم!»

«هل تقصُد أنه كان مُبالغاً؟» سأله فالاندر.

«للأسف، لم يكُن كذلكَ،» رد بتنس.

«ولكن حسب ما جاء في إدعائه فإن أحد القادة في الشرطة كان على صِلة عميقة ومتورطاً في الأنشطة الإجرامية؟»

كانَ العميد بتنس يُدفئ كأس الكونياك بين يديه، ثم التفت إليه وقال:

«مع ذلك فإنه بالتأكيد قد قصَد نفسه أو العميد بتنس، فما قاله ليبه فاجأني وهو ادعاء مزعج وغير نافع أبداً.»

«ولكن مع ذلك يجب أن يكون له دوافع وإيضاحات؟» رد فالاندر.

«ربما ظن العقيد ليبه بأن مورنيرس وأنا لم نَشخ بسرعة، ولم نُحل إلى التقاعُد مبكراً، وفي النتيجة لا حاجة لترقيته إلى رتبة عميد، فقد يكون غير مُقتنع بسبب وقوفنا في طريق ترقيته.»

«لم يظهر على العقيد ليبه أي انطباع يُشير إلى كونه مُتحَسساً من

مكسه

أحَد، ولا حتى شكا من أحَد في حياته العملية.»

هزِ بتنس رأسه مُفكراً ثم قال:

«اسمِح لي بإجابتُك عن هذا السؤال بطريقة دقيقة،» رد بتنس. «ولكن أريدكَ أن تفهم بأني سأمنحُكَ ثقة عالية.»

«في العادة أنا أحفظ الأسرار،» قال فالاندر.

«قبلَ حوالي عشر سنين تعرضَ العميد مورنيرس لحالة مؤسفة من الضعف. فقد السيطرة على نفسه عندما قَدَم له أحد مُديري مصانع النسيج الذين أُلقيَ القبض عليهم بتهمة الاختلاس مالاً. وقد اعتبرت هذه المبالغ التي قُدمَت لمورنيرس تعويضاً له مقابل مشاركته في الجريمة وقيامه بسحب بعض المستندات الرسمية التي تُثبِت إدانة المتهم.»

«وماذا حصَلَ بعد ذلك؟» سأل فالاندر.

«أُغلقَت القضية بعدَ أن حُكِمَ على المتهم بعقوبة رمزية. وخلال سنة عاد المُتهَم ليصبحِ مُديراً في أكبر مصانع النجارة في البلد.»

«وماذا حصَل مع مورنيرس؟»

«لا شيء،» رد بتنس. «لكنه نَدِمَ كثيراً، فهذا الموقف أثّرَ فيه، كما أنه واجه بعدها ظروفاً صعبة انتهت بطلاقه من زوجته. كما أن القسم السياسي في البلد وصلتهم أنباء حول ذلك، وفي النتيجة قرروا مُسامَحة مورنيرس. فربما كان العقيد ليبه تخيلَ الأمر بطريقة خاطئة، فاعتبر حالة الضعف المؤقتة هذه حالةً دائمة، أو عيباً وظيفياً مُزمناً؟ هذا هو التفسير الوحيد الذي يُمكن تقديمه. والآن هل أصبُّ لكَ المَزيد من الكونياك؟»

قدّم فالاندر كأسه كي يملأه بتنس. فشيء ما قاله العميد بتنس وتردَدَ أيضاً على لسان مورنيرس من قبل، أخافه من دون أن يعرف السبب. في اللحظة نفسها دخَلَت اسما إلى الغرفة وبيدها صينية القهوة. وبدأت تتحدَث بشكل حماسي عن الأشياء الضرورية التي يجب يراها

فالاندر قبل أن يُغادر ريغا. وبينما كان فالاندر يستَمِع لما قالته، شعَرَ أن قلقاً يتطاحَنُ في داخله. قلقٌ من شيء قد قيل، أو شيء مر بشكل غير ملحوظ، بحيث لَم يجذَب انتباهه.

«هل شاهدت البوابة الســويدية يا مفتش فالاندر؟» قالت اسما. إنها أحد المشاهد التاريخية التي تعود إلى العصور التي كان فيها السويد من القوى الأوروبية المُخيفة.

«لَم أعرُف هذا من قبل،» رد فالاندر.

«السوِيد حتى الآن تعتبر قوة عُظمى،» قاطعها بتنس. «بلد صغير لكنه يمتلكُ ثروة كبيرة.»

اجتاحَ فالاندر شعور بالخوف والقلق، ثم اعتَذَر منهما طالباً الذهاب إلى دورة المياه...

وعندما أغلقَ خلفه الباب وجلسَ على مقعَد المرحاض، فكر بريدبري، الذي علمه منذُ عدة سنين مَضَت بأن على المرء أن لا يتأخر في إجراء مَسح لذاكرته ليبحَث عن احتمال وجود مسار بالقُرب منه. فأحياناً يكون المَسار أو الحل قريباً جداً، أو يتدلى بين العينين، لكن المرء لا يراه.

ثم راجَعَ ما حدَثَ مرة أُخرى

فهناكَ شيء قد قاله العميد مورنيرس، وقبلِ عدة دقائق فقط أنكرَه بتنس بكلمات مُماثلة. فمورنيرس وصَفَ العقيد ليبه بأنه واعِ، في حين قالَ بتنس عنه بأنه شخصية غير واعية. ولكن يُمكن للمرءِ أن يفهم إذا فكر فيما قاله بتنس عن مورنيرس. ولكن عندما جلسَ فالاندر على مقعَد المرحاض أدرك أن السبب الرئيسي للقلق الذي يعيشه الآن هو أنه كان يتوقعَ العكس... ليس هو فقط وإنما بايبه ليبه أيضاً، ثم تذكرَ ما قالته بايبه: «إننا نشُك بمورنيرس... إننا نشك بأن العقيد قد تعرضَ للخيانة...».

مكسه

وفكر فالاندر: «ربما كُنتُ مُخطئاً، وربما أنا رأيتُ في مورنيرس ما كان ينبغي أن أبحَثُ عنه في بتنس؟ وكان عليّ أيضاً أن أفهم كلام مورنيرس بالعكس، فعندما وصَفَ مورنيرس العقيد ليبه بالشخصية الواعية، كان عليّ أن أفهم بانه قَصَدَ العكس. وحاولَ أن يستدعي صوت العميد مورنيرس من ذاكرته، وتولّدَ لديه شعور بأن العميد ربما قصَدَ أشياء اخرى. أما العقيد ليبه فهو إنسان واعٍ، وضابط شرطة واعٍ أيضاً، وهو الأصَح بين هؤلاء».

راجع فالاندر أفكاره وأدركَ أن هذه الشكوك والتعليمات التي يحصَل عليها لا تأتيه بصورة مباشرة وإنما عن طريق شخص ثانٍ أو ثالث وربما رابع

ثم سحَبَ السيفون أخيراً وعاد إلى كوب قهوته وكأس الكونياك.

قدَمَت له اسما صورتين بإطارين جميلين وقالت:

«إنهما ابنتانا إلدا وليا.»

«أنا عندي أيضاً بنت واسمها ليندا،» رد فالاندر.

سارت بقية الليلة بدون تخطيط وراحوا يتبادلون الأحاديث ويعودون لها ثانية. وتمنى فالاندر أن يقطع تلك الأمسية، لو كانت آداب المجاملة تسمح بذلك. لكن على أي حال انتهت الأمسية وفي تمام الساعة الواحدة ليلاً، توقَفَ الرقيب زيدس بسيارته أمام فندق لاتفيا وأنزله هناكَ. وفي طريق العودة غَفا فالاندر في المقعَد الخلفي، وأدرك أنه قد شربَ هذه الليلة أكثرُ مما ينبغي، وغداً سوف يستيقظ مُتعَباً وسكران.

وقبل أن ينام تمدد لمدة طويلة فاتِحاً عينيه في الظلام.

وحينها طاف أمامه وجها العميدين في صورة واحدة. وبشكل مُفاجئ أدرك أنه سوف لن يرضى على نفسه ولا يتشرف بعودته إلى وطنه قبل أن يتوصَل لحل كل إشكالات عملية قتل العقيد ليبه. وفكر: «إن هناك علاقة أكيدة بين مقتل العقيد ليبه، والرجلين الميتين اللذين عُثِر

مكسه

عليهما في السويد وبين المقبوض عليه أوبتس. كل الأشياء هنا متداخلة مع بعضها. إنا فقط الذي لا أرى... وخلفَ رأسي في الجهة الأخرى من هذه الجدران السميكة، يجلسُ شخص غير مرئي ويُسجل عدد أنفاسي... وربما هم أيضاً الآن يعلمون ويدونون بأني هذه الليلة أستلقي في فراشي أرقـــاً هذه اللحظة؟ وربما هم بطريقة ما يعتقدون أيضاً أن بإمكانهم متابعة أفكاري!».

في هذه الأثناء قرقعَت سيارة نقل في الشارع...

وقبل أن يخلد للنوم بلحظات فكر فالاندر في أنه حتى الآن مضى عليه ستة أيام في ريغا.

مكتبة

١٣

عندما استيقظ فالاندر صباح اليوم التالي، كان متعباً وسكران مثلما تخوفَ ليلة أمس. صدغاه يدويان، ولما نظف أسنانه كاد يتقيأ. فتناول حبتي صداع أذابهما في قدح ماء وشربهما. وتذكرَ أنه كلما سهر وشرب الكحول، تعذّب في اليوم التالي!

تأملَ وجهه في المرآة وأدركَ أنه يشبه والده. حالة السكر في الصباح لم تُعطه الثمالة فقط وإنما أعطته إحساساً بانه خسرَ شيئاً ما. كما لاحظَ علامات الشيخوخة على وجهه الشاحب والمتورم.

في الساعة السابعة والنصف نزلَ إلَى صالة الطعام وتناول صحناً من البيض المقلي وشربَ القهوة. آلامه خفّت تقريباً عقب القهوة. ما يزال أمامه نصف ساعة على مجيء الرقيب زيدس ليأخذه إلى مقر الشرطة، حاولَ أن يستغل هذا الوقت في مراجعة كل الحقائق المتعلقة بملابسات هذه القضية التي ابتدأت بوصول قتيلين بملابس راقية إلى السواحل السويدية عند منطقة موسبي. حاول فالاندر أن يهضم ما اكتشفه ليلة أمس متوصلاً إلى احتمالية قيام العميدين مورنيرس وبتنس بخيانة العقيد ليبه. لكن أفكاره قادته فقط إلى مخارِج تفكيره الأولية. فكل شيء ما يزال مُتميعاً وغيرِ واضح... مُتيقناً من أن البحث في بلد مثل لاتفيا يخضَع لظروف أخرى مختلفة عن السويد. ففي مثل هذه البلدان التي عانت الدكتاتورية تكون عملية جمع الحقائق وترتيب الإثباتات عبارة عن سلسلة معقدة ولا نهائية. فربما في لاتيفا يتوجَب على المرء إذا قرر البحث في قضية ما أو التحقيق فيها، أن يُفكر مُقدَماً وقبلَ كل شيء: هل هي جريمة عادية؟ أم أنها من النوع الذي ارتكب في ظروف لا تنمُّ

مكتبة

عن كونها جريمة لأنها ذات طابع شمولي يعم بتأثيره المجتمع بالكامل؟

نهضَ في النهاية من كرسيه وذهبَ إلى زيدس الذي كان ينتظره في السيارة، وفكر في أنه يتوجَب عليه وبطاقة أعلى من السابق أن يبحث عند كلا العميدين. فهو لا يعرف حتى الآن فيما إذا كانا سيفتحان أو سيغلقَان الأبواب السرية لهذه المهمة أمامه.

أثناء سير السيارة عِبرَ شوارع ريغا، بين البنايات المهترئة والساحات الكئيبة، عاوده الشعور بنوع خاص من الكآبة لَم يألَفه من قبل. تخيلِ أن الناس الذين يراهم الآن في مواقف الحافلات، والمسرعين على الأرصِفة، يشعرون بشعور الغربة نفسها التي يشعر بها. أرجفته الفكرة. مرة أخرى عاوده شعور الحنين إلى الوطن. ولكن في النهاية لَم يُحدد إلى مَن كان ذلك الاشتياق!

رنَ جرس الهاتف في اللحظة نفسها التي دخلَ فيها غرفته. طلبَ من زيدس أن يُحضِر له قهوة قبل أن يرفع السماعة، كان مورنيرس على الخط:

«صباح الخير، هل قضيت ليلة سعيدة؟»

شعَر فالاندر أن مزاج مورنيرس رائق، وردّ:

«إنها كانت كذلك، أما الطعام فكَان أطيب وأشهى طعام تناولته منذ مجيئي لريغا، وقد شربت المزيد من الكحول لدرجة خفتُ على نفسي من حصول مكروه.»

«في بلدنا، نحن لا نعرف الاعتدال في تناول الطعام والشراب. سمعت أن قدرات السويد كبلد بُنيت على القدرة على العيش باعتدال.»

حاول فالاندر ان يجد الجواب الملائِم، غير أن مورنيرس استمر بالكلام:

«توجَد أمامي الآن وثيقة مهمة، أودُ عرضها عليك. وأعتقدِ أنها ستجعلكِ تنسى ما شربته من كونياك بتنس اللذيذ!»

مكسه

«حولَ ماذا تدور هذه الوثيقة؟» سأله فالاندر.
«إنها اعترافات أوبتس. كتبها بيده ووقعَ عليها.»
لَم يعَقب فالاندر بشيء، فاستمر مورنيرس:
«هل بإمكانك أن تأتي إلى مكتبي؟»
ذهبَ فالاندر إلى غرفة مورنيرس، وفي الرواق شاهدَ الرقيب زيدس يدخل قبله غرفة مورنيرس حاملاً كوب قهوة. وجد مورنيرس جالساً بجانب طاولة الكتابة، ومبتسماً تلك الابتسامة المتعَبة. جلسَ فالاندر. سلّمَه مورنيرس ملفاً سحبه من أحد أدراج مكتبه وقال:
«في هذا الملف توجد اعترافات المجرم أوبتس، ولأن فرحتي كبيرة فسوف انتهز هذه الفرصة وأترجِم لك ما جاء في اعترافاته. تبدو مُتفاجئاً يا مُفتش فالاندر؟»
«هذا صحيح، قال فالاندر. هل حققتَ معه أنت؟»

«كلا، بل إن العميد بتنس أمرَ الملازم عمانوئيل بإجراء التحقيق، وقد نجحَ هذا الملازم في انتزاع اعترافاته، إنه ملازم ممتاز وأنا شخصياً أتوقع له مستقبلاً باهراً.»
تساءل فالاندر مع نفسه: «ما هذه النبرة التي أسمعُها في صوت مورنيرس؟ هل هي نبرة سُخرية، أم أنها نبرة التعب وخيبة الأمل التي تُرافق أصوات رجال الشرطة بشكل دائم؟».
أنصت لمورنيرس الذي استطرد:
«أوبتس هذا الشاعر البائس، وجامع الفراش السكير، قرر أخيراً أن يُقدم اعترافاته. وقد اعترَفَ بأنه واثنين آخرين اسماهما بيريكلاوس و لابين ارتكبوا جريمة قتل العقيد ليبه ليلة الثالث والعشرين من شهر شباط. وهؤلاء السادة الثلاثة نفذوا عملية القتل حسب عقد مُبرَم ضمن شروط ما يشبه المقاولة، ادعى أوبتس بأنه لا يعرف الجهة المُستفيدة من

هذه المقاولة، وهذا بدوره صحيح، فالمقاولة مرت على عدة جهات أو وسطاء عدة إلى أن وصلت إلى الجهة الأخيرة المُنفذة. ولأن العملية تضمنت قتل ضابط شرطة برتبة عالية، فقد كانت كلفة العقد غالية جداً. وقد تقاسم أوبتس وشريغاه الثمن الذي كان يُعادِل راتب موظف في لاتفيا لمدة مائة عام. وتم توقيع العقد قبل شهرين، أي قبل حتى ذهاب العقيد لييه إلى السويد. كما أن مُنظم العقد لم يحدد وقتا لتنفيذ العملية، والغرض من ذلك هو أن يتمتع أوبتس وشريغاه بالوقت الكافي لنجاح العملية. ولكن بشكل مُفاجئ تغيرَ شيء ما في الخطة، فقبل مقتل العقيد بثلاثة أيام، أي عندما كان العقيد في السويد، اتصل أحد الوسطاء بأوبتس وأخبره أن العقيد لييه يجب أن يُصَفى بأسرع فرصة عند وصوله إلى ريغا. ولم تُعطَ حينها أي أسباب لهذا الاستعجال، لكن تم رفع سعر العملية، وسُلّمت لأوبتس سيارة. وحينها صار أوبتس يزور أحد دور السينما في المدينة مرتين صباحاً ومساء من كل يوم. ووقتها كُنا نعثَر يومياً على كتابات على أعمدة بناية دار السينما تقول إن العقيد لييه سوف تتم تصفيته. وفي صباح اليوم نفسه الذي عادَ فيه العقيد إلى الوطن وجدنا الكتابة نفسها في ذلك المكان. اتصل أوبتس حالاً ببيريكلاوس و لابين لتنفيذ العملية، لأن الشخص الوسيط أخبرهم أيضاً بموعد عودة العقيد. وهكذا كانت الخطة مرسومة لاستدراج العقيد لييه من منزله إلى مكان الجريمة، وقد عانى المجرمون الثلاثة في تنفيذ العملية خوفاً من كون العقيد مُسلحاً، فهو معروف بحذره الشديد، كما أنه جسور ومُبادر إذا ما استفزه شيء. فكانت الخطة مبنية على مباغتته وضربه على الرأس مباشرة بمجرد خروجه من بوابة البناية التي يسكن فيها. وبالطبع كانت المخاطرة كبيرة في عدم نجاح العملية.»

توقف مورنيرس قليلاً ونظر إلى فالاندر قبل أن يسأل:

«هل كنت سريعاً في سرد القصة؟»

مكتبة

«كلا، أعتقد أني فهمتُ كل كلامك،» رد فالاندر.
واصل مورنيرس:
«لقد زار هؤلاء الثلاثة إحدى الحانات قبل تنفيذ العملية، وشربوا كمية من الكحول القوي، ثم قادوا سيارهم إلى الشارع الذي يسكن فيه العقيد. كانوا يعلمون بأن العقيد سيخرج من بيته، وعندما أطفئ المصباح الذي كان يُنير البناية. اختفوا في إحدى الزوايا المظلمة، ثم انقَضوا في الحال على العقيد وضربوه على رأسه، وقد ادعى أوبتس بأن لابين هو الذي ضرب العقيد في رقبته، لكننا عندما حققنا مع لابين وبيركلاوس حصلنا على إفادات متضاربة. النتيجة أن العقيد سقطَ أرضاً في الشارع، وتقدمت نحوَه السيارة، حيث أُلقي مغمى عليه في المقعد الخلفي للسيارة التي اتجهت نحو الميناء، في الطريق صحا العقيد من إغماءته، لكن هذه المرة عاد لابين وضربه مرة ثانية على الرأس. وبذلك قصَدَ أوبتس أن العقيد مات قبل أن يلامس جسده أرض رصيف الميناء، حيث رموا الجثة هناك ليوهموا بأن العقيد تعرضَ لحادث دهس بسيارة. لكن الحُجة لم تنطلِ على أحد لأنه ليس من المعقول أن يُترك جسد ضابط شرطة برتبة كَبيرة هكذا في الشارع.»
ثم ترك مورنيرس التقرير يسقط على طاولة الكتابة، إشارةً منه إلى نهاية القصة.

في هذه الأثناء فكر فالاندر بتلك الليلة التي ذهب فيها إلى صالة الرماية، في غابة الصنوبر، وتذكر أسئلة أوبتس، والمصباح النفطي، الشخص الذي وقَفَ يستمع عند فتحة الباب، ورنَت في رأسه كلمات أوبتس حين قال: «نحن نشك بأن العقيد ليبه قد تعرضَ لعمَلية خيانة، ونشك أيضاً بأن مورنيرس هو الذي يقفُ وراء ذلك...».
«كيف تمكنَ هؤلاء أن يعرفوا بأن العقيد سيعود في هذا اليوم؟» سأله فالاندر.

مكتبة

«ربما يكونون قد رشوا أحد الموظفين العاملين في خطوط – آيرو الجوية. حيث تُنظَم قوائم بأسماء المسافرين في كل رحلة. نحن بدورنا سنعمل بجد بُغية التوصِل إلى ذلك.»

«لماذا اغتيلَ العقيدَ ليبه؟» سأل فالاندر.

«السمعة في بلداننا تنتشر بسرعة، ربما لأن العقيد كان شديداً ويقف في طريق الأوساط الإجرامية المتنفذة، التي قررت أزاحته عن طريقها.»

فكر فالاندر ملياً قبل أن يطرَح سؤاله التالي، فهو قد استمع لشرح مورنيرس عن اعترافات أوبتس، وأدرك بأن هناك شيئاً ما خطأ، وخطأ شنيع. كما أنه عرفَ بأن كل شيء كان كذباً، لدرجة لا يستطيع التمييز بين الحالات التي يمكن اعتبارها صادقة، فالذي حصل في النهاية هو أن الكذب كان متراكماً بعضه فوق بعض، مما أدى إلى عدم ظهور حقيقة ما حصل فعلاً للعيان، كما أدرك أنه لا يمتلك أي سؤال، فلا يوجد بالأحرى أي سؤال، وإنما الموجود هو فقط ادعاءات غامضة وغير مُفيدة. لذلك قال لمورنيرس بشكل مفاجئ:

«طبعاً أنتم تعرفون بأن كل ما جاءَ في اعترافات أوبتس ليس صادقاً.»

نظر إليه مورنيرس بطريقة متفحصة، ثم قال:

«لماذا لم يكن صادقاً؟»

«لسبب بسيط جداً هو أن أوبتس بالطبع ليس مَن قَتلَ العقيد ليبه، فهذه الاعترافات كلها مُرتّبة. ويجب أن يكون قد أجبِرَ على تقديمها. أو أنه قدَمَها بسبب إصابته باضطراب عقلي، أو اضطراب حسي.»

«ولِمَ لا يكون شخص مثل المُجرم أوبتس هو الذي قتل العقيد؟» ردّ مورنيرس باستغراب.

رد فالاندر:

«لأني سبقَ أن التقيت به، وتحدثتُ معه عن قُرب، لذا أنا متأكِد بأنه

مكسه

إذا كان هناك شخص واحِد في هذا البلد مُستثنى من تهمة قتل العقيد ليبه، فإنه أوبتس.»

تفاجأ مورنيرس...

وتأكد فالاندر بأن مورنيرس ليس هو الشخص الذي كان مُختفياً يستمِع إلى كلامهما خلف فتحة الباب، لكنه عاد ليتساءل مع نفسه مرة أخرى:

«من يا تُرى كان ذلك الشخص؟ هل هي بايبه ليبه؟ أم إنه كان العميد بتنس؟».

وقرر فالاندر بسرعة أن يعود مرة أُخرى ليستخدم أسلوب المواجهة بقول أنصاف الحقائق. لقد وجَدَ نفسه مُجبراً على ذلك! مُجبَراً من أجل حماية بايبه ليبه. فبادر بالقول:

«لقد رأيت أوبتس لأول مرة عندما زارني في الفندق، وقدَمَ نفسه كأحد الأصدقاء المُقربين للعقيد ليبه. ورأيته في المرة الثانية عندما طلب مني العميد بتنس أن أنظر إليه عِبرَ النافذة الزجاجية المُطلة على غرفة التحقيق.»

عدَلَ مورنيرس جلسته على كُرسيه. واستطاع فالاندر أن يرى مدى انتباه العميد مورنيرس إليه وتركيزه على ما قاله.

«غريب، غريب جداً.» قال مورنيرس باستغراب.

«زارني أوبتس ليقول لي عن أن العميد ليبه قد قُتِلَ من قِبل أحد زملائه في العمل.»

«هل قصَدَ بذلك زملاءه من الشرطة اللاتفية؟» سأل مورنيرس.

«نعم، وقد طلبَ أوبتس مني المساعدة في معرفة مَن هو هذا الشخص. ولم أعرف حينها كيفَ عرفَ صديق العقيد ليبه بوصول ضابط شرطة سويدي إلى ريغا.»

«وماذا قالَ بعد؟» سأل مورنيرس.

مكسه

«قال بأن العقيد نفسه كان يشعر بأنه مُهدّد، وأن أصدقاء العقيد ليبه تنقُصَهم الإثباتات حول ملابسات قضية اغتيال العقيد.»

«ومَن كان يُهدِد العقيد؟» سأل مورنيرس.

«شخص ما ضمن أجهزة الشرطة، وربما أيضاً من الـ (KGB)

«هل ذكر لك سبباً لذلك التهديد؟»

«للسبب نفسه الذي جاءَ في أقوال أوبتس الأخيرة، بأن الأوساط الإجرامية المتنفذة في ريغا قررت تصفيته. وبالطبع يُمكن للمرء أن يربط بين هذا السياق.»

«ماذا تقصد بعبارة هذا السياق؟» سأل مورنيرس.

«أن أوبتسَ كان مُحِقاً مرتين، بالرغم من أنه لا بد أن يكون كاذباً في إحداهما.»

نهضَ مورنيرس من كرسيه وربما فكر مع نفسه: «إن رجل الشرطة السويدي هذا قد نزلَ في العُمق كثيراً، متجاوزاً حدوده... إنه قلب كل شيء رأساً على عقب...» ثم قال:

«يجب أن يعرف بتنس هذا الكلام.»

«بالتأكيد، يجب أن يعرف.» قال فالاندر.

بعدها سحبَ مورنيرس جهاز الهاتف واتصل ببتِنس الذي حضَرَ إلى الغرفة بعد عشر دقائق. لم يلحَق فالاندر أن يشكر بتنس على مأدبة العشاء لليلة أمس، لأَن مورنيرس دخلَ بسرعة مع العميد بتنس وتحدثَ معه باللغة اللاتفية ليُخبره بما قاله فالاندر قبل قليل. وفكر فالاندر أن يُركز على ملامح بتنس ليستشفَّ منها فيما إذا كان هو الشخص الذي تَخَفى في الظلمة خلف الباب أثناء مقابلته أوبتس في صالة الرماية في تلك الليلة. لكن وجه بتنس بدا كالأخرس، ولم يرَ فالاندر عليه أي علامة مما كان يتوقع. حاول فالاندر مرة أخرى أن يوضِح لهما أن اعترافات أوبتس هذه كانت مُزورة، لكن كل شيء اختلط بطريقة غير

مكتبة

واضحة دعاه للتوقف عما أراد.

سأله بتنس

«لماذا لم تقُل بأنك قابلتُ المجرم أوبتس؟»

لم يكن لدى فالاندر أي جواب. وأدركَ أنه يرى في عيون العميد بتنس الثقة نفسها التي كانت موجودة فيهما سابقاً. وفي الوقت نفسه تساءل مع نفسه عن الصدفة التي قدمَ فيها بتنس اعترافاته أثناء دعوته لدعوة عشاء في بيت العميد. وهل إن هناك المزيد من الفرص في هذا المجتمع الدكتاتوري؟ كما أن بتنس نفسه قد قال بأنه يفضِل أن يكون وحيداً عندما يُحقق مع أي متهم؟

اختفى غضَب بتنس بالسرعة نفسها التي ابتدأ بها. ثم ابتسم ووضَع يده على عاتق فالاندر وقال:

«إن جامع الفَراش، والشاعر أوبتس هذا رجل ماكر. ولاحِظ أن ما قام به من عمل مُتقَن من خلال زيارته لضابط شرطة سويديٍ حضر لريغا في مهمة خاصة، يُعتبر تجاوزاً صريحاً. ولكن من الطبيعي أن أقوال أوبتس صحيحة تماماً. وبذلك فإن لُغز عملية اغتيال العقيد ليبه قد تم حله، وبالتالي لا نجد بعد الآن أي سبب لتعريضكم إلى مزيد من المتاعب ببقائكم هنا في ريغا. وسوف أُرتب لكم رحلة العودة إلى وطنكم حالاً يا مفتش فالاندر. وبدورِنا سنُرسِل شُكرنا من خلال القنوات الدبلوماسية إلى وزارة خارجيتكم.»

وعند هذه اللحظة فقط أدركَ فالاندر بأن إقامته في لاتفيا قد انتهت، كما أدركَ حجم المؤامرة العملاقة التي حيكت خيوطها في ريغا. إنه لم يُدرك المضمون فقط وإنما أدرك الموازنة بين الصدق والكذب، بين المسارات الوهمية والمسارات الفعلية. كما أنه اكتشف أن العَقيد ليبه مثلما عرفَه من قَبل، كان ضابط شرطة مُحترَماً وماهراً في عمله. والآن حتى لو أنه سيُجبَر على العودة لبلده، قرر بأنه يجب أن يلتقي مرة أخرى

مكسه

بابيه ليبه. وشعر أنه مدين لها، بالدرجة نفسها التي اعتبر فيها قضية البحث في ملابسات مقتل زوجها العقيد ليبه دَيناً عليه.

«سأعودُ بالطبع إلى بلدي، لكنني سأبقى إلى بعدِ غد إن أمكَن ذلك، لأن الوقت سار سريعاً دون أن أتمتع بمعالم مدينتكم الجميلة طيلة مدة إقامتي فيها. لا تنسَ ما قالته زوجتك ليلة أمس.»

كان فالاندر يتحدَث إلى كلا العميدين لكنه عندما قال الجملة الأخيرة التفت إلى العميد بتنس، ثم استمر بالكلام:

«وأعتقد أن الرقيب زيدس مُرافِق جيد، أتمنى أن أستفيد من خدماته على الأقلَ فيما تبقى من هذا النهار، ولو أن مُهمتي انتهت!»

قال مورنيرس:

«طبعاً، ربما سنحتفِل بهذه المناسبة التاريخية باقترابنا من الوصول إلى الحل في قضية اغتيال العقيد ليبه. وأظنُ أنه ليس من الذوق تركك تُسافر دون أن نقوم بالواجِب، على الأقل نتبادل بعض الأنخاب.»

فكر فالاندر بموعده هذا المساء، حيث أن إنسي ستنتظره في النادي الليلي في الفندق كعشيقة له. لتصطحِبَه معها ويخرُجا معاً من هناك، ليلتقي بعدها مع بابيه ليبه. لذلك رد على مورنيرس

«لنترُك جانباً قضية الاحتفال بهذه الدراما، فإننا جميعاً رجال شرطة وليس مُمثلين سينمائيين لنحتفِل بنجاح عرضنا السينمائي. كما أنني اخترتُ هذه الليلة الخروج مع إحدى النساء الشابات في جولة مُصاحَبة في المدينة.»

ابتسم مورنيرس وسحَبَ من أدراج طاولته قنينة فودكا وقال:

«سوف لن نعترض طريقك هذه الليلة، دعونا نتبادلُ أنخابنا الآن.»

فكر فالاندر: «يبدو أن الجماعة مستعجلون على إخراجي من البلد...».

تبادلوا الأنخاب...

مكتبة

رفعَ فالاندر كأسه مقابل العميدين وتساءلَ في داخله: «مَن يا تُرى منكما وقَعَّ على الأمر الذي نُفذَت على إثره عملية اغتيال العقيد ليبه؟ فهذا هو الشيء الوحيد الذي تردد في حسمِه؟ نعم هذا هو الشيء الوحيد الذي لم يتمكن من معرفته؟».

لكنه الآن عرفَ بأن العقيد ليبه كان على حق، لان الأبحاث التي تعمقَ فيها أوصلَته إلى إحدى الحقائق التي أوصلته إلى القبر، وبالتالي فإن هذه الحقائق تستحق التدوين. وإن بايبه ليبه يجب أن تعرف مكان هذه المستندات التي تركها العقيد، إذا أرادَت أن تعرُف القاتل الحقيقي لزوجها، فيما إذا كان مورنيرس أم بتنس. كما أنها يجب أن تعطي تفسيراً لإعطاء أوبتس هذه الاعترافات، التي تنص على كونه قاتل العقيد مع أنه ليس كذلك. هل أعطى هذه الاعترافات في آخر لحظات ارتباكه؟ ربما هو أيضاً حاول أن يعرف أي من العميدين كان القاتل الحقيقي، وعندما اقترب من الحقيقة عُلقَت القضية برقَبته.

وفكر فالاندر مُمتَعضاً: «أنا الآن أشرَب مع اسوأ مُجرمين صادفت... لكني لا أعرف أيٍّ منهما كان المُنَفِّذ الحقيقي».

«سوفَ نُرافقُكَ إلى المطار عندما يحين موعد سفرك، قال بتنس بعد أن انتهت حفلةَ الأنخاب.»

غادر فالاندر مقر الشرطة، وفكر في أنه الآن مثل عصفور أُطلق سراحه. سارَ عدة خطوات خلف الرقيب زيدس، ثم صعَدَ السيارة التي قادها زيدس عبرَ المدينة وكان بمزاج رائق يُشير إلى المناطق ويُسميها مع وصف مُفصَل. بينما كان فالاندر يهزُ برأسه ويُتمتم بكلمات مثل نعم.. هذا جميل.. أو لطيف... لكن عقله كان في مكان آخر تماماً، فقد فكرَ في أوبتس، وأي خيار اختار. وماذا همسَ بتنس أو مورنيرس في أذنه؟ وأي نقاش دار بينَ العميدينِ بعدَ أن واجههما فالاندر بالحقيقة؟ وأيُ فقرة أو فعالية من قاموس الكره اختارا له؟ لم يجرؤ فالاندر على

مكسه

الاستمرار في تخيّلاته.

ربما للمسكين أوبتس زوجة، أي بايبة أخرى.. ربما لديه أطفال؟

وهل مسموح للمرء في ريغا أو في كل لاتفيا أن يرعى أطفالاً؟ أم أن هؤلاء الأطفال مُهدّدون بمستقبل مظلم؟ ففي البلدان التي تسودَها الدكتاتوريات يفقد المرء مستقبلَه قبل أن يبدأ.

ما هي الخيارات التي كانت أمام أوبتس؟

هل ضحى هذا الرجل بنفسه لينقُذ حياة عائلته؟

حاول فالاندر أن يتذكر الأشياء القليلة التي يعرفُها عن تلك المحاكم المُزيفة التي حصلت في المدن الشيوعية عبر التاريخ. وفي مكان ما في ذاكرته مرَ أوبتس، ففكر فالاندر في أنه لا يستوعِب أبداً كيف يُجبَر الإنسان على الاعتراف على نفسه بارتكاب جريمَة لا يتمكَن أبداً من القيام بها. أو كيف يُجبَر الإنسان على الاعتراف بأنه وبدم بارد قتل أقرَب وأفضَل أصدقائه، مُقابل فقط أن تستمر حياته للأيام القادمة. ثم خاطَبَ نفسه بصمت: «لا يُمكنني معرفة ما حصلَ فعلاً، فكل ما في رأسي مجرد افتراضات، أنا لا أعرف... لا أفهم... لكن بايبه ليبه يجب أن تكون على معرفة بأن العقيد ليبه قد تركَ وصية تتضمن كل أبحاثه وتحقيقاته، وصية حية وليست ميتة، وصية لا تعيش بسلام، مُختفية في مكان ما يحرسُها شخص آخَر، وليس فقط روح العقيد. إذن أنا الآن أبحَث عن هذا الحارس، الذي يجب أن تعرفه بايبه. ففي مكان ما يوجد سر مهم، يجب أن لا يضيع. هذا السر لا بد أن يكون قد أُخفيَ بطريقة ماهرة بحيث فقط بايبه يُمكنها أن تعثَر عليه، لأنه- أي العقيد كان يثقُ بها، لأنها كانت ملاك العقيد في عالم فيه كل الملائكة مُزيفون».

توقَفَ الرقيب زيدس عند إحدى بوابات سور ريغا القديم، فنزَل فالاندر من السيارة لأنه فهمَ أن هذه هي البوابة السويدية التي تحدثت عنها زوجة بتنس. ارتجَفَ من البرد وشعَرَ بأن الجو أصبحَ بارداً من

مكسه

جديد. تأمَلَ مُستغرباً الشقوق القديمة في السور المبني من الطوب، وحاول أن يقترَب من الكتابات والإشارات التي كانت محفورة على الحجَر، لكنه في النهاية ترك كل شيء وعادَ للسيارة.

«هل سنستمر؟» سأله زيدس.

«نعم، أُريد أن أرى كل الأشياء التي تستحقُ أن يراها المرء.»

فضّل فالاندر البقاء في عزلته على مقعَد السَيارة الخلفي، بالرغم من البرد، وبالرغم من عيون الرقيب زيدس المحدقة من خلال مرآة السيارة بحجة مراقبة المرور، على العودة إلى غرفته في الفندق، وتمنى أن لا يحصل شيء هذا المساء يمنع لقاءه مع بايبه ليبِه. وللحظة قصيرة فكر في الذهاب والبحَث عنها في الجامعة، لكنه لم يكن يعرف المادة التي تُدَرّسُها بايبه، كما أنه فكر باحتمال وجود أكثر من جامعة هنا. كما أن هناك شيئاً آخر بدأ يتنامى بشكل غريزي في ذهنه. فهذه اللقاءت القصيرة مع بايبه ليبه صارت تترك في داخله مرارة. وبدأ فالاندر يتساءل هل أنها صارت تعني شيئاً آخر غير الحديث عن حالة الموت المفاجئة التي طُلبَ منه المساعدة في التحقيق بها؟ نعم إنه شعور قوي أخَذَ يسحَبه بعيداً وَبشكل سريع إلى مكان ما لَم يتعود عليه! وهكذا بدأ يقلق، وصارَ يسمعُ في أعماقه صوت أبيه المُدوّي بغضَب لأنَه خسَرَ ولَدَه، ليس بسبب عمله في سلك الشرطة، وإنما لأنه وقعَ في غرام أرملة ضابط شرطة لاتفي.

وهل هذا ما حصَلَ فعلاً؟ بأنه.. فالاندر عَشَقِ بايبه ليبه؟

في هذه الأثناء وبمحض الصدفة، أشار زيدس بيده إلى خطوط من البنايات الطويلة وذات واجهات مبنية من الطوب، وقال:

«هذه البنايات هي قسم من بنايات جامعة ريغا!»

في تلك اللحظة شعَر فالاندر أن زيدس ينظر إليه بحسد، وكأنه قرأ أفكاره عندما كان ينظُر إليه عبر مرآة السيارة أثناء تفكيره ببايبه ليبه. نظر فالاندر عبر زجاج السيارة الذي كان مُغطى بالضباب إلى البنايات

مكتبة

الكئيبة، وفكر في أن بايبه ليبه الآن موجودة في مكان ما في إحدى هذه البنايات التي تشبه السجون، وفكر أيضاً في أن الناس جميعاً في هذا البلد سُجَناء، ما عدا العقيد ليبه وأوبتس الذي هو الآن حُر بالرغَم من كونه مسجوناً فعلياً ولا يدري إلى متى سيستمر معه الحال بهذه الصورة. شعر فالاندرَ بالتعب من التجول بالسيارة مع الرقيب زيدس، لذلك طلبَ أن يُعيده إلى الفندق، و لم يدرِ لماذا طلبَ منه أن يمرَ عليه مرة ثانية في الساعة الثانية بعد الظهر.

لدى دخوله الصالة وبجوار استعلامات الفندق لاحظ أحد الرجال منِ ذوي البدلات الرصاصية ممن كانوا يراقبونه طوالَ المدة الماضية، فأدركَ أن العميدين ما يزالان يُتابعان تحركاته. دخلَ صالة الطعام وبطريقة متحدية اختارَ طاولة غير تلَك التي اعتاد أن يجلس عندها، ولاحظَ أن عامل الخدمة في الصالة قد تضايقَ من ذلك. وفكر مع نفسه بغضَب: «بإمكاني أن أتمَرَد على كل قيم وتعليمات والسلطات الحكومية التي تتدخَل حتى في حجز الطاولات». جلسَ متثاقُلاً وطلبَ كأس بيرة ونبيذاً، وشعرَ بأن دمه بدأ يتدفَق بقوة في وجهه كما أن غضبه ازداد، وعندما فرغَ كأسه أشارَ إلى عامل الخدمة ليملأه. قضى حوالي ساعتين في صالة الطعام، ومع تزايد مفعول المُسَكر راحَ يترنح في وعيه للأمام والخلف، وفي حالة من عدم القُدرة العاطَفية تخَيَل أن بايبه ليبه سوف تذهب معه إلى السويد أثناء عودته. وعندما خرجَ من صالة الطعام حَيّــا أحد الرجال من ذوي البدلات الرصاصية الذي كان جالساً على إحدى الأرائك في بهو الفندق. صعَدَ إلى غرفته وتمدد على السرير ونامَ في الحال. و لَم يستيقظ إلا على طرق ظنه أول الأمر على أحد الأبواب لكنه لما صحا جيداً كان على باب غرفته فسأل:

«من الطارق؟»

«زيدس.»

انتظر قليلاً وغسلَ وجهه بالماء البارد، وطلبَ من زيدس أن يأخُذه خارج المدينة، عند إحدى الغابات ليقوم بنزُهة، ويُحضِر نفسه لمقابلة العشيقة التي ستأخُذه لمقابلة بايبه ليبه.

في الغابة ارتجَفَ من البرد، وشعر بالأرض صلبة تحت قدميه، وأنه لا يمكن أن يتحمل المزيد. في هذه الأثناء فكر مع نفسه: «إننا نعيش في عصر يطاردُ فيه الفئران القطط، ليس هذا فحسب بل حتى إننا صرنا لا نعرف مَن هو الفأر ولا مَن هو القط. هذا بالضبط هو العصر الذي أعيشُ فيه، وهنا تكمن المعاناة. إذ كيف للمرء أن يعمل رجل شرطة إذا كانت القوانين لا تُحترَم؟ حتى السويد التي كُنتُ أعتقَد بأني أفهمُه كبلد واعتبره مُستثنى من هذه القاعدة، إلا أني شخصياً قبل سنة قُدتُ سيارتي وأنا في حالة من السُكر الشديد، و لم يحصَل لي شيء لأن زملائي في العمل أمسكوا بالمخالفة وحالوا دون تعريضي للمساءلة. وهذه هي إحدى الحالات التي يتصافح فيها المجرمون مع مَن يُطاردهم».

عاد فالاندر من جولته في الغابة إلى زيدس الذي كان ينتظره في السيارة السوداء، مقرراً الاستمرار ببحثه عن عمل كرجل أمن في معمل الإطارات المطاطية في تريللبوري. فالآنَ وصَل إلى النقطة التي حددها في السابق مع نفسه، فهو الآن غير متردد ولا نادِم على شيء إذا ما توقفَ عن العمل في سلك الشرطة.

ودَعَ زيدس عند باب الفندق وقصد الاستعلامات لتسلم مفتاح غرفته فوجد رسالة من العميد بتنس، فتحها، فعرفَ أن أول محطة في رحلة عودته ستكون مدينة هلسنفورس وموعد طائرته في الساعة التاسعة والنصف من صباح بعد غد. ذهبَ إلى غرفته وأخذ حماماً فاتراً واندس في سريره، فما يزال أمامه قرابة ثلاث ساعات على موعده مع عشيقته. عاد ثانية يفكر من جديد بكل ما حصَل. حاولَ أن يرى العقيد ليبه في خياله ويتابعَه، وظنَ أنه الآن يحملُ القدَر نفسه من الكره الذي

مكسه

كان العقيد ليبه يشعر به، هذا الكُره الذي وضعه في حالة من الإحباط دفعته لأن يجمع الإثباتات التي تُدين حالات الفساد، كما دفعه للنظر بعمق في قلب الفساد الأسود، الذي يحتضن بتنس، أو مورنيرس أو ربما كِليهما مُجتمعين للتفاوض مع المجرمينَ، في عملية يصعُب تنفيذها عَلى المافيا، إنهما يُديران سلسلة من الإجرام المدعوم حكومياً. لقد شاهدَ العقيد الكثير، واطلعَ على مختلف التفاصيل، ولذلك تمت تصفيته. الذي بقي منه فقط وصيته مدفونةً في مكان ما، ومعها كل التحقيقات والإثباتات.

نهضَ فالاندر بشكل مفاجئ من السرير، فقد فطن أنه غفَلَ عن شيء مهم وجدي حول هذه الوصية. فالحسابات التي توصَل إليها بشأنها لا يُمكن إبعاد بتنس ومورنيرس عنها، فهما بالتأكيد يُفكران في الاتجاه نفسه، وبالتالي هما حريصان أيضاً بشدة للعثور على السبيل الذي يوصلهما إليها.

ثم عاوده الخوف مرة أخرى...

وفكر في أن أمر تصفية ضابط شرطة سويدي في هذا البلد يُعَدُّ من أسهل الأمور، فيُمكن اعتباره حادثة مرورية، يُكتَب فيها تحقيق لا يتعدى كونه مجرد تلاعُب بالكلمات، ثم يُرفَق التحقيق بجنازة من الصفيح المغلون مصحوبة بعبارة أسَف تُرسَل جميعاً إلى السويد.

ربما هم الآن يشكّون بأن فالاندر يعرف الكثير، أو أن قرارهم السريع بأن يعود فالاندر لبلده كان إشارة إلى أنهم أصبحوا متأكدين بأنه لا يعرفُ شيئاً.

إنني هنا وحيد، ولا يوجد أي شيء يُمكن أن أثقُ به، بايبه ليبه هي الأخرى وحيدة لكنها أفضلُ مني لأنها قررت بمَن تثق، أما أنا فلا يُمكنني أن أُجازف بأي خطوة، أنا وحيد تماماً وسط عيون وآذان متيقظة تماماً تتابع كلَ تحركاتي، وهي لا تتردد أبداً عن دفعي إلى الطريق منفسه الذي

مكسه

انتهى إليه العقيد ليبه.

ربما كان يجب اعتبار أن المزيد من اللقاءات مع بايبه يُعد شيئاً فيه الكثير من المجازفة!

نهضَ فالاندر من سريره ووقفَ بجانب النافذة وراحَ ينظُر إلى سقوف البيوت. نزلَ الظلام، وقاربت الساعة على السابعة، وحينها عرف أن عليه الآن أن يُقرر. فتحدَث مع َنفسه: «أنا قليل الجسارة، أو على الأقل رجل شرطة أتجَنَب الموت. صحيح أني جازفتُ في حالات كثيرة، لكن عملي كان دائماً يقتصر على التحقيق في السرقات غير المصحوبة بقتل، وكذلك التحقيق في حالات الغش الهادئة في السويد».

ثم فكر ببايبه ليبه، بخوفها وتحدّيها، وشعر بأنه سوف لا يتشرف بموقفه فيما لو رجعَ لبلده دون أن يُقدم لها أي مُساعدة. وبعد الساعة الثامنة ارتدي بدلته ونزل إلى بهو الفندق. شاهدَ هناك رجلاً جديداً من ذوي البدلات الرصاصية يقرأ جريدة، ولم يهتم فالاندر له وواصَل سيره باتجاه النادي الليلي المُظلم الذي كان مُكتظاً بالناسِ على الرغم أن الوقت كان مُبكراً. تلمسَ طريقه وسط الطاولات مُركّزاً في وجوه النساء الجالسات اللَواتي كانت نظراتهن توحي بانتظار دعوة منه. عثرَ على طاولة فارغة. وفكر في أن عليه اليوم أن لا يشرب، يجب أن يكون رأسه صاحياً تماماً، ولكن عندما جاءت عاملة الخدمة إلى طاولته طلب لنفسه كأس ويسكي. كان الصوت في النادي يأتي من سماعات مُثبتة في السقف المطلي بالأحمر. حاول أن يتبين وجوه الناس في هذا الجو المليء بالدخان، لكن كل الصور كانت عبارة عن ظلال والأصوات مخلوطة بالموسيقي الصاخبة.

ظهرت له إنسي بشكل مفاجئ لم يتوقعه، بحيث أنه لم يعرف مِن أينَ جاءت! فقد كانت حَذِرة جداً. لم يرَ فيها هذه المرة أي شيء من تلك المرأة الخجولة التي شاهَدها قبل عدة أيام، فهي اليوم تضعُ مكياجا

قوياً، وترتدي تنورة قصيرة. أدرك فالاندر بأنه غير جاهز للخوض في مناورة من هذا النوع. مد يده ليُصافحُها، لكنها بدل أن تمد يدها له انحنت عليه وقبَلته هامسة إليه:

«سوفَ لا نذهب الآن، اطلُب لي شيئاً. حاول أن تضحَك.. وبقوة، تصرَف وكأنكَ سعيدٌ برؤيتي.»

شربَت إنسي الويسكي، ودخَنَت بعصبية. حاولَ فالاندر أن يلعَب دور رجل في متوسط العمر ماهر في جذب انتباه النساء. وكان يستغل مُدد سكوت أو انخفاض الصوت المنبعث من السماعات غير المرئية ليحدثها عن رحلته مع زيدس، كما أنه لَاحظ أن إنسي اختارت كُرسياً يمنحُها القدرة على رؤية الباب الرئيسي للنادي الليلي. جفَلَت إنسي بمُجرد أن أخبرها فالاندر بأنه سيعود إلى بلده بعدَ غد. وتساءل مع نفسه ما هو عمق علاقة إنسي بالقضية إذا كانت هي من أصدقاء بايبه الحميمين. هؤلاء الأصدقاء الذين يحلمون بحفظ مستقبل بلدهم من الضياع.

فكر: «حتى هذه المرأة يجب أن لا أثقَ بها، فهي يُمكن أن تعيش حياة مزدوجة تحت تأثير الفقر والإجبار، والشعور بالإحباط...».

«ادفع الحساب، فسوفَ نذهب في الحال، قالت إنسي له بشكل مفاجئ.»

في اللحظة نفسها شاهد فالاندر كيفَ اشتعلَت الأضواء في المنصة وبدأت الفرقة الموسيقية بالعزف. دفع الحساب. وما إن ابتعد النادل حتى همست إنسي في إذنه وكأنها عشيقة:

«إلى جانب دورة المياه باب هو الآن مُغلق. ولكن أحد الأشخاص سيفتحه لك بمجرد أن تطرُق عليه، فستصبح في الجهة الخلفية من الفندق، حيث سترى هناك سيارة موسكوفج بيضاء وصفحتها اليُمني فوق العجلة مصبوغة باللون الأصفر. السيارة مفتوحة، لذلك ادخُل

فيها مباشرة واجلس في المقعد الخلفي، سوف ألحقُ بكَ إلى هناك حالاً. أما الآن فابتسم... اهمس في أذني وقَبلني قبل أن تنهض من مكانك لتذهب.»

فعلَ فالاندر بالضبط ما قالت ونهضَ من مكانه. ووجد بالفعل باباً حديدياً خارج دورة المياه، انفتحَ حالما طرقه. كان عدد الناس الداخلين والخارجين من دورة المياه كثيراً، لكن لم ينتبه أحد إلى اختفائه السريع عبرَ ذلك الباب. وفكر مع نفسه في تلك اللحظة: «أنا موجود في بلد فِيه المخارج والمداخِل السرية كثيرة، كل شيء يحصل بالخفاء، لا يوجد شيء مفتوح».

المَرأب الذي دخلَ فيه كان مُزدحماً ويفوح برائحة الزيت والبترين ومُضاء بشكل سيئ. وشاهدَ فالاندر سيارة نقل تنقصُها عجلة، ومجموعة من الدراجات الهوائية. كانت الموسكوفيج البيضاء متوقفة أيضاً، أما الرجل الذي فتحَ باب المرأب له فقد اختفى في الحال. تقدم فالاندر نحو السيارة وتلمسَ مقبَض الباب فوجده مفتوحاً، سحب الباب وجلسَ في المقعد الخلفي ينتظَر. أقبلت إنسي مُسرعة. أدارت محرك السيارة. بوابة المرأب فُتحَت للأعلى بمجرد تحرك السيارة، عبرت البوابة، وانحرفَت نحو اليسار، لتدخل في الشوارع العريضة المحيطة بفندق لاتفيا التي تجعله بارزاً في وسط المدينة. لاحظ فالاندر كيف كانت إنسي تقود بحذر وعيناها لم تُفارقا المرآة الخلفية للحظة، وكيف كانت تؤدي استدارتها وفق خريطة مرسومة في رأسِها. تعرف فالاندر تفاصيلها الأولى، ثم فقد السيطرة عليها في النهاية. بعد حوالي عشرين دقيقة من السير المتواصل مع تبديل الشوارع بين الحين والآخر أيقنت عدم وجود مَن يُتابعهمَا، طلبت من فالاندر أن يشعل لها سيجارة. عبرت جسراً حديدياً طويلاً ثم دخلت في شوارع قذرة في منطقة صناعية، ثم بعدها في منطقة مكتظة بالعمارات السكنية، وفي النهاية توقفت السيارة وأطفئ محركها. قالت إنسي:

مكسه

«عجّل فالوقت يمضي بسرعة.»

كانت بايبه ليبه بانتظارهما. تبادلت عدة كلمات باللغة اللاتفية مع إنسي. تساءل فالاندر مع نفسه فيما إذا كانت بايبه قد عَلمَت بأنه سيُغادر ريغا بعد غد، لكنه لم يُلاحظ عليها أي رد فعل عدا أنها ساعدته في نزع السترة، ووضعتها على أقرب كرسي. بقيت إنسي في الخارج. جلسا وحدهما بصمت في تلك الغرفة ذات الستائر السميكة، ولم يعرف فالاندر كيف يبدأ الكلام، أو بالأحرى ماذا سيقول. لذلك فعل مثلما قال له ريدبري: «قُل الحقيقة مثلما هي، فالألم الذي ستسببه ليس أسوأ من الحقيقة ذاتها، عليك أن تقول الأمور مثلما هي...».

وبالفعل عندما قال إن أوبتس اعترفَ بأنه قاتل زوجها، أُصيبت بألم مُفاجئ لدرجة غاصَت في جلستها منكمشة. لكنها همست بعد قليل:

«هذا غير صحيح.»

«لقد شاهدتُ اعترافاته وترجموها لي،» قال فالاندر وأضاف:

«اعترفَ أيضاً على شخصين آخرين!»

«غير صحيح!» ردت بايبه. وانفجرت ببكاء عارم وكأن سداً من الحزن انهار أخيراً.

ظهرت إنسي من الظلمة المؤدية إلى المطبخ، وأشارت إلى فالاندر أن يفعل شيئاً. فهم فالاندر أن عليه أن يقترب من بايبه التي كانت تهتز من البكاء ويحضنها. فكر بأن بايبه ربما تبكي لارتكاب أوبتس لهذه الخيانة التي لا يمكن استيعابها، أو لأنها تدرك أنه أجبر على الإدلاء باعتراف على جرم لم يرتكبه هو. ظلت تبكي بشدة وتلتصق أكثر وأكثر به، فشعر بارتباك وتشنج جسمه، فالحدود المسموح بها قد عبرِها، لكنه بدأ يشعر فعلاً بحُبه لبايبه، مُدركاً في الوقت نفسه أن هذا الحُب الذي يشعر به الآن مصدره إنسان آخر بحاجة إليه، وتساءل مع نفسه فيما إذا كان قد مر بهذه الحالة في حياته من قبل.

مكتبة

جاءت إنسي حاملة كوبين من الشاي، وراحت تمسحُ على رأس بابيه التي توقفت عن البكاء. تحدثَ فالاندر عما حصَل، وأخبرها أنه سوف يُغادر إلى السويد، ثم سردَ لها كل التفاصيل والاستنتاجات التي توصَلَ إليها، والسر الذي يجب أن يكون موجوداً في مكان ما، فهزت بابيه رأسها:

«نعم، يجب أن يكون كارل قد أخفى شيئاً. يجب أن تكون هناك وصية ضمَنَها كل أفكاره.»

«وهل تعرفين شيئاً عن ذلك؟» سألها فالاندر.

«لم يقُل شيئاً حول ذلك،» ردت بابيه.

«هل هناك شخص آخر يمكن أن يكون على علم؟»

«لا أحَد، إنه يثق بي فقط، ردت بابيه

«هل كان كارل يثقُ بأبيه الساكِن في مدينة فينتسبيل؟»

نظرت إليه باستغراب، فاستمر فالاندر في الحديث:

«لقد عرفتُ أن زوجكِ له أب ما زال على قيد الحياة، وهناك احتمال أنه قد أخفى وصيتهَ عنده.»

ردت بابيه:

«كان يُحب أباه، لكنه من المستحيل أن يُطلعه على وثيقة سرية.»

«إذن أين يُمكن أن يُخفي أو يودِعُ مثلَ هذه الوثائِق؟» سألها فالاندر.

«ليس في بيتنا، لأنه يعرف بأن ذلك فيه خطر. فالشرطة يمكن أن يُهدموا البيت على رؤوسنا إذا علموا بذلك.»

رد فالاندر:

«فكري، ارجعي قليلاً وفتشي بذاكرتك، أين يُمكن أن يُخفيها؟!»

هزت بابيه برأسها وقالت: «لا أدري.»

«لا بد أن يكون قد فكر في حصول ما قد حصَل. ولا بد أن يكون

مكتبة

أيضاً قد فكرَ بترك إشارة لك تجعلُك تفهمين بأن هناك وثائق مهمة محفوظة في مكان لا يمكن أن يعثَر عليها أحد غيرُك.»

وبشكل مفاجئ قبَضَت بابيه على يد فالاندر قائلةً:

«يجب أن تُساعدني... لا تُسافر.»

«من المستحيل أن أبقى هنا، فالعميدان سوف لا يفهمان سبب عدم عودتي إلى السويد، ثم كيف يمكنني أن أُقيم في هذا البلد بدون أن يعرفا بذلك؟»

قالت بابيه تاركة يده: إذن يجب أن تعود، فلديكِ عشيقة هنا، يمكنك الرجوع كسائح.

فكر فالاندر في تلك اللحظة: « لكنني أُحبكِ انتِ، وليس إنسي هي مَن أحببت!»

غير أن بابيه أعادت جملتها: إن لديكَ عشيقة هنا...

هز فالاندر رأسه، فهو يعرف بأن لديه عشيقة، ولكن ليس إنسي!

لَم يجب فالاندر ولَم تُطالبه بابيه بالجواب. فقد كانت شبه مقتنعة بأنه سيعود. دخَلت إنسي إلى الغرفة بعد أن تجاوزت بابيه الصدمة التي أحدثها خبر اعترافات أوبتس التي لم تصدقها.

ثم قالت:

«في بلدُنا يُمكن أن يموت المرء إذا تكلَمَ، ويمكن أن يموت أيضاً إذا صَمَتَ، أو قال شيئاً غير صحيح، أو إذا تحدَثَ مع غير الشخص المقصود. لكن أوبتس كان قوياً، وهو يعرف بأننا سوف لن نتركه وحده، كما أنه يعرف بأننا نعرف بأن اعترافاته هذه خاطئةً. لذلكَ فإننا يجب أن ننتصر في النهاية.»

«تنتصرونَ؟» سألها فالاندر

«نعم، نحنُ نطلب ونتوق للحق، نحن نطلبُ فقط الاستقامة بكل شيء، ببساطة نحن نُطالبُ أن نعيشُ الحرية التي نختارها.»

مكسه

«هذا كثير بالنسبة لي، فكل الذي أريده هو معرفة القاتل الفعلي للعقيد ليبه، أُريد أن أعرف لماذا سيقت جثتان إلى السواحل السويدية.»

ردت بايبه:

«ارجع، فسوفَ أُعلمكَ الكثير عن بلدي، ليس أنا فحسب بل إنسي ستقوم بذلك أيضاً.»

«لا أدري،» رد فالاندر.

ثم نظرت إليه بايبه وقالت:

«إنكَ رجل ليس من النوع الذي يُمكن أن يؤلِم أحداً، وهذا ما وصَفَكَ به كارل.»

«أن أعود إلى هنا، هذا شيء غير ممكن، فالعقيدان سيعرفإن بذلك في الحال. فهذا الأمر يتطلب مني وثائِق أُخرى، وبالتالي جوازاً آخر.»

ردت بايبه بحماس:

«هذا ما سوف نُرتبه نحن لك، فقط أُريدُ أن أعرفُ منك بأنكَ سترجع.»

«أنا رجل شرطة، لا يُمكنني أن أُخاطِر بمستقبلي بالسفر حول العالم بوثائق مُزوّرة.»

قَال ذلك وأحس بالندم فوراً، فنظَرَ مباشرة في عيون بايبه، وشاهدَ فيهما العقيد المقتول وأجابها ببطء:

«نعم، سوفَ أعود.»

عبر الوقت منتصف الليل. حاول فالاندر أن يُساعد بايبه في العثور على مسار يدُلَهم على المكان الذي أخفى فيه العقيد الوثائِق والإثباتات. كانت ثابتة العزم في تركيزها، ومُدركة بأنها يجب أن تعثر على الخيط الذي يوصلها للهدف. وفي النهاية انتهت المحادثة.

فكر فالاندر بأنه في مكان ما في الظلام خارج هذا المكان تنتظره الكلاب. كلاب العميدين التي لا تتوقف أبداً عن ملاحقته. وتنامى في

مكسه

داخله شعور خيالي بأنه ربما الآن وقع في خيوط مؤامرة الهدف منها إعادته إلى ريغا، ليقوم بتحقيق يجب أن يتم بسرية. وأن عليه أن يتخلى عن صفته كرجل شرطة ويبحث عن الحقيقة في إحدى الجرائم التي سبقَ وإن قُيدَت في سجل النسيان. قال مع نفسه:

«هذه حقاً صفقة مجنونة!»

لكنه في الوقت نفسه لم يتمكن من تجاهل وجه بايبه ليبه ولا صوتها، فهما لَم يُفارقانه أبداً.

عندما قاربت الساعة على الثانية صباحاً قالت إنسي بأن اللقاء يجب أن ينتهي، ثم تركتهما وحدهما. قالت بايبه:

«لدينا أصدقاء في السويد سوف يتصلون بك. وإن عودتكَ ستُنظم من خلالهم بشكل مؤكد.»

ثم انحنت عليه وقبلته على خده.

في طريق العودة قادت إنسي السيارة. عند عبور الجسر هزت إنسي رأسها لما نظرت في المرآة الخلفية وقالت:

«إنهم يُتابعُوننا، يجب أن نتظاهر عند باب الفندقِ بأننا عاشقان.»

«سوف أقوم بذلك على أحسن وجه، وربما سأحاول سحبكِ إلى غرفتي.»

«أنا فتاة مُحترمة،» ردت إنسي. «ولكن عندما تعود ثانية لريغا سنقوم بذلك لُمدد طويلة.»

تركته واقفاً لمدة طويلة في البرد، مظهراً بأنه قد فقد شيئاً كبيراً بذهابها.

في اليوم التالي سافر على خطوط الآيروفلوت إلى هلسنفورس.

أوصله العميدان إلى نقطة تدقيق الجوازات، ثم ودعاه بحرارة....

وفي تلك اللحظة فكر فالاندر بأن أحدهما قتل العقيد. أو ربما كِلاهما؟

مكسه

فكيف لضابط شرطة من إيستاد أن يعرف ما الذي حصَلَ في النهاية؟

وصل فالاندر إلى شقته في شارع ماريا وفتح بابها.

وحينها بدا كل شيء يظهر وكأنه حُلم، وفكر بأنه سوف لن يرى بايبه أبداً. فهي ستبقى تنعى زوجها دون أن تعرف ماذا حصلَ بالضبط.

ارتشفَ كأساً من الويسكي الذي اشتراه من السوق الحرة في المطار. وقبل أن يذهب للنوم استمع إلى الفنانة - ماريا كالس لمدة طويلة.

شعر بالتعب والقلق.

وتساءل مع نفسه ما الذي سيحصل؟

مكسه

١٤

بعد ستة أيام من عودة فالاندر إلى السويد كانت بانتظاره رسالة.

وجدها فالاندر مُلقاة عند الباب عندما دخل إلى شقته عائداً من يوم عمل مُتعب في مركز الشرطة.

في ذلَك اليوم نزل الثلج بكثافة بعد الظهر لدرجة اضطر فيها فالاندر إلى أن يقف مدة ليست قصيرة في مدخل البناية عند السلالم لينفض ملابسه من الثلج قبل أن يفتح باب شقته. وفكر فالاندر في أنه كان طوال الأيام الماضية مُرتاحاً لعدم اتصالهم به، ولكن في داخله كان يعرف بأنهم سيفعلون ذلك. وتمنى أن ينتظروا، لأنه يشعر بأنه غير مُستعِد.

كانت الرسالة عبارة عن ظرف أسمر عادي مُلقى عند البابَ، ظنه في البداية رسالة دعاية لأن إحدى زوايا الظرف الأمامية كان مطبوعاً عليها اسم لإحدى الشركات.

وضعَ فالاندر الرسالة على سلة الملابس الموجودة في مدخل الشقة وكاد أن ينساها. وما إن انتهى من تناول عشائه الذي كان عبارة عن سمك مقلي كان موجوداً في الثلاجة منذ مدة، حتى تذكر الرسالة فجلبها في الحال. على الظرف كان مكتوبا اسم... زهور ليبمان.

فكر فالاندر في أنه من الغريب أن تصله دعاية تعود لشركة لتسويق المستلزمات الزراعية. كاد أن يرميها في سلة المهملات دون أن يفتحها، لكن شيئاً ما منعه من فعل ذلك، فعادة عدم إهمال شيء قد يخفي خلفه أمراً تعلمها من عمله لسنين طويلة في الشرطة، فأحياناً يشعر بأنه شخص من النوع الذي لا يتركُ حجراً على الأرض في طريقه دون أن يقلبه، لأنه يجب أن يعرف ماذا يوجد تحته.

مكتبة

عندما نزل فالاندر من الطائرة في مطار آيرلند في الأسبوع الماضي اجتاحه شعور غير واضح، وربما كان شعور حزن. لكن ما ساعد في تخفيف ذلك الشعور هو شعور بالحرية التي افتقدها أثناء إقامته في بلد كان فيه مُراقَباً بشكل دائم، وبعفوية خاطب موظفة تدقيق الجوازات عندما قدَمَ لها جوازه من تحت النافذة الزجاجية وقال لها: «شيء جميل أن يعود المرء إلى بلده».

اكتفَت الموظفة بنظرات استغراب وهي تُعيد الجواز إليه دون أن تفتحه.

في تلك اللحظة فكر فالاندر مع نفسه: «هذا هو السويد، كل شيء فيه طازج وطري، فالمطارات نظيفة بشكل مثالي، ولا يوجد أي مُخبِر محشور في مكان ما فيها، هنا كل شيء مرئِي، وكل الأشياء تظهر على طبيعتها التي يجب أن تكون عليها. دينُنا وأمنيتُنا القومية هو الأمان الموجود في قوانيننا الأساسية التي توحي للعالم بأننا نعتبر الموت بسبب الجوع هو أكبر الجرائم. إننا لا نتكلم بسوء مع الأجانب ولا نُرغِمهم على شيء، بالرغم من أنهم أحياناً يؤلِموننا ببعض الأفعال كأن يرموا الأوساخ هنا وهناك، أو يلطخوا مصابيح الإضاءة في الشوارع باللون الأسود. نحنُ لم نبنِ أو نُفكر ببناء امبراطورية، لكننا مُقتنعون بأننا أوجدنا أو خلقنا أفضلَ نظام في العالم، حتى لو كان صغيراً، ونحنُ الشرطة نُعَد الحُراس الثقات لهذه الجنة، لكننا في نهاية المطاف لا نحصِل إلا على نظرات رفض مِن مُدققي الجوازات».

وبشكل مُفاجئ تبدلَ هذا الشعور المُخفّف بكآبة قوية. فلا يوجد لبايبه ليبه أي مكان في عالم كورت فالاندر، ولم يتمكن أن يتخيل وجودها هنا في وسط هذه الأضواء المتقاربة، ومع ذلك أحس بالشوق إليها، وعندما ترك حقيبته في المدخل الطويل الذي يشبه السجن الموجود في البناية الجديدة للرحلات الداخلية، ليواصِل سفره إلى مالمو، بدأ يَحلُم

بالعودة إلى ريغا، تلك المدينة التي كانت تُطارده فيها الكلاب بشكل سري. تأخرت الطائرة المُغادرة إلى مالمو، وكانت بطاقته تتضمن وجبة همبورغر تناولها وراحَ يتمتع بالنظر إلى الطائرات الهابطة والمقلعة من أرض المطار المغطاة بالثلج. كان الرجال الذين حوله يتكلمون بالهواتف النقالة بشكل متواصل، ومما أثارَ استغرابه هو أن أحدهم كان يقرأ أغنية أطفال لأحد خمّن فالاندر أنها ابنته. فسارع بالاتصال من هاتف عمومي بابنته ولما ردّت فوراً غمرته الفرحة، وفكر للحظة في البقاء عدة أيام في ستوكهولم قبل أن يواصل سفره إلى مالمو، لكنه كان يدرك مُقدَماً أنها مشغولة هذه الأيام، لذلك اكتفى بالتحدث معها. وبدلاً من ذلك فكر فالاندر في بايبه ليبه، بخوفها، بتحديـــها، وتساءلَ فيما إذا كانت فعلاً قد اعتقدت بأن رجل الشرطة السويدي هذا سوفَ لا يُخلف وعدَه معها؟ ولكن هو الآخر ماذا عساه أن يفعَل؟ فمن المؤكد أنَ الكلاب هناك سوف تقتفي أثَر رائحته وتمسكه في الحال وحينها سيكون من المستحيل الإفلات منها.

وصَلَ أخيراً إلى مطار ستورب. لَم يكن هناك من ينتظره.

استأجَر سيارة أجرة إلى إيستاد. جلسَ في المقعَد الخلفي. تحدثَ السائق الذي قادَ سيارته بشكل سريع جداً عن الطقس ورذاذ الثلج المتطايِر أمام مصابيح السيارات. كان يسرح بعيداً شامّاً رائحة بايبه ليبه في السيارة، فانتابه شعور بالقلق الشديد مخافة عدم رؤيتها ثانية.

في اليوم الذي تلا عودته، ذهب فالاندر لزيارة أبيه في منطقة لودروب ووجده في حالة صحية بدا فيها أصغَر من سنه بكثير لأن المرأة التي عُيِّنَت للعناية الشخصية به قد حَلَقَت شعره بشكل جميل. قدَمَ فالاندر لأبيه زجاجة كونياك جلبها له من رحلته، فبدت على الأب علامات الرضا، جلسا معاً في الصالة التي يستخدمها الأب استوديو للرسم، وشاهدَ فالاندر أن الحمالة عليها لوحة لَم تُنجَز بعد لا تختلف عن لوحاته

السابقة، فالريف هو الموضوع غير القابل للتبديل لديه، لكن فالاندر خمّنَ أن هذه اللوحة ستُجَهز بديك بري. ترك الأب الفرشاة جانباً ومسحَ يديه بالمنديل الذي تفوحُ منه رائحة التربنتين. تحدثَ فالاندر لأبيه عن رحلته لريغا، ثم فجأة ومن دون أن يعرف لماذا توقف عن وصف المدينة راحَ يتحدث عن لقائه مع بايبه ليبه، لكنه لم يُنوه إلى أنها أرملة العقيد الذي اغتيل، واكتفى بذكر اسمها، وإنه الآن يفتقدُها! فسأله:

«هل لديها أطفال؟»

هزَ فالاندر رأسه بإشارة نفي.

«هل بإمكانها إنجاب أطفال؟»

«أعتقد ذلك، ولو أني لا أعرف كيف يمكنني أن أُحدد إمكانيتها على الإنجَاب؟»

«وهل عرفت كم تبلغُ من العمر؟» سأله الأب.

«إنها أصغرُ مني، ربما هي في الثلاثين،» رد فالاندر.

«إذن يُمكنها الإنجاب،» رد الأب.

«ولماذا تسأل عن إمكانيتها على إنجاب الأطفال؟» سأله فالاندر.

«لأني أعتقد بأنك بحاجة لذلك.»

«ولكن عندي ليندا ابنتي!»

رد الأب:

«لا يكفي أن يكون للمرء طفل واحد، الإنسان يجب أن يُنجب على الأقل طفلين، لكي يفهم بالتالي أين يضع رعايته كأب، اجلب هذه المرأة للسويد وتزوجها.»

«ليس بهذه البساطة،» رد فالاندر.

«ولماذا أنت تحاول دائماً أن تعقد الأمور، ألا ترى بأن السبب الوحيد في ذلك هو كونك رجل شرطة؟»

مكسه

فكر فالاندر في أنهما وصلا في نقاشهما إلى النقطة التي يخشاها التي تتكرر دائماً، فلم يمر لقاء واحد دون وصول النقاش مع أبيه إلى النقطة التي يهجم فيها عليه بشكل مباغت ويذكره بأنه أخطأ عندما اختار العمل في سلك الشرطة.

ومحاولةً منه فكر فالاندر أن يُغير الحديث:

«هل تستطيع حفظ سر إذا أخبرتكِ به؟»

تأمله الأب بنظرات مُستغربة، وردّ عليه:

«كيف يمكنني الإجابة إذا كنت لا أعرف الشيء الذي تريد قوله، ثم لِمَن يُمكنني أن أبوح...؟»

«أنا ربما أتوقف عن العمل في الشرطة، وسأعمل رجلَ أمن في مصنع الإطارات المطاطية في تريللبوري، ولكن كما قُلت، ربما..»

نظر إليه الأب لمدة طويلة قبل أن يُجيب:

«سوف لا تجني نفعاً من ذلك، لأن قرارك جاء مُتأخِراً، وسوفَ تندَم كثيراً لهذا التأخير.»

«لقد قلتُ يا أبي ربما، أنا ما زلت غير متأكد.»

لكن الأب لم يسمعه. ورجعَ إلى لوحته وباشر برسم الديك البري. بينما ظل فالاندر جالساً على كرسيه، وبعد أن تأمله لمدة طويلة بصمت، ذهب إلى بيته، وفكر حينها بأنه في حاجة إلى شخص يتحدث إليه. شعر بالضيق لأنه في سن الأربعين ويفتقد لإنسان موثوق به يقف إلى جانبه، وتذكر بأنه أصبحَ معزولاً تماماً ووحيداً أكثر مما يتصور عندما توفي صديقه ريدبري، حتى زوجته قد هجرته وطلبت منه الطلاق، بعد أن أصبح كل منهما غريباً عن الآخر لمدة ليست بالقصيرة. في النهاية اختارت هي أن تعيش حياتها التي لم يعرف فالاندر شيئاً عنها. الإنسان الوحيد الذي ظل يثق به هي ابنته ليندا، ولكن هي أيضاً بعيدة عنه.

قاد سيارته إلى منطقة كوسبيرية وفكر في أن يسافر ليُسلم على

مكسه

صديقه يوران بومان الذي يعمل في شرطة مدينة كريخانستاد، فمع هذا الإنسان يُمكنه أن يتحدث حول كل ما حصل، وبدلاً من ذلك باشر عمله وسلم تقريره إلى بيورك، ثم جلسَ مع زملائه في صالة الاستراحة وتناولوا القهوة. سأله مارتنسون عدة أسئلة أجاب فالاندر عليها فشعر بالارتياح لأنه تحدثَ بجزء مما أراده. بعد ذلك قام بإرسال طلب العمل في معمل الإطارات في تريللبوري، ورتّب مكتبه ليخلق لنفسه جواً مُشجعاً لمزاولةِ العمل من جديد، لكن لم يكن لديه مزاج للقيام بأي شيء، حتى أنَ بيورك شعر بما يحس به فالاندر مما يشبه خيبة الأمل. حاول تُحفيزه من خلال تكليفه بمهمة التحقيق في قضية مرقص إيستاد. تسلم فالاندر المهمة، لكنه لم ينجح في تحديد مسار البحث فيها لأنه كان مُشوشاً. عند منتصف النهار تناول الغداء في فندق الكونتيننتل، وشعر بعدم قدرته على التركيز إلى درجة أنه إذا قال شيئاً لا يتذكره بعد مرور لحظات.

في أحد الصباحات عندما استيقظ شعر بأنه مريض.

فذهب إلى طبيب الشرطة. أجرى فحوصات شاملة. أكد له الطبيب أن صحته جيدة لكن يجبُ أن يُراقب وزنه باستمرار. تذكر فالاندر أنه عاد من مهمته في ريغا في يوم الأربعاء، وفي مساء السبت من الأسبوع نفسه ذهب إلى مدينة أوهوس وتناول عشاءه في أحد المطاعم ورقصَ عدة مرات بعد العشاء. ثم دعته امرأة إلى طاولتها. عرفته بنفسها. كان اسمها إيلين، وتعمل ممرضة علاج طبيعي في مستشفى كريخانستاد، لكن طوال الوقت كان وجه بايبه ليبه يُرافقه كالظل، لذلك قرر قطع سهرته مع إيلين وغادر أوهوس إلى بيته سالكاً الطريق الساحلي، حيث مر بالساحة التي يُقام فيها سوق كيفيك أثناء الصيف، فتذكر كيفَ هجم في وسط السوق والمسدس بيده أثناء مطاردته لأحد المجرمين. أما الآن فالمكان مغطى تماماً بالثلج، والقمر يسطع بضوئه على الثلج

مكسه

والبحر، وشاهدَ أيضاً وجه بايبه ليبه أمامه هناك، وكأنه أصبح غير قادر على طردها من تفكيره. واصل طريقة إلى إيستاد وشرب في شقته حد الثمالة. وضع شريط موسيقى في المسجل وشغله بأعلى صوته إلى درجة أن الجيران طرقوا الحائط.

عندما استيقظ في صباح الأحد كان قلبه يدق بعنف وسرعة. وظل هكذا طوال اليوم ينتظر أن يحصل له مكروه.

في يوم الاثنين جاءته رسالة!

جلسَ فالاندر بجانب طاولة المطبخ، فضها وراح يقرأ ما جاء فيها والمكتوب بخط يد مضبوط جداً:

أنت صديق حميم لبلدنا، وقد وصلتنا من ريغا أخبارك وما قُمتَ به من أعمال هناك. وخلال مدة قصيرة سنتصل بك لنُبين كل التفاصيل التي تتعلق برجوعكَ إلى ريغا. يوسف ليبمان

فكر فالاندر مع نفسه:

«ما هي يا تُرى الأعمال التي قُمتُ بها؟ ومَن هؤلاء (نحن) الذين سيتصلون بي؟..».

تضايقَ فالاندر من نص الرسالة المقتضب ذي النبرة الآمرة.... وأحس بالضغط الشديد فهو من ناحية لا يريد القيام بمهمة سرية مع أناس غير مرئيين، لكنه في الوقت نفسه يُريد رؤية بايبه ليبه، استغرب من حماسه وتصرفه وكأنه عاشق امرأة تعيس...

لكنه مع ذلك عندما استيقظ صباح الثلاثاء، كان قد توصَلَ إلى قرار.

ذهب إلى مركزِ الشرطة. وحضَرَ لقاء نقابياً هناك، ثم ذهب إلى بيورك وبادره قائلاً:

«أنا بحاجة إلى إجازة قصيرة.»

رمقه بيورك بنظرة يمتزج فيها الحسَد بالفهم العميق لمعاناته، قبل أن

يرد بلهجة توحي بالضجر:

«كنتُ أتمنى طلبَ الشيء نفسه، فقبل قليل قرأتُ مذكرة وصلتنا من إدارة الشرطة العامة. فتخيلت أن جميع زملائنا الشرطة في عموم البلد يقومون بالعمل نفس وهم مُنحنون على طاولات كتابتهم. قرأتُها وجلستُ طويلاً في الغرفة دون أن أفهم شيئاً من أهدافها، فمن المُتوقَع أن نتعرَض جميعاً للمساءلة حول بعض الإجراءات السابقة حسب هذه المذكرة.»

«أقترح عليك أن تتمتع بإجازة،» رد فالاندر.

نظر بيورك بانزعاج ورقّة إلى المنضدة أمامه وأجاب:

«هذا ليس حلاً. وإذا عشتُ طويلاً فإني سوف لا أتمتع بإجازة إلا عندما أُحال إلى التقاعُد. ولكن بلا شك سيكون من الغباء إذا تألمت لما يصادفني في البريد الرسمي. والآن هل قُلت بأنك تُريد إجازة؟»

«فكرتُ أن أتزلَج على الجليد في منطقة جبال الألب.»

لذلك فكرتُ في أن أتمتع بأسبوع واحد، كي أترك بقية إجازتي السنوية إلى منتصف الصيف، فبعد هذا الأسبوع سأعمل بشكل متواصِل لغاية نهاية شهر تموز.

هز بيورك برأسه موافقاً، ثم سأله:

«وهل حصلتَ على بطاقة ضمن الرحلات الجماعية؟ أعتقد أن كل الرحلات إلى هناك مكتملة العدد ولا يُمكن للمرء الحصول على مكان شاغِر في مثل هذه الأيام من السنة؟»

«كلا،» رد فالاندر.

«أظنُ أن طلبك للإجازة ارتجالي،» رد بيورك رافعاً حاجبيه.

«سأسافِر بسيارتي إلى منطقة الألب، أنا لا أُحِب الرحلات الجماعية.»

تأمله بيورك بشكل حاولَ أن يوحي لفالاندر بأنه رئيسه في العمل،

مكسه

وسأله بشكل مفاجئ:

«وما هي التحقيقات الموجودة على طاولتكَ الآن؟»

«إنها قليلة جداً، أكثر الأمور استعجالاً فيها المشاجرة التي وقعت في منطقة سفارته. وعموماً يمكن لأي شخص أن يقوم بها.»

«ومتى يُعجبُك البدء بهذه الإجازة؟ هل تبدأ بها اليوم؟» سأله بيورك.

«أريدها ابتداء من يوم الخميس.» رد فالاندر.

«وكم يوماً يكفيك؟»

«لقد حسبتُ أن أتمتع بعشرة أيام.»

هز بيورك برأسه ووقعَ على طلب الإجازة.

«أظنُ أنه من الحِكمة أن يتمتع المرء بإجازة، لأن العمل المتواصِل يجعل الحياة مُملة.»

«شكراً لكَ،» قال فالاندر، ثم غادر الغرفة.

أمضى بقية اليوم في التحقيق بالمشاجرات المتراكمة عنده، وأجرى عدة مكالمات هاتفية طويلة، وأجابَ على الاستفسار الذي وصله من مصرفه —(سباربنك) حول راتبه. أثناء انشغاله بعمله توقَعَ أن يحصل شيء ما. سحب دليل الهواتف الخاص بمدينة ستوكهولم. وجدَ أن هناك العديد من الأشخاص الذين يحملون اسم ليبمان، لكن في صفحات الشركات الموجودة في الدليل لم يجد شركة تحمل اسم «زهور ليبمان».

بعد الخامسة نظفَ فالاندر مكتبه، وذهب إلى البيت.

قاد سيارته عبر المدينة. توقف عند محل لبيع الأثاث عله يجد أريكة جلدية كان قد فكر منذ زمن في شرائها، لكن الأسعار أثنته، ثم ذهب إلى أحد محلات المواد الغذائية في شارع الميناء، واشترى بطاطا وبعضَ المستلزمات المنزلية. تعرفت إليه المحاسبة وحيّته بلطف، فتذكرَ أنه قبلَ عدة سنين كرّسَ المزيد من وقته ليعثَر على أحد الأشخاص الذين سطوا

مكسه

على هذا المحل، ثم بعد ذلك ذهب لبيته وجهزَ عشاءه وجلسَ أمام التلفاز.

وبعد الساعة التاسعة رنَّ جرس الهاتف. تحدثَ معه شخص لغته سويدية فيها بعض التعثُر. طلبَ منه الحضور إلى مطعم البيتزا القريب من فندق الكونتيننتل. فوراً طلب فالاندر أن يجهر باسمه الصريح. فرد عليه الرجل:

«أنا يوسف ليبمان، الذي كتَبتُ لك الرسالة.»

«ومَن أنتُم؟» سأله فالاندر.

«أنا مدير شركة صغيرة.»

«وهل شركتكم مختصة بالمستلزمات الزراعية؟»

«يمكنك تسميتها كذلك.»

«وماذا تُريدون مني؟» سأله فالاندر.

«أظنُ أن رسالتي وضّحتُ ذلك.»

في تلك اللحظة فكر فالاندر أن يُنهي المكالمة، فهو لم يحصل على أجوبة شافية، فشعر بالضيق والغضب من وجوه غير مرئية تحيط به بشكل دائم. تفرض عليه شروطاً، وتصرّ على أن يتهيأ للمشاركة معهم! وأخيراً ما هو الشيء الذي يمنع أن يكون ليبمان هذا من رجال العميدين اللاتفيين؟

أوقفَ فالاندر سيارته، وراحَ يتمشى في شارع ريجمند باتجاه المدينة. وصل مطعم البيتزا والساعة قاربت التاسعة والنصف. كانت الطاولات العشر في المطعم مشغولة، لَم يلاحظ شخصاً يجلس وحده يُمكن أن يكون ليبمان. وبشكل سريع تذكرَ شيئاً مما تعلمه من ريدبري: «يجب على المرء دائماً أن يُقرِر فيما إذا كان هو الأول أو الأخير الذي يصل إلى مكان اللقاء».

لقد نسي هذه الخبرة منذُ زمن، وفي الوقت نفسه لم يعرف فيما إذا

مكسه

كان هذا الكلام يحملُ معنى محدداً في هذه الحالة. اختار مكاناً في زاوية المطعم، طلب كأس بيرة، وبقي ينتظر.

وصلَ يوسف ليبمان عندما أصبحت الساعة العاشرة إلا ربعاً. فحالما فتحَ الباب تعرف فالاندر إلى شخص يوسف ليبمان الداخل. كان الرجل في الستين من العمر يرتدي معطفاً بدا كبيراً عليه، راحَ ينظُر إلى الطاولات وكأنه خائف أن يدوسَ على لغُم، لما وقع نظره على فالاندر تبسم وخلعَ معطفه وجلس قُبالته. كان الرجل حذِراً وبين الحين والآخر يرمي بنظره لما حوله.

خمن فالاندر أن يوسف ليبمان يهودي، على الأقل من ملامحه التي تشبه ملامح شخص يهودي! خداه كانا رماديين من كثرة شعر لحيته المحلوقة، عيناه ظهرتا سوداوين من خلف نظارتين سميكتين. ولكن ما الذي يعرفه هو عن الملامح اليهوديـــــة؟! لا شيء.

جاء النادل، طلبَ ليبمان كوب شاي. كان الرجل ذا أخلاق عالية، قدر فالاندر أنه عاشَ حياته مُتواضعاً.

«شكراً على حضورك يا سيد فالاندر،» بدأ ليبمان الذي كان يتحدث بصوت منخفض ما اضطر فالاندر إلى الانحناء نحوه كي يستطيع سماع ما يقول.

رد فالاندر:

«أنت لم تترك لي مجالاً للاختيار. ابتدأت برسالة، ثم تبعتها بمكالمة هاتفية، وأظن الآن قد حان الأوان لتقول لي مَن أنت؟»

هز ليبمان رأسه مُعترضاً ثم قال:

«ليس مُهماً مَن أكون أنا، المهم جداً هو أنت.»

شعر فالاندر بالضيق وردَّ:

«كلا، يجب أن تفهموا بأني سوف لن استمع إلى ما تقولون إذا لم تكونوا أنتم على استعداد أن تروني ما يُعزز ثقتي بكم.»

مكتبة

في هذه الأثناء جاء النادل، فانقطع الحديث بينهما إلى أن ابتعد، فبادر ليبمان بالحديث:

«مهمتي فقط هي توصيل رسالة ما. ولا يوجد في هذا الكون من يسأل عن اسم حامل الرسالة؟ فذلك غير مُهم. نحنُ نلتقي الآن، وسأختفي بعد قليل، وقد لا نلتقي مرة أخرى. وهذا بدوره لا يُساعدُك في تعزيز الثقة بشكل حاسم وعملي. لذلك أرى أن عليك أن تسأل عن الأمان والحماية أثناء سفرك إلى هناك. وحسب خبرتي أرى أن الثقة شيء يحصل عليه المرء عملياً في المحك.»

«إذن علينا أن نُنهي مُحادثتنا عند هذا الحد،» رد فالاندر.

«أنا أحملُ لك تحية من بايبه ليبه.» قال ليبمان بسرعة وأضاف متسائلاً:

«ألا تُريد أن تسمع ذلك؟»

ارتخى فالاندر في كرسيه، وتأمل الرجل الجالس قبالته، وكأن هذه التحية سحبته من كل العالم لتضعه في حالة من العُزلة، ثم كرر هذه الجُملة عليه:

«أنا بكل بساطة لا أُريد أن أسمع شيئاً قبل أن أعرفُ مَن أنتُم.»

خلعَ ليبمان نظارته وصبَ الحليب في كوب الشاي، ثُم قال:

«هذا اهتمام منك فقط، يا سيد فالاندر، ففي عالمنا يكون أحياناً الأفضل أن يعرف المرء القليل المُمكن.»

«لقد كنتُ في لاتفيا،» قال فالاندر. «نعم لقد كنتُ هناك، وأعرف ما معنى أن يكون الفرد مُراقَباً وتحت السيطرة بشكل دائِم، لكننا الآن موجودون في السويد وليس في ريغا.»

هز ليبمان رأسه بالموافقة، وغط في التفكير ثم قال بصوت منخفض:

«ربما أنت على حق، وربما أنا رجل عجوز وليس بإمكاني رؤية

التغييرات التي تحصل في الواقع.»

ومحاولةً من فالاندر لمساعدته قال له:

«حتى المستلزمات الزراعية هي أيضاً لم تعُد مثلما كانت قبلَ سنين، اليس كذلك؟»

راحَ ليبمان يُحرِك بملعقة الشاي ببطء ثم بدأ بالكلام:

«لقد جئتُ إلى السويد في خريف عام ١٩٤٠ حينها كنتُ شاباً. أحملُ حُلما طائشاً في أن أكون رساماً.. نعم فناناً كبيراً. وفي فجر يوم بارد وصلنا خلسة إلى سواحل السويد في منطقة كوتلاند. لم نصدق أننا نَجونا، فالقارب تعطلَ وسط البحر وتسربَ الماء إلى حوض القارب. كثير ممن هربوا معي هزلوا بسبب سوء التغذية وأصيبوا بالسل الرئوي. ما زلت أتذكر ذلك الفجر البارد.. كان في بداية شهر آذار، حينها قررتُ مع نفسي رسم لوحة تُصَور الساحل السويدي في ساعة الفجر، التي بدورها تُمثل الحــريــة. شاهدتُ بوابة الجنة متجمدة وباردة، ومؤدية لعدة تلال سوداء مُختفية وسط الضباب هكذا ظل المشهد بذاكرتي، لكنني لَم أرسُم تلك اللوحة مُطلقاً... وبدلاً من أن أكون فناناً صرتُ منظف حدائق، وهكذا تدرجتُ في سلسلة الحياة العملية في السويد، والآن أنا من الخبراء في مجال الحدائق وأُقدم استشاراتي للكثير من الشركات السويدية التي تعمل في مجال نباتات الزينة. لكني لم أرسُم مُطلقاً صورة الجنة... وأقنعتُ نفسي بأنه يكفيني رؤية ذلك المنظر، وأنا أعرف أن الجنة مثل الجحيم لها أبواب عدة، ويجب على المرء أن يُميز بين تلك الأبواب وإلا تعرض للخديعة.»

«هل ينطبقُ هذا الشيء على العقيد ليبه؟» سأله فالاندر.

لم يصدر رد فعل من ليبمان، لكنه استمر بالكلام بصوتٍ منخفض:

«لقد عرف العقيد ليبه تلك الأبواب، وليس هذا ما دفعَ به إلى

مكسه

الموت! إنما الذي دفعه للموت هو معرفته مَن يدخُل ويخرج منها. شاهدَ الناس الذين يخافون الضوء، لأن الضوء يُمَكِن الآخرين مثل العقيد ليبه من رؤيتهم.»

شعرَ فالاندر أن ليبمان إنسان مُتدين بعمق، يتحدث مثل قسٍّ يقف أمام عدد كبير من جمهور غير مرئي. واصل ليبمان الكلام:

«لقد عشتُ أغلب حياتي في المهجر، وخلال السنين العشر الأولى أي لغاية عام ١٩٥٠ كنتُ أعتقد أني في يوم ما سأعودُ إلى وطني. ثم جاءت بعدها السنون الثقيلة، في عقد الستين، والسبعين، عشرون سنة أسقطَت عندي هذا الأمل، وبقي فقط أولئك اللاتفيون الكبار في السن الذين عاشوا مثلي في المهجر متعلقين بحُلم العودة، كُنتُ أراهم مثل المجانين لأنهم ظلوا يعتقدون أن العالم يمكن أن يتغير ليسمح لنا بالعودة. إذ كانوا يعتقدون أن انقلاباً سيحصَل ليُعيد الأمور إلى نصابها، لكني كنتُ متأكداً بأن عصر الانقلابات ولى إلى الأبد، لكن بشكل مُفاجئ لنا بدأ شيء ما يحدُث. وتدفقت تقارير من بلدنا الأم، تقارير يرتعشُ لها الجسد، تفاءلنا ونحن نرى كيف اهتز جسد الاتحاد السوفيتي مثل جسد مريض يُعاني من حُمى. وبدأنا نأمل بحصول تغيير في بلدنا، لكننا حتى الآن لا نعرف. نعتقد بأننا يمكن أن نُخدَع بهذه الحـرية، فالاتحاد السوفيتي قد ضَعُفَ، ولكن يمكن أن تكون حالة مؤقتة. فالوقت الذي في متناولنا ليس كافياً. وهذا ما كان العقيد ليبه يعرفه.»

«أنت تتحدث بتعبير «نحن» فمَن تقصِد بــ(نحن)؟» سأله فالاندر.

«(نحن) تعود على جميع اللاتفيين المُنظَمين الموجودين في السويد، حيث أننا ارتبطنا جميعاً بتنظيمات معينة لنعوض فيها فقداننا بلدنا، وطوال الوقت كُنا دائماً نعمل على حفظ تقاليدنا بين الأجيال المتعاقبة في المهجر. وقد أسسنا أيضاً صناديق دعِم للناس الذين يُكافحون في

مكتبة

الداخل، مجرد أن تصلُنا من هناك صيحات استغاثة، لكي لا يشعروا بأنهم منسيون. تنظيماتُنا هذه في المهجر عوضَت لنا مدُننا وقُرانا.»

في هذه الأثناء فُتح الباب الزجاجي المؤدي إلى مطعم البيتزا، ودخل شخص ما فبان الارتباك على ليبمان. تعرفَ فالاندر إلى الشخص الداخل، اسمه إيلمبيري ويملك محطة وقود في المدينة.

قال فالاندر:

«أكمِل فليس هناك من خطر، هذا الشخص أعرفه لم يرتكب خطأً في حياته، ولا علاقة له بنضال لاتفيا، إنه يُدير إحدى محطات الوقود في المدينة.»

قال ليبمان:

«آخر صيحة استغاثة وصلتنا من بايبه ليبه، وتطلب منكَ السفر إلى هناك، لَتُساعدُها!»

مد يده، وأخرجَ من جيب سترته الداخلي ظرفاً وسلمه لفالاندر:

«هذه الرسالة لك من بايبه ليبه.»

تسلم فالاندر منه الرسالة وفتحها بحذر، فوجد أن رسالتها كانت قصيرة ومكتوبة بقلم رصاص. شعر أنها كانت مُستعجِلة عندما كتبت له هذه الرسالة التي جاء فيها:

توجد هناك وصية وحارس، لكنني خائفة شخصياً من عدم استطاعتي العثور على مكانها. ثِق بحامل رسالتي مثلما وثقتَ من قبل بزوجي.

بايبه

وعندما انتهى فالاندر من قراءة الرسالة، قال له ليبمان:

«سوفَ ندعمُكَ بكل ما تحتاج لتصل إلى ريغا.»

«يجب عليكم أن تغيروا كل ما يَتعلقُ بي لتجعلوني شخصاً غير مرئي.» رد فالاندر.

«ماذا تعني بــــغير مرئي؟» سأله ليبمان.

مكسه

«أقصُد بأني إذا قررت السفر إلى ريغا فيجب أن أكون شخصاً آخر غير شخصيتي الحقيقية. كيفَ ستُدبرون الأمر؟ وماذا ستفعلون لتضمنوا سلامتي؟»

«يجبُ أن تثقَ بنا يا سيد فالاندر، لكننا ليس أمامنا المزيد من الوقت.»

أدرك فالاندر أن يوسف ليبمان هو أيضاً يبدو خائفاً. ويحاول إقناع نفسه بأن كل ما يحصَل حوله هو شيء واقعي، على الرغم من علمه بعدم صحة هذا الاعتقاد، فيوسف يعلم جيداً أن العالم ليس بهذه البساطة. فبايبه ليبه أرسلت صيحات استغاثة وصلته عِبر القارات، وكل ما يفعله الآن هو إجابة لصيحاتها.

قال فالاندر:

«لقد طلبتُ إجازة، ستبدأ إجازتي يوم الخميس، ورسمياً كان الغرض من إجازتي هو السفر إلى جبال الألب لممارسة التزلج على الجليد. أي إنه بإمكاني أن أن أكون خارج السويد لمدة أقل من أسبوع.»

تناولَ ليبمان كوب الشاي، وبدت الكآبة على ملامحه، لكن سرعان ما اختفت لتحل محلها أمارات الحسم، فرد على فالاندر:

«ممتاز، من الطبيعي أن يتمتع رجال الشرطة السويدية بإجازة التزلج في كل شتاء، ولكن أي طريق ستسلُك؟»

«سأتوجه إلى مدينة ساسنيتس بسيارتي عِبرَ ألمانيا الشرقية،» رد فالاندر.

«وما اسم الفندق الذي ستُقيم فيه؟» سأله ليبمان.

«لا أعرف بالضبط، فهذه أول مرة أذهب إلى هناك.»

«وهل بإمكانك التزلج على الجليد؟»

«نعم.»

كان ليبمان مستغرقاً في التفكير، بينما أشارَ فالاندر إلى عامل الخدمة

مكتبة

في المطعم وطلب كوب قهوة. ظل ليمان هكذا شارد الذهن وهزَّ رأسه رافضاً لما سأله فالاندر فيما إذا كان يرغب في كأس شاي آخر.

في النهاية خلعَ نظارته ومسحها بعناية بطرف معطفه وقال:

«إن فكرة سفرك إلى منطقة الألب بحد ذاتها فكرة رائعة!»

أعاد جملته من شدة الإعجاب، وأضاف:

«لكنني مع ذلك بحاجة إلى وقت قصير لأُرتّب لك كل الأشياء الضرورية. غداً سيتصِل بك شخص ليُخبرك بالموعد الملائم لإبحار الباخرة التي ستنطلق من ميناء تريللبوري. انسَ كل شيء في العالم ولا تنسَ أن تضع مستلزمات التزلُج فوق سقف سيارتكِ. حاول أن ترزمُها كأنكَ بالفعل ستذهب للتزلج هناك.»

«وكيفَ سأصل إلى لاتفيا؟» سأله فالاندر.

«ستعرف كل الأشياء الضرورية عندما تصعد على ظهر الباخرة، يجب أن تثق بنا يا سيد فالاندر.»

«حتى الآن أنا لا أضمن بأني سأتقبل أفكاركم هذه.»

«في علمنا لا يوجد شيء مضمون، بإمكاني أن أعِدُكَ بأننا سنبذل كل ما بوسعنا، وأظن الآن بإمكانك دفع الحساب!»

افترقا عند باب مطعم البيتزا. ودعه ليمان بسرعة واختفى متوجهاً نحو محطة القطار. بدأت الريح من جديد تهبُ بقوة. عاد فالاندر إلى بيته عبر المدينة التي بدت وكأنها مهجورة. فكر بما كتبته بايبه ليبه، وتخيلها خائفة ومذعورة لأن الكلاب ما زالت تلاحقها، فالعميدان أدركا أن العقيد ليبه ترك وصية خلفه.

وبغته أخذه الحماس ورغب في السفر إلى هنالك بشدة، فلم يبقَ في داخله أي خوف أو تردد، كما لم يبق داع للتفكير. يجب أن يستُجيب لاستغاثة بايبه.

في اليوم التالي حضّر نفسه للسفر.

مكسه

عند السابعة مساء اتصلت به امرأة هاتفياً وقالت أن لديه حجزاً على الباخرة التي ستُغادر ميناء تريللبوري في الساعة الخامسة والنصف من صباح غد. استغربَ فالاندر كثيراً عندما قدمَت نفسها كمُمثِله عن سفريات ليمان.

آب فالاندر إلى سريره في منتصف الليل، وقبل أن ينام فكر في أن هذه العملية بالكامل تعتبر صفقة خاسرة.

كان يستطيع إلغاء الأمر برمته لأن النجاح غير مضمون، لكنه فكر ثانية باستغاثة بايبه ليبه، وشعر بأنه مُجبر على إجابتها.

في صباح اليوم التالي قاد سيارته وصعدَ بها على متن الباخرة الراسية في ميناء تريللبوري.

قابل شرطي الجوازات الذي باشرَ قبل لحظات دوامه للفترة الصباحية، فحيّاه وسأله عن وجهة سفره.

«إلى منطقة جبال الألب،» أجاب فالاندر.

«هذا جميل.»

«يجب أن يُسافر المرء أحياناً.»

«هذا ما نحتاجه جميعاً.»

«أما أنا فلم أقدر على الحصول على يوم واحد.» رد فالاندر.

«الآن يجب أن تنسى أنك رجل مفتش لعدة أيام.»

«نعم،» رد فالاندر.

لكن فالاندر كان يدرك وبشكل قاطع بأن هذا غير صحيح.

إنه ذاهب إلى أصعب مهمة واجهها، مهمة غير مُحدّدَة المكان.

كان الفجر رمادياً...

وعندما غادرت الباخرة رصيف الميناء صعَدَ إلى متنها. وأخذ يتطلَع إلى البحر الذي بدا عريضاً جداً، وصار يتسعُ أكثر وأكثر مع توغِل

الباخرة في عمقه.

وشيئاً فشيئاً اختفى الساحل السويدي عن الأنظار، فنزلَ إلى كفتيريا الباخرة وتناول الفطور.

في الكفتيريا اقترب منه أحد الأشخاص. قدمَ نفسه باسم بريوس، وقال إنه شخص ارتباط معه على ظهر الباخرة. كان بريوس يحمل في جيوبه التعليمات المكتوبة من قبل يوسف ليبمان، ومعها الوثائق الشخصية التي تم ترتيبها لفالاندر ليستخدمها في ريغا. كان بريوس في الخمسين من العمر، وبشرة وجهه مُرقشة وعيناه كثيرتا الحركة.

«دعنا نقوم بجوله على ظعر الباخرة،» قال بريوس.

كان الضباب كثيفاً فوق بحر الشرق في ذلك الصباح.

١٥

كانت الحدود غير مرئية...

لكنها مع ذلك موجودة، شعر بها فالاندر عندما عَبَر لفّـــة الأسلاك الشائكة، التي كان ارتفاعها تحت مستوى الصدر.

كان كورت فالاندر خائفاً. ومع ذلك بقي يتذكر آخر خطوة له في الأراضي الليتوانية باتجاه الحدود اللاتفية حيث وقفَ مشلولاً أمام الإشارات التحذيرية التي كانت هناك، وفي الوقت نفسه سمعَ نداءً يُخاطبه من مكان ما في داخله: «ها أنت عُدتَ اليوم إلى هذا البلد من جديد، وهذه المرة ليس بصفتك رجل شرطة سويدياً».

كان الوقت ليلاً، والسماء صافية، حتى بريوس الذي رافقه منذ اللحظة التي صعَدَ فيها على متن الباخرة من ميناء تريللبوري كان قلقاً مما ينتظرهم في تلك اللحظة عند الحدود. أما فالاندر فكادَ يسمع صوت تنفسه يتسارع في الظلام. وعندما حاول السيرَ للأمام همسَ بريوس في أذنه بلغة ألمانية متعثرة:

«يجب علينا أن ننتظر...»

كان فالاندر في ذلك اليوم الأول من رحلته غاضباً ومُمتعضاً لأنه زُودَ بدليل لا يعرف أي كلمة سويدية. وتساءل معَ نفسه كَيف فكر يـــوسف ليبمان عندما أرسلَ شخصاً يتكلم اللغة الألمانية دليلَ طريقٍ مع ضابط شرطة سويدي يتكلمُ اللغة الإنجليزية بصعوبة؟ وازداد غضبه لدرجة أصبحَ فيها على مقربة من أن ينهي هذه الصفقة التي بدت وكأنها نصر جنوني على ما يمتلكه من حكمة. فكر أيضاً بأن هؤلاء اللاتفيين الذي قضوا مدة طويلة في المهجر فقدوا واقعيتهم، وصاروا شبه مجانين

مكسه

ومتفائلين أكثر من اللازم لدرجة إنهم يُقللون من قدرات رجال السلطة في بلدهم المفقود، ويعتبرون ذلك الخطوة الأولى نحو الاستقلال. ثم تساءلَ مع نفسه: «كيفَ لبريوس الضعيف البنية، وذي الوجه المليء بالخدوش الدائمية أن يمنحَه الشجاعة والأمان ليساعده على التجرؤ في مواصلة مهمته في رحلة العودة إلى لاتفيا كشخص مجهول لا وجود له؟ ثم ماذا يعرفُ هو عن بريوس الذي ظهر له في كفتيريا الباخرة؟ فربما هو أحد اللاتفيين الذين يعيشون في المهجر ممن يعتاش على فرق التصريف بالعملة في مدينة كيل الألمانية؟ وماذا يعرف عنه أكثر؟؟ لا شيء».

طوال الرحلة جلسَ بريوس إلى جانب فالاندر في المقعد الأمامي للسيارة وهو نائم، بينما كان فالاندر مُتيقظاً طوال الوقت ويقود السيارة مُتابعاً لتوجيهات بريوس في التركيز على الخطوط التي رسمها له على خريطة الطريق. سافرا عبرَ مدن ألمانيا الشرقية، ووصلا إلى الحدود البولونية عصر اليوم الأول. وفي إحدى المزارع على بُعد خمسة كيلومترات من الحدود البولونية أوقفَ فالاندر سيارته، وتحدّثَ معه الرجلَ الذي تسلم منه السيارة بإنجليزية مُتعثرة، حيث قال إنه واحد من لاتفيي الشتات، وتعهدُ بأن السيارة ستكون في أقصى درجات الأمان والحفظ إلى حين عودة فالاندر. قضيا ليلتهما منتظرين في تلك المزرعة.

سارا باتجاه الحدود: تعَثرَ فالاندر وبريوس معاً في أحد المضائق أثناء عبورهما خط الحدود الوهمية باتجاه ريغا. مرّا بمدن صغيرة لم يتذكر فالاندر أسماءها، لكنه لم ينسَ رجلاً مزكوماً اسمه يانيك كان ينتظرهم في سيارة نقل قديمة أقلتهم بقية الطريق. شعرَ فالاندر كأنه أصيبَ بعدوى الزكام، واجتاحته لهفة لتناول وجبة حارة ولحمام ساخن، لكن في تلك الليلة تعشى شطيرة من لحم الخنزير البارد، ونام ليلته على سرير غير مُريح في بيت معزول في الريف البولوني. بعدها واصلوا الرحلة ببطء، اقتصَر تنقلهم أثناء الليل، أو بعد الفجر مباشرة، أما بقية الوقت

مكسه

فيُقضيه فالاندر مُنتظراً يلزم الصمت مراجعاً كل التحذيرات التي أوصى بها بريوس. أراد معرفة الشيء الذي يشكل تهديداً لهم في بولونيا! لكنه لم يتمكن. راجعَ سير رحلته: ففي أول ليلة شاهد أضواء مدينة وارسو وهم على ظهر الباخرة، وفي الليلة الثانية دهسَ يانيك بسيارته القديمة أيلاً كبير الحجم ظهر فجأة على الطريق. حاول فالاندر فهم الكيفية التي بنيت عليها الحياة في لاتفيا. كما تساءلَ عن دافع مصاحبة هؤلاء الأدلاء لضابط شرطة سويدي مُرتبك ليعبُر الحدود اللاتفية بشكل غير قانوني. سألَ الأدلاءَ بعضاً من هذه الأسئلة، لكنه لم يلق جواباً، فهو لا يفهم كلام بريوس، ولا بريوس يفهم عليه، أما يانيك فلا يستطيع قول كلمة واحدة دون أن يعطس وينثر رذاذه عليه. عند وصولهم إلى الحدود اللاتفية بدأ فالاندر يُردد مع نفسه: «سنلتقي ثانية...».

وَمن فرحته وَدَّ لو أنه كان حينها موجوداً في عُمق روسيا، أو تشيكوسلوفاكيا، أو في بلغاريا! بعدها أضاعَ تماماً قدرته على ترتيب الأمور، ولم يعُد يتصور في أي اتجاه على الخريطة تقع السويد. شعر بالألم في كل كيلومتر تقطعه سيارة النقل الصدئة الماضية نحو المجهول، وظهر له كل شيء كصفقة مؤلمة. وتذكرَ بأنهم سافروا عبرَ ليتوانيا مُستخدمين الحافلات التي كانت جميعها تفتقد إلى النوابض التي تجعل الجلوس مُريحاً، في النهاية، وبعد أربعة أيام من اتصال بريوس به على الباخرة أصبحَ الآن على الحدود اللاتفية مباشرة، في عمق غابة تفوحُ منها رائحة صمغ الراتنج.

«انتظرا!» قال له بريوس حينها.

وفالاندر من جانبه استجاب طائعاً، وجلسَ مُنتظراً على جذع شجرة مقطوع شاعراً بالبرد وبتردٍّ في حالته الصحية.

وفكر مع نفسه: «هذه المرة سأصل ريغا مزكوماً، إن هذا الذي أقومُ به الآن هو أسوأ درجات الغباء والجنون التي مرت في حياتي، التي

مكسه

أستحقُ عليها فقط ضحكات سُخرية، أنا لا أستأهل أبداً أي احترام. فهنا الآن يجلس ضابط شرطة سويدي في منتصف العمر على بقايا شجرة غابة لاتفية مستسلماً ببؤس لأدلّاء لا يعرفهم، فاقداً تماماً قدراته على تقييم الأمور، لكن مع ذلك لم يشعر بالندم مدركاً في الوقت نفسه بأنه لا يستطيع العودة في الطريق نفسه الذي جاءَ منه، الذي اعتمَدَ فيه على بريوس البائِس الذي أرسله ليبمان المعتوه دليلَ طريق له. إذن هو الآن في طريق لا رجعة فيه، وشاء أم أبى عليه الاستمرار باتجاه ريغا.

ثم تذكرَ فالاندر بداية رحلته على الباخرة.

فعندما غادرت الباخرة الميناء وفي اللحظة نفسها التي اختفى فيها الساحل السويدي عن الأنظار، ناداه بريوس عندما كان جالساً في الكفتيريا يشرب قهوته، فصعدا بعدها إلى ظهر الباخرة في ذلك الجو المتجمد. كان مع بريوس رسالة من ليبمان مع وثائق شخصية تفاجأ لما شاهدها. فهو لم يعُد السيد إيكرس، إنما هو شخص آخر اسمه هيجل، نعم إنه الآن السيد (كوتفريد هيجل) الألماني الجنسية الذي يعمل في تجارة كتب الفن.

ما أثارَ استغرابَه صورته الشخصية المُلصَقة والمختومة في الجواز الألماني الذي قدَمه له بريوس، فهو يتذكر أن هذه الصورة هي الصورة ذاتها التي أخذتها منه ابنته ليندا قبل عدة سنوات. بدتْ له الكيفية التي حصلَ فيها ليبمان على هذه الصورة مثل الـــلّغز. لكنه في كل الأحوال هو السيد هيجل. أدرك أن عليه ترك جوازه السويدي عند بريوس. وفي النهاية سلّمَه فالاندر جوازه وفكرَ في أنه كان مجنوناً عندما وافقَ على ذلك.

الآن مضَت أربعة أيام منذ أن واجه هويته الجديدة...

بينما زحَفَ بريوس على تلة قريبة، ظل فالاندر يُتابعه بنظراته، قاربت الساعة منتصف الليل فكر فالاندر في أنه سيُصاب بالتهاب رئوي إذا ما ظل هكذا في هذا الجو البارد جداً.

مكسه

وبغتة رفع بريوس يده مُشيراً بحماس نحو الشرق. صعَدَ فالاندر التل وراحَ ينظر صوب الجهة التي أشار إليها بريوس. بعدَ عدة لحظات اكتشف ضوءاً ضعيفاً يومض في الظلام وكأنه حركة شخص يقود دراجة هوائية فيها مولّد إضاءة لا يعمل بشكل مُتواصِل. كان يتجه نحوهم. نزلَ بريوس من التل وقال لفالاندر:

«أسرِع...!»

انكسَرَ أحد الأغصان فخدَشَ وجه فالاندر، الذي اعتقد أنهما قد عبرا الحدود. بعدها دخلا ممراً محفوفاً داخل الغابة كأنه شارع ضيق. أمسَكَ بريوس بفالاندر أوقفه عدة لحظات راحَ خلالها يرهف سمعه قبل أن يخرجا من الممر داخلين في غابة كثيفة. سارا خلالها إلى الجهة الأخرى حتى وصلاً درباً موحلاً مخصصاً للعربات فوجدا أمامهما سيارة بانتظارهما، ومن جوفها توهجت سيجارة. ترجل شخص وتقدمَ باتجاههما وبيده مصباح جيب مضيء، اكتشف فالاندر بأنه أمام إنسي.

غمرته الفرحة برؤيتها، إذ شعر بأنه تخلصَ من رفقة الغُرباء.

من خلال الضوء الضعيف المُنبعث من مصباح الجيب شاهدَها تبتسمُ له، لكنه حينها لَم يقُل شيئاً. أما برِيوس فقد مد يده الصغيرة نحو فالانَدر مودعاً، ثم ابتلعته الغابة قبل أن يرد فالاندر على تحية الوداع.

«أمامنا رحلة طويلة حتى نصل ريغا، علينا الانطلاق حالاً.» قالت إنسي.

وصلا ريغا عند الفجر. توقفا عدة مرات في الطريق لتستريح إنسي، كما تعطلت العجلة الخلفية، فأبدلها فالاندر بعناء. اقترح عليها قيادة السيارة، لكنها أجابته بهز رأسِها دون توضيح الأسباب لذلك.

وبغتة أدرك فالاندر أن هناك شيئاً ما قد حصل. شيئاً قاسياً ومؤلماً جعل إنسي لا تُفصح عن الأسباب التي جعلتها مُتعَبة ومُركزة فقط على حفظ توازن السيارة أثناء سيرهما على تلك الطرق الملتوية. تأكد من أنها سوف لن تجيب عن أسئلته، لذا فضل الإنصات لما ترويه وظل

مكسه

صامتاً طوال الطريق. عرف أن بايبه ليبه تنتظره، وأن أوبتس ما يزال سجيناً، واعترافاته نُشِرَت في الصحف اليومية. ذُكر فيها أنه كان من بين الأشخاص الثلاثة الذين اغتالوا العقيد ليبه بضربه على رأسه بهراوة خشبية، لكن فالاندر لم يعرف أي تفسير لخوف إنسي الذي بدا كبيراً. ولما أوقفت السيارة لملء الخزان بالبترين بعد ساعتين من السير من إحدى العبوات الاحتياطية التي كانت معها في السيارة، حاولِ أن يُجاملها:

«الآن أنا السيد هيجل!»

«أعرفُ ذلك، إنه اسم جميل.» ردت إنسي.

سألها فالاندر:

«هل لكِ أن تُخبريني عن سبب وجودي هنا يا إنسي؟! وما هو الشيء الذي بإمكاني مساعدتكم به؟»

لزمت الصمت وبدلاً من ذلك سألته فيما إذا كان جائعاً أم لا، ثم قدمت له زجاجة بيرة وشطيرتين من اللحم كانتا مُحضرتين وملفوفتين بورق أسمر. وواصلا الرحلة. غفا لبعض الوقت، لكنه هبَّ مذعوراً مخافة أن يغلب النعاس إنسي.

وصلا ضواحي ريغا قبيل الفجر.

تذكر فالاندر أن تلك الرحلة كانت في شهر آذار، وبالتحديد في نفس يوم ميلاد أخته كريستينا، ومحاولةً منه لمعرفة التاريخ الشخصي لشخصية هيجل الجديدة التي اختارها له ليبمان، راح يقرأ ما كتبه عن هذه الشخصية في الرسالة، فتبين أن هيجل لديه عدد كبير من الأخوة، أخته الكبيرة اسمها أيضاً كرستينا، وزوجته ذات صفات رجولية، صوتها خشن، وجهها يحملُ شاربين في بداية ظهورهما. يسكنون في مدينة شاوبنجن في بيت مكسوٌ بالطوب الأحمر وفيه حديقة خلفية. قال مع نفسه: «تبدو الوثائق مضبوطة جداً، ويحتاج محقق مُتمرِس ساعة كاملة ليُقرر أنها مُزورة».

مكسه

«إلى أين سنذهب؟» سألَ إنسي.

«بعد قليل ستعرف!»

قال فالاندر بعصبية:

«كيف لي أن أُساعد في أمر أنا لا أعرفُ عنه شيئاً؟! ولماذا تردين بطريقة وكأنك تُحاولين فيها فقط إسكاتي؟ ولِمَ لا تُخبريني بما حصلَ فعلاً؟»

ردت إنسي:

«أنا مُتعبة جداً، لكننا سُعداء بعودتكَ إلينا، ستكون بايبه ليبه أكثر من سعيدة، وأنا متأكدة أنها ستنفجر باكية عندما تراك.»

«لماذا لا تجيبين عَن أسئلتي؟ لماذا لا تقولين الحقيقة عما حصَل؟ أنا أراكِ خائفة؟»

«لقد أصبحَت الأمور أكثر صعوبة في الأسابيع الأخيرة، والأفضل أن تسمع التفاصيل من بايبه نفسها فهي تعرف أكثر مني.»

قطعت السيارة مناطق سكنية مكتظة. الصور المُظللة لمناطق صناعية ومعامل بدت في الظلام كأنها أشكال حيوانات مُنقرضة في الضباب الكثيف الذي غطى ريغا في ذلك اليوم؛ فبدت الشوارع شبه مهجورة، لم يتصور فالاندر أبداً أن تكون مُدن أوروبا الشرقية قد وصلت إلى هذه الدرجة من البرود الاجتماعي واللاحيوية.

أوقفَت إنسي السيارة أمام مستودع ضخم، وأطفأت المحرك. أشارت له نحو بوابة حديدية ضخمة وقالت له:

«اذهب الآن.»

«سأراكِ لاحقاً،» قال فالاندر.

«لا أدري، ولكن هذا ما ستُقرره بايبه.» ردت إنسي.

«يجب أن لا تنسي بأنكِ عشيقتي.»

ابتسمت وردّت:

مكسه

«ربما أنا عشيقة السيد إيكرس، لكن لا أدري فيما إذا كنتُ سأعشق السيد هيجل بالدرجة نفسها أم لا؟ أنا فتاة مُحترمة وغير مُعتادة على التعامل مع أي رجل كان!»

وبمجرد نزوله من السيارة قادها إنسي بسرعة لتختفي من المكان. للحظة قصيرة تلفت فالاندر باحثاً عن موقف حافلات قد يحتاج إليه للذهاب إلى مركز ريغا، ليبحث عن قنصلية سويدية أو سفارة تخلصه وترسله إلى السويد فيما لو ساءت الأمور. لم يتخيل كيف سيكون رد فعل أي دبلوماسي يعمل في السفارة السويدية عندما يعرف بوجود ضابط شرطة سويدي دخلَ بطريقة غير رسمية إلى ريغا، لكنه كان متأكداً من أن هذه المهمة من صُلب عمل الهيئات الدبلوماسية، وتمنى فقط لو أنهم سيساعدونه ويجدون له حلاً في حالة الاضطرار، لكنه أدرك أن هذه الفكرة مبكرة، فالآن عليه مواصلة ما بدأه، والسير على الممر القصير المكسو بالحصى، ليصلَ ويطرُق على البوابة الحديدية. فتحَ الباب شخص مُلتحٍ أحوَل العينين لَم يسبق لفالاندر أن التقى به. رحب به الرجل ورمىً بنظره فوق كتف فالاندر ليتأكد من عدم ملاحقة أحد له، ثم أدخله وأغلقَ الباب بسرعة.

شعَرَ فالاندر بأنه قد خُدِعَ عندما عرفَ بأنه موجود الآن في مخزن لألعاب الأطفال، فالرفوف الخشبية الضخمة تُغطي كل المكان المليء بالألعاب، وكأنه دخلَ في سرداب تحت الأرض فأحاطته الابتسامات المُقززة للدمى. ظن أن ما يحصل الآن مُجرد حُلم، وأنه ما يزال في غرفته في شارع ماريا في مدينتة السويدية- إيستاد، وأن كل ما حوله الآن ليس حقيقياً، وبالتالي يجب عليه فقط أن ينتظر أحداً ما ليوقظه من نومه ويُحرره من هذا الكابوس، لكن لم يوقظه أحد، بل كان هناك ثلاثة رجال وامرأة تقدموا نحوه من الظلام. الشخص الوحيد الذي تعرّفَ إليه فالاندر هو السائق الذي جلبه من ريغا في تلك الليلة التي قابلَ فيها

مكسه

أوبتس في صالة الرماية.

وبدأ معه الرجل الأحول الذي فتحَ له البوابة بالكلام:

«سيد فالاندر، نحن شاكرون لك كثيراً على عودتكَ إلى ريغا لمساعدتنا.»

«لقد عُدتُ تلبية لطلب بايبه ليبه، وليسَ هناكَ سبب آخر لعودتي، لذلك أريد مقابلتها.»

«هذا الأمر مُستحيل الآن،» ردت المرأة وبإنجليزية واضحة وأضافت مُبرّرة:

«إنها تحت المُراقبة طوال اليوم، لكننا نعرف كيفَ ومتى سنوصلكَ إليها.»

ثم تقدّمَ أحد الرجال صوبه حاملاً كرسياً خشبياً ليجلس عليه، وناوله آخرُ كوب شاي. كانت الإضاءة سيئة في مخزن الألعاب حتى أن فالاندر لم يتمكن من تمييز وجوه الحاضرين. بدا الرجل الأحول وكأنه قائد المجموعة أو على الأقل المتحدثِ الرسمي باسمها، إذ جلسَ القرفصاء أمام فالاندر وبدأ الكلام:

«حالتُنا الآن صعبة جداً، فنحن جميعاً تحت المُراقبة، الشرطة يعرفون أن العقيد ليبه خبأ مستندات مهمة قد تُهدّد وجودهم.»

«هل عثَرَت بايبه على الأوراق التي تركها زوجها العقيد؟» سأله فالاندر.

«ليسَ بعد،» رد الرجل.

«وهل هي تعرف مكان وجود هذه الأوراق؟»

«كلا، ولكنها مُقتنعة بأن حضرتكُم ستُساعدها في ذلك.»

«وكيفَ يُمكنني فعَلُ ذلك؟» رد فالاندر.

«أنت صديقُنا يا سيد فالاندر، وأنت مفتش شرطة مُتمرس في حل الألغاز.» رد الرجل.

مكتبة

فكر فالاندر مع نفسه بغضب: «هؤلاء مجانين، يعيشون في عالم تُسيِّره الأحلام، فقدوا كل التوازنات. يتصورون بأني القشة الوحيدة التي ستُنجيهم، وتُعيد لهم التوازن..».

وبغتة أدرك معنى أن يتعرضٍ المرء إلى الخوف والقمع. فهؤلاء بسبب ذلك صاروا يؤمنون بفكرة المُنقذ المجهول الذي سيأتي لتحقيق آمالهم المستحيلة التحقيق.

كان العقيد ليبه على العكس، فهو لم يثق مطلقاً بأحد غير نفسه، أما الأصدقاء الحميمون والثقات فهم أشياء مساعِدة لا غير. وبالنسبة له يُعتبر الاعتماد على مُعطيات الواقع هو الحل الأول والأخير لرفع الظلم عن الأمة اللاتفية. كان رجُلاً مُتديناً... لكنه لم يسمح لأي إلـه بتلطيخ دينه! والآن وبعد موت العقيد لَم يبقَ لهؤلاء نقطه للتمحور حولَها، وفكروا في أن يتحمل مفتش شرطة سويدي اسمه كورت فالاندر كل أعباء هذه المسؤولية.

صاحَ فالاندِر:

«يجب أن أقابل بايبه ليبه بأسرع وقت ممكن، وهذا بالنسبة لي شيء مهم ولن أتنازل عنه!»

«سيحصل هذا صباحاً،» رد الرجل الأحول.

شعرَ فالاندر بالتعب الشديد، وتمنى في تلك اللحظة أن يستحَم ويندَسَّ في سريره لينام. فعندما يتعَب لا يثق بقدرته على تقدير الأمور. كان خائفاً من ارتكاب غلطة قد تكون مُدمِّرة.

وفجأة اكتشف أن الرجل الأحول الذي ما يزال جالساً أمامه القرفصاء، يضع في حزامه مُسدساً. ولكسر الصمت الذي سيطر على المكان سأله فالاندر:

«ماذا ستفعلون بوصية العقيد فيما لو عَثرتُم عليها؟»

«يجب أن نجد طريقة لنشرها، وقبل كل شيء يجب أن تنقلها أنت

مكسه

إلى خارج البلد، لتُفكر بعدها في عملية نشرها، وحينها ستكون حدثاً ثورياً كبيراً. لأن العالم سيفهم ماذا يحصل بالفعل في بلدنا الجريح.»

شعرَ فالاندر حينها برغبة كبيرة في إعادة هؤلاء الناس الحائرين إلى جادة العقيد ليبه، لكنه لم يعثر في عقله المُتعب ومخزونه من اللغة الإنجليزية على ما يُقابل كلمة «مُنقذ». لم يعثَر على شيء سوى أنه الآن موجود في مخزن للدُمي في ضواحي ريغا، ولا يعرف ماذا سيفعل!

ثم سارَ كل شيء بشكل سريع جداً... إذ فُتحَت بوابة المخزن على مصراعيها. نهضَ فالاندر من الكرسي وشاهدَ إنسي قادمة تركُض بين الرَفوف. لم يتمكن من استيعاب ما حدث، وبعد ذلك حصلَ انفجار دفعه لرمي نفسه تحت أحد الرفوف المليئة برؤوس الدُمى. ثم اختُرقت بناية المستودع بالأضواء الكاشفة والانفجارات، وأول شيء شاهده فالاندر هو أن الرجل الأحول سَحَبَ مسدسه وراح يطلق النار باتجاه هدف مجهول. أدرك أن المستودع تعرض إلى اقتحام مُركّز. فزحفَ بعيداً خلف الرفوف، ووسط الدُخان والفوضى اللذين غطيا المكان. انقلَب عليه أحد الرفوف المُحملة بالدُمى، في حين استمر فالاندر بالزحف إلى أن وصَلَ إلى أحد الجدران، فتوقفَ هناك. اندلعَ صوت إطلاق الرصاص من الأسلحة المتنوعة بكثافة مخيفة، وسمع أحد الأشخاص يصرخ. التفت فرأى إنسي مُلقاة على الكرسي نفسه الذي كان جالساً عليه قبل قليل، وجهها أحمر من الدماء، وبدت كأنها أُصيبت في إحدى عينيها وماتت. وفي الوقت نفسه شاهدَ الأحول مُلقىً على الأرض وقد غطى وجهه بإحدى يديه، لم يتمكن فالاندر من أن يُميز فيما إذا كان ميتاً أم جريحاً. فكر في أن عليه ترك المكان في الحال، إلا أنه بينما كان محصوراً في تلك الزاوية بدأ ذوو البدلات العسكرية بالاندفاع داخل المكان يحملون أسلحتهم الرشاشة، وبفكرة خاطفة دفع أحد الرفوف المليئة بالدمى، فانهالَت عليه وغطته، فظل مُمَدداً تحتها دون أن يراه أحد. كان طوال

مكسه

الوقت يهجس باحتمال اكتشاف أمره. عندها سوف لا يفيده الجواز المُزور. ماتت إنسي، وبناية المستودع مُحاصَرة الآن، وهؤلاء الناس المجانين، الحالمون لم يحصلوا حتى على فرصة الدفاع عن أنفسهم.

وفجأة توقف إطلاق النار بالسرعة نفسها التي بدأ بها. أصبحَ الصمت مطبقاً، بينما حاول البقاء ممداً تقتصر حركته على التنفس.

سمعَ أصوت العسكريين أو رجال الشرطة يتناقشون مع بعضهم بعضاً، وتعرَّفَ إلى أحد الأصوات. كان دون أدنى شك صوت الرقيب زيدس.

كان بإمكان فالاندر أن يرى حركة العسكريين في المكان وهو مُختف تحت الدمى، فقد شاهد جميع أصدقاء العقيد موتى، في حين راحَ العسكَّريون ينقلون جثثهم على حمالات خشبية. كما أنه شاهدَ الرقيب زيدس يعطي الأوامر لرجاله بتفتيش المستودع بالكامل.

أغمضَ فالاندر عينيه وفكر في أن اللعبة قد انتهت، وأنهم سيعثرونَ عليه في الحال. وتساءل مع نفسه في تلك اللحظة كيف سيكون وقع ذلك على ابنته عندما تعلم أن أباها اختفى أثناء تمتعه بإجازته الشتائية في جبال الألب، وسيصبح اختفاؤه لُغزاً يُدرس في النشرات والكتب السنوية التي تُصدرها الشرطة السويدية العامة.

لكن لَم يأتِ أحد ويركُل الدمى المُلقاة فوق جسده. بدأ صوت الأحذية العسكَرية بالتخافت وكأنهم يتركون المكان، وانقطع صوت الرقيب المزعج وهو يُناشد رجاله. لم يبق سوى الصمت ودخان الذخيرة المحترقة. لم يعرف فالاندَر حينها كم من الوقت بقي ممدداً على الأرض. برودة الأرض الإسمنتية كانت قاسية إلى درجة جعلته يهتز وتتباعد من حوله الدّمى. نهضَ فالاندر بحذر، كانت إحدى رجليه خَدِرة، أو أنها كانت متصلبة من شدة البرد. لم يتمكن من أن يُحدد أياً منهما. كانت الأرض مُلطخة بالدماء وأغلفة الذخيرة منتشرة، ووجد فالاندر نفسه

مكسه

مُضطراً لسحب نَفَس عميق حتى لا يتقيأ.

فكرَ فالاندر حينها: «الآن عرفتُ بأنني أنا المطلوب من وراء هذه المجزرة، فالرقيب زيدس أمر جنوده بالبحث عني. لكنهم ربما اعتقدوا بأنني لم أصل حتى الآن؟!.».

لم يستطع التركيز على وجه إنسي الميتة ماثلاً أمامه، لذلك كان عليه مغادرة بيت الموت هذا. يجب أن يفهم أنه منَذ هذه اللحظة أنه أصبح وحيدا تماماً، وأن الشيء الوحيد الذي يجب أن يفعله هو البحث عن قنصلية أو سفارة سويدية في ريغا كي تساعده. ارتجفَ من الخوف، وشعَرَ بقلبه يخفق بشدة فتصور أنه سيُصاب بجلطة قلبية. وبغتة سالت دموعه لأن وجه إنسي وهي ميتة لم يفارقه طوال الوقت. و لم يعرف كم استغرق من الوقت حتى عاد إلى النظر في وضعه بشكل واقعي.

وجد البوابة الحديدية مُغلقة.

كان فالاندر مقتنعاً أن كل بناية المستودع تحت المراقبة، عليه أن يخرج من هنا، لكن ما دام الوقت نهاراً فإنه سوف لن يتمكن من الخروج. راحَ يستطلع المكان، خلف الرفوف الساقطة كان هناك نافذة مُغطاة بأتربة وقذارة متراكمة. تحرك باتجاهها بحذر شديد وسط أجزاء الدُمى وكأنه يخوض في ماء راكد. عندما وصلها أزاحَ بعض الأوساخ عنه وراح ينظر من خلالها. أول شيء شاهده سيارتا جيب كانتا واقفتين ومتجهتين نحو المستودع، وفيهما أربعة جنود مسلحين ويراقبون البناية بشكل مركز. ترك فالاندر النافذة وأخذَ ينظر حوله. كان عطشان، فكر في أنه لا بد أن يكون هناك ماء في المكان، لأنه قد شرب الشاي هنا قبل ما حصل. وبينما كان يبحث عن الماء فكر بشكل محموم ماذا سيفعل؟ فهو الآن مُطارَد من قبل أناس أظهروا قبل قليل قسوتهم اللامحدودة، فإذا فكرَ في الاتصال ببايبه ليبه فإن ذلك سيعني أنه سيقدم نفسه للإعدام.

مكسه

والآن هو متأكد بشكل لا يقبل الشك أن كلا العميدين أو أحدهما كان جاهزاً لعمل أي شيء من أجل أن لا ترى وصية العقيد ليبه ووثائقه النور سواء في داخل لاتفيا أو خارجها. لقد قُتلت إنسي الجميلة والخجولة بدم بارد وكأنها كلب غير مرغوب فيه. ربما كان سائقه المُجامل الرقيب زيدس هو الذي أطلقَ عليها النار.

جعله الخوف يشعر بالتهديد. وفكر في أنه لو كان يمتلك سلاحاً الآن فإنه سوف لن يتردد في استعماله، ولأول مرة في حياته شعرَ فالاندر بأنه جاهز لقتل إنسانٍ آخر، دون أن يحاول تحديد استعماله عند الدفاع الاضطراري عن النفس.

للموت وقت... وللحياة وقت....

تذكر فالاندر هذه العبارة المتناغمة التي ابتكرها في أحد الأيام عندما هجمَ عليه أحد السكارى وضربه بسكين في صدره داخل متنزه البلدمزبارك في مدينة مالمو. كانت الضربة قريبة جداً من القلب. هي الآن تحملُ كل معانيها. إذن عليه أن يحاول ويتجرأ، فإذا كان مكتوباً عليه الموت، فلا مهرَب من ذلك. أي إنه سوف لا يموت إلا في حينه.

بحث عن الماء إلى أن عثر على مرحاض قذر فيه حنفية يقطر منها الماء. غسلَ وجهه وأطفأ ظمأه، ثم ذهب إلى إحدى زوايا البناية. أضاء المصباح الذي كان مُعلقاً في السقف وجلسَ في مكانه منتظِراً هبوط الظلام وحلول المساء.

ولكي يسيطر على خوفه، حاول أن يُركز مع نفسه على ترتيب خطة الهرب...

في كل الأحوال عليه الوصول إلى مركز المدينة للبحث عن القنصلية أو السفارة السويدية، وهنا يجب عليه أن يحذر من أي رجل شرطة يقابله في الطريق، أو من أصحاب «البيريات السوداء» الأكثر خطراً من الشرطة. يجب التصرف بحذر ودقة، لكن سيضيع في كل الأحوال إذا لم

مكتبة

يعثر على السفارة السويدية. وهكذا وجد نفسه في كل مرة يعود ليفكر ثانية في قارب النجاة الأخير السفارة.

وفكر: « إن العميدين ما زالا يعتقدان أني أعرف أسرارالعقيد ليبه، وأنا أقول العميدين لأني حتى الآن لا أعرف أي منهما المسؤول عما حصل».

بعدها غفا عدة ساعات. لم يستيقظ إلا على صوت كوابح سيارة خارج البناية، فراح بين الحين والآخر يذهب إلى النافذة الوسخة ليُراقِب الشارع. الجنود ما زالوا على حيطتهم. قضى نهاره الذي بدا شديد الطول شاعراً بتدهور حالته الصحية، فكر في البحث داخل بناية المستودع عن منفذ للهرب، و لم يفكر في البوابة لأن الجنود يراقبونها بدقة.

في النهاية عثر على فتحة معزولة في الأرض عليها غطاء مليء بالصدأ، بدت وكأنها إحدى الفتحات المؤدية إلى مجاري التهوية. فوضعَ فالاندر أذنه على جدار الطوب ليسمع فيما إذا كان هناك جنود في داخلها أو واقفون تحتها. شعرَ بأنه تقريباً آمَنُ طريق الهرب، ففكرَ في أن عليه أن يستريح الآن قدر المستطاع. لكن النوم لم يأته، فجثة إنسي الهامدة بوجهها المُدمّى ماثلة كل الوقت أمامه.

بدأ الغروب... وصار الجو باردا...

بعد السابعة مساء مباشرة باشر فالاندر بمحاولة الهرب من هذا المكان.

حاول إزاحة الغطاء الصدئ لفتحة التهوية. وطوال الوقت كان يهجس بالكشافات الضوئية وهي تتسلط عليه، مصحوبة بصوت جهوري خشن يأمره بالتوقف مصحوب برشقة إطلاقات نارية تصطدم بالجدار المواجه له. أخيراً نجح وبحذر في رفع الغطاء. شاهدَ ضوءاً ضعيفاً من أحد المصانع المجاورة يسقط على أرض رملية خارج بناية المستودع. حاولَ أن يُعوِّد عينيه على النظر في العتمة، فشاهدَ مجموعة

مكسه

من الجنود حول البناية. وعلى بُعد حوالي عشرة أمتار من البناية رأى سيارة نقل كبيرة يعلوها الصدأ متوقفة في مكان للخردة. فقرر الوصول لذلك المكان سليماً وبدون أي إصابة. سحبَ نفساً عميقاً وخفّضَ جسده وركض بأقصى سرعته إلى ساحة الخردة. عندما وصلَ إلى مقدمة سيارة النقل عثرَ بإحدى الإطارات المُلقاة هناك، فضرب بإحدى ركبتيه الدعامة الأمامية للسيارة. شاطَ ألماً، وظن أن صوت الضربة سيجذب انتباه الجنود الموجودين في الجهة الأخرى من البناية، ومن حسن حظه لم يحصل ذلك، لكن الألم كان شديداً في رضفة ركبته التي بدأت تترف.

ماذا سيفعل الآن؟

حاول أن يتخيل فيما إذا كان للسويد قنصلية أم سفارة في لاتفيا....

شعرَ بشكل مفاجئ بأنه على وشك أن يستسلم، فهو ينشُد لقاء بايبه ليبه ولا سبيل لذلك.

عندما خرجَ من البناية الملعونة، البناية التي قتلت فيها إنسي ورفيقها الأحول، فكر في أنه نجا من أجل بايبه ليبه، التي يجب أن يوظف آخِر لحظة في حياته في البحث عنها.

سار بحذر شديد باتجاه الظلال القريبة، متابعاً أحد الأسوار المحيطة بالمنطقة الصناعية إلى أن دخلَ في شارع سيئ الإضاءة. لا يدري حتى تلك اللحظة في أي مكان هو، لكنه سمِعَ من مكان بعيد صوت دويّ يشبه صوت مرور مكثف في طريق سريع. قرر السير باتجاه مصدر الصوت. بين الحين والآخر كان يمر ببعض الناس أو يُقابله بعض المشاة. شكر مع نفسه يوسف ليبمان الذي جهزَه بهذه الملابس التي وجدها في حقيبة السفر التي سلمها له بريوس. مشى بحدود نصف ساعة مقترباً من مصدر الصوت، حاولَ إخفاء نفسه مرتين في الظلال عندما شاهدَ سيارات الشرطة. كان طوال الوقت يتساءل: «ماذا سيفعل؟».

مكسه

في النهاية أدركَ أن هناك إنساناً واحداً يُمكنه اللجوء إليه، وهذا بدوره يحتاج إلى مخاطرة كبيرة، لكنه لا يملكُ خياراً آخر، وهذا يعني في الوقت نفسه بأنه يجب أن يقضي ليلة أُخرى مُختفياً في مكان ما حتى الآن لا يعرف أين!

كان الليل بارداً. شعرَ بحاجة إلى الطعام. كي يُجهز نفسه إلى الليلة القادمة التي تنتظره.

وبشكل مفاجئ أدركَ أنه مع ذلك سوف لن يستطيع الوصول إلى ريغا. كانت ركبته تؤلمه، وشعر بالدوار من شدة التعب. فكر قليلاً قبل أن يقول لنفسه:

«هناك شيء واحد يجب أن أفعله.هو أن أسرق سيارة...»

هذه الفكرة أخافته كثيراً... لكنها كانت احتماله الوحيد.

وفي الوقت نفسه تذكرَ أنه شاهدَ سيارة لادا متوقفة في الشارع الذي مرَ به تواً. رجعَ إلى ذلك الشارع. لم تكن السيارة متوقفة قرب مترل بل كانت في مكان معزول، أي أنها مهجورة. حاول أن يتذكر التحقيقات التي أجراها للمعتقلين ممن كانوا يسرقون السيارات في السويد. تذكرَ أقوالهم في كيفية فتح القفل وربط أسلاك المحرك. ولكنه ماذا يعرف عن سيارات «اللادا»؟ فربما لا تنطبق عليها الطريقة التي تسري على السيارات السويدية!

كانت السيارة رمادية اللون مطعوجة في الدعامية الأمامية. توقفَ فالاندر في الظلام وراحَ يُراقب السيارة وما يُحيط بها، لا يوجد غير أضوية المصانع المُطفأة. سار إلى الأمام بجانب السياج السلكي الذي كان نصف مُهدّم. استطاع بأصابعه المتجمدة أن يسحب قطعة سلك من السياج وأن يُشكِل في طرفه عقدة صغيرة وتوجه بسرعة نحو السيارة.

سارت الأمور بشكل سهل جداً أكثر مما يتصور، فبمجرد إدخالَ السلك من خلال زجاج السيارة وسحبه، انفتحت الباب. وحشرَ

مكسه

نفسه في الحال خلف المقوَد وبدأ بالبحث عن مفتاح التشغيل والأسلاك الكهربائية المتصلة به. غَضِبَ كثيراً لأنه لا يملك أعواد ثقاب في جيبه ليستخدمها في رؤية المكان الآن. وسالَ العرق من جسمه، وفجأة ارتجفَ من بالبرد. أخيراً تمكن من أن يسحب كل الأسلاك المرتبطة بمفتاح التشغيل وراحَ يُجرب ربط بعض الأسلاك ببعضها. كانت عصا تبديل السرعة مُعشَقة، لذلك قفزت السيارة للأمام عندما ربط السلكين اللذين أدارا مُحرك السيارة. فتح الأسلاك، ووضع عتلة السرعات على الوضع المحايد، ثم عاد ليُجرب ربط الأسلاك من جديد، فاشتغَلَ المحرك. بحثَ عن عتلة الفرملة اليدوية لكنه لم يجدها، وضع كل الأزرار التي أمامه في وضع التشغيل ليتمكن من فتح أضواء السيارة، وعشّقَ عتلة السرعة فسارت السيارة للأمام.

فكرَ فالاندر: «هذا كابوس... لست مجنوناً أنا ضابط شرطة سويدي... يحمل جوازاً ألمانياً ويسرق السيارات في العاصمة اللاتفية ريغا...».

سارَ في الاتجاه نفسه الذي سلكه مشياً على الأقدام وحاولَ أن يعرف كل الأوضاع المختلفة لعتلة تبديل السرعات. وتساءلَ مع نفسه لماذا تفوح رائحة السمك داخل السيارة.

أخيراً نجح في دخول الشارع الذي كان قد سمعَ منه أصوات المركبات المُسرعة. عند مدخل الطريق أوشَكَ محرك السيارة على التوقف، إلا أنه تمكن من إعادة الحياة إليه ثانية. وهكذا صار يرى أضواء ريغا فقاد السيارة في ذلك الاتجاه، حاولَ أن يصل إلى لمناطق المحيطة بفندق لاتفيا. حيث أوقفَ السيارةِ ودخلَ في أحد المطاعم التي سبقَ أن زارها من قبل. وهنا شكَرَ مرة أُخرى يوسف ليبمان لأنه قالَ لبريوس أن يعطيه مبلغاً بالعملة اللاتفية، الذي لم يعرف مقداره، لكنه تمنى أن يكفيه لدفع ثمن وجبة الطعام. ثم قاد السيارة وعبر الجسر الذي يقطع النهر

مكسه

وانحرفَ نحو اليسار على امتداد الساحل. لم تكن حركة المرور كثيفة، لكنه وجدَ نفسه محصوراً خلفَ إحدى قاطرات «الترامواي» ودَهمه منبه سيارة أُجرة التي أُجبرت على التوقف المفاجئ خلفه. توتّر، ولم يتمكنَ من العثور على الوضعية الصحيحة لعتلة التبديل، لكنه نجحَ أخيراً في إدارة الموقف، فانحرفَ من الشارع ليدخُل أقرب شارع فرعي. اكتشف فالاندر بشكل متأخر أن الشارع ذو اتجاه واحد، إذ أقبل نحو حافلة فتوقفَ، وبصعوبة عثر على وضعية الحركة الخلفية. كان على وشك أن يترك السيارة في منتصف الشارع ويهرب، لكنه تمالك نفسه وانحرفَ في الشارع الموازي لفندق لاتفيا وأوقفَ السيارة هناك. كان مُبتلاً من التعرق، وعاد من جديد يُفكر في أنه سيُصاب بالتهاب الرئة إذا لَم يُبدل ملابسه بأخرى جافة ودافئة.

كانت ساعة الكنيسة تشير إلى التاسعة إلا ربعاً.

قطعَ فالاندر الشارع واتجه نحو بار تذكره من رحلته لريغا. كان محظوظاً إذ عثَرَ على طاولة فارغة. المكان مليء بالدخان. لم يُثِر وجوده في المكان انتباه أحد من الرجال الذين كانوا موجودين في المَكان، ولم يكن هناك أي شخص يرتدي بدلة عسكرية، شعر بأنه يجب أن يتصرف وكأنه السيد هيجل الذي يزور ريغا كتاجر للكتب الفنية. وعندما قدموا له قائمة الطعام اختار بشكل عشوائي إحدى الوجبات التي كانت مكتوبة باللغة اللاتفية. كانت صحناً من اللحم. شربَ بعده البيرة، فشعرَ بأن عقله فارغ تماماً.

عندما تناولَ وجبته شعَرَ بتحسّن في مزاجه. ولما شربَ كوباً من القهوة أَحَسَّ أن عقله بدأ يعمل من جديد. هو يدرك الآن أن عليه أن يُدبر أمره في الحصول على مكان للمبيت هذه الليلة. هنا عليه أن يستخدم معلوماته المسبقة عن البلد، ففي رحلته السابقة لاحظَ وجود عدة (بيوت ضيافة) وفنادق صغيرة مهترئة في الجهة الخلفية لفندق لاتفيا. قرر في الحال

مكسه

الذهاب إلى هناك واستخدام جوازه الألماني، وأن يضع فيه عدة أوراق نقدية سويدية فئة مائة كرون ويتركه على طاولة الاستعلامات، وسوف يدفع مقابل المبيت مقدماً لكي يتجنب أن يواجهه أحد بأسئلة غير ضرورية. وبالطبع فإن هناك مُخاطرة كبيرة في الموضوع، لأن العميدين بشكل مؤكد قد أمرا بالمزيد من الانتباه في جميع الفنادق الموجودة في ريغا، ولكن مع وجود هذه المخاطرة، فإن جوازه الألماني سيحميه على الأقل في المبيت لهذه الليلة. لأن بطاقات المقيمين في الفندق ستُقدَّم غداً صباحاً. كما أن هناك احتمالاً كبيراً أن يكون موظف الاستعلامات لا علاقة له بالعميدين، وليس مُهتماً بالاتصال بالشرطة.

شرب فالاندر القهوة وفكر في العميدين وبالرقيب زيدس الذي ربما يكون هو الذي قتل إنسي، التي كانت آخر عبارة لها: «أن بايبه ستكون سعيدة جداً برؤيتك...».

فكر في أن بايبه ليبه قد تكون موجودة في مكان ما وسط هذه العتمة.

نظر نحو الساعة المعلقة خلف طاولة البار. كانت تشير إلى العاشرة والنصف، دفع حسابه، فأدركَ أن لديه المزيد من النقود تكفي أيضاً لدفع ثمن مبيت ليلة في الفندق.

غادر البار. وقف أمام فندق «هيرمان» الذي كان يقع على بُعد عدة أمتار. كان الباب مفتوحاً، فصعدَ السلالم المؤدية إلى الطابق الثاني. كانت هناك ستارة مُسدلة خلف الباب، عندما دخل وجدَ امرأة عجوزاً محنية الظهر، تضع على عينيها نظارة سميكة. ابتسم فالاندر مجاملاً وقال لها «زيمير» وهي تحية لاتفية كان يعرفها، ووضعَ جوازه على الطاولة. هزّت العجوز رأسها وتمتمت بكلمات لاتفية وأعطته نموذجاً يتضمن معلومات شخصية يجب ملؤها، لأنه لاحظ أن المرأة لم تفتح جوازه لتقرأ اسمه على الأقل، فقد قرر بشكل سريع أن يُغيّر خطته، ووقعَ

مكسه

الورقة باسم اختلقه، وبسرعة قرر أن يختار اسم «بريوس» واختار اسم «مارتن» اسماً أولَ. وأعطى لنفسه سناً بحدود ٣٧ عاماً، وهو من مدينة هامبورغ. ابتسمت العجوز مجاملة، وسلمت له مفتاحاً وأشارت له إلى الرواق الموجود خلفه. فكر فالاندر أن هذه المرأة لا تعرف أي شيء عن تعليمات العميدين بخصوص إجراء غارات على جميع فنادق لاتفيا أثناء الليل، إذن بإمكانه أن ينام ليلته حتى يحين وقت الصبح. وبالطبع هم تدريجياً سيتوصلون إلى أن مارتن بريوس هو نفسه كورت فالاندر، لكن حينها سيكون خارج هذا المكان. أغلقَ باب غرفته، وفرحَ كثيراً عندما لمح الحوض في ملحق الغرفة، لم يُصدق هذا الاكتشاف حتى لمسَ الماء الدافئ فيه. خلعَ ملابسه في الحال وتمدد في الحوض. تغلغل الدفء في جسده فتثاقلَ، ثم نام مدة قصيرة.

استيقظ عندما أصبحَ الماء بارداً. جفف جسده. ارتدى ملابسه. واستلقىَ في السرير. سمعَ في الشارع الخارجي صوت ضجيج عربات الترامواي، فنظرَ إلى الخارج في العتمة، وشعر بالخوف بشدة هذه المرة.

ففكرَ في أن عليه المُحافظة على توازنه في العمل لتحقيق ما قرره من قبل. فإذا فقد السيطرة على قدرته على التمييز، فإن الكلاب التي تطارده ستنقضُ عليه في الحال، وحينها سيضيع.

عرفَ ماذا سيفعل!

ففي اليوم التالي سيبحث عن الإنسان الوحيد في ريغا الذي ربما يستطيع مساعدته في تأمين الاتصال مع بايبه ليبه.

لكنه لا يعرف اسم هذا الإنسان!

لكنه تذكر فقط أن شفتيها لونهما أحمر...

مكتبة

١٦

عادت إليه إنسي، وزارته قبل الفجر بقليل...

لكنها هذه المرة زارته بهيئة كابوس....

كابوس ظهرَت فيه إنسي وكأنها حية، بينما ظهرَ العميدان وهما يرتديان ملابس غامقة ويراقبانه من مكان ما، لم يستطع فالاندر أن يكتشفهما حينها. لكنه حذرها منهما، غير أنها لم تستمِع لِما قاله. لذلك عندما أدركَ أنه لا يستطيع مساعدتها قذَفَ بنفسه منَ السرير وهو نائم، فارتطمت عينه بحافة السرير.

أشارت ساعته اليدوية التي كانت مُلقاة على طاولة الغرفة حينها إلى الساعة السادسة إلا أربع دقائق، ودوّت قرقعة لإحدى عربات القطار في هذه الأثناء في الشارع. تمدد فالاندر في فراشه شاعراً لأول مرة منذُ مُغادرته للسويد بالارتياح. وظل مستلقياً في فراشه ومُراجعاً معَ نفسه ما حصَل قبلَ يوم. فالمجزرة الدموية ما تزال شاخصة أمامَه حتى الآن، بالرغم من محاولته تصويرها على أنها ضرب من الخيال. فهو لم يستوعب أبداً أن ما حصل ممكن أن يحصلِ بالفعل. وبالتالي عجزت حكمته عن فهم الجريمة التي وقعت أمامه، وأحرجَ أمام شبح إنسي الميتة لدرجة أنه لم يجد لنفسه عُذراً يُبرر عدم مبادرته لإنقاذها أو إنقاذ ذلك الرجل الأحول أو أحد أولئك الذين كانوا في انتظارِه، الذين لم يتمكن حتى من معرفة أسمائهم.

أخيراً نهضَ من سريره قلقاً وغادر الغرفة قبل الساعة السادسة والنصف صباحاً. استقبلته العجوز في استعلامات الفندق بابتسامتها المُجامِلة وعباراتها اللاتفية غير المفهومة، وتسلمت منه أجرة المبيت في

مكسه

الغرفة. عرف فالاندر حينها بأن ما تبقى عنده من نقود يكفي للمبيت لعدة ليالٍ إذا ما اضطر إلى ذلك.

كانَ الفجر بارداً... لذلك رفع فالاندر سحاب معطفه إلى الأعلى وقررَ أن يتناول إفطاره قبل أن يبدأ بتنفيذ أي خطة عمل، وبعد أن تجولَ بحدود عشرين دقيقة في الشوارع الفارغة، عثرَ على أحد المطاعم الصغيرة. دخَلَ في المكان الذي بدا فارغاً وجلسَ على أحد الكراسي المركونة في الزاوية البعيدة عن الباب الخارجي. ثم طلبَ عدة شطائر وكوب قهوة. ظل جالساً هناك حتى الساعة السابعة والنصف، وتوصّلَ في تفكيره إلى أن النتيجة إما النجاح وإما الانهيار والفشل...ثم فكرَ من جديد في أنه كان مجنوناً عندما عادَ ثانية إلى لاتفيا...

بعدَ نصف ساعة وقفَ فالاندر أمام فندق لاتفيا، وفي المكان ذاته الذي اعتاد زيدس أن ينتظره فيه بسيارته. تردد لحظة... فلربما كان مجيئه هنا مُبكراً، أو لربما أن المرأة ذات الشفتين الحمراوين لم تأت بعد! لكنه في النهاَية دخلَ عبر الباب الرئيسي ونظر مباشرة إلى الاستعَلامات التي تجمّعَ عندها عدد منِ النزلاء ليدفعوا أجور مبيتهم. ثم مَرَّ عبرَ مجموعة الأرائِك التي اعتاد المُخبرون الذين كانوا يُراقبونه في رحلته السابقة على الجلوس عليها ليُراقبوه من وراءَ جرائدهم. اكتشف أخيراً أن المرأة التي قصدها كانت موجودة خلفَ طاولتها ومنشغِلة بتهيئة وترتيب معروضاتها من الصحف والبطاقات ليوم عمل جديد. فكر فالاندر في تلك اللحظة: «ماذا سيكون موقفي لو لم تتذكرني هذه المرأة؟ أو لو أنها بالأحرى أنكرتني؟ فربما هي كانت مجرد حلقة وصل.. ولا تعرف أي شيء عن المهمات التي تُناط بها؟ ومحتمل أن هذه المرأة لا تعرف بايبه».

انتبهت المرأة واكتشفت فالاندر واقفاً بجانب أحد الأعمدة العالية الموجودة في صـــالة الفندق. وأدرك فالاندر في الحال أنها عرفته، وأنها ليست خائفة من رؤيته مرة أخرى فتقدم نحو طاولتها ومد يده إليها

مكتبة

وتحدثَ معها بصوت عال وباللغة الإنجليزية طالباً منها شراء عدة بطاقات مختلفة عن مناظر ريغا الطبيعية والتاريخية. واصلَ معها الحديث كي يعطيها الفرصة الكافية لتتذكره وتستوعب ظهوره المفاجئ. وعندما لاحظَ فالاندر قلة عدد الناس الموجودين بالقرب منهما، التفت إليها واقترب منها أكثر، ثم سألها:

«هل عرفتِني؟ أنا الذي أعطيتِني في أحد الأيام بطاقة حفل موسيقي كي ألتقي مع بايبه ليبه هناك؟ أريدكِ الآن أن تساعديني على اللقاء بها مرة أخرى. فكما تعرفين فأنا لا أعرف الآن أي شخص آخر غيرك قادراً على مساعدتي في ذلك، علماً أن لقائي بها هذه المرة ضروري جداً ويجب أن يكون في أسرع وقت، أُريدكِ أن تعرفي أيضاً أن هذا الأمر خطيراً جداً لكونها الآن تحت المراقبة، وهل عرفتِ بما حصل ليلة أمس؟ افتحي الآن أحد الكتيبات المصورة وتظاهري بأنكِ تشرحين لي عنه وأجيبي عما سألتُك عنه في الوقت نفسه.»

لاحظَ فالاندر أن شفة المرأة السفلى بدأت ترتجف، وامتلأت عيناها بالدموع، فاستمر فالاندر بالحديث معها حول رغبته الشديدة لاقتناء العديد من البطاقات التي تُصور مناظر لاتفيا وليس ريغا فقط كي يوقف المرأة عن البكاء حتى لا ينتبه لها الآخرون، وبالفعل استطاعت المرأة في النهاية أن تُسيطر على مشاعرها وأدرك فالاندر أنها كانت على علم بعودته إلى لاتفيا؟! فواصل معها الحديث:

«أنا لا أعرف أي الطرق توصلني لبايبه... ولا أعرف حتى أي مكان يمكن أن اختفي فيه لحين لقائي بها.»

لم يكن فالاندر يعرف اسم المرأة... فكل الذي يعرفه عنها أن شفتيها حمراويّتا اللون!

ففكر مع نفسه حينها: «أليس من الخطأ الكبير أن أُعرّض هذه المرأة لمثل هذا الموقف الصعب؟ ألا ينبغي عليَ أن أستسلم وأن أبحث الآن عن

السفارة أو القنصلية السويدية؟».

ردت عليه المرأة بصوت منخفض:

«أنا لا أعرف إن كان بإمكاني أن أرتّبُ لك لقاء مع بايبه ليبه الآن! لكني أستطيع إخفاءكَ في بيتي إلى حين، ففي الوَاقع أنا لست من بين هؤلاء الذين تُراقبهم أجهزة الشرطة. حاول أن تنتظرني عند موقف الحافلة الموجود في الجهة الأُخرى من الشارع بعد ساعة. أما الآن فعليكَ أن تذهب...»

شكر فالاندر المرأة كأي زبون ووضعَ أحد الكتيبات المصورة في جيبه وغادر الفندق. استغل هذه الساعة للتجوال في أحد الأسواق الكبيرة واشترى من هناك قبعة سوداء محاولةً منه لتغيير مظهره عند الحاجة، وعندما انتهت الساعة وقف منتظراً عند موقف الحافلة. شاهد فالاندر المرأة وهي قادمة إلى موقف الحافلة متظاهرة بأنها لا تعرفه. بعد عدة دقائق صعدا في إحدى الحافلات، وجلس فالاندر خلفها على بعد عدة كراسٍ. سارت الحافلة بحدود نصف ساعة في مركز المدينة، ثم توجهت بعدها إلى إحدى ضواحي ريغا، وحاول فالاندر في هذه الأثناء أن يتبين الطريق، غير أنه لم يعرف منه إلا متنزه كيروف... ومرت الحافلة بعدها عبرَ مناطق سكنية متواصلة.

وعندما ضغطت المرأة على جرس التنبيه للنزول، لم يكن فالاندر متهيئاً وتوقعَ أنه سوفَ لن يدرك النزول من الحافلة، لكنه تمكن في النهاية من النزول في المنطقة نفسها. سارا بعدها عبرَ ساحة لعب للأطفال كانت مغطاة بالثلج وفيها مجموعة من الأطفال كانوا يلهون بالتسلق على إحدى المنصات الصدئة، ومن دون أن يدري، داسَ فالاندر على قطة ميتة كانت منتفخة ومُلقاة على الأرض. ثم تبعها إلى أن دخلا في مدخل مُظلم لإحدى البنايات الصغيرة، حيث توقفت المرأة هناك والتفتت إليه قائلة:

مكسه

«أنا أسكُن في بيت صغير، يُشاركني فيه والدي العجوز. سأقول له إنك أحد أصدقائي المُشردين... ففي لاتفيا يوجد العديد من الناس الذين لا يملكون مساكن، تعوّدنا أن نساعدهم.»

كما أن لدي ابنتين ستعودان إلى البيت من المدرسة في نهاية النهار. سأكتُب لهما بأنكَ أحد أصدقائي الحميمين، وسأوصيهما بأن يعملا لكَ شايا. مسكني يا سيد فالاندر ضيق ولكن هذه كل إمكانياتي..

كانت الشقة ضيقة بالفعل، فيها غرفتان، لكنها بالإجمال كانت عبارة عن مطبخ. في إحدى الغرف كان هناك رجل عجوز مُمدد على سرير.

سألها فالاندر:

«ما اسمكِ؟ فحتى الآن لا أعرف اسمكِ؟»

ردت المرأة:

«اسمي فيراا. أما أنت فاسمكَ طبعاً فالاندر.»

نطقَت فيرا اسمه، ففكر فالاندر في أنه أصبح متعدد الأسماء، ولا يدري أي منها يجب أن يُستخدم! نهض العجوز المتمدد على السرير واستند على ركبته ليُرحّب بالمتشرد الغريب! في حين اعترض فالاندر معتبراً من غير الضروري أن يُعرّض هذا العجوز لأي معاناة. كما أنه اعترض أيضاً عندما دعته فيرا لتناول الطعام في المطبخ، فهو لم يطلب منها أكثر من ملجأ ليختفي فيه. اشتاقَ فالاندر لشقته في شارع ماريا في إيستاد التي هي أكبر من هذه الشقة بثلاث مرات، وشعر بالاستحياء لطلبه من فيرا أن توفر له هذا المخبأ. اصطحبته فيرا بعد وجبة الطعام لتُريه الغرفة الثانية التي كانت تحتوي على سرير وقالت له:

«هنا يمكنك أن تستريح، أغلق باب الغرفة إذا أردت أن تكون وحيداً. أما بالنسبة لي فسأذهب لعملي في الفندق، وسأعود في أسرع وقت.»

مكتبة

«لا أُريد أن تُعرضي نفسك للخطر.» قال لها فالاندر.

«أنا سعيدة للجوئك إليّ، وسوف أقوم بكل ما هو ضروري،» ردت فيـــرا.

ذهبت فيرا تاركة فالاندر جالساً عند حافة السرير، وفكر ساعتها بأنه أخيراً وصل إلى هذا المكان الذي لم يتوقعه... وعليه الآن أن ينتظر اللقاء ببايبه ليبه...

عادت فيرا من الفندق قبل الساعة الخامسة.

شرب فالاندر الشاي مع ابنتَي فيرا قبل أن تعود. كان اسم الأولى (ليفا) وسنّها اثنا عشر عاماً، أما الثانية فكان اسمها (سابينا) وسنّها أربعة عشر عاما. تعلم فالاندر منهما بعض الكلمات اللاتفية، وقرأ لهما بعض الأناشيد السويدية للأطفال (إمسه بــيمسه سبيندل.....) التي دفعتهما للتضاحك فيما بينهما بصوت منخفض. كما غنى والد فيرا العجوز لهم أُغنية عسكرية قديمة. وبذلك نجحَ فالاندر في التخلص ولو لمدة قصيرة من شبح عين إنسي التي أُدميت في تلك المجزرة العنيفة التي وقعت أمامه. واكتشف فالاندر من خلال تلك المدة القصيرة التي قضاها مع البنتين، بأن هناك حياةً عادية تجري بعيداً عن عالم العميدين الشريرين الذي سجله العقيد ليبه في مذكراته السرية. إن عالم (سابينه) و(ليفا) وأمهما فيرا وجدّهما العجوز هو عالم البشرية الذي يمكن للمرء أن يُصادفه في الشارع أو في أي مكان آخر مثل مخزن الدمى الذي وقعت فيه تلك المجزرة التي شهدها فالاندر بعينيه قبل ليلة.

عندما عادت فيرا من عملها حضنَت ابنتيها. ثم انفردت بعد ذلك بفالاندر في الغرفة بعد أن أغلقَت الباب، ثم جلسا معاً على السرير وارتبكت فيرا عندما لمس فالاندر يدها ليُعبِر لها عن شكرهِ. وسحبت يدها في الحال، فأدرك فالاندر بأنها فهمت تصرفه العفوي هذا بشكل خاطئ. وبدلاً من أن يعتذر لها، راح يسألها عن مدى نجاحها في تأمين

مكتبة

اتصاله ببابيه ليبه. فأجابته حينها:

«إن بابيه حزينة جداً وهي متألمة لفقد أصحابها، وبالأخص إنسي... لقد سبق إن حَذّرتهم من تزايد مراقبة الشرطة، وناشدتهم أكثر من مرة أن ينتبهوا، لكن للأسف وقعِ ما كانت تخشاه. إنها الآن تبكي بحرارة وغضب... انها متلهفة لمقابلتك هذه الليلة يا سيد فالاندر... وقد أعددنا خطة لذلك. ولكنني أطلبُ منك أن تتناول الطعام قبل أن أشرح لك ذلك.»

انحشرَ الجميع حول الطاولة التي سحبتها فيرا من أحد جدران الغرفة التي يوجد فيها سرير الأب. وفكر فالاندر لحظتها بأن عائلة فيرا تعيش في (كرفان)، وتساءل مع نفسه: «كيف يمكن للمرء أن يتحمل العيش في مثل هذا الضيق؟»

وتذكر في الوقت نفسه الليلة التي زار فيها بيت العميد بتنس خارج ريغا، وتوصل إلى أن بتنس هذا أصدرِ أوامره إلى العديد من الذين تحت إمرته أن يشددوا مراقبتهم على الناس مثل العقيد ليبه وإنسي كي يحمي الامتيازات التي يتمتع بها. شاهد فالاندر الآن الفرق بين حياته في السويد وبين الحياة هنا، فمع كل اتصال أو حركة بين هؤلاء الناس لا بد أن تتلطخ أيادي المسؤولين هنا بالدم!

تناولوا حساء خضراوات أعدته فيرا في فرنها الصغير. بينما أعدت البنتان الصغيرتان طبق الخبز وكؤوس البيرة. ولاحظَ فالاندر بأن فيرا لا تُبالي الآن بعائلتها بسبب غضبها لفقد زملائها. وفكر مرة أخرى بأنه قد أخطأ عندما طلب المساعدة من فيرا وعرّضَ عائلتها للخطر. فماذا سيفعل يا تُرى لو حصل شيء ما؟

وعندما انتهت وجبة العشاء رتبت البنتان الطاولة وعاد الأب العجوز إلى سريره ليستريح، وهنا سألها فالاندر:

«ما اسم أبيك؟»

مكسه

«اسمه أنتون،» ردت فيرا، «سنّه ٧٦ عاما، يعاني من آلام في الكليتين، وكان يعمل مشرف عمل في إحدى المطابع. فالعاملون لمدة طويلة في هذه المهنة يكونون مُعرّضين للإصابة بالتسمُم بمادة الرصاص، التي تؤدي للشرود الذهني والارتباك النفسي. فأبي في أكثر الأحيان تجده سارحاً خارج العالم، بسبب إصابته بالشرود الذهني.»

جلسا مرة أخرى على السرير وأغلقا الستارة خلف باب غرفة نوم فيرا، وهذا ما دعى البنتين لأن يتهامسا ويتضاحكا فيما بينهما، وحينها عرف فالاندر أن اللحظة التي ينتظرها قد حانت. وبدأت فيرا بالحديث:

«هل تتذكر كنيسة جيترود التي التقيت فيها مع بايبه ليبه أثناء العرض الموسيقي؟»

هز فالاندر برأسه، دلالة على أنه تذكر المكان. وتابعت فيرا كلامها:

«هل تظن بأنك قادر على الذهاب الى هناك؟»

«ليس من هنا، بالطبع.» رد فالاندر.

«ولكن من فندق لاتفيا، أي من مركز المدينة.»

– نعم بإمكاني، قال فالاندر.

فردّت فيرا:

«الحقيقة أنا لا أستطيع مرافقتك إلى هناك، لأن الأمر فيه خطورة بالغة. لذا عليك في هذه الحالة أن تتدبّر أمرك وتستقل إحدى الحافلات التي تذهب إلى مركز المدينة، على أن لا تترل عند منطقة الحافلة المقابلة لفندق لاتفيا، بل حاول أن تترل في الموقف الذي بعد الفندق أو قبله، وهناك حاول أن تتذكر بنفسك الطريق المؤدي إلى الكنيسة. موعدك هناك في الساعة العاشرة، عند الباب الخلفي لمقبرة الكنيسة الذي استخدمته في المرة السابقة.»

مكسه

هزّ فالاندر رأسه. وبالرغم من أنه لم يكن متأكداً، غير انه ظنّ أنه يتذكر كل شيء.

«إذن اذهب إلى هناك بعد أن تتأكد من عدم وجود مَن يُراقبكَ... وانتظر هناك. حيث أن بايبه هي أيضاً ستذهب إلى هناك.»

«ولكن كيف استطعت الاتصال بها؟» سألها فالاندر.

«لقد اتصلتُ بها هاتفياً؟» ردت فيرا.

«ألم يكن هاتفها مُراقَباً؟» سألها فالاندر.

«بالطبع مُراقب،» ردت فيرا. «لكنني عندما اتصلتُ بها لم أتكلم معها بشكل مباشر، بل أخبرتها أن الكتاب الذي حجزته عن طريق معرض بيع الكتب قد وصل. فأدركت حينها أن عليها أن تذهب إلى ذلك المعرض الذي بدوري قد تركتُ عنده رسالة أخبرتها فيها بأنكَ قد وصلت! وأنك الآن عندي في البيت. وبعدَ عدة ساعات ذهبتُ ثانية إلى ذلك المعرض، وعرفت أن إحدى صديقات بايبه قد نقلت منها رسالة أخبرتني فيها بأنها ستذهب إلى كنيسة جيرترود هذا المساء.»

«ولكن ماذا يحصل لو أنها لم تأت؟» سألها فالاندر.

«في هذه الحالة لا أستطيع مساعدَتكَ،» ردت فيرا. «كما أرجو أن لا تعود إليّ مرة ثانية.»

أدركَ فالاندر أنها كانت مُحقة... وأن هذه هي الفرصة الوحيدة له كي يرى بايبه ليبه. وفي حالة عدم نجاحه في تحقيق ذلك، فعليه أن يفكر في البحث عن أي سفارة أو قنصلية سويدية ليلجأ إليها ويطلب منهم العودة إلى بلده.

التفت فالاندر وسأل فيرا:

«هل تعرفين مكان السفارة السويدية في ريغا؟»

فكرت فيرا قبل أن تُجيب، ثم ردت:

«لا أعرف فيما إذا كان للسويد أي سفارة هنا!»

مكتبة

«لا بد أن يكون هناك مكتب دبلوماسي تابع للسويد.» رد فالاندر.

«لا علم لي بذلك.» ردت فيرا.

«يمكن أن يكون عنوانها مُثبتاً في دليل الهواتف.» قال فالاندر. «هل لكِ أن تكتبي لي اسم السفارة أو القنصلية السويدية باللغة اللاتفية، لعلي أعثر على دليل هواتف في أحد المطاعم. كما أرجو منكِ أن تكتبي كلمة (دليل هاتف) باللغة اللاتفية.»

وبالفعل كتبت له فيرا ما أراد على ورقة خلعتها من أحد دفاتر ابنتيها، وعلمته أيضاً طريقة لفظ الكلمات.

بعد حوالي ساعتين ودّعَ فالاندر فيرا وعائلتها وغادر البيت بعد أن أعطته فيرا أحد قمصان أبيها القديمة مع ربطة عنق في محاولة منها لتغيير مظهره، وعدة عملات نقدية صغيرة ليدفع ثمن بطاقة الحافلة. فكر حينها بأنه سيفتقد هذه العائلة التي آوته، وذهبَ باتجاه موقف الحافلات عابراً ساحة لعب الأطفال التي تعـثّرَ فيها في المرة السابقة بقطة ميتة كانت ملقاة هناك، مُعتبراً ذلك نذير شؤم.

عندما استقل فالاندر الحافلة وجدها شبه فارغة، فحركة الناس في ريغا تصبح قليلة في المساء وبالتالي يقل عدد الركاب في الحافلات نحو المدينة. جلسَ في المقعد الخلفي للحافلة بحيث كانت ظهور جميع الركاب أمامه. اجتاحه من جديد شعور بأنه الآن مُراقَب! فالتفت للخلف لينظر من خلال الزجاج الخلفي القذر للحافلة ليرى فيما إذا كانت هناك إحدى السيارات تُتابعه. ورغمَ أنه لَم يرَ شيئاً، إلا أن شعوراً غريزياً بالقلق اجتاحه وجعله على يقين من أنهم اكتشفوا وجوده في ريغا، وهو الآن تحت المراقبة ولن يتركوه أبداً بسلام... فهم لا يُراقبونه فقط، بل يراقبون حتى بايبه ليبه في الوقت نفسه. وسينتظرون لقاءهما وينقضّون عليهما حال ظهور وصية العقيد ليبه. حاول أن يقرر ماذا

مكسه

سيفعل، فما زال يفصله حوالي ربع ساعة عن الوصول إلى المدينة. وفي محاولة منه للإفلاتِ من المراقبة، عزم أن يُباغت هؤلاء المخبرين! فقرر أن يكسر تعليماتَ فيرا وأن يترل من الحافلة عند الموقف المقابل لفندق لاتفيا. ودخلَ مباشرة إلى الفندق من دون أن ينظر إلى ما حوله واتجه نحو الاستعلامات وتحدثَ معهم بصوت عالٍ وباللغة الإنجليزية وسألهم فيما إذا كانت هناك غرفة فارغة لليلة واحدةٍ أو ليلتين، ثم قدّمَ للموظفة جوازه الألماني الذي يحمل اسم جيتفريد هيجل. كما أنه أخبرهم بأن حقائبه ستصل لاحقاً هذا اليوم، وطلب من موظفة الاستعلامات أن توقظه في منتصف الليل لأنه ينتظر مكالمة هاتفية مهمة. ثم تسلم مفاتيح الغرفة وذهبَ نحو المصاعد، إذ إن غرفته هذه المرة كانت في الطابق الرابع. وأثناء وجوده في المصعد حاولَ أن يتذكر الطريق الذي سيسلكه كي يصل إلى باب الفندق الخلفي. وحالَ توقف المصعد في الطابق الرابع، تذكر فالاندر أن كل طابق فيه سلالم اضطرارية تربطه ببقية الطوابق، فسار بدون تردد وسط الرواق المظلم نحو السّلم وسلكه نازلاً، وتمنى لحظتها لو أن السلطات لم تلحق حتى الآن مراقبة الفندق. استمر نازلاً إلى أن وصل إلى الملجأ وراحَ يبحث عن ذلك الباب الذي يؤدي للجهة الخلفية للفندق. تردد للحظة وخافَ أن يكون الباب مُقفلاً... لكنه كان محظوظاً فالباب لم يكن مُغلقاً، بل وحتى المفتاح كان موجوداً فيه من الداخل. فتحَ فالاندر الباب وخرجَ إلى الشارع الخلفي المظلم ووقفَ هناك للحظة صامتاً ونظر حوله في الشارع الذي كان مُقفراً. سمع في هذه الأثناء وقعُ خطى متسارعة نحوه من بعيد، فركضَ بإقصى سرعته نحو الشارع ودخل في أول انحرافة ولم يتوقف إلا بعد أن أصبحَ على بُعد ثلاثة شوارع عن الفندق. توقفَ لاهثاً وحاول أن يخفي نفسه عند إحدى البوابات ليستعيد أنفاسه ويرى فيما إذا كان هناك مَن يُلاحقه. وحاولَ في تلك اللحظة أن يتخيل حالة بايبه وهي تحاول

مكسه

الإفلات من المخبرين.

قبل الساعة التاسعة والنصف بقليل أصبحَ فالاندر أمام كنيسة جيرترود التي كانت جميع نوافذها مُطفأة. ثم ذهبَ إلى الباب الخلفي للكنيسة وانتظرَ هناك. وسمعَ من مكان ما أشخاصاً يتخاصمون ويتبادلون الكلمات الغاضبة، ثم ساد الصمت. وفي محاولة منه للتغلُب على البرد، حرّكَ فالاندر قدميه وحاولَ أن يتذكر التاريخ لذلك اليوم. شاهدَ في الشارع عدداً من السيارات المتفرقة وتوقعَ بأن إحداها ستتوقف فجأة وتقفز منها الكلاب لتنقض عليه في مُخبئه هذا بين براميل القاذورات. عاوده مرة أُخرى الشعور بأن العميدين قد اكتشفا وجوده، وفكرَ في أن محاولته للدخول إلى الفندق كانت غير مجدية، كما أن لجوءه عند المرأة ذات الشفتين الحمراوين- فيـــــــــــــرا، كان بحد ذاته خطأً كبيراً! فمَن يدري، قد تكون هذه المرأة تعمل لصالح العميدين! وبالتالي فإن كلاب المراقبة ربما يُحيطون الآن بالكنيسة مُنتظرين اللحظة التي ينقضون فيها عند ظهور وصية العقيد؟ حاول أخيراً أن يطرد هذه الأفكار عنه وأدركَ بأن الاختيار الوحيد الذي أمامه الآن هو الهرب واللجوء إلى أي قنصلية أو سفارة سويدية. لكنه في الوقت نفسه كان متأكداً بأنه لا يستطيع ذلك.

ضربت ساعة برج الكنيسة عشر ضربات. فترك فالاندر الحديقة الخلفية، وتأمل الشارع باهتمام. حاول أن يسرع في الذهاب إلى البوابة الحديدية التي أحدثَت صريراً عندما انفتحَت، على الرغم من أنه دفعها بحذر شديد. كانت بعض مصابيح الشارع تلقي بأضويتها على السور الخارجي للكنيسة. وتوقف قليلاً لينصت لما حوله بحذر، فكان الصمت يعم المكان. سلَك الطريق المُدرج صاعداً الممر الجانبي الذي عبر من خلاله في المرة السابقة هو وبايبه عندما غادرا الكنيسة. وعاوده من جديد الشعور بأنه الآن تحت المراقبة وأن المُخبرين موجودون في مكان

مكتبة

ما أمامه.

ظهرت بابيه ليبه فجأة من وسط الظلام وبدون أن تُحدِثُ أي صوت، لدرجة أن فالاندر جفَلَ عندما اكتشفها. تقدمت إليه وسحبته معها بشكل سريع عبر البوابة ودخلا إلى الكنيسة معاً. وحينها أدرك فالاندر أن بابيه ليبه كانت تنتظره داخل الكنيسة. أغلقت البوابة وسارا معاً في قاعات الكنيسة العالية السقوف، وكانت تمسك بيده طوال الوقت لتدله على الطريق. ثم وصلا أخيراً إلى مخزن في الصومعة كان عبارة عن غرفة صغيرة بدون نافذة، فيها طاولة عليها مصباح، كانت بايية مُختفية وتنتظره هناك منذ عدة ساعات. وضعت بابيه قبعتها الفرو على أحد الكراسي، واستغربَ فالاندر عندما شاهدَ صورة العقيد ليبه بجانب المصباح الذي كان بجانبه أيضاً تِرمس شاي وعدة تفاحات مع قطعة خبز. شعر فالاندر حينها وكأنه قد دُعيَ لتناول وجبة (العشاء الأخير) وتساءل مع نفسه: «إلى متى يا تُرى سيستمر بقاؤهما هنا قبل أن يقبض عليهما العميدان؟ وما هي العلاقة بين بابيه والكنيسة؟ ثم هل إنها تؤمن بإله ما على العكس من زوجها؟».

ثم رد على نفسه: وماذا تعرف يا فالاندر عن زوجها؟ أليس القليل القليل!

لاحظ فالاندر بأن بابيه كانت حزينة جداً وبكت بحرارة، وعندما حضنته بقوة عند دخوله الصومعة، شعرَ بأن يديها كانتا متصلبتين حول ظهره كطوق حديدي. حيث همست له:

«لقد قتلوا إنسي ... قتلوا الجميع. لقد ظننتُ بأنكَ مُـتَ معهم عندما سمعت بالخبر، ولم أتخلص من ظنوني حتى اتصلت بي فيـــــرا.»

«كانت حادثة مُرعبة.» رد فالاندر. «ولكن علينا أن لا نفكر فيها الآن...علينا أن لا نُضيع وقتنا.»

مكتبة

«يجب أن نفكر دائماً في ذلك،» ردت بايبه. «لأننا لو نسينا ذلك فهذا يعني أننا سننسى أكواماً بشرية.»

«أنا لم أقصد النسيان إلى الأبد،» قال فالاندر. «بل علينا أن نواصل سعينا في القضية إلى الأمام، فالحُزن المتواصل يجعل المرء مشلول القوى.»

غاصت بايبه في كرسيها لدقائق وقد هدّها التعب.. وتساءل فالاندر مع نفسه «كم من الوقت ستستمر بايبه بهذه الحالة؟».

أصبحت الليلة التي أمضاها فالاندر مع بايبه في الكنيسة نقطة مهمة في حياته، فقد سارَ فيها خطوة نحو لُب العصر الذي يعيشه! ففي السابق لم يتأمل فالاندر حياته بشكل واقعي، فهو كثيراً ما كان يجفل من فهم الحياة عندما يعيش اللحظات الكئيبة أثناء وقوفه على حالة من حالات الموت المختلفة التي يتعرض لها البشر، كأن تكون حادثة مرور عابرة أو حالة انتحار شخصي... فيرى دائماً أن الحياة قصيرة جداً أمام الموت. وكان يرى أن الحياة عبارة عن كومة من الخيوط الملفوفة حول بعضها، وشك في إمكانيته من تقوية حياته وإغنائها بمفاهيم معينة أو وصفة فلسفية. توصلَ اليوم إلى أن المرء يموت عندما يموت ولا يوجد أي داعٍ للتأمل بحدود أكثر للحياة. لكنه وبعد هذه الليلة التي قضاها مع بايبه في الكنيسة صار ينظر في داخل نفسه بشكل أعمقٍ وأدرك أن العالم بأسره لا يشبه السويد أبداً. كما أن مشاكله الخاصة بدت وكأنها لا شيء مُقارنة بمشاكل حياة بايبه ليبه. فالليلة التي سبقت هذه الليلة عاشَ وسط مجزرة حقيقية ماتت فيها إنسي الجميلة.. مجزرة أصبحَ فيها الخيال حقيقة فكان العميدان موجودان والرقيب زيدس هو الذي أطلقَ الرصاص الحي من سلاحه، وفرضَ عليه الخوف بشكل دائم. فكر فالاندر ساعتها: «أنا أعيشُ في عصر الخوف؟ هذا ما لَم أكن أدركه من قبل على الرغم من بلوغي متوسط العمر في هذه الحياة».

مكسه

قالت له بايبه إن الكنيسة مكان آمن، ولا يوجد آمن منها، لأن القس في هذه الكنيسة كان من الأصدقاء المقربين لكارل ليبه، فهو لم يتردد أبداً في الموافقة على تأمين المأوى لي في الكنيسة عندما طلبت منه ذلك. تحدثَ لها فالاندر عن إحساسه الغريزي بأن العميدين قد عرفا بوجوده وأنهما الآن ينتظرانه خلف الكواليس.

فردت عليه بايبه:

«ولماذا ينتظران؟ إذا كانا متأكدين من وجودك؟ فهذا الصنف من البشر لا يعرف الانتظار عندما ينوي القبض على أي شخص يمكن أن يُهدد وجوده.

أدرك فالاندر أن بايبه كانت مُصيبة تماماً. لكنه في الوقت نفسه قصَدَ أن وصية العقيد هي الأهم. فهم يخافون من الوثائق التي تركها العقيد خلفه. أما وجود أرملته مع شخص آخر فيعتبرانه شيئاً ثانوياً. لأن هذا الشخص حسب تقييمهم لا يتجاوز كونه رجل شرطة سويدياً لا حول ولا قوة له. وفكر في أن لا يُفضي بأفكاره وتخيلاته لبايبه. وفجأة فكر في وجود سبب آخر يحول دون انقضاض المخبرين عليهما الآن ونقلهما ربما إلى مركز الشرطة. لكنه لَم يُصرح بشيء لها خوفاً من تعرّضها للإجهاد.

أدرك فالاندر أن سبب حالة الارتباك التي تعيشها بايبه الآن هو حُزنها على إنسي وبقية زملائها، إضافة إلى عدم معرفتها بالمكان الذي أخفى فيه كارل وصيته. فقد دققت في جميع الأماكن المحتملة، وحاولت أن تفكر في جميع الاحتمالات لكنها لم تجد أي حل... فقد خلعَت قطع السيراميك الموجودة في الحمام من مكانها، ودققت في كل الفجوات الموجودة في قطع أثاث البيت، لكنها لم تعثر إلا على الغبار وعظام الفئران الميتة.

حاول فالاندر أن يُساعدها، فنهضَ من مكانه وحضنها بقوة، ثم

جلس قبالـــتَها تماماً حول الطاولة وبدأ بارتشاف الشاي وفكر مرة أخرى في أن يأخذها معه إلى السويد. لكنه أدرك تماماً أنها سوف لن تقبل مثل هذا الاحتمال، أو على الأقل ليس الآن بعد مقتل إنسي وبقية زملائها، فهي ربما الآن تُفضِل الموت على فكرة الاستسلام وعدم مواصلة البحث عن وصية زوجها. في الوقت نفسه فكر فالاندر بروية في الاحتمال الثالث، الذي يُشير إلى أن هؤلاء المُخبرين وصلتهم تعليمات توصيهم بعدم إلقاء القبض عليه وعلى بايبه الآن رغم تمكنهم من ذلك! فالمخبرون الموجودون الآن في الظلمة هم ليسوا أعداء فقط، وإنما هم أعداء لأعداء آخرين أيضاً! وفق العلاقة الشائكة بين العميدين.

كانت الليلة التي انقضت في الكنيسة بمترلة رحلة قامَ بها فالاندر وبايبه لاكتشاف قارة مجهولة كان عليهما ان يبحثا فيها عن شيء لا يعرفانه، قد يكون علبة ملفوفة بورق أسمر أو حقيبة سفر!

كان فالاندر مقتنعاً بأن العقيد ليبه رجل يعرف كيفَ يختار المكان الملائم لإخفاء أسراره. كما أنه يدرك بأن أي مخبأ سيفقد قيمته إذا كان مكاناً تقليدياً. لكنه كي يعرف بالتحديد قرار العقيد ليبه، عليه أن يعرف المزيد عنه من خلال زوجته بايبه. وهكذا طرح عليها المزيد من الأسئلة التي لم يرغب في السؤال عنها، التي أعاد بعضها عليها لأكثر من مرة، حتى إنها طالبته في بعض الأسئلة أن يحترم خصوصياتها، هكذا طرقَ فالاندر حياتهما، وأدرك التفاصيل الدقيقة. وبين حين وآخر ظنا بأنهما في طريقهما للوصول إلى الحل. لكنهما يكتشفان في النهاية أن مسارهما كان خاطئاً. وعندما قاربَ الوقت على الثالثة والنصف صباحاً، كان فالاندر على وشك أن يستسلم! وتأملَ وجهها المُتعب بعينيه اللتين أرهقهما السهر والتركيز وسألها:

«ماذا يوجد بعد؟» وجّه فالاندر هذا السؤال لنفسه مثلما وجهه لها.

«لا بد أن يكون هناك مكان يمكن للمرء أن يبحثَ فيه؟ فأي مخبأ لا

مكسه

بد أن يكون مُحددًا بأبعاد تقليدية كالطول والعرض.. مثل أي غرفة، لكنه يجب أن يكون غرفة مستقرة، مقاومة للماء أو الرطوبة، ومأمنة ضد الحريق، وضد السرقات!». ثم اندفع في أسئلته من جديد:

«هل يوجد في بيتكم ملجأ سرّي؟»

هزت بايبه رأسها بالرفض

«لقد تحدثنا سابقاً عن سقف الشقة، وعن بيت أختك الصيفي، وعن بيت أبي زوجكِ في مدينة (فينتسبيل)... فكري معي الآن.. يجب أن يكون هناك احتمالات أخرى.»

لاحظ فالاندر أنها أوشكت على الانهيار، خاصة عندما ردت عليه:

«كلا، لا يوجد أي مكان...»

«ليس بالضرورة أن يكون المكان داخل بناية،» قال فالاندر.

فقد سبق أن تحدثتِ لي عن خروجكما بعض الأحيان لساحل البحر. فهل هناك صخرة محددة كنتما تجلسان في العادة عندها؟ أو مكان كنتما في العادة تنصُبان فيه خيمتكما؟

«لقد سبقَ أن تحدثتُ لكَ عن هذا، أنا أعرف بأن كارل من المستحيل أن يُخفي شيئاً هناك.»

«هل تعودتما على نصب خيمتكما في مكان بعينه؟ خلال ثماني سنين على التوالي، فربما إنكما بدلتما ذلك المكان في إحدى المرات؟»

«كُنا دائماً نحن الاثنين نُحبُّ أن نُغير المكان...» قالت بايبه.

أرادت أن تستمرَ في الكلام إلا أن فالاندر كان دائماً يعود بها إلى الوراء. فهو متأكد من أن العقيد ليبه لا يختار مخبأة بالصُّدفة، وإنما يجب أن يكون ذلك المكان ببساطة يحمل تاريخاً مشتركاً بينهما.

وعادَ ليبدأ من النقطة التي بدأ منها سابقاً...

نفـــد الوقود النفطي من المصباح، فأخرجَت بايبه من حقيبتها شمعة وأشعلتها من المصباح نفسه قبلَ أن ينطفئ، ثم استمرا في البحث

مكسه

في خفايا حياتها المشتركة مع العقيد. ظن فالاندر أن بايبه سيُغمى عليها من التعب، لكنه حاول أن يُشجّعها من خلال بعث روح التفاؤل فيها. فسألها مرة أخرى عن شقتهما، وهل فيها مكان يمكن أن تكون قد أغفلته؟ لا سيما أن أي بيت يحتوي على عدد لا نهائي من الفجوات، راحَ يسحبها في تساؤلاته من غرفة إلى أخرى. وفي النهاية انهارت من التعب وصرخت في وجهه من أسئلته

«لا يوجد أي شيء مما تقول...»

إننا لا نملك سوى هذه الشقة. في النهار أكون أنا في الجامعة وزوجي في مقر الشرطة، لا يوجد هناك أي وثائق ولا وصية... لأن زوجي كان متأكداً بأنه سوف لن يتعرض للاغتيال.

لاحظ فالاندر أيضاً أن بايبه بدأت تغضَب من زوجها!

وبدأت بالعويل، فتذكر فالاندر هنا ما حصل في العام الماضي عندما قُـتلَ أحد اللاجئين الصوماليين قرب أحد معسكرات اللاجئين القريبة من مدينة إيستاد في السويد. وكيفَ حاول مارتنسون أن يُهدّئ زوجة المقتول المفجوعة التي كانت تبكي بحرارة على زوجها. وفكر: «إننا نعيش في عصر الأرامل. وبيوتنا هي بيوت الأرامل وبيوت الخوف...».

وبشكل مفاجئ قطع فالاندر أفكاره، فأدركت بايبه في الحال أنه بدأ يتعامل بطريقة جديدة، فسألته:

«بماذا تفكر؟»

«انتظري قليلاً، يجب أن استمر بالتفكير.» رد فالاندر.

فكر فالاندر في اتجاهات مختلفة، محاولا النفاذ إلى الاحتمالات الممكنة طارداً الأفكار غير الضرورية. ثم قال:

«أُريد أن أسأل سؤالاً وأُريدك أن تجيبيني بدون أن تفكري. أي إني أُريد الجواب اللحظي. فإذا فكرتِ ولو للحظة قبل الجواب فسوف اعتبر جوابكِ خاطئاً.»

تأملته بابيه باهتمام تحت ضوء الشمعة المتراجف، ثم جاءها السؤال:

«هل يمكن أن يكون العقيد ليبه قد اختار مخبأً لوصيته في مكان ما في مقر الشرطة؟»

نظر فالاندر في عينيها وهما تلمعان في الظلمة، ولاحظ أن إجابتها جاءت سريعة ومباشرة:

«نعم، بالفعل ممكن أن يفعلها!»

«لماذا؟» سألها فالاندر.

«كان كارل كذلك... فهذا ممكن أن يتوافق مع أسلوب تفكيره العملي.» ردت بابيه.

«وأي مكان يمكن أن يختار؟»

«لا أدري.» ردت بابيه.

«هل يمكن أن يكون ذلك في مكتبه؟ هل تحدثَ لكِ يوماً ما عن مقر الشرطة؟»

«كان يعتقد أن مقر الشرطة شيء مُقزز، فهو يشبه السجن، أو إنه السجن بحد ذاته.» ردت بابيه.

«فكري بابيه،» ناشدها فالاندر. «هل هناك غرفة معينة حدّثَك عنها؟ غرفة تحمل معنى خاصاً بالنسبة له؟ أو غرفة يكرهها بشدة؟ أَو ربما بالعكس يحبها أكثر من غيرها؟»

«غرفة التحقيق كثيراً ما كان يزعجه ذكرها.» ردت بابيه.

«إذن لا يُمكن أن يختارها مخبأً لوثائقه.»

«كما أنه يكره غرفتي العميدين.» قالت بابيه.

«وبالتالي لا يمكن استخدامهما مخبأً.»

ركّزت بابية بشدة مع نفسها لدرجة إنها أغلقت عينيها. وعندما عادا ثانية للمناقشة وفتحت عينيها كانت قد أحضرت الجواب:

مكسه

«تذكرت الآن!» قالت بايبه. «كان كارل في بعض الأحيان يتحدثُ عن غرفة الشيطان. وذات مرة قل لي بأن هذه الغرفة تحتوي على جميع المظالم التي يتعرض لها بلدنا. فبالطبع يمكن أن يستخدم هذه الغرفة لإخفاء أسراره. يمكنني أن أقول بأن زوجي أخفى وصيته في أرشيف مقر الشرطة!!»

تأمل فالاندر وجهها ولاحظَ أن جميع التعب قد اختفى من ملامحها. ثم رد عليها بحماس:

«نعم، أنا أعتقد بأنكِ تفكرين الآن بطريقة صحيحة. فقد اختارَ العقيد مخبأً لأسراره داخل مخبأ آخر. لقد اختارَ زوجكِ الطريقة الصيـــنية. ولكن أي علامة تركٍّ على وصيته بحيث أنتِ الوَحيدة التي يمكن أن تعثري عليها وتكتشفيها؟»

وفجأة بدأت تضحك بقوة وبكـــــت بعدها في الوقت نفسه، ثم قالت وهي تنوح:

«الآن أدركتُ كيفَ كان يفكر كارل! ففي الأيام الأولى التي التقينا فيها، اعتادَ أن يقوم ببعض الخدع السحرية. فعندما كان شاباً كان يحلُم أن يصبحَ ساحرًا في المستقبل أو خبيـــراً بالطيـــور. فقد تعلمتُ منه بعض الألعاب السحرية بأوراق اللعب التي رفضَ حينها أن يُسميها ألعاباً! وأحد هذه الأشياء السحرية التي عرضها علي وأسهلها هي: أن يقسم المرء أوراق اللعب إلى جزأين، فتصبح الأوراق السوداء اللون على حدة، والأوراق الحمراء اللون على حدة. ثم يطلبُ من أحد الأشخاص أَن يسحب إحدى الأوراق... أتذكَر ذلك الآن بالضبط.... ثم يُعيد الورقة إلى مكانها. وبعدها من خلال سحب أنصاف أوراق اللعب، يعثر على ورقة حمراء اللون بين الأوراق السود، أو يعثر على ورقة سوداء اللون بين الأوراق الحمر. كما أن كارل اعتاد أن يقول لي في بعض الأحيان أنني أنيـــرُ له الطريق عندما تظـــلمُ حياته بسبب التعب أو

مكسه

الضجر. كانت لدينا أيضاً لعبة سرية نتبارى بها في أكثر الأحيان، فمثلاً كُـنا دائماً نبحثُ عن وردة حمراء بين الورود الزرقاء أو الصفراء اللون، أو نبحث عن بيت أخضر اللون بين البيوت البيضاء.

إذن يجب أن يكون زوجي كارل قد استخدمَ هذا الأسلوب في السرية لحـفظ وصـيتـه. فعلى افتراض أن الأرشيف مليء بالملفـات المختلفة الألوان، لا بد أن يكون هناك ملف مُختلف في اللون أو الحجم موجود بين سطر من الملفات التي لها اللون نفسه.»

«لكن أرشيف الشرطة لا بد أن يكون كبيراً جداً؟» قال فالاندر.

استمرت بايبه بالكلام

«في أكثر الأحيان عندما يُسافر كارل كان يضع أوراق اللعب تحتَ مخدتي، وأتذكر بأنه كان دائَماً يضع إحدى الأوراق الحمر بين الأوراق السود. فبالطبع يوجد هناكَ ملف يحملُ اسمي في الأرشيف. وأظنُ بأن كارل قد وضعَ وصيته بشكل غير ملحوظ في مكان ما في هذا المـلف.»

أصبحت الساعة الخامسة والنصف صباحاً، من دون أن يتوصلا إلى الهدف لكنهما عرفا الآن أين هما الآن من ذلك الهدف!

مدَ فالاندر يده ولمسَ ذراع بايبه وقال لها باللغة السويدية:

«كان من الأفضل لو أنكِ سمعتِ كلامي وذهبتِ معي إلى السويد.»

نظرت إليه بايبه باستغراب...

غير أن فالاندر استمر في الكلام:

«قلتُ بأن علينا الآن أن نستريح، فيجب علينا أن نُغادر هذا المكان قبل الفجر. وطبعاً نحن لا نعرف أين سنذهب ولا كيف سنُنفذ اللعبة السحرية وندخُل لأرشيف الشرطة. علينا أن نستريح الآن.»

فرَشَ فالاندر البطانية التي كانت موجودة في الخزانة. وتمددا عليها

مكسه

بشكل تلاصقَ فيه جسداهما ليتمتعا بالدفء. وقال لها فالاندر:

«نامي الآن، أما أنا فسوفَ أبقى مستيقظاً وسأكتفي بالاسترخاء فقط...

سأوقظك عندما يحين موعد مغادرتنا المكان.»

انتظر فالاندر قليلاً.

لكنه لم يحصل على أي جواب...

لأن بايبه كانت قد نامت في الحال...

١٧

غادر كورت فالاندر وبايبه الكنيسة قبل السابعة صباحاً. ما زال الوقت حينها ظلاماً، وكانت بايبه في حالة نصف وعي من شدة التعب، فاضطر فالاندر إلى أن يسندها أثناء المشي.

أمضى فالاندر تلك الليلة مستيقظاً وراح يُفكرُ فيما سيفعله، بينما نامت بايبه بجانبه على الأرض. قرر مع نفسه حينها أن يعدُ خطة للتهيؤ دون الاعتماد على بايبه لأنها غير قادرة على مساعدته، لأنها حرقت كل جسور الاتصال مع معارفها، فالمخبرون لن يتركوها بعد الآن في سلام وعليه من الآن فصاعداً أن يعتبر نفسه هو المُنفِّذ الوحيد لما يُخطط له. فواصل تفكيره في الظلام، غير أنه اكتشف أنه كان عاجزاً عن فعل أي شيء.

فكر حينها في الاحتمال الثالث، غير أنه كان يدرك بأن تحقيق هذا الاحتمال سيؤدي به إلى مجازفة كبيرة، لأن أي خطأ محتمل سيجعل العثور على قاتل العقيد مستحيلة. عندما قارب الوقت السابعة وصارَ لِزاماً عليهما أن يُغادرا المكان. أدرك حينها أن أمامه أكثر من احتمال.

كان الصباح بارداً.

وقفا معاً صامتين في الظلام خارج البوابة وقد تعلقَت بايبه بذراعه. شعرَ فالاندر باقتراب صوت كاد يكون غير مسموع، وكأنه وقع لخُطى أحد الأشخاص على الحشيش المتيبس في الظلام. وفكرَ في الحال: «لقد جاؤوا الآن وستُطلَق الأيدي للهجوم علينا...».

إلا أنه ومن حُسن الحظ لم يحصل شيء، واستمر الصمت. سحبَ فالاندر معه بايبه إلى سياج الكنيسة وخرجا إلى الشارع الرئيسي عبر

مكتبة

البوابة الكبيرة. لكنه في الوقت نفسه كان متأكداً من أن شخصاً ما كان يُراقبهما عن قرب. تخيلَ في تلك اللحظة خُطى غريبة عبرت البوابة خلفهم، وتخيلَ أيضاً أنه سمعَ صرير البوابة. فكر بسخرية في تصرفات كلاب المطاردة أو المخبرين السريين الذين يلاحقونهما، إذ إنهم يُريدون فقط أن يُشعِراهما بأنهم قريبون منهما.

استعادتْ بابيه وعيها في ذلك الصباح البارد. فسألها فالاندر عندما توقفا معاً عند ركن الشارع:

«هل تعرفين أحداً لديه سيارة يمكننا أن نستعيرها؟»

فكرت بابيه قبل أن تُجيبه بهز رأسها نافية.

تضايقَ فالاندر من الخوف الذي اجتاحه بشكل مُفاجئ، وتساءل مع نفسه: «كل شيء في هذا البلد متعب! كيف يمكنني أن أساعدُها إذا لم يسر كل شيء بشكل عادي، أو مثلما تعودت عليه في السويد؟»».

فجأة تذكرَ السيارة التي سرقها قبل يوم... غير أنه استبعدَ أن تبقى في مكانها حتى الآن. وفكرَ في أنه سوفَ لا يخسر شيئاً فيما لو ذهبَ الآن ليرى إن كانت السيارة موجودة أم لا. لكن في الوقت نفسه عليه أن يُموّه على مجاميع الكلاب التي تتابعهما من الخلف، فطلبَ من بابيه أن تدخل حالاً في أول مقهى صادفهما في الطريق، بينما استمر هو بالسير إلى الأمام محاولةً منه لتشتيت تركيزهم وإجبارهم على الانقسام إلى قسمين ثم أسرعَ في سيره باتجاه السيارة.

ولم يصدق عندما شاهد السيارة موجودة في المكان نفسه الذي تركها فيه.

ومن دون أن يفكر ذهب نحوها وفتح الباب وجلسَ خلف المقود، ثم ربطَ الأسلاك الكهربائية وأدارَ المحرك ثم عشّقَ عصا السرعات بشكل طبيعي دون أن يرتبك وقاد السيارة إلى أن أوقفها أمام المقهى الذي دخلته بابيه. تاركاً محرك السيارة يدور وذهب ليجلب بابيه من داخل

مكسه

المقهى. كانت بايبه جالسة عند إحدى الطاولات ترتشف الشاي، شعر فالاندر حينها بالجوع، لكنه أجّل فكرة تناول أي طعام. ثم خرجا معاً بعدَ أن دفعت بايبه حسابها.

«كيف حصلتَ على هذه السيارة؟» سألته بايبه.

«سأشرح لك هذا لاحقاً،» قال فالاندر.»علينا الآن أن نذهب إلى أي مكان خارج ريغا.»

«وإلى أين سنذهب؟» سألته بايبه.

«لا أعرف، لكن يجب أن نذهب لمكان ريفي.» رد فالاندر.

كان المرور كثيفاً في ذلك الصباح، تحسرَ فالاندر متضايقاً من هذا المحرك البطيء. لكن في النهاية خرجا من ريغا، ووجدا نفسيهما في الريف مُحاطين بأرض واسعة ومنبسطة، وهنا سألها فالاندر:

«إلى أين يؤدي هذا الطريق؟»

«إنه يؤدي إلى آيستونيا، وينتهي في مدينة تالين.» ردت بايبه.

«سوفَ لا نسير كل هذه المسافة الطويلة.» قال فالاندر.

انحرفَ فالاندر عن الطريق نحو أقرب محطة وقود عندما شاهدَ مؤشر البنزين يتذبذب صعوداً ونزولاً. لم تكن النقود التي كانت مع فالاندر كافية لثمن البنزين، فأكملت بايبه باقي المبلغ، واستمرا بعدها بالمسير.

كان فالاندر طوال الوقت يُراقب الطريق. وأول شيء لاحظه هو مرور سيارة اللون لم يتمكن من معرفة طرازها عندما عبرتهما، ثم لحقتها في الحال سيارة أخرى من الطراز نفسه. وتذكر فالاندر أنه شاهد سيارة ثالثة من النوع نفسه كانت واقفة عند حافة الطريق عندما خرجا من محطة الوقود. فكر في أن حملة المراقبة هذه المرة مؤلفة من ثلاث سيارات، أو ربما أكثر.

وصلا إلى مدينة لم يتمكن فالاندر أبداً من أن يحفظ اسمها.

أوقفَ السيارة بالقرب من مجموعة من الناس متجمهرين حول مكان

مكتبة

لبيع السمك. كان فالاندر حينها مُتعباً لدرجة ظن أن عقله سوف يتوقف تماماً إذا لم يَنَـــم ولو لمدة قصيرة. شاهدَ في الجهة الأخرى من الساحة لافتة تحمل اسم فندق، فقرر في الحال.

«يجب أن أنام،» قال فالاندر لبابيه. «كم لديكِ من النقود؟ وهل يكفي لحجز غرفة؟»

هزت بابيه رأسها موافقة، فسارا في الحال باتجاه الفندق تاركين السيارة متوقفة في مكانها.

سجـــّلا اسميهما في استعلامات الفندق الصغير، وتحدثت بابيه باللغة اللاتفية مع موظفة الفندق التي احمـــرّ وجهها خجلاً، ولم تُطالبهما بإكمال إملاء معلومات الاستمارة.

«ماذا قُلت لها؟» سأل فالاندر بابيه عندما دخلا غرفتهما.

«قلتُ لهَا الحقيقة،» ردت بابيه. بأننا لسنا مُتزوجَين، وسنبقى هنا لبضع ساعات فقط.

«ولكن وجهها احمرّ؟ ألم ترَي وجهها؟» سألها فالاندر.

«شيء طبيعي، أن تخجل ولو كنتُ مكانها لحصل معي الشيء نفسه.» قالت بابيه.

استراحا لعدة لحظات ثم انفجرَ فالاندر ضاحكا، وبالمقابل احمر خدّا بابيه من المفاجأة، بعدها عاد فالاندر إلى حالة الجد وقال:

«هل تدركين أن هذه المسرحية التي تجري الآن هي أكبر صفقة جنونية تورطتُ بها في حياتي؟ وهل تعرفين أن خوفي أكبر من مخاوفك أنتِ؟ أنا على العكس من زوجك، قضيت طيلة خدمتي في سلك الشرطة في مَدينة ليست أكبر بكثير من هَذه المدينة التي نحن فيها الآن، وبالتالي أنا لا أملكُ أي خبرة في الجرائم المعقدة أو المجازر الحقيقية إن صح التعبير، عِملي لم يتجاوز مطاردة السكارى والســـرّاق، أو في بعض الأحيان أُجبَر على التحقيق في بعض حالات القتل.»

مكسه

قاطعته بايبه التي كانت جالسة بجانبه على السرير:

«قال عنكَ زوجي كارل بأنكَ مفتش شرطة مُتمرس، وأتذكر أيضاً بأنه قال بأنكَ قد أغفلتَ نقطة معينة أثناء وجوده في السويد.»

في تلك اللحظة تذكر فالاندر طوافة الإنقاذ بكره، ثم قال:

«لاحظي الفرق بين بلدينا....» قال فلاندر. « أنا وزوجك كارل نختلف تماماً في وجهات النظر في عملنا كشرطة. فطريقته في العمل يمكن أن تصلح في السويد، ولكن طريقتي يستحيل أن تنجح هنا، وبالتالي أنا لا أصلُح أبداً للعمل أبداً ضابط شرطة في لاتفيا.»

«ولكنكَ تقوم بهذا الشيء الآن.» قالت بايبه.

«كلا،» رد فالاندر. «أنا هنا تلبية لطلبك مني، أو ربما أنا هنا الآن لأجل كارل. وفي النهاية أنا لا أعرف ماذا أفعل هنا في لاتفيا. لكنني متأكد من شيء واحد وهو ضرورة اصطحابكِ معي إلى السويد بعد أن ننتهي من كل شيء.»

نظرت إليه بايبه باستغراب، ثم سألته.... لماذا؟

لم يستطع فالاندر حينها أن يوضح لها ما يُريد، لأن مشاعره لم تتبلور بعد بالشكل الكافي، فرد عليها:

«لا شيء، انسَي الموضوع. الآن يجب أن أنام كي أعيد قدرتي على التفكير بوضوح، وأنتِ كذلك بحاجة للشيء نفسه. لذا أفضل أن تطلبي من موظفة الاستعلاماتَ أن توقظنا بعد ثـــــــلاث ساعات.»

«سيحمرُّ لون البنت مرة ثانية،» قالت بايبه عندما نهضت من مكانها.

تغطى فالاندر في الحال بالمُلاءة، حتى أن بايبه وجدته غافياً عندما عادت إلى الغرفة.

وعندما استيقظ من النوم بعد ثلاث ساعات، شعر وكأنه نامَ لعدة دقائق فقط. فأخذَ حماماً بارداً ليطرُد التعب من جسده، في حين واصلت

مكسه

بابيه نومها. وعندما ارتدى فالاندر ملابسه، فكرَ في أن يتركها نائمة لحين تحديده للجهة التي سيتوجهان إليها لاحَقاً. ثم كتبَ على منديل ورقي كان مُلقى في الغرفة طالباً منها أن لا تقلق لأنه سيذهب في جولة قصيرة.

وعندما نزلَ شاهدَ موظفة الاستعلامات تبتسم إليه بنظرات حمَلَت ومضة خاصة. وعرف أنها تتحدث اللغة الإنجليزية بشكل متقن من خلال سؤاله لها عن وجود مطعم قريب. دخل صالة الطعام واختارَ مكاناً كان يسيطر على مشهد الساحة بالكامل، فشاهدَ الناس ما يزالون مُتجمهرين حول باعة السمك، وأن السيارة ما زالت في مكانها.

لكنه في الوقت نفسه شاهدَ أن إحدى السيارات السود التي عبرتهم عند محطة البترين كانت متوقفة في الجهة المقابلة من الساحة، فتبلورت في رأسه في الحال خطة جديدة، توقعَ عدم نجاحها.

شعر بتحسّن مزاجه بعد تناوله الطعام. عاد بعدها إلى الغرفة فاستيقظت بابيه في اللحظة نفسها التي فتحَ فيها فالاندر باب الغرفة. جلسَ عند حافة السرير وبدأ يشرح لبابيه الفكرة التي توصلَ إليها.

«هل تعرفين أحداً من رجال الشرطة ممن كان زوجكِ يثق بهم كثيراً؟»

«إننا لم نُخالط أحداً من عائلات منتسبي الشرطة أبداً،» قالت بابيه.

«فكري قليلاً،» ناشدها فالاندر

فيجب أن يكون هناكَ أحد الأشخاص ممن كان زوجك بين الحين والآخر يشرب معه القهوة. ليس بالضرورة أن يكون هذَا الشخص صديقاً حميماً. يكفيني أن تذكري لي شخصاً لم يكن على الأقل عدواً له.

استغرقت بابيه مع نفسها في التفكير... وصمتَ فالاندر كي يعطيها

مكسه

الوقت الكافي لأن خطته هذه تعتمد على العثور على شخص تحدده بابيه، لا يشكُ فيه زوجها. ثم قالت بطريقة غير متأكدة:

«تحدثَ لي كارل بعض الأحيان عن مايكلس، وهو رقيب شاب، ويختلف عن الآخرين. لكنني في الحقيقة لا أعرف أي شيء عنه.»

«هل تعرفين المزيد عنه؟ أقصد لماذا تحدث لكِ عنه؟»

وضعت بابيه الوسادة على الجدار، ولاحظ فالاندر بأنها ما زالت مستمرة في التفكير وتحاول أن تتذكر. ثم قالت:

«كان كارل في العادة يتحدث لي عن مخاوفه بسبب اللاّمبالاة التي يتمتع بها بقية زملائه. فجميع هؤلاء كانت ردود أفعالهم باردة جداً تجاه المعاناة، ما عدا مايكلس. أعتقد بأنه كان على مستوى من الوعي ويفهم معاناة الناس. في إحدى المرات ذكر لي كارل أن مايكلس اشترك معه في عملية إلقاء القبض على مُتهم كان فقيراً وعائلته كبيرة، فطلبَ من كارل أن يعفيه من التحقيق مع هذا الشخص ذي الظروف الصعبة. هذا كل الذي أعرفه عن مايكلس، أو على الأقل ما أتذكره عنه. لكن ربما تحدثَ عنه كارل الكثير في هذا السياق.»

«متى كانت آخر مرة تحدث لكِ العقيد عنه؟» سألها فالاندر.

«يمكنني القول قريباً، أو في الأيام الأخيرة.» ردت بابيه.

«حاولي أن تكوني أكثر دقة،» ناشدها فالاندر. «يعني متى تحدثَ لكِ هل قبل سنه مثلاً، أم أكثر؟.

«قبل أقل من سنة،» ردت بابيه.

«إذن ما دام مايكلس قد عملَ مع كارل. فأعتقد بأنه كان يعمل في قسم الجرائم الخطيرة؟» قال فالاندر.

«لا أعرف ذلك.»

«إنه يجب أن يكون كذلك،» رد فالاندر. «عليكِ الآن أن تتصلي به وتطلبي مقابلته.»

مكسه

نظرت إليه بابيه بخوف، وردت:

«إنه سيقبض عليّ في الحال.»

«العملية ليس بهذا الشكل، وإنما أريدك أن تتصلي به وتقولي له بأن لديكِ معلومات مهمة وتودّين التصريح له بها لأنها تتعلق بمجال عمله، وأخبريه كذلك بأنكِ تريدين أن تبقي مجهولة.»

«في بلدنا ليس من السهل أن يغرّر المرء برجال الشرطة،» ردت بابيه.

«يجب أن تتصرفي وكأنك مُقتنعة بما تقولين،عليكِ أن تحاولي.» رد فالاندر.

«ولكن ماذا سأقول له؟»

«لا أدري، ولكن يجب عليكِ أن تُساعديني،» ناشدها فالاندر. «فكري معي، ما هي أهم الأشياء التي يمكن تُغري أي رجل شرطة في لاتفيا؟»

«النقود بالتحديد،» ردت بابيه.

«وأي منها؟ هل العملات الأجنبية أم المحلية؟»

«في بلدنا يوجد الكثيرون ممن هم على استعداد لبيع أمهاتهم مقابل ورقة الدولار الأميركي.» ردت بابيه.

«إذن يمكنك أن تُخبريه بأنك تعرفين مجموعة من الأشخاص استحوذوا على كميات كبيرة من الدولارات الأميركية.»

«ولكنه سيسألني من أين جاؤوا بها؟»

فكر فالاندر بشكل محموم، وتذكرَ ما حصلَ مؤخراً في السويد، ثم قال مخاطباً بابيه:

«اتصلي بمايكلس وقولي له الآتي:

« إنكِ تعرفين شخصين لاتفيـيَـن ارتكبا عملية سطو على أحد مكاتب تصريف العملات في محطة القطار في ستوكهولم في السويد،

مكسه

وحصلا على مبالغ طائلة من العملات الأجنبية التي أغلبها دولارات أميركية وهربا دون أن تعثر عليهما الشرطة السويدية. وهما الآن موجوَدان في لاتفيا وبصحبتهما جميع المبالغ المسروقة...».

«ولكنه سوف يسألني عن هويتي؟ وكيف عرفتُ كل هذه التفاصيل؟» ردت بابيه.

«أوحي له بأنكِ كُنتِ عشيقة لأحد هذين الرجلين.» اقترح فالاندر.

« قولي له أن عشيقُك هذا قرر أن يُبدلُك الآن. لذلك قررت الانتقام منه. وقولي له أيضاً أنكِ خائفة من عشيَقُكِ، وأنك تفضلين أن لا تذكري اسمك بالمرة؟».

«أنا لا أجيدُ الكَذب.» ردت بابيه.

فغضب فالاندر فجأة، وقال لها بخشونة:

«عليكِ أن تتعلمي الكذب في مثل هذه الحالات، لأن مايكلس هذا هو المفتاحَ الوحيد الذي يُمكّننا من الدخول إلى الأرشيف. لقد وضعتُ خطة لذلك، وربما ستُنفَذ وفقَ ما فكرتُ... إذا لم تعطنِي أي اقتراح.»

ثم نهضَ من السرير واستمر بالحديث:

«سنعود الآن إلى ريغا. و سأحدّثك بفكرتي في الطريق.»

«وهل سنطلب من مايكلس أنَ يبحث عن أوراق أو وصية كارل؟»

«ليس مايكلس من سيقوم بذلك،» أجابَ فالاندر بطريقة جدية. «بل أنا مَن سيقوم بذلك، كل الذي سيفعله مايكلس هو أن يُدخِلني إلى مقر مركز الشرطة.»

عادا إلى ريغا...

وذهبا بعدها إلى السوق الكبير في المدينة. طلبت منه بابيه أن ينتظرها عند مكان بيع السمك الذي كان عبارة عن جملون كبير. ثم ذهبت

مكسه

بابيه إلى دائرة البريد لتتصل بمايكلس. عندما شاهدها فالاندر ذاهبة بين جمهرة الناس في السوق فكر في أنها سوف لن تعود. لكن من حُسن الحظ نجحت بابيه في مهمتها وحددت لقاءً فورياً مع مايكلس في مجمع بيع اللحوم في السوق نفسه. وعندما قدِم مايكلس راح يتجول مع بابيه بين ثلاجات العرض وتظاهرا بأنهما ينظران إلى المعروضات ويتحدثان في الوقت نفسه.

وعند عودة كورت فالاندر مع بابيه من ذلك الفندق في المدينة الريفية، أوصاها بأن تـُفاجئ مايكلس بالأمر مثلما هو... فالنتيجة في النهاية إما النجاح وإما الفشل! وليحصَل ما يحصل...

«الأمر ببساطة،» قال لها فالاندر في الطريق: «إن مايكلس إما أن يقبض عليكِ... أو أن يتعاطَف معكِ ويُنفذ ما نُريد. ولكن إذا ترددتِ فيما تطَلبينَ منه فإنه سيعتبر الأمر مؤامرةَ عليه، أو ربما سيعتبره محاولةَ اختبار من قبل الضباط الآمرين له ُللتأكد من إخلاصه في العمل. يجب عليكِ في البداية أن تُثبتي له بأنكِ أرملة العقيد ليبه- أو كارل صديقه..».

لذلك قالت بابيه لمايكلس عندما التقيا وبشكل حاسم بأنه لا يوجد أي سُطاة ولا حتى أي دولارات.

وبعد حوالي ساعة تقريباً عادت بابيه إلى المكان الذي كان فالاندر ينتظرها فيه. وبمجرد أن شاهدها فالاندر أدرك أن الخطة قد نجحت. فقد بدا على وجه بابيه الفرح والارتياح... وتذكرَ من جديد كم هي جميلة بابيه...

قالت له بصوت منخفض إن مايكلس كان خائفاً. وقد أخبرها بأنه سيضع كل مستقبله كرجل شرطة في مجرد لعبة قد تنجح أو لا! وربما سيُجازِف هو بحياته أيضاً. ولكن في الوقت نفسه خمّنَت بابيه بأنه شعرَ بالارتياح لمشاركته في القضية.

مكسه

«إن مايكلس هذا من رجالُنا،» ردت بايبه بفرح، «لم يخطئ كارل في تقييمه أبداً.»

ما يزال أمام فالاندر ساعة كاملة ليُنفّذ خطته... قامَ بجولة في المدينة مع بايبه، كي يملأ هذا الوقت، واتفق معها على اختيار مكانين سيلتقيان في أحدهما بعدَ تنفيذه للمهمة. ثم سارا بعدها إلى الجامعة التي تُحاضر فيها بايبه ودخلا إلى أحد مختبرات قسم الأحياء الفارغة، التي كانت تفوحُ منه رائحة الإيثر والفورمالين. انحنى فالاندر لينظر إلى هيكل عظمي لأحد طيور النورس كان محفوظاً في صندوق زجاجي، بينما جلست بايبه القرفصاء بجانب إحدى النوافذ المُطِلة على حديقة واسعة في الخارج.

في تلك اللحظات كان كل شيء مجرد انتظار مُتعِب ومُمِل.

في تمام الساعة الثامنة افترقا عند باب المختبر. كانت الإضاءة في ذلك المكان مُطفأة لأن بايبه قد طلبت من الحارسِ الليلي الذي جاء حينها في مناوبته العادية ليتفقَد الأضوية والأبواب المُغلقة أن يُطفئ الإضاءة في الجهة الخلفية للمختبر والبناية المجاورة له.

وبمجرد أن أُطفئت الأضوية تسلل فالاندر بشكل سريع عبر الباب. وركضَ باتجاه الحديقة المظلمة وفي الاتجاه الذي أشارت إليه بايبه، توقف بعد قليل ليستعيد أنفاسه، وشعرَ بأنه متأكِد جداً من أن مجموعة كلاب المطاردة التي تلاحقه ما تزال موجودة حتى الآن في الجامعة.

انتظر فالاندر في الظلام إلى أن أشارت الساعة الموجودة في برج الكنيسة المجاورة لمقر الشرطة إلى التاسعة تماماً. حيث دخل بعدها في بناية الشرطة وعبر البوابة المُضاءة التي تؤدي إلى الصالة الخاصة لاستقبال المواطنين. وحسب الوصف الدقيق الذي أعطته إياه بايبه لمظهر مايكلس، استغربَ كثيراً عندما اكتشف أن مايكلس الذي كان ينتظره حسب الاتفاق خلفَ أحد مكاتب الاستعلامات كان شاباً صغيراً! ففكر

مكسه

فالاندر حينها «الله وحده العالِم كيفَ رتّبَ هذا الشاب الصغير مثل هذا الأمر الخطير».

لكنه في النهاية تقدّمَ نحوه وبدأ يستعد لتنفيذ مسرحيته: فبدأ يشتكي بصوت عالٍ وباللغة الإنجليزية من أنه سائح بريء تعرضَ لعملية سطو في أحد شوارعٍ ريغا، وأن هؤلاء اللصوص الذين اعترضوه لم يسرقوا نقوده فقط ، وإنما صادروا جوازه الذي هو أقدس شيءٍ عنده.

وفي لحظة من الارتباك أدركَ بأنه قد ارتكب خطأً كبيراً... لأنه نسي أن يسأل بايبه فيما إذا كان مايكلس يتحدث اللغة الإنجليزية أم لا؟ وفكر بيأس: « ماذا يحصل لو أن مايكلس لا يتكلم غير اللاتفية؟ في هذه الحالة فإنه- أي مايكلس سوف يُجبَر على استدعاء شخص آخر من الذين يتحدثون اللغة الإنجليزية، وبلتالبا فإنه سيخسر كل شيء...».

ولكنه ارتاحَ كثيراً عندما كلمه مايكلس بالإنجليزية، وبدرجة كان فيها أفضل من العقيد لييه.

في هذه الأثناء اقترب أحد رجال الشرطة الموجودين في الاستعلامات من مايكلس، فاضطر إلى أن يُنهي مكالمته مع هذا السائح المُتعَب، فشعرَ فالاندر حينها بأنه قد عُزِلَ تماماً، إلى أن أشارَ له مايكلس أن يذهب إلى إحدى الغرف المجاورة. كان بقية رجال الشرطة ينظرون إليه بشكل فضولي أخافَه كثيراً من احتمال أن يشك أحدهم بوجوده أو يُخبِر عنه، لكن شيئاً من هذا لم يحصل.

كانت الغرفة التي جلسَ فيها كورت فالاندر هي غرفة التحقيق. حيث جلسَ في تلك الغرفة الباردة قبالة مايكلس وتأمله بشكل جدي عندما قال له:

«في الساعة العاشرة سيأتي رجال الشرطة الذين سيعملونَ في المناوبة الليلية. وحتى ذلك الحين سأقوم بملء استمارات الشكوى التي تقدمتَ بها، وسأرسل في الوقت نفسه مجموعة من رجال الشرطة بسيارة للبحث

مكتبة

عن بعض الأشخاص المشتبه بهم. وبالتالي فإن لدينا ساعة كاملة فقط لتنفيذ العملية.»

وحسب ما أدرك فالاندر من مايكلس فإن الأرشيف كبير الحجم لدرجة لا يمكن تصور حدوده، وإن ساعة واحدة لا تكفي أبداً للتفتيش السريع بين كل حمالات الملفات. ثم رسم مايكلي خريطة لفالاندر:

فعليه أن يعبُر ثلاثة أبواب مختلفة قبل أن يصل إلى الأرشيف، وإن مايكلس سيُعطيه مفاتيحها. وفي أقصى الملجأ قبل الباب الأخير يوجد أحد الحراس، سيحاول مايكلس في الساعة العاشرة والنصف بالضبط أن يُشاغله بمكالمة هاتفية. وبعد ساعة أخرى- أي في الحادية عشرة والنصف سيترل مايكلس إلى الملجأ ليختلق موضوعاً يتحدثُ فيه مع ذلك الحارس في مشاغلةً أخرى منه ليفسح لفالاندر الطريق كي يخرُج من الأرشيف. وبعدها سيتولى فالاندر تدبّر أمره بنفسه، فإذا صادفه أحد رجال الشرطة في أحد الأروقة، وشكَّ بأمره فعليه أن يعتمد على نفسه في هذه الحالة.

في تلك اللحظة فكر فالاندر: «هل بإمكاني أن أثقُ بمايكلس؟».

أجاب فالاندر عن تساؤله بأنه بكل بساطة: «ما عليه إلا أن يثقُ به...» فلا يوجد أبداً أي طريق آخر، كما أنه لا يدري ماذا دارَ من حديث بين بايبه وهذا الشرطي الشاب عندما جلست قربه في محل بيع الأحذية ليُجربا مقاسات أرجلهما كتمويه على الناس. كل الذي توصل إليه فالاندر وبايبه هو أن مايكلس كان مُقتنعاً بأن عليه أن يُساعد فالاندر ويُدخله إلى أرشيف الشرطة. ولم يستوعب فالاندر ما يدور حوله في هذه اللعبة، لكنه قرر أن يستمر بها.

بعد نصف ساعة تركِ مايكلس الغرفة وذهبَ ليُرسل دورية شرطة ليبحثوا عن مجموعة من الأشخاص المعروفين لدى الشرطة بتعرضهم للسياح علهم يعثرون على جواز السائح الإنجليزي. اقترح فالاندر

أن يكون اسمه (ستيف) من دون أن يعرف من أين جاء بهذا الاسم. أعطى مايكلس تعليماته للدورية بأن ستيف قد هوجِمَ في أحد شوارع ريغا المزدحمة، وبالضبط بالقرب من الشارع المُشجر، وهو الآن متوتر وخائف جداً، لذلك لا يستطيع مرافقة سيارات الشرطة ليُريهم مكان الاعتداء. وعندما عاد مايكلس من المهمة راجعَ مع فالاندر خريطة الطريق المؤدي إلى الأرشيف.

وأدرك فالاندر أنهما سيمران على الرواق الذي تقع فيه غرفتا العميدين، وكذلك الغرفة التي خُصّصَت له أثناء تواجده الرسمي في ريغا. وفكر فالاندر: «حتى لو كان هناك أحد جالسٌ في غرفته فإني بكل الأحوال لن أستطيع أن أحدد مَن الذي أوعزَ للرقيب زيدس ليقتل إنسي ورفاقها. هل هو بتنس أم مورنيرس؟ كما لا يمكنني أن أعرف مَن الذي أرسل كلابه ليتابعوني وبايبه ونحن نبحث عن وصية العقيد ليبه!».

وعندما حان موعد تبديل الحراسات شعر فالاندر بأن موجة قوية من التوتر العصبي قد اجتاحته وولّدت عنده اضطراباً في المعدة، شعرَ بحاجة للذهاب إلى دورة المياه، إلا أنه أبعد هذه الفكرة لضيق الوقت. وفي تلك اللحظة انسحبَ مايكلس وأغلقَ الباب خلفه بعد أن نظر إلى فالاندر وهو يسير قدماً في الرواق. ثم طالعَ الخريطة وعرفَ أن عليه أن يحرص على عدم ارتكاب أي خطأ. وعليه أيضاً أن يُتابع الوقت كي يصل الباب الأخير وينتظر المكالمة التي سيُجريها مايكلس مع الحرس.

كان مقر الشرطة مُقفِـراً.

أسرعَ فالاندر بصمت وهو يسير في الأروقة الطويلة وكان طوال الوقت يتوقع أن أحد الأبواب في هذه الأروقة سيُفتَـح ويُصوّب منه السلاح نحوه. وحسبَ عدد السلالم أثناء سيره كما سمع وقعُ خطاه وهو يسير في الرواق المهجور. فكر في أنه الآن موجود في متاهة عميقة من السهل أن يضيعَ فيها، ثم سلك سُلماً طويلاً ينزل في العمق، وتساءل

فالاندر مع نفسه: «إلى أيّ عُمق في الأرض يقع هذا الأرشيف؟».

وفي النهاية وصل إلى المكان الذي يوجد فيه الحرس، فنظر إلى ساعته وعرف أن مكالمة مايكلس ستحصَل خلال الدقائق القليلة القادمة. وقف صامتاً وراح يستمع... وقد أقلقه هذا الصمت!

«هل ارتكبتُ خطأً ما من دون أن أدري؟» تساءل فالاندر مع نفسه.

رن جرس الهاتف بشكل مفاجئ، فتنفسَ فالاندر الصُعداء. وسمع وقعَ الخُطى في الرواق المجاور. وعندما انتهى وقع الخطى أسرعَ إلى الأمام ووصلَ إلى باب الأرشيف وفتحه بالمفتاحين اللذين تسلمهما من مايكلس.

كان لدى فالاندر معلومات مُسبقة حول مكان مفاتيح الإضاءة داخل الأرشيف المظلم، فراحَ يتلمس أحد الجدران إلى أن وصل لمكان المفاتيح. كما أن مايكلس أخبره أن باب الأرشيف مُحكم تماماً بحيث أنه لا يُسرب أي ضوء من شأنه أن يُنذر الحرس الموجودين في الخارج.

شعرَ فالاندر بأنه موجود في مخبأ تحت الأرض، ولم يتخيل أن الأرشيف بهذا الحجم الكبير، فتوقف مُذهولاً أو كالمشلول أمام هذا العدد اللامتناهي من الصفوف وخزائن التسجيل والحمالات التي تحمل الملفات المرصوصة. وتذكر فالاندر ما قالته بايبه على لسان العقيد عندما وصفَ الأرشيف بأنه غرفة الشـيطان. وتساءل مع نفسه: «ماذا فكر العقيد عندما نزلَ هنا وأودعَ قنبلته التي لا يدري متى ستنفجر؟».

ثم نظر فالاندر إلى ساعته ثانية وتضايق لأنه أضاعَ وقتاً طويلاً في التفكير. وفي الوقت نفسه أدرك أنه يجب أن يُفرِغ ما في بطنه الآن، ففكر بشكل محموم: « يجب أن يكون هناك مرحاض في هذا الأرشيف... هذا إذا استطعتُ أن أمسك نفسي قبل العثور عليه؟».

وبدأ يسير في الاتجاه الذي حدده له مايكلس الذي حذره كذلك من

مكسه

احتمال الضياع بين الحمالات وغرف التسجيل المتشابهة. وغضبَ كثيراً لإضاعته وقتا طويلاً بالتفكير في مكان المرحاض، وخاف مما سيحصل له فيما لو لم يحالفه الحظ في العثور عليه.

توقف فالاندر بشكل مفاجئ ونظر حوله وأدرك أنه قد أخطأ. لكنه لم يُحدد خطأه، ولم يدرِ فيما إذا كان قد سارَ لمسافة أطول بين الرفوف، أم أنه سلـــكَ اتجاهاً خاطئاً بعكس ما حدده مايكلس؟ لذلك رجعَ من جديد. وبشكل مفاجئ شعرَ أنه في دوامة فلم يبقَ أمامه من الوقت غير إحدى وأربعين دقيقة. كان من المفروض به أن يكون الآن قد عثرَ على المكان المطلوب في الأرشيف. لعـــنَ نفسه وتساءلَ: «هل يا تُرى كتب مايكلس معلومات خاطئة؟ وما هدفه من وراءَ ذلك؟ ولماذا لم يعثر حتى الآن على المكان؟».

أدرك بأنه يجب عليه أن يبدأ من جديد وبسرعة، فركضَ بين الرفوف وبدأ من المدخل مُتتبعاً الخطوات التي كتبها له مايكلس. بينما كان مُسرعاً عثرَ بإحدى سلال المهملات التي تدحرجت أمامه واصطدمت بإحدى خزائن السجلات مُحدثة صوتاً قوياً أجبرَ فالاندر على التوقف بشكل مُتصلّب في مكانه وفكرَ حالاً في الحرس، لأن هذا الصوت العالي لا بد أن يخترق الباب، فتجمّدَ في مكانه وراحَ يستمع بقلق. لكنه لم يسمع حركة مفتاح يدور في أحد الأقفال، ولم يحصل شيءٌ من مخاوفه، وبدون أن يفكر خلعَ بنطاله وجلسَ القرفصاء فوق سلة المهملات وأفرغَ ما في بطنه. ثم سحبَ أحد الملفات بطريقة عصبية من الحمالة القريبة وخلعَ منه عدة أوراق كانت عبارة عن محضر تحقيقي واستنجى بها. ثم بدأ من جديد مُركّزاً بشكل مكثف على العثور على المكان المطلوب. وفي هذه الأثناء قفزَ في ذهنه ريدبري وناشده أن يتابع مساعيه الخطوة تلو الأخرى، وراحَ يحسب الفراغات الجانبية والرفوف، إلى أن أدرك أنه قد وصلَ أخيراً إلى المكان المطلوب. لكن ذلك طبعاً استغرق وقتاً طويلاً

مكسه

وليسَ أمامه الآن سوى نصف ساعة ليعثر على وصية العقيد. بدأ بالبحث، إلا أنه كان متردداً بسبب عدم كفاية الوقت المتبقي، كما أنه لا يعرف بالضبط الآلية التي تم على أساسها تبويب فهارس الأرشيف. لكنه وجد نفسه مـُجبـراً على الاستمرار بالبحث، وأدرك حالاً أن الأرشيف لم يكن منظـَماً حسب الأحرُف الأبجدية البسيطة. ففيه أقسام تتفرّعُ منها شُعـَب عديدة هي الأخرى تتفرعُ منها أقسام جديدة. فهنـا توجد الملفات المتعلقة بالمعـارضيـن، وهناك ملفات تتعلق بالمـُراقـبيـن. وفي مكان آخر توجد ملفات الإرهابيين. بدا له أنه الآن موجود أمام ملفات وقضايا الأعداء المُفترضين. إذن عليه الآن أن يبحثُ عن الملف الخاص ببابيه ليبه بينَ هذه الملفات المـُتراصة.

حاولَ ان يحشر نفسه حشراً ويُركّزُ بكل إصرار ليكتشَف عن قرب المسارات المنطقية في هذا الأرشيف الواسع جداً التي يمكن أن تؤدي إلى العثور على تلك الوصية، إلا أن الوقت مضى دون أن يعثـُرَ على شيء. وبشكل محموم بدأ من البداية مرة أخرى وراح يُتابع الملفات التي تحمل ألواناً مـُتميزة، وركز على ضرورة أن يحافظ على صوابه وهدوئه أثناء عملية البحث.

بقي أمامه عشر دقائق فقط، بعدها يجب عليه أن يُغادر الأرشيف.

وحتى الآن لم يعثر فالاندر على ملف بابيه، فشعر بأنه من المحتمل قد ابتعدَ كثيراً عن المكان المطلوب فاضطربَ كثيراً. لم يبق لديه الوقت الكافي للبحث النظامي، فقرر أن يبدأ من جديد في محاولة أخيرة علـّه يصلَ إلى المكان الصحيح. غير أنه أوشكَ أن يستسلم أمام نفسه، وشعر بأن كل جهوده ذهبت هباء... ثم عاد وفكر من جديد بأن العقيد ليبه كان أكثر حكمة منه! وكاد يصرخ: «أين يا تُرى...أين أخفى العقيد... لو افترضنا بأن هذا الأرشيف عبارة عن لعبة ورق؟ فأين يا ترى توجد الورقة المطلوبة؟ هل هي في الوسط أم عند الجوانب؟؟».

مكتبة

في النهاية اختارَ منطقة الوسط. مد يده على مجموعة من الملفات التي كانت بُنّية اللون، وبشكل مفاجئ عثرَ على ملف أزرق اللون بينها، فبعثرَ في الحال الملفات البنية ساحباً الملف الأزرق من بينها، وبالفعل وجد أن أحد الملفات البنية الملاصق للملف الأزرق من الجهة اليسرى كان يحملُ اسم (ليونارد بلومتر)، أما الملف البني الآخر الملاصق للملف الأزرق من الجهة اليمنى فكان يحملُ اسم (بايبه كالنس) وتوقف للحظات متردداً. لكنه في النهاية أدرك بأن بايبه كان اسمها هكذا قبل الزواج. ثم سحب الملف الأزرق الذي كان يفتقر لأي اسم أو تسلسل! وأسرع بالذهاب نحو مخرج الأرشيف دون أن يُدققُ في ما بداخل الملف. أطفأ الضوء وفتحَ الباب وخرجَ من الأرشيف... حسب توقيت خطة مايكلس يجب أن لا يكون الحرس في مكانهم الآن، لكنهم سيعودون في أي وقت. في هذه اللحظة وبشكل مفاجئ سمعَ وقعُ خُطى الحرس عائدين إلى مكانهم، فاضطر إلى أن يختفي من المكان ويُخالف الخريطة المرسومة له. وراحَ يبحث لنفسه عن مخرج للهرب ومغادرة بناية مقر الشرطة. وتوقف متصلباً في مكانه عندما مر الحرس في الرواق القريب. ثم مشى وراح يبحث عن السلالم وتذكر عدد الدرجات التي حَسَبها سابقاً أثناء نزوله السلالم. ولم يصدق نفسه عندما وصل للطابق الأرضي. راحَ يمشي بشكل عشوائي في ذلك الرواق المهجور.

تفاجأ فالاندر عندما شاهد أحد الرجال واقفا ويُدخن...

وفكر فالاندر في أن هذا الرجل لا بد أنه سمع خطواته وهو يقترب منه.

أطفأ الرجل سيجارته وتساءل مع نفسه:

«مَن يا تُرى هذا الذي يعمل في هذه الساعة المتأخرة من الليل»

كان الرجل ضابطاً في الأربعين من العمر ويرتدي بدلة عسكرية مفتوحة الأزرار. اقترب كورت فالاندر من الرجل الواقف، حتى صار

مكتبة

على بعد عدة أمتار منه عندما انحرفَ عند زاوية الرواق. أدرك الضابط أن هذا الذي أمامه ويحمل ملفاً أزرق ليس من منتسبي الشرطة، فصاحَ عليه بكلمات لاتفية، أدركها فالاندر في الحال ورفعَ يديه على رأسه. لكن الرجل استمر بالصياح عليه، واقترب منه مـُصـَوّباً مُسدسه طوال الوقت نحو صدر فالاندر. أدركَ كورت فالاندر أن الرجل يُريد منه أن يجثو أرضاً على ركبتيه، فأطاعه في ذلك بسرعة رافعاً يديه فوق رأسه، وتسمّرَ في مكانه مُدركاً أنه عاجز تماماً عن المقاومة. وأدرك بأن العملية انتهت... فسوفَ يتم استدعاء أحد العميدين في الحال ويُصادَر منه الملف الذي يحمل وصية العقيد.

استمر الرجل الذي كان يصوب مسدسه نحو فالاندر بالصياح وأمره أن يجثو أكثر على الأرض. اقتنعَ فالاندر بأنه سيـُقتل في هذا الرواق، و لم يكن أمامه إلا أن يجيب الرجل باللغة الإنجليزية:

«لقد حصلَ خطأ ما...» راحَ فالاندر يُردد بصوت خائف... «لا بد أن يكون هناك خطأ، أنا رجل شرطة مثلك...»

لكن في الحقيقة لم يكن هناك أي خطأ.. أمره الضابط أن ينهض من مكانه ويُبقي يديه على رأسه، ثم أشار له أن يسير إلى الأمام. راح الضابط بين حين وآخر يضغط بفوهة المسدس على ظهره. ثم سارا معاً نحو المصعد الذي كان في تلك اللحظة مشغولاً و لم ينفتح بابه. فانتبه فالاندر لذلك لكنه كان متصلباً ومدركاً بأن أي مقاومة منه تعتبر شيئاً لا معنى له، لأن الضابط سوف يُطلق عليه النار في الحال. ولكن بينما كانا ينتظران قدوم المصعد التفت الضابط نصف التفاتة ليُشعل سيجارته. فأدرك كورت فالاندر بشكل سريع ولحظي أن فرصته في التخلص من هذا الرجل قد حانت. فرمى بالملف الأزرق بوجه الضابط وجـَمـَعَ كل قوته ليسدِدَ لَكمـــة ركزها على رقبته. شعر حينها بقوة الضربة عندما اصطدمت يده بالهدف، فالألم كان شديداً، وبالنتيجة سقطَ

الضابط على الأرض في الحال، وسقط مسدسه بعيداً عنه، لم يعرف حينها فيما إذا كان الرجل قد مات أم أُغميَ عليه فقط. اندلعَ الألم بشكل مفاجئ وسريع في يد كورت فالاندر التي سددت الضربة. ثم التقطَ فالاندر الملف من الأرض ووضعه في جيبه، لكنه في تلك اللحظة لم يعرف الاتجاه الذي يجب أن يسلكه. وفكر في أن ينفذ من إحدى النوافذ المطلة على الحديقة مُعتبراً استخدامه للمصعد خطوة غبية. وأدرك بعد لحظة من التفكير أنه الآن موجود في الجهة المقابلة لرواق العميدين. في هذه الأثناء بدأ الرجل المُلقى على الأرض بالحركة فسدد له فالاندر في الحال ضربة أخرى ليُعيده إلى حالة الإغماء. ثم تابع السير في الرواق مبتعداً عن المصاعد ثم اتجه نحو اليسار وتمنى لو أن هذا الطريق سيُخرجه من هذه الورطة. وأخيراً حالفه الحظ، إذ أن هذا الرواق كان يؤدي إلى صالة الطعام الرئيسية في مقر الشرطة والمتصلة بالمطبخ الذي كان بابه الخلفي من حسن الحظ مفتوحاً. وجد كورت فالاندر نفسه في الشارع الرئيسي أخيراً والألم قد شبّ في يده التي تورّمت.

كان أول موعد للقائه مع بايبه في الساعة الثانية عشرة والنصف. قضى كورت فالاندر الوقت في انتظار الموعد في ظلال مبنى الكنيسة وفي متنزه آيسلند، لكن بايبه لم تأتِ، والألم في يده صار لا يُطاق. عندما قارب الوقت على الواحدة والربع أدرك فالاندر بأن هناك شيئاً ما قد وقع ومنع بايبه من الحضور. وفجأة دَهمه شعور بالقلق، وعاوده منظر وجه إنسي وعينها التي فُقِئت بعد إطلاق النار عليها، وراحَ يحاول أن يتحسّب لِما سيحصل.

فكرِ مع نفسه: «هل علمَ الكلاب والمخبرون المحيطون بها أن فالاندر قد دخلَ بناية الجامعة ليلة أمس، وخرج منها بشكل سري؟ و ما الذي فعلوه مع بايبه الآن؟».

لم يجرؤ في النهاية على الاستمرار بهذا التفكير وحاول جاهداً أن

مكتبة

يبعده، ثم غادر المتزه دون أن يعرف الجهة التي سيذهب إليها. ودفعه الألم المتأجج في يده المتورمة إلى التجول في الشوارع الفارغة من دون هدف. دفع كورت فالاندر نفسه ليختفي في إحدى الزوايا عندما مرّت إحدى السيارات العسكرية مسرعة وتطلق صفارة إنذار. وضعَ الملف الذي يحتوي على وصية العميد تحت قميصه من جهة الصدر شاعِراً بحافته تحز في أحد أضلاعه، وتساءل مع نفسه في أي مكان سيقضي هذه الليلة؟

انخفضت درجة الحرارة وأخذ يرتجف من البرد.

كان الموعد البديل للقائه مع بايبه هو في الطابق الرابع من السوق المركزي وفي الساعة العاشرة من صباح غد. فكرَ في أنه ما يزال أمامه سبعُ ساعات عن الموعد من المستحيل أن يقضيها مُتسكعاً هكذا في الشوارع وتحتَ هذا البرد، كما أنه بحاجة لأن يُعالج يده التي كان مُقتنعاً بأن أحد عظامها قد تهشّم. فكر أن يذهب لأحد المستشفيات، لكنه لم يجرؤ، أو على الأقل ليس الآن وهو يحمل وصية العقيد. فكر للحظة من جديد أن يطلب الحماية لنفسه في هذا الليل عند السفارة السويدية في لاتفيا إن وجدت هناك! ولكن حتى هذه الفكرة لم تهدئه ولم يرتح لها لأن أي رجل شرطة سويدي يُقيم في دولة غريبة بشكل غير قانوني سيُرسَل مباشرة إلى السويد.

وبشكل قلق قرر أن يذهب إلى تلك السيارة التي كانت تحت خدمته لليومين الماضيين. لكنه لم يجدها في المكان الذي أوقفها فيه. فكر في أنه ربما بسبب الألم المتأجج في يده قد تاه عن مكان السيارةِ. فهل حقاً قد ضبطوا السيارة في هذا المكان؟ أم إن أحد العميدين قد وجه رجاله لفحص السيارة لدرجة أنهم فسّخوها إلى أجزاء علهم يعثرون على وصية العقيد في أحد تجاويفها.

«أين سيقضي هذه الليلة؟» تساءل فالاندر مع نفسه.

مكسه

فجأة شعَرَ بالإحباط بشكل قوي، لوجوده في بلد أو منطقة تسرحُ فيه مجاميع الكلاب التي يوجهها شخص لا يتردد في أن يحول خصمه إلى جثة هامدة ملقاة على الأرض المتجمدة بجانب حوض أحد الموانئ، أو ربما يدفنونه في إحدى الغابات البعيدة. ازدادَ حنينه إلى وطـــنه بسبب هذا التشرد الذي يعانيه الآن في هذا الليل اللاتفي. قفزت إلى ذهنه في الحال صورة طوافة الإنقاذ الحمراء وفيها الرجلان الميتان. فلعن فالاندر اللحظة التي بدأت فيها هذه القضية.

عاد كورت فالاندر ليتجول في الشوارع الفارغة والمظلمة، بسبب قلة الاختيارات التي كانت أمامه، ثم ذهبَ إلى الفندق الذي قضى فيه إحدى الليالي. لكن البوابة الخارجية كانت مُقفلة وجميع أضويته مُطفأة، فاضطر إلى أن يضغط على زر الجرس الذي أشعل الألم في يده المصابة. وشعر بأنه سيفقد سيطرته على نفسه أو ربما سيفقد وعيه إذا لم يحصل على مكان يمنحه الدفء. ترك البوابة واستمر ببحثه عن فندق آخر، لكن الفندق الآخر لم يفتح أبوابه أيضاً، ونجحت مساعيه مع الفندق الثالث الذي كان قديماً ومتهدماً تقريباً. كان بابه الخارجي مفتوحاً، فتقدم فالاندر نحو الاستعلامات التي كان فيها رجل نائم على كرسي وقدماه على الطاولة، وبجانب قدميه كانت هناك زجاجة كحول..

أيقظَ فالاندر الرجل ولوّحَ له بالجواز الذي تسلمه من بريوس. لم يُصدق عندما تسلم مفتاحاً لإحدى الغرف، ثم أشار فالاندر إلى زجاجة الكحول وأخذها معه بعد أن ترك مكانها ورقة نقدية سويدية فئة مائة كرون.

كانت الغرفة صغيرة ومليئة برائحة الدخان والعفن. جلس فالاندر عند حافة السرير وشربَ عدة جرعات عميقة من زجاجة الخمر. شعر بالحرارة تصعد في جسده من جديد. ثم خلعَ سترته وملأ حوض المغسلة الموجودة في الغرفة بالماء البارد، وغطّسَ يده المتورمة من فيه. بدأ الألم

يخف ببطء، وفكر في تلك اللحظة في أنه سيقضي هذه الليلة بالكامل جالساً بجانب المغسلة. وراح بين الحين والآخر يرتشف جرعة من زجاجته. متسائلاً مع نفسه عما حصل لبابيه.

سحبَ فالاندر الملف الأزرق الذي كان يخفيه في صدره تحت القميص وراحَ يقلبه بيده السليمة.

كان الملف يحتوي خمسين ورقة مكتوبة بالآلة الطابعة، بينها عدة نسخ غير واضحة لصور فوتوغرافية. لم يفهم كورت فالاندر أي كلمة من وصية العقيد لأنها كانت مكتوبة باللغة اللاتفية. ابتداءً من الصفحة التاسعة اكتشف فالاندر بأن اسم مورنيرس وبتنس يتعاقبان في كل سطر، وأحياناً يأتي الاسمان وكأنهما يتحاوران، لكن فالاندر لم يتمكن أن يحزر معنى ذلك، و لم يفهم فيما إذا كان العقيد قد أشار بأصبعه إلى أحد العميدين أم إلى كليهما. ثم ألقى بالملف على الأرض وملأ المغسلة من جديد بالماء البارد وأحنى رأسه إلى صدره.

بدأ يفقد السيطرة على نفسه وأُغشي عليه في الساعة الرابعة، وشعر بأنه قد نام لبضع دقائق، عندما نهض من نومه. بدأت يده تؤلمه من جديد، فالماء البارد لم يعد كافياً لمعالجتها. ثم أفرغَ في جوفه ما تبقى من زجاجة الكحول ولف حول يده منشفة مبللة وتمدد على السرير.

في الساعات القريبة سيلتقي فالاندر ببابيه... لكنه حتى الآن لا يعرف ماذا سيفعل فيما لو لم تأت بابيه في الموعد المحدد في السوق المركزي. وبدأ يدب فيه الشعور بالهزيمة.

استمر ممدداً في فراشه من دون أن يغفو. وعاد الجو ليبرد من جديد.

مكتبة

١٨

استيقظ فالاندر في السابعة صباحاً...

وتوقعَ بشكل غريزي أن خطرا ما سيقع حتماً...

جلسَ صامتاً في الغرفة المظلمة يستمعُ لما يجري في الخارج. أدركَ أن الخطر الذي يهدده موجود في داخله وليسَ خارج هذه الغرفة أو داخلها. ومع أنه لم يكتشف حتى الآن أي خطر يحيط به، إلا أنه اعتبر في الوقت ذاته أن الإحساس بالخطر الذي يسيطر عليه الآن هو تحذير له.

توقف الألم في يده المتورمة، فحاول بحذر أن يُحرك أصابعه من دون أن ينظر إليها. عاوده الألم فجأة أدرك عدم قدرته على تحمل المزيد ولوقت أطول من دون أن يراجع الطبيب. فهو قبل أن ينام ليلة أمس بعد أن أُغشيَ عليه شعَرَ بالهزيمة أمام قوة العميدين الجبارة.

استيقظ كورت فالاندر متعباً بسبب قلة النوم، وشاعراً بالمرارة لعدم قدرته على تقييم الأمور واهتزاز ثقته بنفسه.

حاولَ فالاندر أن يجد تفسيراً لإحساسه بالخطر الذي يعانيه ويسيطر عليه الآن، وتساءل مع نفسه: «ما هو الشيء الذي أغفلته؟ وأين أخطأتُ عندما فكرتُ في تسلسل الأحداث أو الربط بينها؟ وما هو الشيء الذي لم أره حتى الآن؟».

ولم يقدر على الهرَب من حالة الارتباك التي يعيشها، ولا حتى أن يتجاهل إحساسه الفطري بقرب وقوع الخطر. ظلَ جالساً عند حافة السرير وعاد ثانية ليسأل نفسه: «ما هو الشيء الذي لم يره حتى الآن؟».

مكسه

لكنه لم يحصل على جواب لسؤاله! نظر بتقزز ولأول مرة إلى يده المتورمة، ثم ملأ المغسلة فوراً بالماء البارد وغطّسَ وجهه أولا ثم يده المتراجفة بعد ذلك. انتظر لعدة دقائق ثم تقدمَ نحو النافذة وسحب الستارة. غطى حينها الضباب كل أطراف المدينة حتى برج الكنيسة، تأمل الناس المتسارعين على الأرصفة، من دون أن يتمكن من الإجابة عن السؤال الذي لم يتوقف في رأسه... «ما هو الشيء الذي لم يره حتى الآن؟».

غادر كورت فالاندر بعد ذلك الغرفة، وسمح للمدينة أن تبتلعه... سار عبرَ أحد المتنزهات الذي لم يعرف اسمه، ولاحظَ أن ريغا مدينة مليئة بالكلاب! الكلاب الحقيقية المسالمة التي يُربيها الناس ويستمتعون بتربيتهم لها، وليس مثل تلك الكلاب السرية التي تطارده كل حين. توقف فجأة بينما كان يعبر المتنزه وراح يتأمل كلبين كان أحداهما من نوع شيفر كان برفقة رجل كبير السن، والآخر كان مُهجناً وبرفقة امرأة في الثلاثين من العمر. تشاجر الكلبان فيما بينهما، فصاح مالكاهما لزجرهما، ثم تغيرت الحالة فجأة وراح كل من الرجل العجوز والمرأة يرفع صوته على الآخر. أدركَ كورت فالاندر حينها أن ما يراه الآن ليس حالة عابرة، وإنما هي الحالة الفعلية للحياة في هذا البلد. فالمعركة التي وقعت بين الكلبين لم تُعرف أسبابها وبالتالي هي لا تختلف عن الصراعات وحالات الشجار التي تقع بين البشر التي تفتقر لأي مدخل أو مخرج إذا أرادَ المرء أن يُحققَ فيها.

وصلَ كورت فالاندر إلى السوق المركزيِ في تمام العاشرة حاملاً الملف الأزرق في صدره تحت القميص. كان وصوله في الوقت نفسه الذي تُفتح فيه الأسواق أبوابها. فكر أن يجد مخبأً مؤقتاً للملف، لأنه ومن خلال تجواله في المدينة هذا الصباح راقبَ كل حركة تحصل أمامه وخلفه، وتأكدَ من أن العميدين كانا يُحاصرانه، كما أن المخبرين

ازدادَ عددهم من حوله بشكلٍ غير طبيعي. أدرك حينها أن الحالة هي الهدوء الذي يسبق العاصفة فعلاً.

وقفَ كورت فالاندر عند مدخل السوق وتظاهرَ بقراءة الأوراق المعلقة في لوحة الإعلانات، وراح في الوقت نفسه يراقِب مكتب خدمة الزبائن والمكان الذي يحفظ فيه الزبائن حقائبهم وحاجياتهم قبل دخولهم إلى السوق. كان مكتب خدمة الزبائن موجوداً في إحدى زوايا المدخل وبجانبه نافذة لتصريف العملة. فتقدم نحو النافذة وصرّفَ ورقة نقدية فئة مائة كرون سويدي وتسلم بدلها حزمة من الأوراق النقدية اللاتفية. ثم واصل مسيره داخل السوق باتجاه الطابق الذي فيه قسم الصوتيات. اشترى اسطوانتي موسيقى كانتا بحجم الملفِ نفسه تقريباً، وتسلمهما في كيس بلاستيكي. نظرَ إلى أقرب المُخبرين من حوله الذي تظاهر حينها بالنظر إلى أحد الرفوف المخصّصة لعرض أقراص موسيقى الجاز. رجعَ ثانية إلى مكتب خدمة الزبائن، وانتظر هناك إلى أن تجمعَ عدد من الزبائن عند طاولة المكتب. فذهب بسرعة إلى أقصى خزائن حفظ أغراض الزبائن وفتحه ثم أخرجَ الملف بخِفة من قميصه ووضعَه بين الأسطوانتين وأودعَ الكيس البلاستيكي بكل محتوياته في الخزانة ثم سحَبَ معه مفتاح الخزانة مربوطاً بقرص. تمت العملية بخفة سريعة جداً على الرغم من أنه استخدَمَ يداً واحدة. وبعد أن تأكدَ من عدم انتباه أي من المخبرين حوله لما فعله بالملف، ترك كورت فالاندر مكتب خدمة الزبائن بعد ذلك وعاد ليُكمل جولته داخل السوق. نظر بعدها بقلق إلى ساعته اليدوية، فما يزالَ أمامه عشر دقائق على موعده مع بايبه.

سارَ كورت فالاندر باتجاه الطابق الذي يوجد فيه قسم الأثاث ولاحظَ أن عدد الزائرين للقسم كان كبيراً على الرغم من أن الوقت كان مبكراً. كان الجميع متجمعين عند مجاميع الأرائِك والأسرّة

الحديثة وكأنهم جميعاً كانوا يحلمون بامتلاك مثلها يوماً ما! تجول بعدها ببطء بين المعروضات، وتوقف لبضع دقائق عند معرض الساعات كي يملأ وقت الانتظار ثم ذهب إلى قسم تجهيزات المطبخ، وهو المكان الذي اتفقَ مع بايبه على أن يلتقيا عنده وبالتحديد عند الطباخات والثلاجات السوفيتية الصنع. وبمجرد أن وصل كورت فالاندر المكان اكتشف بايبه في الحال، كانت تتظاهر بالنظر إلى أحد الطباخات. شعرَ حينها بأن شيئاً ما قد حصلَ معها! شيئاً من النوع نفسه الذي خمّنـــَـه عندما استيقظ هذا الصباح فاجتاحه قلق شَمَلَ كل أحاسيسه.

ابتسمت له بايبه بمُجرد أن اكتشفته... لكن نظراتها أوحت بأنها كانت خائفة جداً.

تقدم كورت فالاندر نحوها غير مُبالٍ بالمخبرين المحيطين بهما، وركزَ في تلكَ اللحظة على التخلُّص من الطوق الذي فرضه حولهما هؤلاء المخبرون. وقف بجانب بايبه وراحا يتأملان معاً إحدى الثلاجات الكهربائية اللمّاعة، وسألها في الوقت نفسه:

-»ما الذي حصل؟ أخبريني بالأشياء المهمة فقط، فما يزال أمامنا بعض الوقت.»

«لم يحصل شيء،» ردت بايبه. «لكنني لم أتمكن من مغادرة بناية الجامعة بسبب المراقبة الشديدة من حولي.»

فكر كورت فالاندر مع نفسه بشكل محموم: «لماذا تكذبين يا بايبه؟ لماذا تحاولين الكذب؟ فملامحك توحي بشكل واضح أن شيئاً ما قد حصل؟»

«هل عثرتَ على الملف؟» سألته بايبه.

تردد فالاندر في البداية في أن يقول الصدق، لكنه شعر بالتعب الذي يحيط به من كل جانب، فرد عليها:

- نعم، لقد عثرتُ عليه. وصديقكم مايكلس شخص موثوق به.»

مكسه

«أعطني الملف، ردت بايبه بتلهف. أنا أعرف أين سأخفيه.»
حينها أُدركَ فالاندر بأن التي تتحدثُ معه الآن ليست بايبه الحقيقية؟ بل إن خوفها هو الذي طلبَ منه الملف، أو ربما التهديد الذي أحاط بهما حينها هو الذي طلب ذلك.
«ما الذي حصل بالضبط؟» سألها فالاندر ثانية بحزم، وربما قال جملته مصحوبة بزجرة.
«قلتُ لك لا شيء،» أجابت بايبه.
«لا تكذبي،» رد فالاندر عليها رافعاً صوته، «وماذا ستفعلين فيما لو لم أعطك الملف؟»
لاحظَ فَالاندر بأن بايبه على وشك الانهيار، ففكر مع نفسه مُخاطِباً إياها بصمت: «تماسكي بايبه ولا تضيعي علينا الفرصة... فالكلابَ الذين حولنا سيملُّون من مطاردتنا إذا تأكدوا من عدم قدرتنا على العثور على وصية العقيد، ساعديني كي نجعلهم ييأسوا منها، النجاح بجانبنا لذا عليك بالتماسك».
«سيموت أوبتس،» همست له بايبه.
«ومَن هدد بذلك؟» سألها فالاندر.
غير أن بايبه اكتفت بهز رأسها، إلا أن فالاندر ألحَ في سؤاله.
«يجب أن أعرف.»
نظرت إليه بايبه بغرابة، فأمسكَ كورت فالاندر بيده السليمة من ذراعها وهزها:
«من هـَـدَدَ بذلك؟ مَن قال بأن أوبتس سيموت؟»
«الرقيب زيدس،» ردت بايبه.
أرخى كورت فالاندر يده، وجوابها زاد من غضبه لأنه لم يعرف حتى الآن أي من العميدين وراء ذلك؟ ولا حتى مكان الغرفة المركزية التي تُدير المؤامرة بكاملها. وفجأة اكتشف كورت فالاندر بأن المخبرين

مكسه

بدأوا بالاقتراب منهما، فهم الآن تأكدوا بشكل قاطع أن وصية العقيد بصحبة فالاندر وبايبه. بدون أن يفكر سحب فالاندر معه بايبه وركضا معاً باتجاه السلالم، وفكر حينها: «ليس أوبتس مــَن سيموت... وإنما نحن مَن ستنهشه هذه الكلاب».

فكر بضرورة المحاولة على الرغم من أنه لم يكن متأكداً بأنهما سينجحان في الإفلات من هذه المطاردة. هربهما بهذه الطريقة فاجأ كلاب المطاردة! سحب كورت فالاندر معه بايبه إلى السلالم النازلة، ودفعا رجلاً صارَ في طريقهما ثم دخلا في قسم المنسوجات. تفاجأ الموظفون والزبائن في السوق عندما شاهدوا منظر هروبهما. تَـعَـثَّرَ فالاندر أثناء ركضه بينَ المعروضات، لكنه لاقى الأرض بيده المصابة فشبَّ فيها الألم بشكل فظيع. جاء أحد حراس السوق راكضاً وأمسك بيد فالاندر الذي سدد بدوره ضربة قوية بيده السليمة جاءت في وجه الرجل، ثم سحب فالاندر بايبه ونهض راكضاً وتوقعَ وجود سُلّم اضطراري خلف هذا القسم. اقترب منهما المخبرون أكثر فأكثر وصارت المطاردة علنية وبشكل مفتوح. حاول كورت فالاندر أن يفتح أحد الأبواب، لكنها كانت جميعاً مغلقة سوى الباب الأخير كان نصف مفتوح، فدخلا فيه وصارا أمام السلالم الاضطرارية تماماً. غير أن وقع الخطى وراءهم تزايدَ وسَمِعا وَقعَ خُطى متزايداً قادماً من الأسفل ثم شاهدا أشخاصاً كثيرين جاؤوا باتجاههما فاضطرا أن يسلكـــا السلالم الصاعدة حتى وصلا إلى أحد الأبواب التي عندما فتحها فالاندر وجدا نفسيهما على سطح السوق الذي كان مغطى بالحصى. نظر كورت فالاندر حوله واستمرا بالبحث عن طريق للهروب، إلا أنه يئسَ لأن السطح كان مفتوحاً للفضاء، فأمسكَ بيد بايبه بشدة، ولم يبقَ أمامهما الآن غير الانتظار. راهنَ في تلك اللحظة على أن أياً من العميدين سيظهر على السطح وسيكون هو الذي قتل أو دبّــرَ عملية اغتيال العقيد ليبه، وفكرَ

مكتبة

مع نفسه: «ستظهر الحقيقة، وسوف أراها بعد قليل من خلال بـــاب الحريق الرصاصي هذا... بعدها سوفَ لن يهمني فيما إذا كانت طريقة تفكيري السابقة صحيحة أم لا!».

لكنه فوجئ عندما فُتِـح الباب واندفعَ من خلاله العميد بتنس محاطاً بمجموعة من الرجال المسلحين إلى السطح. فكر كورت فالاندر لحظتها في أنه كان مخطئاً في تحليلاته! فقد خمّنَ في اللحظة الأولى بأن مورنيرس هو الوحش الذي كان يقف في الظلمة ويشحذ السكاكين!

تقدم بتنس بملامح جـــديـــة وحاسمة نحوهما. شعَرَ كورت فالاندر في تلك اللحظة بأظفار بايبه تنغرسُ في يده. وغطى الخوف كل شيء بشكل مفاجئ لدرجة راح كورت فالاندر يرتجف وتذكر المجزرة الفظيعة التي ماتت فيها إنسي وبقية رفاقها! فكرَ حينها في أن بتنس سيعطي أوامره في الحال لرجاله كي يُصَوبوا عليهما أسلحتهم. ارتسمت على وجه بتنس ابتسامة عريضة أربكـَــت كورت فالاندر وأجبرته على التفكير في أن هذا الرجل الذي أمامه ليس حيواناً مفترساً، بل هو إنسان لطيف جاءَ لمساعدتهما، ثم سمعه يقول لهما:

«لا داعي أن تتفاجأ يا سيد فالاندر،» قال بتنس. «إنك شخص غير سهل في المطاردة، وقد تعتقد أنني مَن يقف وراء كل هذه الفوضى بالكامل!»

توقف عقل فالاندر عن التفكير تماماً للحظـــات، ثم أدركَ من جديد بأنه وبالرغم من كل شيء كان مُحـِقـــاً في اعتقاده بأن بتنس كان بريئاً من دم العقيد ليبه، وأن مورنيرس كان طوال الوقت يمثل يد الشيطان في تحريك القضية. وبالإضافة إلى ذلك فإنه كان أيضاً مُحقـــاً بفرضية الاحتمال الثالث، التي تضَمّنَت أن العدو هو أيضاً لديه عَدو. وفجأة اتضح كل شيء أمامه صار كل شيء واضحاً أمامه، ولم تخنه قدرته على تمييز الأشياء، فمَـــدَ يده ليصافح بتنس الذي ابتسم بوجهه وقال:

مكسه

«لقد التقينا في مكان غير مناسب، لكنك رجل مُدهش بحَق ويجب هنا أن أعترفُ أمامكَ بأني حتى الآن مُندهش من الطريقة التي سلَكتها في دخولكَ البلد مِن دون أن يشعر بك أحد من حرس حدودنا.»

«أنا شخصياً لا أعرف ذلك،» رد فالاندر. «فهذه قصة طويلة جداً، من الصعب شرحها الآن.»

تأمل بتنس بتململ يد فالاندر المصابة وقال:

«ينبغي أن نُعالج يدكَ بأسرع وقت.»

هز فالاندر رأسه والتفت مُبتسماً إلى بايبه التي كانت مندهشة وغير مُصدقة لِما يحصل حولها. ثم سأل بتنس:

«هَل كان مورنيرس مَن يقف وراء كل شيء؟»

هز بتنس رأسه وأجاب:

«لقد كان العقيد مُحقاً في كل شكوكه.»

«بالنسبة لي فيبدو الأمر صعباً جداً، ولن أفهمه بالكامل.» رد فالاندر.

«العميد مورنيرس شخص ذكي وفطن جداً.» أجاب بتنس. «إنه رجل يتمتعُ بقدرات شيطانية عالية... فللأسف إننا دائماً نجد العقول الذكية والحادة تعشق جماجم الرجال الأشداء والعدوانيين.»

«هل حقاً كان مورنيرس القاتل الحقيقي لزوجي؟» سألته بايبه.

«نعم، ولكن في الحقيقة كان مورنيرس مَن أمرَ بقتل العقيد، والرقيب زيدس هو مَن نفّذَ تلك الأوامر.»

«زيدس الذي كان سائقي الخاص،» قال فالاندر والتفت في الوقت نفسه لبايبه وأضاف، «وهو نفسه الذي قتلَ إنسي ورفاقها.»

هز بتنس رأسه موافقاً، واستمر بالكلام:

«العميد مورنيرس لم يُحب الأمة اللاتفية مطلقاً، حتى وضمن عمله

ضابط شرطة فإنه ملتزم سياسياً- قلباً ولساناً- بالخط الذي يُمجـّـد الاتحاد السوفيتي السابق وإن الله بالنسبة له يجلس دائماً في الكــريمــلن. وبالتالي فهو يُنفذُ كل التعليمات التي تصدرُ عنهم، ومنها تلك التي تؤكد على ضرورة بناء تحالفات مع المنظمات الإجرامية. إلا أن العقيد ليبه قد تقاطعَ مع هذا التوجه واقترب من متابعة الخطوط التي توصل بين السلطات والمجرمين. وأعترفُ هنا بأني لم أفهم ما يُرتكَـب ضد هذا البلد إلا بعد مُـضي وقت طويل. وبعدَ ذلك قررت الاستمرار بممارسة اللعبة نفسها التي يلعبها العميد مورنيرس.»

«مع ذلك لم أعُد أفهم!» قالَ فالاندر. «يجب أن تكون هناك أشياء أخرى فقد تحدّثَ العقيد ليبه عن وجود مؤامرة كبيرة ستدفع كل أوروبا لفهم ودراسة ما يحصل في البلد.»

هز بتنس رأسه مُفكراً، ثم قال:

«بالطبع. يوجد هناك المزيد، بشكل يدفع أحد ضباط الشرطة المُرتشين من ذوي الرتب العالية عند الضرورة أن يتحالف مع المجرمين كي يحفظ امتيازاته. وقد أدرك العقيد ليبه هذه المؤامرة.»

ارتجفَ فالاندر من البرد. وكان ما يزال مُمسكاً بيد بابيه، أما رجال بتنس المسلحين فقد أنزلوا أسلحتهم وتوقفوا عند باب الحريق.

«إن كل شيء كان محسوباً بطريقة محكمة،» استمر بتنس بالكلام: «فقد اكتشف العميد مورنيرس فكرة ناجحة تهدف لاصطياد عصفورين بحجر واحد، ليُثبت وجوده أمام سادته في الكرملن، القادة الروس الذين يُديرون الحياة في لاتفيا.»

وهنا بادر فالاندر لشرح فكرة مورنيرس فقال:

«اعتمد مورنيرس في فكرته على تهريب المخدرات إلى أوروبا الجديدة ومن ضمنها السويد طبعاً، لكسب المزيد من الأموال والإساءة لحركة تحرّر الأمة اللاتفية من خلال تشويه سمعتها. أليس ذلك صحيحاً؟»

هز بتنس رأسه وقال:

«لقد أدركتُ منذ رأيتُـك يا مفتش فالاندر بأنك مفتش شرطة متمرس، شجاع ومُمتاز في تحليل الأمور. فما ذكرته هو بالضبط ما سعى إليه مورنيرس، لأنه فعلاً فكر أن يُلصق إثـم تجارة المخدرات بحركة التحرر اللاتفية ويجعله وجها لها، لغرض تغيير فكرة الناس في أوروبا الغربية وعلى الأقل في السويد حول مقاومة اللاتفيين ونضالهم من أجل مستقبل أفضل. فمَـن مِـنَ السويديين سيدعم حركه تسعى لإغراق بلده بالمخدرات؟ وبذلك أثبتَ مورنيرس امتلاكه ذهناً حاداً استطاع أن يكسر ظهر حركة التحرر في هذا البلد.»

فكر فالاندر فيما قاله بتنس، ثم التفت لبايبه وقال:

«هل أدركتِ ما حصل؟»

هزت بايبه رأسها بالموافقة ثم قالت:

«أين الرقيب زيدس الآن؟»

«سيحضَر إلى هنا كل مِن مورنيرس وزيدس وسنقبض عليهما في الحال،» قال بتنس. «فالعميدُ مورنيرس قلق جداً الآن، وهو لم يعلَم بأننا كُـنـا نُراقبه هو ورجاله طوال الوقت... وأنتَ يا مُفتش فالاندر ربما ستنتقدني لأني عرضتكم إلى المزيد من الأخطار غير الضرورية، لكنني توقعتُ بأن هذا هو الاحتمال الوحيد الذي سيُمكنُنا من الحصول على الأوراق المهمة التي تركها العقيد خلفه.»

في هذه الأثناء قالت بايبه:

«عندما غادرتُ الجامعة يوم أمس وجدتُ زيدس ينتظرني عند البوابة، فأوقفني وقال لي إذا لم تُسلمينـا أوراق العقيد فإننا سنقتل أوبتس.»

«لقد كان أوبتس بريئـاً،» قال بتنس. «لكن مورنيرس أخذَ أُخته وأطفالها الصغار رهائن. وهدده بقتلهم إذا لم يقبل القيام بدور القاتل للعقيد ليبه. وكما ترون جرائم مورنيرس لا حدودَ لها، إلا أن كشف

مكسه

النقاب عما يرتكبه هذا العميد المجرم سيُريح نسبة كبيرة من الناس في هذا البلد، وبالتالي يجب أن يُحكَـــمَ عَليه وعلى زيدس بالإعدام بعدَ أن تُنشر التحقيقات السرية التي أجراها العقيد ليبه حول الفساد لأن ذلك سيكشف النقاب عن المؤامرة بأكملـُـها أمام المحاكم والرأي العام.»

شعرَ فالاندر بالارتياح يسيطر على كل جسده.

فاللعبة بكامـــــــلها انتهت

ابتسم بتنس وقال:

«بقيَ شيء مهم وهو يجب أن أقرأ وصية العقيد الآن. وبالنسبة لك يا مفتش فالاندر يمكنك العودة إلى وطنكَ بأمان، ونحن بالطبع نشكرك كثيراً للمساعدة العظيمة التي قدمتها لنا.»

سحبَ فالاندر القرص البلاستيكي المرفق مع المفتاح من جيبه وقال:

«هذا مفتاح الخزانة الموجودة في مكتب خدمة الزبائن في الطابق الأرضي، حيث يوجد فيه كيس بلاستيكي يحتوي على ملف أزرق اللون محصور بين قرصي موسيقى. أتمنى لو ترجعوا لي قرصي الموسيقى بعد أن تأخذوا الملف.»

ضحك بتنس بصوت عالٍ وقال:

«إنك يا مفتش فالاندر ماهر وذكي، ولكنك للأسف ارتكبتَ خطأً غير مقصود!»

ثم تغيرت نبرة صوت العميد بتنس! ولم يستطع فالاندر حينها أن يُحدد المكان الذي أخطأ فيه. ولكن بمجرد أن أخذ بتنس قرص المفتاح ووضعه في جيبه أدرك فالاندر بأنه ارتكب لحظتها أكبر غلطة في حياته! وراحـــَت أفكاره تـُـحاور غريزته وجـَـفَّ فمه في الحال!

استمر بتنس بالابتسامة ثُمَ سحب مسدساً من جيبه...

واقترب رجاله المنتشرون على السطح ووجهوا بنادقهم الرشاشة

مكتبة

نحو فالاندر وبايِيه! التي لم تفهم حينها شيئاً مما يدور حولها و لم تفعل سوى أن أمسُكت بشدة بفالاندر الذي وقفَ مذهولاً وشاعِراً بالخوف والإهانة.

في اللحظة ذاتها اندفعَ باب الحريق وقفزَ زيدس إلى السطح...

اعتقد فالاندر حينهاَ أن زيدس كان واقفاً منذ مدة طويلة خلف الباب منتظراً دوره الذي حان في نهاية هذه التمثيلية! ثم قال بتنس بصوت غريب النبرة:

«كل ما قلته لكما قبل قليل كان صادقاً مئة بالمئة، والفرق بين كلماتي والواقع الفعلي هو أنا شخصياً... فأنت يا مفتش فالاندر كنتَ مُخطئاً ومصيباً في الوقت نفسه، غير أنك تشبهني عندما كُنتُ ماركسياً؛ إذ إنك الآن تعتقد أن بإمكان المرء في بعض الأحيان أن يقلب الدنيا رأساً على عقب...»

ثم انسحبَ بتنس عدة خطوات للخلف واستمر بالكلام:

«والآن عليك أن تفهم بأنك سوفَ لن تعود إلى السويد، بل ستذهب روحك مباشرة إلى السماء.»

فرد عليه فالاندر مُلتمساً:

«على أن لا تفعلوا شيئاً لبايِيه رجاء.»

«آسف أنتما الاثنان.» رد بتنس.

ثم رفعَ بتنس سلاحه وسدّده صوبَ فالاندر الذي أدرك أن بتنس سيطلق النار على بايِيه أولاً. وليس بمقدوره أن يفعل أي شيء عدا أن يستسلمَ للموتَ على هذا السطح في مركز مدينة ريغا.

في تلك اللحظة فُتِحَ باب الحريق، جَفَلَ بتنس والتفت صوب مصدر الصوت غير المُتوقَع، حيث اندفع للسطح عدد كبير من رجال الشرطة بهيئة سَهَم كان على رأسه العميد مورنيرس الذي أدرك عندما شاهدَ بتنس على السطح وبيده المسدس بأنه سوف لن يتردد أبداً في أن

يُطلقُ النارَ عليه، فبادر هو في الحال بإطلاق النار من سلاحه الرشاش مُصَوباً ثلاث إطلاقات متتالية في صدرِ بتنس، فاندلَعَ في الوقت نفسه إطلاق نار شديد على السطح بين رجال مورنيرس ورجال بتنس المتمترسين خلف المداخنِ ومجاري التهوية ما دفَعَ فالاندر إلى أن ينحني على بايبه ليحميها. لاحظَ بأنهما موجودان في وسط المعركة وربما في خط النار الأول، ففكر أن يسحب بايبه معه ويحتمي وراء بتنس الذي أصبحَ جثة هامدة.

وفجأة لمحَ كورت فالاندر زيدس مُقرفِصاً خلفَ إحدى المداخن...

والتقت نظراتهما للحظة! ثم نظر زيدس إلى بايبه فأدركَ فالاندر في الحال بأن هذا الوغد يفكر الآن أن يأخذ بايبه أو ربما يأخذهما الاثنين رهائنَ ليُحافظ على حياته من رجال مورنيرس الذين كانوا متفوقين في العدد والعُدة. فمدَّ فالاندر يده ليلتقطَ مسدس بتنس الذي كان مُلقى على الأرض بجانب جثته، إلا أَن زيدس انقض عليه قبلَ أن يلتقط المسدس، وسدد له فالاندر بيده المصابة ضربة قوية على وجهه مصحوبة بصرخة قوية من شدة الألم، وجَـفَـلَ فالاندر عندما شاهدَ الدم يجري من وجه زيدس الكريه بعد أن سمِـعَ صوتاً مُدوياً لإحدى الطلقات النارية كان قريباً منه. ففي لحظة ظنَ فالاندر أنه انتهى فأغمضَ عينيه مُنتظراً الموت بعد أن ضربَ زيدس الذي جمَعَ قواه ليُعيد الضربة بكراهية وثَـأرٍ من رجل الشرطة السويدي الذي سبّبَ كل هذه المعاناة ودمرَ مستقبَله ومستقبل آمريه. غير أنه لم يلحق أن يسدد ضربته لفالاندر، لأن بايبه في لحظة التقطَت مسدس بتنس وسددت إطلاقة جاءت بين عيني زيدس.

عندما سمعَ صوت الإطلاقة أدركَ أنه ما يزال على قيد الحياة، ففتحَ عينيه ثانية، وشاهدَ في الحال بايبه جاثية على ركبتيها بجانبه وتحمل بيدها

مكسه

مسدس بتنس، فأدرك أنها هي التي أطلقت النار. ثم انفجرت باكية...

شعَرَ فالاندر بعدها بأن ما حصل على الرغم من كونه جنوناً إلا أنه خفّفَ عنه المزيد وبدّدَ كل الخوف الذي كان بداخله.

انتهت المعركة، وتوقفَ إطلاق النار بالسرعة نفسها التي بدأ فيها.

مات جميع رجال بتنس، ولم يبقَ منهم سوى اثنين كانا مُصابين.

تأمل مورنيرس أحد رجاله الذي أُصيبَ بشظيه في قفصه الصدري، ثم تقدم نحو بايبه وفالاندر وقال:

«أنا آسف لما حصل، ولكنني كنتُ مضطراً لمعرفة ما قاله بتنس.»

«ستتأكد بنفسكَ عندما تقرأ وصية العقيد.» قال فالاندر.

«وكيف سأتأكد من وجودها؟ وهل عثرتُم عليها؟»

«كان عليك أن تسأل، أو بالأحرى تتصل بنا بطريقة ما.» رد فالاندر.

هز مورنيرس رأسه مفكراً ثم قال:

«لقد قررت أن أضعكما ورجال بتنس تحت المراقبة. لأني لو حاولتُ الاتصال بأحدكما فإن ذلك سيعني دخولي في حرب مفتوحة مع بتنس الذي من المؤكـد سيـفكّرُ في الهرب إلى خارج البلد وبالتالي سيصبح إلقاء القبض عليه مستحيلاً.»

فجأة شعر فالاندر بأنه مُتعب جداً لدرجة لا يستطيع فيها أن يستمع لما يُقال. وبدأ الألم يشتد في يده المصابة، فنهضَ من مكانه ساحباً معه بايبه...

ثم أُغميَ عليه بعدَ ذلك...

وعندما استعادَ وعيه وجد نفسه ممدداً على طاولة فحص في أحد المستشفيات وقد تم تجبير يده التي أصبحت خالية من أي ألم، وعند مدخل الغرفة وقفَ العميد مورنيرس يُدخّن.

«هل تشعر بتحسُن الآن؟» سأله مورنيرس.

مكسه

أطباؤنا اللاتفيون ماهرون في عملهم، سيتم تصوير يدكَ شعاعياً لأن منظرها وهي متورمة كان مُخيفاً. كيفَ تحملت كل هذا الألم؟

«ما الذي حصل؟» سأله فالاندر.

«لقد أُغميَ عليك،» رد مورنيرس. «وما فعلته هو أبسط شيء أُقدمه لك وأنت بذاك الحال!»

نظر فالاندر حوله في غرفة الفحص، ثم سأل:

«وأينَ بايبه؟»

«إنها في بيتها،» رد مورنيرس. «لقد أوصلتها إلى هناك قبل عدة ساعات، وكانت بحالة هادئة.»

شعرَ فالاندر بجفاف في فمه. ثم جلسَ بشكل حذِر على حافة طاولة الفحص، وقال:

«هل لِي أن أطلب من حضرتكُم كوب قهوة؟»

ضحكَ مورنيرس بقوة وقال:

«لم أرَ في حياتي أبداً شخصاً يحب القهوة مثلكَ، ولكن بالطبع سنجلب لك القهوة. ولكن إذا شعرتَ بتحسّن، اقترح عليكَ أن نذهب لمكتبي لـــنُنهي هذه الصفقة! وبعدها أعتقد بأنكِ والسيدة بايبه ليبه لديكما المزِيد من المواضيع لتتحدثا فيها. أما عن يدكَ فإن الطبيب الذي جَبّرها قال إن حالتها طبيعية وخالية من أي خطورة، كما أن أحد الأطباء العسكريين سيحضر ليعطيكَ حقنة مهدئة للآلام حتى لا يعاودكَ الألم مرة ثانية.»

ذهبا معاً بسيارة مورنيرس عبر المدينة...

كان الغروب على وشك الحلول. وعندما وصلا إلى البوابة الرئيسية لبناية مقر الشرطة فكر فالاندر في أن هذه ربما المرة الأخيرة التي سيدخُل فيها هذا المكان. وفي طريقهما إلى المكتب توقف العميد عند قاصة ضخمة في المدخل يحرسها أحد العسكريين المسلحين، وأخذَ منها الملف الأزرق.

مكسه

«أظنُ أنه من الحكمة أن يُحفظ هذا الملف في قاصة؟» قال فالاندر.

نظر إليه مورنيرس باستغراب وقال:

«ليس من الحكمة فقط، بل وضروري جداً. فعلى الرغم من مقتل بتنس إلا أن المشكلة لم تنته بعد، ما زلنا نعيش في العالم نفسه يا مفتش فالاندر... أو في البلد نفسه الذي ستمزقه الأفكار المُتـضاربة التي دفعتنا لتسديد ثلاث إطلاقات في صدر ضابط شرطة برتبة عميد.»

فكر فالاندر ملياً في كلمات مورنيرس، ثم استمرا بالسير نحو المكتب. وعند دخولهما جاء أحد الرجال حاملاً صينية فيها كوبا قهوة واستعد عند الباب. حاول فالاندر أن يستعيد في ذاكرته الزيارة الأولى لهذه الغرفة التي بـدَت له مثل ذكريات بعيدة. وتساءل مع نفسه فيما إذا كان بإمكانه أن يفهم الأحداث التي جَرَت بين زيارته الأولى والآن.

سحبَ مورنيرس من طاولة مكتبه زجاجة كونياك وملأ كأسين وقال:

«إنه بالطبع لأمر مكروه أن يتبادل المرء الأنخاب عند موت العديد من الرجال، لكنني أعتقد أننا قمنا بعمل يستأهل الاحتفال، وبالأخص ما قُمتَ به أنت يا مفتش فالاندر.»

«أنا لم أفعلُ شيئاً،» اعترض فالاندر.

فقد ارتكبتُ أكثر من خطأ، وفكرت أكثر من مرة بطريقة خاطئة، وفي أكثر من مرة كنتُ متأخراً في فهم كيفية ترابط الأشياء مع بعضها.

«على العكس،» رد فالاندر. «انا شخصياً مُعجب جداً بإدائك، وعلى الأقل بشجاعتك.»

«لم أكن شُجاعاً، لكنني مُستغرب من بقائي حتى الآن على قيد الحياة.»

telegram @ktabpdf

مكتبة

ثم أفرغا كأسيهما وجلسا معاً حول الطاولة التي كانت مغطاة بغطاء أخضر. وفي الوسط بينهما كانت وصية العقيد الموجودة في الملف الأزرق. وبادر فالاندر بالسؤال:

«لديّ سؤال واحد أود أن أحصل على جواب له، وهو بتنس؟»

هز مورنيرس رأسه مفكراً وقال:

«هذا الرجل لا يوجد أي حدود لدهائه وقسوته. فهو قاتل مُحتــرف، وأراد أن يجعل منكَ كبش فداء. فقد تفاجأ من التحقيق الأولي الذي أجريته انت في القضية وخاف من إمكانياتك العالية بالإشارة إليه وتشخيصه قاتلاً فعلياً للعقيد! لذلك كان طوال وجودك بيننا يبحث عن سبب لإنهاء بحثك وإعادتكَ للسويد. وبعد عودتكَ اختطفَ أخت أوبتس وطفليها الصغيرين يا مفتش فالاندر ليُساوم أوبتس المسكين على قتل أخته وطفليها إذا لم يتبنَّ عملية قتل العقيد لَيبه. ولم يكن أمام أوبتس أي اختيار سوى قبول ذلك، فلو كنــتُ أنا مكانه لفعلتُ مثله واعترفت بذنب لم أفعله! عثرنا على الطفلين المحتجزين وأمهما بعد تنفيذ الحكم بأوبتس، الذي تعرفه بايبه بأنه كان وفياً جداً لزوجها.»

«لقد بدأ كل شيء بتلك الطوافة التي رست في أحد السواحل السويدية، همس فالاندر ثم صمتَ.»

«قبيلها كان العميد بتنس قد بدأ ومُعاونيه أكبر عملية لهم،» قال مورنيرس،

«التي كانت تتضمن تهريب المخدرات لدول أوروبــا الغربية المجاورة مثل السويد، التي لدى العميد بتنس فيها العديد من العملاء الذين أغلبهم من مجاميع اللاتفيين المهاجرين المقيمين فيها. وكان يرمي من وراء ذلك جني الأرباح الطائلة من هذه التجارة وكذلك إلصاق تهمة تهريب المخدرات بحركة التحرر اللاتفية. لكن حصل شيء ما على ظهر الباخرة التي ستُهرب المخدرات من مدينة فينتسبيل، والعملية

ببساطة أن اثنين من رجال العميد بتنس تصرفا بارتجال وقررا أن يُصادرا تلك الكميات ليبيعاها لحسابهما. وعندما اكتشفهما العميد ألقى القبض عليهما وأعدمهما رميا بالرصاص على ظهر الباخرة، ثم رماهما في إحدى طوافات الإنقاذ في عرض البحر من دون أن ينتبه إلى تفريغ شحنة المخدرات التي كانت موجودة في الطوافة. وحسب معلوماتي فإنهم قد اكتشفوا غلطتهم بعد مرور يوم كامل، وفتشوا بعدها كثيراً على الطوافة في وسط البحر لكنهم لم يعثروا عليها. وعندما وصلت الطوافة إلى سواحل السويد فرحَ بتنس كثيراً، لأن الحظ قد حالفه حينها وسارت الأمور مثلما أراد! وبعدها بالطبع تحركَ عملاء بتنس الأذكياء جداً وانتظروا إلى أن تأكّـدوا من عدم اكتشاف السلطات السويدية لمحتويات الطوافة. وقاموا بالسطو على أحد مراكز الشرطة في السويد وأخذوا الطوافة ومحتوياتها.»

«لا بد أن يكون هناك شيء ما قد حصل،» قال فالاندر. «فما السبب الذي دعا بتنس لأن يقتل العقيد عند عودته مباشرة؟»

«لم يتحمل العميد بتنس موقف العقيد ليبه،» رد مورنيرس. «فهو لم يعرف ما فعله العقيد في السويد ولا حتى العقيد أطلعه على ذلك. فببساطة لم يتمكن العميد من المجازفة بإبقاء العقيد ليبه حياً دون أن يطمئن تماماً إلى ما فعله أثناء رحلته إلى السويد أو على الأقل بِمَـن اتصل هناك، لأن العقيد كان تحت سيطرة ومراقبة بتنس طيلة وجوده وحياته في لاتفيا. وبذلك غضب العميد بتنس من غموض موقف العقيد معه وانهارت أعصابه، فأعطى تعليماته للرقيب زيدس الذي لم يتردد في قتل العقيد.»

غط فالاندر ومورنيرس في صمت عميق، ولاحظَ فالاندر في النهاية أن مورنيرس كان متعباً جداً، فبادر واخترقَ الصمت عندما سأله

«وماذا سيحصل الآن؟»

مكسه

«بالطبع سأقرأ وصية العقيد أولاً، ثم سنرى بعدها،» رد مورنيرس.

جوابه أقلقَ فالاندر، فقال:

«يجب أن يتم ذلك بطريقة رسمية؟»

لم يجبه مورنيرس. وأدرك فالاندر بشكل مفاجئ بأن هذا ليس جواباً واضحاً. فقد قصدَ فالاندر أن الملف يجب يُقرأ بعد أن توافق بابيه على ذلك. لكن العميد مورنيرس فكر بالأسلوب السياسي الذي يتطلب منه منع وصية العقيد ليبه من الانتشار. وهنا قال فالاندر

«هل لي أن أحتفظ بنسخة من تحقيقات العقيد؟»

«ولكنني أعرف بأنك لا تقرأ الكتابة اللاتفية،» اعترض مورنيرس.

«إنها مجرد رغبة،» رد فالاندر.

تأمله مورنيرس بصمت لمدة طويلة، وتلاقت نظراتهما طويلاً حتى أن فالاندر شعر بأنه سوف لن ينجو من هذا الموقف. وبعد مدة طويلة من التركيز اكتشف فالاندر أن قدراته سوف لن تُهزم أمام قدرات مورنيرس. كما أن طلبه هذا هو التزام منه تجاه صديقه العقيد القصير البصر.

في النهاية أعطى مورنيرس قراره...

فضغطَ على زر الجرس الموجود تحت الطاولة، فجاء أحد الرجال وتسلم الملف الأزرق. وبعد حوالي عشرين دقيقة تسلم فالاندر نسخة غير موثقة، ويمكن للعميد أن ينكرها في أي وقت. وبالتالي فهي لا تعتبر رسمية ولا يمكن استخدامها ضدهم.

هكذا سارت الأمور، هذه هي الحقيقة التي ستكتب في كل القضية. إذا أراد أحد أن يكتبها بشكلها الحقيقي. وتساءل فالاندر مع نفسه: «لماذا يا تُرى سلمني مورنيرس هذه النسخة؟ هل كان ذلك لأجل العقيد؟ أم لأجل البلد؟ أم إنه اعتقد أن فالاندر فعلاً يستحق هذه المكافأة؟».

مكسه

ثم انتهت المحادثة بينهما...

ومايزال هناك المزيد من الكلام يجب قوله...

«الجواز الذي معك مشكوك فيه بشكل فاضح،» قال مورنيرس. «ولكني سأرتب لك عودة سليمة للسويد، فمتى ستسافر؟»

«ربما ليس غداً، فقد يكون ذلك بعد غد،» رد فالاندر.

ثم نزلا معاً إلى السيارة التي كانت بانتظارهما في الحديقة. وتذكر فالاندر فجأة سيارته البيجو، التي تركها واقفة في ألمانيا، في مكانها عند الحدود البولونية. وتساءل لحظتها: « كيف لي يا ترى أن أستعيد سيارتي؟».

تأمل مورنيرس فالاندر الذي بدوره تأمل مورنيرس و لم يتمكن من معرفة مدى قربه من هؤلاء الناس الذين يراهنون على تحسين أوضاع لاتفيا في المستقبل. وفكر مع نفسه: «لا أدري إذا كان هذا المعتوه لبمان الذي يقود منظمة لاتفيي المهجر السرية سيدفع تعويضاً لرجل الشرطة السويدي على فقدانه لسيارته التي سوف لن تعود إلى السويد».

شعر فالاندر بالإهانة، بل و لم يتمكن من تحديد أحاسيسه بشكل دقيق. ومرة أخرى فكر في أنه قد يكون التعب الذي يسيطر عليه الآن هو السبب في عجز قدراته الذهنية، وبالتالي فإنه سيفقد قدرته على التمييز إذا لم يرتح قليلاً.

ثم ودع مورنيرس فالاندر عند السيارة التي ستنقله إلى بيت بايبه ليبه، وقال له: «لا تهتم بالنسبة للسفر، فسوف أرافقك إلى المطار، وسوف لن يعرف أي شخص أنك زرتَ ريغا. سننظم لك بطاقتي سفر، الأولى من ريغا إلى هلسنفور، والثانية من هلسنفور إلى ستوكهولم. ففي الرحلة الأولى سوف لن تواجهك أي مشكلة لأني سأكون معك في المطار، أما في الثانية فسوف لن تحتاج للجواز لأنها بين دولتين من دول الشمال.»

غادرت السيارة حديقة مقر الشرطة. جلسَ فالاندر في الظلمة في

مكتبة

المقعد الخلفي وراح يفكر بكلمات مورنيرس عندما قال «سوف لن يعرف أحد بأنك كنتَ في ريغا». وأدركَ من ذلك أن هذه رسالة له بأن لا يتحدث لأي شخص حول مغامراته هذه، حتى لأبيه. بل يجب أن تبقى العملية كلها سرية، لأن كل الذي حصل كان شيئاً لا يُصدق. وحتى لو تحدثَ بذلك فمَن يا تُرى سيصدقه؟

ثم أرجعَ رأسه للخلف وأغمضَ عينيه.

فإنه سيُقابل بايبه ليبه وهذا هو المهم. وفكر مع نفسه ماذا سيفعل إذا عاد إلى السويد وحـــنّ إلى بايبه؟

أمضى فالاندر يوماً كاملاً وليلتين في شقة بايبه ليبه.

وبالرغم من أنه كان ينتظر هذه اللحظات، شعر بأن وجوده في هذا المكان يجعله مثيراً للشفقة. فلم يجد أي شيء من تلك المشاعر التي كانت تبادله بايبه بها. ولم تقترب منه إلا مرة واحدة عندما جلسا معاً على الأريكة وراحا ينظران معاً إلى الصور الفوتوغرافية التي كانت في ألبوم الصور. وعندما نزل من السيارة التي نقلته من مكتب مورنيرس إلى بيتها قابلته ببرود وتحفظ، وكأنه أصبحَ شخصاً غريباً بالنسبة لها. أصيبَ فالاندر حينها بخيبة أمل، ولم يستوعب حينها ما رآه منها، فما الذي كان يتوقعه يا تُرى؟

أعدّت له العشاء الذي كان كان حساء دجاج مع محتويات رأس الدجاجة، فعرف فالاندر بأنها ليست طباخة جيدة. وتذكر بأنها امرأة متحمسة ومتطلعة لخلق مجتمع متطور، إذن هي جيدة في هذا الأمر لكنها ليس كذلك في شؤون الطبخ، ولو أن الاثنين مطلوبان، لكن ليس بالضرورة تواجدهما في المرأة نفسها.

أصيبَ فالاندر بخيبة أمل وحالة من الضجر لم يعد يحتملها، وتخيلَ أنه ينتمي إلى صنف الرجال الذين يفضلون المرأة الطاهية الماهرة التي تشكل أغلبية النساء في العالم. فهو لم يكن أبداً من الرجال الحالمين.

مكتبة

وبحكم عمله مفتش شرطة يمكنه القول بأنه قد نسي الأحلام منذ زمن، فهو رجل واقعي الطبع ويشير بأنفه دائماً لتراب الأرض الوسخة، و لم يرفعه أبداً نحو سماء الأحلام والمستقبل. لكنه في الوقت نفسه لم يستطع أن ينكر بأنه بدأ يُحبها، وهذا الشعور زاد من ضجره لأنه سيُجبر على ترك هذه المهمة الغريبة والخطيرة، وهذا ما زاد من آلامه العميقة. وعندما تحدثَ لها عن عودته إلى ستوكهولم لم يبدُ عليها أي رد فعل. لذلك فقد بدأ يشعر بالتأسف على نفسه.

وفي الليل أعدت له فراشاً على الأريكة لينام عليه في حين نامت هي في غرفتها. و لم يستطع النوم على الرغم من أنه كان متعباً. راح يستمع لأنفاسها المتصاعدة في الغرفة وينهض بين الحين والآخر ليتأمل الشارع المقفر الذي لاقى فيه العقيد مصيره. لكن المخبرين لم يكونوا موجودين لأنهم قتلوا جميعاً مع بتنس، و لم يبقَ سوى هذا الفراغ.

وقبل سفره بيوم زارا القبور الخالية من الشواهد التي دفن فيها العميد بتنس إنسي ورفاقها، وبكيا عليها بشكل مفتوح بحيث أن فالاندر بدأ ينشِج كطفل مهجور وشعر لأول مرة بأنه موجود في عالم غريب. ثم ألقت بايبه على مجموعة القبور باقة من الزهور.

سلم فالاندر لها نسخة وصية العقيد، لكنها لم تقرأها طوال وجوده عندها.

في اليوم الذي سافر فيه فالاندر هطلَ الثلج على ريغا...

حضرَ العميد مورنيرس بنفسه ليوصله إلى المطار. عند الباب حضنته بايبه وتعلق بعضهما ببعض بقوة، وكأنهما نجوا تواً من سفينة غارقة. وبعدها ذهب فالاندر.

صعد فالاندر السلالم المؤدية إلى الطائرة، فصاح به مورنيرس مودعاً:

«أتمنى لك رحلة سعيدة.»

مكسه

ولوحَ له فالاندر شاكراً، وفكر مع نفسه: «حتى هذا العميد يبدو عليه الفرح لاختفائي من أمامه، وسوف لن يشتاق إليّ أبداً».

دارت طائرة خطوط الآيرو إلى الجهة اليسرى دورة كاملة حول ريغا. ثم وجّـــه الطيار اتجاهه فوق الخليج الفلندي.

ونام فالاندر قبل أن تبلغ الطائرة الارتفاع المنشود، وتدلى رأسه على صدره.

ووصل ستوكهولم في ليلة التاسع عشر من شهر آذار.

وفي صالة الوافدين سمعَ صوتاً ينادي باسمه للحضور إلى مكتب الاستعلامات. فذهب فالاندر إلى الاستعلامات ووجد هناك ظرفاً بانتظاره. وعندما فتحه وجد فيه جوازه الشخصي ومفاتيح سيارته التي وجدها متوقفة في مكان بارز خلف موقف سيارات الأجرة. واستغربَ فالاندر عندما وجد سيارته مغسولة تواً، وعندما صعدَ فيها وجدها دافئة وكأن أحدا كان يجلس فيها منتظرا إياه.

قاد فالاندر سيارته باتجاه مدينته إيستاد في الليلة نفسها.

وقبل الفجر بقليل دخلَ فالاندر شقته في شارع ماريا.

مكسه

الخلاصة

في وقت مبكر في صباح أحد الأيام الأولى من شهر أيار، وعندما كان كورت فالاندر جالساً في مكتبه يملأ إحدى بطاقات الـــ (لوتو) وهو في حالة لا يُحسد عليها من التعب والحزن، طرقَ مارتنسون على باب الغرفة ودخل. كان الجو حينها ما يزال بارداً والربيع لم يأتِ بعد إلى سكونه، لكن فالاندر مع ذلك فتح نافذة غرفته وكأنه يحاولَ أن يُشبِع رغبته في تهوية أو تطرية أفكاره حول اختيار فُرق كرة القدم واحتمالات الفوز بينها. كان صوت أحد البلابل يُغرد على إحدى الأشجار. أخفى كورت فالاندر بطاقة اللوتو ونهض من مكانه ليغلق النافذة، عندما ظهر مارتنسون أمامه لأنه كان يعرف مسبقاً أن مارتنسون يخاف على نفسه كثيراً من الإصابة بالزكام.

«أرجو أني لم أزعجك؟» قال مارتنسون.

منذ عودة كورت فالاندر من ريغا وهو يحاول تجنب زملائه في العمل الذين لاحظ الكثيرون منهم إصابة يده واستغربوا من مزاجه الحزين ونزول وزنه بعد انتهاء إجازته التي كرسها للتمتع بالتزلج على الجليد في جبال الألب. لكن أحداً لم يرغب في أن يسأله بشكل مباشر، وظن الجميع أن الوقت كفيل لمعرفة الأجوبة عن تساؤلاتهم وخروج زميلهم من جو الكآبة والحزن. حتى كورت فالاندر نفسه أدرك أنه يتصرف بطريقة خاطئة تجاه أصدقائه، لكنه في الوقت نفسه لا يدري متى سيتخلص من حالته هذه! ليعود من جديد بين زملائه بشخصية كورت فالاندر القديم المفتش الحازم في قراره والطيب في تعامله الذي اختفى وجوده منذ مدة من مركز شرطة إيستاد. لم يعرف فالاندر بعد

مكتبة

فيما إذا كان سيرثي لحاله ام لا؟ فهو حتى الآن لا يعرف معنىً لوجوده في الحياة. خلال رحلته إلى جبال الألب، التي كانت تغطية لمغامرة عجيبة كشفت له النقاب عن مدى صدقه تجاه نفسه، كما أنه أدركَ بشكل مؤكد أنه ليس من صنف الرجال الذين يمكن أن يخفوا أنفسهم وراء الكذب. غير أنه في الوقت نفسه شعر بأن نقص معلوماته عن أوضاع الدنيا، ربما هو نوع من الكذب.

في كل مرة يدخل شخص إلى مكتب كورت فالاندر يجبره على الشعور بالذنب، بسبب مكابرته وتظاهره بأن كل شيء عنده يسير على ما يرام.

«أبداً أنت لا تزعجني،» رد كورت فالاند على مارتنسون وحاولَ ان يتصرف بشكل طبيعي ومجامل.

جلس مارتنسون في كرسي الضيوف الموجود في غرفة فالاندر الذي لم يكن مريحاً. ثم بدأ بالكلام:

«فكرتُ في أن أتحدثُ لك عن أحداث غريبة، وبالأحرى عنديَ حدثان أو حكايتان وددتُ شرحهما لك، والحقيقة أن كليهما وقعَا في زمن مضى.»

تململ فالاندر من أسلوب مارتنسون الذي يُضيع الحس الفعلي للأحداث أثناء شرحه لها. لكنه لم يقاطعه، بل انتظره ليواصل الحديث.

استمر مارتنسون بالكلام

«هل تتذكر الرجل الذي اتصل بنا وأخبرنا بنبأ قُرب وصول طوافة الإنقاذ لسواحلنا؟ الذي لم يتصل بعدها و لم نعثر من جانبنا على طريق يوصلنا إليه؟»

«إنهما كانا شخصين،» اعترض فالاندر.

هزَ مارتنسون رأسه موافقاً وقال:

«ولكن دعنـــا نبدأ بالشخص الأول، فقد فكرت أنيتا برولن قبل

مكسه

عدة أسابيع أن تُـصدِر أمر إلقاء القبض عليه لاعتدائه بعنف على أحد الأشخاص. ولكنّ خلـو سجله الشخصي من أي تجاوز وعدم ارتكابه لأي جريمة من قبل، حال دون إصدار مثل هذا الأمر وتم إخلاء سبيله.»

بـدأ فالاندر يستمع بتململ، غيرَ أن مارتنسون ما يزال مستمراً بالكلام:

«بطريقة ما وبالصدفة، تمكنتُ من الاطلاع على الأوراق التحقيقية التي كانت مـُلقاة في غرفة سفيدبري والمتعلقة بقضية الاعتداء هذه. وعرفتُ أن هذا الشخص يمتلكُ قارباً لصيد الأسماك اسمه بيرون. حينها رنَ في رأسي جرس إنذار، لأن هذا الشخص الذي اسمه هولمكرين اعتدى على أقرب أصدقائه ياكوبسون الذي كان يعمل معه ضمن طاقم القارب ومنذُ مدة طويلة جداً على القارب نفسه.»

في هذه اللحظة تـذَكـرَ فالاندر تلك الليلة التي قضـاهـا في ميناء برانتـفك، ووجدَ نفسه يستمعُ بانتباه إلى مارتنسون الذي استمر بالكلام: «الغريب أن ياكوبسن لم يقبل أن يسجل دعوة شكوى ضد هولمكرين الذي اعتدى عليه وضربه بشدة أمام الناس وبدون أي سبب!»

«ومَن الذي أبـلـغَ الشرطة بذلك؟» سأله فالاندر باستغراب.

«الذي اتصل بالشرطة كان أحد الأشخاص الذين شاهدوا هولمكرين يهجُم على ياكوبسـون بقضيب معدني يستخدم في القارب في لف بكرة الرافعة. بعدها أمضى ياكوبسون ثلاثة أسابيع في المستشفى لمعالجة الإصابات البليغة التي تَلقاها من هولمكرين، لكنه لم يقبَل أن يقدم شكوى على هولمكرين و لم ينجح سفيدبري في تحديد الدوافع التي كانت وراء ذلك الاعتداء الذي بدأتُ أفكرُ في ربطه بقضية الطوافة. فلو تتذكر معي الآن أنهما لم يُريدا أن يظهرا معاً شاهدين في القضية، وقد احترمنـا

حينها رغبتهما!»

«نعم أتـــذَكرُ ذلك،» قال فالاندر.

«أعتقدُ الآن لو أننا ذهبنـــا معاً وتحدثنـــا مع هولمكرين الذي كان حينها يسكُن في شارعِ مـــاريـــا الذي تسكن أنت فيه!»

«وماذا تقصد بقولكَ كان يسكن؟» سأله فالاندر.

«للأسف، الواقع هكذا، فعندما ذهبتُ لأتحرى عن عنوانه وبجهد شخصي طبعاً، وجدته قد انتقلَ خارجِ السويد تاركاً عنوانه الجديد عند البريد المحلي وظهرَ لي بأنه قد انتقلَ إلى البرتـــغـــــــال. ووجدتُ أيضاً معلومة غريبة عنه في إدارة كنيسة إيستاد تنصُ على أنه غادر السويد مُتحولاً إلى مُهـــاجـِـر إلى منطقة آزيرونه. أمـــا قارب السمك بيرون فقد باعه لشخص دانماركي بسعر يوحي بوضوح بأنه أجرى عملية تصفية لُمقتنياته.»

صمتَ مارتنسون. وتأمله فالاندر بتفكّر، ثم عاد ليتحدَث من جديد:

«هل توافقني بأن هذه حكاية غريبة؟ وهل تعتقد بأن علينا الآن أن نُرسِل هذه المعلومات للشرطة في ريغا؟»

«لا أعتقدُ بأن ذلك ضروري،» رد فالاندر. «ولكني أشكركَ على ما سمعته منك.»

«أنـــا لم انته بعد،» اعترض مارتنســـون. «فالآن جاء دور الحكاية الثانية، لكن في البداية أخبرني هل قرأتَ صحيفة أمس؟»

منذ مدة طويلة لم يقرأ فالاندر الصحف اليومية، إلا في الحالات التي يتولى فيها تحقيقاً يُثـــيـــر اهتمام الصحافة. فهزّ رأسه نافياً اطلاعه على صحيفة أمس، فاستمر مارتنسون بالكلام:

«كان ينبغي عليك أن تقرأها لأنها في الحقيقة تحدثت عن التقـــــاط جمارك مدينة يوتوبوري لإحدى طوافات الإنقاذ التي ظهرَ أخيراً أنها

مكتبة

كانت تعود لسفينة صيد أسماك هي الأخرى روسية. تم الإمساك بها عند منطقة فينكـــــا، حيث كانت الريح يومها راكدة. وقد ادعى بحارة سفينة الأسماك حصول عطل في رفاس الدفع في السفينة، فقاموا بدورة في البحر بحثاً عن ميناء كي يصلحوا فيه عطل سفينتهم وأن هذه الطوافة قد سقطت من السفينة دون أن يشعر بها أحد. ولكن وبمحض الصدفة مر أحد كلاب تفتيش المخدرات بالقرب من الطوافة، وراح ينبح بشكل متـــواصل أثار انتباه الجميع وقرروا فحص محتويات الطوافة، فعثروا على عشرة كيلوغرامات من المنشطات كانت في طريقها إلى مختبرات المخدرات في بولونيا. وهذه ربما تُعطينا دليلاً على أن الطوافة التي عثرنا عليها في ساحل موسبي التي سُرقَت من مركز شرطة إيستاد مؤخراً ربما كانت تحتوي على الشيء نفسه!»

فكرَ فالاندر في أن الحكاية الأخيرة جاءت مثل شتيمة له لأنها ذكرته بغلطته المشؤومة، لكن مارتنسون كان بالطبع على حق عندما حدد بأن الحالة كانت إهمالاً لا يُغتفـَـر. في الوقت نفسه شعـَـرَ كورت فالاندر بأن سرد مارتنسون لهاتين الحكايتين ربما هو مراوغة من جانبه لإغراء فالاندر للتحدَثُ له عما حصَلَ في عطلته الشتوية التي سافرَ فيها إلى منطقة الألب للتمتع برياضة التزلج على الجليد. فردَ عليه:

«ربما أنت على حق، ولكن لماذا برأيك قُتِــلَ الرجلان بعدَ خلعِ سترتيهما؟»

«لا تقُل هذا،» رد مارتنسون ونهضَ من مكانه. «فمن يدري ما سيجلبه نهار الغد من مفاجآت؟ المهم نحن اقتربنا حينها من النهاية...»

هزَ فالاندر رأسه، لكنه لم يقُل شيئاً

وقفَ مارتنسون عند الباب مـُـتهيئاً للذهاب وقال:

«هل تـُـحب أن تعرف رأيي في الموضوع؟ فانطباعي الشخصي البحت حول القَضية هو أن هولمكرين وياكوبسون كانا مـُـهرِّبَين، ولا

أعرفُ بالضبط ماذا كانا يُهربان! المهم أنهما شاهدا طوافة الإنقاذ في عرض البحر، لكنهما لم يُريدا حينها أن يتورطـــا في القضية لسبب مهم هو الابتعاد عن الاقتراب من الشرطة.»

«وهذا يُفسِر ما وقعَ من اعتداء بين هولمكرين وياكوبسون،» قاطعه فالاندر،

«فربما حينها كانا مُتفقين على عدم الاتصال بنا، أو ربما اعتقد هولمكرين بأن ياكوبسون كان في طريقة أن يُفشي سراً ما لنا.....!

«أنت تماماً على حق. ولكننا سوف لن نتوصل لذلك.»

ترك مارتنسون الغرفة، في حين نهضَ فالاندر من مكانه وفتحَ النافذة مرة أخرى. استمر بعدها في ملء المعلومات في بطاقة اللوتو. وبعد مدة قاد سيارته وذهبَ إلى مقهى كان افتُتح حديثاً على الميناء، وطلبَ كوباً من القهوة وراحَ يكتُب رسالة لبايبه ليبه.

لكنه قرأ ما كتبه بعد نصف ساعة ومزّقَ الرسالة.

ثم غادر المقهى وراح يتمشى على الرصيف ورمى قصاصات ورق الرسالة في البحر فراحت تتراقص فوقَ الماء.

فهو لا يعرف ماذا كان عليه أن يكتب لها... لكنه شعر بشوق شديد يجذبه نحوها.

مكتبة

كلمة أخيـــرة

إن التَــغـــيـــُّرات الثورية في دول حوض البلطيق في السنة الأخيرة كانت هي الأساس الذي استندت إليها هذه الرواية. إن كتابة كتاب ذي خلفية وحبكة تقع في بيئة غير مألوفة للكاتب هي بلا شك قضية شائكة. لكن الأكثر تعقيداً عندما يحاول المرء أن يسلك سبيلاً في مشهد سياسي واجتماعي ما يزال غير مستقر. من هذه الصعوبات العملية الدقيقة - هل ما يزال أحد التماثيل المعروفة ماثلاً على قاعدته في يوم معين، أم تم إسقاطهُ أرضاً وإزالته؟ هل ما يزال شارع محدد يحمل الاسم نفسه كما كان في يوم ما من شهر شبـــاط عام ١٩٩١؟- وهناك العديد من المشكلات الجوهرية الأخرى التي من بينها حقيقة أننا لدينا الآن على الأقل إجابة مؤقتة للتطورات المباشرة التي ستحصل في دول البلطيق. لكن ذلك الاعتبار كان لزاماً تنحيته جانباً عند كتابة هذا الكتاب.

إن إعادة بناء الأفكار والمشاعر هي بالتأكيد مهمة الكاتب. لكن بعض المساعدة هنا مطلوبة. فيما يخص هذه الرواية أنا مدين بالشكر الجزيل للعديد من الناس؛ أود أن أتقدم بالشكر إلى شخصين محددين. الأول بالاسم والثاني دون ذكر اسمه. إلى (كونيتس بيريكلافس) الذي كرّسَ نفسه تماماً تحت تصرفي في الشرح وسرد ذكرياتهِ وإبداء الاقتراحات. لقد علمني هذا الرجل الكثير عن أسرار مدينة ريغا. كما أود أيضاً أن أعبر عن شكري للمُـــفتش في قسم الإجرام في ريغا الذي أطلعني بصبر مـــُفرَط على كيفية سير أعمالهِ وأعمال زملائه.

سنستذكر طوال الوقت كيف كانت الحَالة حينئذ، كل شيء كان

مكسه

مختلفاً تماماً، و أكثر غموضا مما هو اليوم. لكن لم يحسم بعد مصير منطقة البلطيق بأي طريقة. حتى الآن ما يزال هناك أعداد كبيرة من الجنود الروس في ضواحي لاتفيا. أما شكل المستقبل في هذه المنطقة فسيكون صراعاً كثيفاً بين القديم والحديث، بين المألوف والمجهول.

بعد الانتهاء من هذا الكتاب ببضعة أشهر، وفي ربيع عام ١٩٩١، حصل انقلاب الخريف في الاتحاد السوفيتي، الحدث الرئيسي الذي سرّعَ في استقلال دول البلطيق. مما لا شك فيه أن هذا الانقلاب (أو احتمال حصوله) كان الجوهر الأساسي لهذه الرواية. لكنني لم أستطع، ربما مثل أي شخص آخر، التنبؤ أن ذلك سيحصل أو كيف سيؤول أمره.

هذه رواية؛ وهذا يعني ربما أنه ليس كل شيء فيها حصل فعلاً أو أنه بدا بالضبط مثلما وصفته في الكتاب. لكن يحتمل أن تكون الأحداث قد حصلت تماماً كما وردت. الخيال الأدبي منح الكاتب الحرية في افتراض وجود خزائن حفظ أغراض الزبائن في المحلات حيث لم يكن شيء من هذا القبيل موجوداً في الواقع، أو أن يوجد قسماً لتسويق الأثاث في الهواء الطلق؛ فهذا يكون ضرورياً أحياناً.

هنينغ مانكل، نيسان عام ١٩٩٢

telegram @ktabpdf

تابعونا على فيسبوك

جديد الكتب والروايات

مكسه

عند الساعة العاشرة صباحاً بقليل بدأ هطول الثلج.

راح الرجل في مقصورة قيادة قارب صيد السمك يلعَن بعد سماعه النشرة الجوية السويدية، لقد تمنى لو أنهم أعلنوها قبل أن تضرب العاصفة. ولولا تأخره ليلة أمس في مدينة هيدنْسة لأمكنه الآن رؤية مدينة إيستاد عن بُعد، وبالتالي لأدار وُجهة سيره بضع درجات نحو الشرق.

السويد شتاء ١٩٩١؛ المفتش كورت فالاندر وفريقه تلقوا بلاغاً مجهول المصدر، وفعلاً بعد أيام قليلة انجرفت طوافة إنقاذ إلى الشاطئ على متنها رجلان يرتديان بدلتين فاخرتين وقد أطلق عليهما النار.

لكن ما بدا أنها قضية سهلة سرعان ما اتخذت مظهرا أكثر إثارة.

«يمكن الحكم على تحقيقات فالاندر بامتياز أنها تخلق مزاجاً مستثاراً من التوتر المتصاعد الذي يفضي إلى ذروة مقنعة»

THE TIMES

«الاختبار الحقيقي للقصص المثيرة من هذا النوع هو فيما إذا كنت ترغب أثناء قراءتها في إمضاء المزيد من الوقت بصحبة المفتش أم لا. أنا بلا شك أرغب بذلك.»

INDEPENDENT

«فالاندر هو من بين أفضل المحققين الخياليين.»

DAILY TELEGRAPH

مكتبة ٣٢٥

دار المنى

مكسه